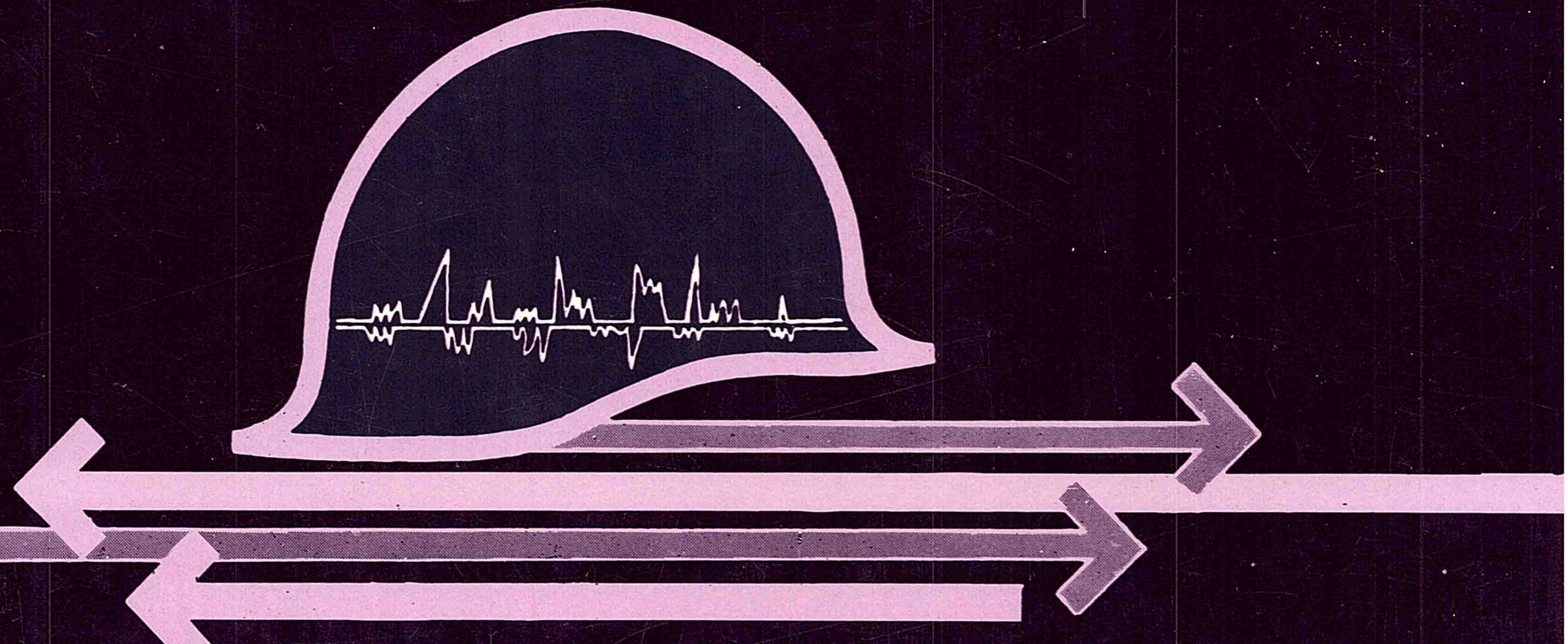
المؤسّسة
العربيّة
للدراسات
والنشر

القرارات المهلكة

تأليف
مجموعة من القادة الألمان



ترجمة : رشيد صالح مراجعة : المقدّم الهيثم الايوبي

القرارات المهلكة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً ـ موكيالي بيروت ـ ص ب ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الأولى ١٩٨٣

القرارات المهلكة

تأليف: مجموعة من القادة الألمان ترجمة: رشيد صالح

مراجعة: المقدم الهيثم الأيوبي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المقدمة

بقلم : س . ل . ا . مارشال
المؤرخ الاول لمسرح الحركات الاوربي

انني إذ اقدم للقراء سبعة من جنرالات الالمان ، كمؤلفين لكتاب جديد مكرس لتحليل الاستراتيجية والتكتيك (التعبية) الرائعة لمجهود هتلر في سبيل قوة عليا ، أرى من الضروري ألا أعرّف القراء بهم وألا أشهد بحقهم بالكلام في امور جدلية كهذه ، اذ ان أسماءهم والسمعة التي أحرزوها بعد مضي احدى عشرة سنة، تعتبر أحسن دليل على مركزهم . وعليه لا يبقى لي سوى التعليق على القيمة الفريدة لمساهمتهم في التاريخ ، فليس هناك كتاب عسكري آخر مثل كتاب « القرارات المهلكة» ، ذلك لانه دراسة مركبة في القيادة ، ومحاولة للتوصل الى الحقيقة من خلال مناقشات أولئك الذين جسدوا القرارات، وتحملوا في النهاية عبء نتائجها . ولو كان هذا الكتاب مجرد سجل آخر للمذكرات العسكرية ، لما خرج عن كونه عذرا مهينا آخر لتبرير الاندحار . الا أن ما لدينا هنا هو نقد موثوق للفشل الذي أحاق بأجرأ عمل عدواني في جميع الأزمان .

ان القادة الالمان تلاميذ أكثر نجابة بكثير من معاصريهم الامريكيين في دراسة التاريخ . وهؤلاء العسكريون المؤلفون السبعة ، يعرفون التقاليد الصارمة لتلك المدرسة أكثر بكثير من الالمان الآخرين . ولقد كانت مساهمة جيش الولايات المتحدة الامريكية في تشجيع كتابة هذا المؤلّف أكثر مما يعيه هذا الجيش بالذات .

ان « القرارات المهلكة » مولود شرعي انحدر من صلب هيئة أركان خاصة ، تألفت من شعبين لتقوم بدراساتها بين الالمان خلال سنتي ١٩٤٦ ـ ١٩٤٨ ، وذلك لاجل أن ننتفع نحن الامريكيين ، من خلال أوثق المعلومات المتعلقة بالتجربة الضالة للآخرين .

لقد قام في البداية الجنرال بودو زمرمان بكتابة التحليل المركزي للدراسة المتعلقة بأخطاء

القيادة العليا ، وذلك بالاشتراك مع فون رونشتت ، وقام بوضع النقد لذلك التحليل كل من فون بتلر وشبيدل ، وقام من جانبنا الرئيس جيمس ف . سكوجن بادارة دفة المشروع ، والتنظيم بهذه الطريقة مجهود متناسق ، ولولاه لكان من الصعب نضوج ذلك التعاون الذي جعل اخراج هذا الكتاب أمرا ممكنا .

كانت مسؤوليتي الرئيسية ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، هي المباشرة بتنظيم سجل للحركات الالمانية ضدنا . وكان هناك مبرران لإعطاء هذه المهمة عناية خالصة : أولهما أنه ليس بالامكان معرفة قصة العدو بغير هذه الطريقة ، طالما ان الالمان هم سجناؤنا وفي حوزتنا القسم الاعظم من سجلاتهم ، وثانيهما ان مستودعنا الخاص بسجلاتنا خاضع لسيطرة كافية من قبل مساعدي العقيد هيوم كول ، وبذلك ضمنّا تسجيلا تاريخيا حاذقا لحركات قواتنا .

لقد كانت أمامنا طريقة واحدة لتحقيق غايتنا ، فمن الواضح انه كان ينبغي جعل أركان العدو وقيادته تعمل معنا ، بالرغم من عدم وجود سابقة لهذا الاجراء . وكان علينا أن نعمل كل شيء ممكن لانعاش معنويات جنرالات العدو ، حتى يعملوا معنا بشوق وكرفاق في مجهود مشترك ، رغم انهم كانوا من الوجهة الفنية تحت الاسر ، ويصاحبهم على الدوام شعور بالارتباك من جراء هذه الحالة المزرية .

إن في مهنة السلاح أمراً يكاد يكون ثابتا ، وهو ان كل شيء جديد لم تكن له سابقة يلقى من المعارضة دائما أكثر مما يلقاه من التأييد . وهذا ما حدث بالنسبة الى قضيتنا هذه ، فعندما اقتُرح هذا المشروع في بادىء الأمر في مجلس هيئة الاركان العامة قوبل بالسخرية ، الامر الذي استدعى التخلي عن الموضوع فترة من الزمن . ولم يدرك الفائدة التي ستُجنى من هذه الفكرة الا ضابطان ، كانا لحسن الحظ في منصبين كبيرين ، وهما : الفريق جون لي ، واللواء هارولد بل . ولولا مساعدتهما واسنادهما لنا ، لضاع الكثير في زوايا التاريخ ودهاليزه .

ورغم تلك المساعدة ، فقد عانى المشروع من العناد المتزمت الذي أبداه الرجال الجالسون وراء مكاتب الاركان الثانوية ، مما أدى الى اغلاقه تماما ، فاستعنا لاجل اطلاق سراحه باللجوء الى أساليب القوة ، واضطررنا الى اختطاف الزمرة الاولى من الجنرالات الالمان لالحاقهم بنا . وكانت تلك الزمرة تعود الى فيلق البانزر السابع والاربعين ، وهو الفيلق الذي جابه فيلق الولايات المتحدة الثامن في الآردين . وتم اختطاف تلك الزمرة من معسكر اوبرورسل . وبعبارة اخرى اننا استعرنا الضباط الألمان لمحادثة تستغرق يوما واحدا ، ثم نقلناهم الى مقرنا الخاص الكائن في شاتو هينيمونت ، من أعمال سان جيرمان ـ ان ـ لاي ، في فرنسا . وكان تعليلنا انه عندما يحين الوقت الذي يعلم فيه مسرح الحركات بفعلتنا ، نكون قد أوجدنا الطريقة ، وامتلكنا دليل الاثبات الذي يبين جدوى عملنا ، وهذا ما حصل فعلا .

انبعث من هذه البداية النسق الجديد في بحث المعركة ، الذي احرج في النهاية جميع

القادة الالمان الكبار الذين كانوا في ايدي الحلفاء الغربيين . وعندما أخذ العمل يزداد اتساعا ، وجدنا تدريجيا ضرورة اتحاد الجنرالات الالمان مع هيئات أركانهم ، حتى يتسنى لنا العمل معهم كمجموعة . ولم يكن ذلك بسبب ان جميع الجنرالات كاذبون بطبيعتهم ، عندما يحين الوقت لشرح معاركهم بالذات ، وانما بسبب ان جميع الرجال ، وبالاخص من كان منهم في منتصف العمر ، لهم ذكريات خادعة . ومَثَلهم في ذلك كمثل فن استعمال لعبة نارية فاشلة ، حيث ان أسوأ عيب في ذاكرة الانسان ، (بالنسبة الى المؤرخ) ، هو انك لا تستطيع التكهن أبدا في أي اتجاه ستنطلق . ولقد عرفت رجالا كانت تستجيب لهم ذاكراتهم على أحسن ما يرام عندما كانوا يقودون قطعاتهم ، بينما كان يبدو عليهم فقدان تلك الموهبة عندما كان يُعطون عملاً من أعمال الاركان ومجموعة جديدة من المسؤوليات . والرجل الذي يتذكر جيدا بعد ثلاثين يوماً ، غالبا ما تخذله ذاكرته بالنسبة لنفس الحوادث بعد بضعة أشهر ، بينما تجد شخصا ثانيا يعتقد في البداية انه لا يستطيع ان يتذكر أي شيء بصورة جيدة ، الا أنه يستعيد تدريجيا الصور المشوشة قليلا . ولقد رأيت الكثير من خداع ذاكرة الرجال عندما يكونون تحت جهد المعركة ، لدرجة جعلتني لا أثق كثيراً بأدب المذكرات .

الا أن الجهل بحقيقة جوهرية من قبل قائد ميداني أمر على جانب كبير من الاختلاف ، طالما ان ذلك لا يمكن الا أن يكشف عن عيب في الشخص نفسه ، أو في الجهاز الذي ينتمي اليه . وفي خلال عملي مع الجنرالات الالمان ، وجدت من المحتمل انهم كانوا يعرفون عن الحركات الفعلية للسرايا والدوريات أكثر مما يعرفه جنرالاتنا نحن ، الا انهم لم يتمكنوا الحكم بوضوح على حركات تشكيلاتهم الأكبر . ولم يكن علمهم بقواتهم يتلاءم مع ما نعتبره نحن مسؤولية سلسلة قيادة منتظمة .

ان نظرة هاسو فون مانتوفل المتأخرة على معركة الاردين ، مضافا اليها كيفية استخدامه لجيش البانزر الخامس (الفصل الختامي من هذا الكتاب) تصح أن تكون مثالا على ما ذهبنا اليه . فلقد رأى مانتوفل بصواب ان باستوني كانت محور المقاومة الامريكية ، الا أن فهمه كان ناقصا ، كما ان تصوره للكيفية التي كانت تعمل فيها فرقة على تلك الارض على جانب كبير من الغموض . فهو لا يعرف ان باستوني كانت في متناول يده ، وانه فشل في أخذها بسبب ان قائد احدى فرقه كان قد رأى شبحا فتراجع في اللحظة الحاسمة . أما الاماكن التي يصفها بأنها كانت « ممسوكة بقوة » مانتوفل ، فقد كانت في الواقع مستورة بفصائل أمامية ناقصة . وعليه فان الخطأ الذي وقع فيه جعله يرى المعركة التي وقعت آنذاك بصورة مغلوطة ايضا . كما ان الافكار الزائفة المستقرة في ذهنه تعتبر مقياسا لسوء ادارة المعركة . الا أن آراءه غير الصائبة هذه تؤلف جزءا من التاريخ ، لا يقل أهمية عن الاحوال الكائنة حقيقة آنذاك ، لانها تشرح احداثا لا يمكن ايجاد تفسير لها بدون القاء الضوء على تلك الآراء .

ان التاريخ العسكري مظلل دائماً الى حد ما ، طالما انه أسير التناقض القائم على أساس

أن كل ما في ذهن القائد هو جزء من الحقيقة التي تؤدي الى النجاح أو الفشل ، رغم ان الذي في ذهنه قد يكون خطأ كليا . فالجنرال دوايت آيزنهاور مثلا كان واثقا ان الالمان كانوا يحاولون الاستيلاء على ليبج ، ولقد تعززت ثقته هذه خلال معركة الآردين بثبات الفرقة الثانية القوي على هضبة ايلسنبورن ، وفشل العدو في الاستيلاء على مونسشو ، مما جعله يولي باستوني اهتماما أقل . ولكن بالمقارنة مع الضمان الممنوح له في حالة الازمات ، لا يبقى ثمة كبير أهمية كون ان الالمان لم يكونوا يحاولون الاستيلاء على ليبج .

لقد ظهر ايضا بنتيجة العمل المشترك الوثيق مع قادة العدو ، ان العالم قد بالغ الى حد ما في تقدير حقيقة اسلوب هيئة الاركان العامة الالمانية . فالتصور الشائع هو ان اسلوب هذه الهيئة عبارة عن عملية تصليب تحول الرجل في النهاية الى آلة مفكرة شديدة التحمل ، وتجرده من عوامل الخوف والتردد والتمارض ونقاط الضعف البشرية الاخرى . الا أن الجنرالات مخلوقات بشرية قبل كل شيء ، وعليه فان أحسن تدريب لاعمال الاركان معروف حتى الآن ، لا يمكن أن يجعله صلبا صلابة المعدن ، أو أن يمنحه ضبطا ذاتيا لا حد له .

لم يكن ثمة اختلاف كبير في العمل بين مجموعات القيادة والاركان الالمانية ومثيلاتها الامريكية . فلقد كانوا تعاونيين الى أقصى حدود التعاون ، كما انهم كانوا أكثر منا ميلا إلى تعرية الزلات الشخصية التي ساهمت في اندحارهم . وهنا أتذكر بصورة خاصة فرتز بايرلن ، الذي كتب الفصل الخاص بمعركة العلمين في هذا الكتاب ، فلقد كان صريحا بدرجة قاسية في تجسيد أخطائه بالذات وكذلك أخطاء الآخرين . وعندما ناقش أخطاءه الحكمية ، بدا عليه أنه مسرور لأنه أخطأ بصورة مجملة .

الا أنه يبتعد عن الشعور بالسعادة وهو يكتب قصته العيانية عن الكيفية التي سار فيها رترفون توما مباشرة وسط نيران المدفعية البريطانية فوق تل الممبسرا لأنه (أي رتر فون توما) كان قد ضاق ذرعا بالحرب وبأخطاء هتلر ونزواته ، وان سبب عدم سروره في هذه الحالة هو ان الجنرالات الالمان لا يفترض فيهم أن يتصرفوا بطريقة فون توما ، ولو ان بايرلن يعرف جيداً ، ولأكثر من سبب ، أن اولئك الجنرالات يفعلون ذلك في بعض الاحيان . وفي أطراف باستوني وجد بايرلن نفسه في حالة مماثلة لحالة فون توما ، وذلك عندما هبطت معنوياته لدرجة انه أرسل من أعماق كهف ما تقريرا بيّن فيه ان فرقته قد اوقفت ولم يعد لها أمل في استئناف التقدم . وبذلك ارتكب بايرلن شططا كبيرا اضطر معه هتلر الى تبديل خطته للتعرض في الآردين .

وعليه فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : أليس من الممكن أن يكون للغز اختفاء غونتر فون كلوغ مدة يومين ، والذي أدى الى انتحاره ، تفسير بسيط من النوع الذي ذكر أعلاه ؟ . ان ما حدث لرئيس أركان الجبهة الغربية سيبقى واحدا من أغرب ألغاز الحرب . وفي تسجيله لوقائع معركة نورماندي الدفاعية ، يقطع بودو زمرمان جزءا من الطريق الموصل الى

حقيقة قصة فون كلوغ ، ونراه يتكلم عنها بمنتهى العطف . فلقد ربطت الشائعات كلا من كلوغ ورومل بمؤامرة قنبلة تموز[1] كتفسير للنهاية التي اختارها كل منهما بمحض ارادته . الا أن زمرمان ينفي هذه الشائعة ويقول : « انني واثق تماما أنه لم تكن لهما علاقة بالمؤامرة » .

ان كل ما هو معروف بصورة قاطعة ، هو انه عندما وصلت أزمة التراجع الالماني عبر فرنسا ذروتها ، اختفى كلوغ عن الانظار مدة يومين ،وانه عندما ظهر ثانية أُعفي من منصبه . وبعد ذلك بقليل تناول سايانيد البوتاسيوم . ويقول زمرمان ان كلوغ ذهب الى داخل جيب فاليز ليدبر استسلاما الى الجنرال باتون . ثم يقول ان هذه التهمة التي أُلصقت بكلوغ جاءت نتيجة التقاط القيادة العامة لرسالة لاسلكية صادرة من كلوغ الى باتون . . ان هذه الشائعة الاخيرة كانت ولا تزال مقبولة لدى الالمان .

عندما التحق بي الجنرالات الالمان في صيف عام ١٩٤٥ ، كانت اولى أسئلتهم عن كلوغ ، والظاهر ان الموضوع كان مبعث لهفة شديدة عندهم . « أين ذهب ، ومتى حاول الاستسلام ؟ ومع من تفاوض ؟ ولماذا فشل في التفاوض ؟ » . ولم يجدوا جوابا على أسئلتهم سوى الدهشة المطلقة من جانبنا . وسبب الدهشة هو ان حادثة كهذه لم تقع مطلقا ، ولم يتصل بنا أي ضابط الماني ذي رتبة عالية بشأن الاستسلام حتى نهاية الحرب . وفيما بعد ، ولمجرد التأكد ، طرحنا السؤال أولاً على هيئة أركان المقر الاعلى لقوات الحملة التابعة للحلفاء (SHAEF)[2]ومن ثم على هيئة الاركان العامة للجيش الثالث ، الا أن الجواب في كلتا الحالتين جاء مؤيدا لرأينا ، وأن كلوغ لم يقم ابدا بأية محاولة من هذا النوع. وهكذا لم تكن القصة في أساسها أكثر من تخيلات .

لعل كلوغ قد انحرف عن طريقه « بسبب جندي عادي ، أو طفل ، أو فتاة في مدخل مطعم » . وهو أمر ، كما قال بيورك ، قد يبدل وجه الحظ والى حدٍ ما وجه الطبيعة . الا أن الظروف بمجموعها كما يبينها زمرمان الآن تبعث على الاعتقاد ان الالتقاط اللاسلكي للرسالة لم يكن الا خدعة دبرتها دوائر هتلر ، لتبرر تدمير عبقري قديم أصبح الآن جنديا مترددا .

لقد قيل الكثير عن نفوذ هتلر السيىء ، في هذا النقاش والتحليل المتباين لمعارك المانيا النازية الخاسرة . وقد يبدو لاولئك الذين يقرأون على عجل ، ان جنرالات ومارشالات هتلر كانوا أساتذة معصومين عن الخطأ في الفن العسكري ، وانهم ما مرغوا في التراب أخيرا الا بسبب تدخله السخيف في امور يجهلها . ولكن دع اولئك القراء المسرعين يعيدون القراءة من جديد وبصورة أكثر تمعناً هذه المرة !

---

(١) هي المؤامرة التي أُريد بها اغتيال هتلر .

(٢) مختصر التسمية : Supreme Headquarters Allied Expeditionary Forces.

لم يتسلط هتلر في المؤتمر العسكري ، في السراء والضراء ، الا بسبب مناصرته من قبل عدد كاف من الضباط الأكفاء الذين كانوا يسندون أحكامه وقراراته . كما ان هتلر لم يقدم على أكثر المقامرات اليائسة بشكل يتعارض مع الرأي الموحد لقادته العسكريين فالكثيرون من قادته تابعوا ترديد وجهة نظره حتى النهاية . وحتى اولئك الذين تجرأوا في بعض الاوقات على مناقشة تقديراته البديهية ، فقد قطعوا معه الشوط بكامله طالما كانت هناك أية فرصة للنجاح . وليس في هذا الكتاب شخصية تبعث على القشعريرة أكثر من كورت زيتزلر ، رئيس هيئة الاركان العامة إبان احتدام معركة ستالينغراد . . انه يكتب هنا عن تلك المعركة ، ونظرا لكونه لم يكن على أرض المعركة نفسها ، فان مجمل قصته تتعلق بمعركته مع القيادة العليا . وكان قد اتخذ في هذه المعركة موقف المعارض . فلقد كره زيتزلر ما كان هتلر يفعله بربع مليون رجل في ستالينغراد . الا انه ، وهو الذي تكيف عبر السنين مع مذهب عسكري ، بدلا من أن يقول « انني لن أشارك في جريمة كهذه » نراه يتصافى ويتعقب طريقا ضالا ، ويبقى في منصبه كرئيس لهيئة الاركان العامة ، ولربما انه قال لنفسه ان لا فائدة تُرتجى من موقف سيؤدي الى الطرد . وعلى كل حال فان موقفا كهذا ليبدو ، من بعض وجهات النظر ، غير سديد .

ان الشيء القيم في أي كتاب ، يعتمد بالدرجة الاولى على ما يبحث عنه المرء . ويبدو لي ان الطبيعة الغريبة للعلاقات البشرية ضمن صرح القيادة النازية ، والتي يكشف عنها هذا الكتاب بوضوح لاول مرة ، لهي أشد وقعا وأبعد سحرا من التحليل خطوة فخطوة لتلك القرارات المهلكة ، التي أدت الى القضاء على الهتلرية ، حيث ان النهاية المميتة كانت محتومة ، طالما ان تجاوز القدرة يعتبر خطأ ملازما للآلة . ومنذ شهر حزيران عام ١٩٤٠ ، كان واضحا بدرجة كافية ان آلة هتلر الحربية تعاني قصورا حرجا في مدفعية الحصار ، والنقل الآلي ، وعربات التموين المجنزرة (المسرفة) ، والوحدة القيادية ، وأخيرا في احترام عزيمة القتال للشعوب الاخرى . وكان عليها أن تدفع في الوقت المناسب ثمن خطئها كاملا . ولكن الاسئلة التي بقيت عالقة هي : كيف ومتى وأين ؟

ان معارك : بريطانيا[1] ، والعلمين ، وستالينغراد ، وموسكو ، ونورماندي ، والآردين ، كانت كلها اندحارات المانيَّة كبرى ، لعب فيها اولئك الذين هبوا لمقاومة هتلر دورا أصغر مما لعبته الخطيئة النموذجية للمعتدي ، ألا وهي حتمية الاسراف في التوسع . اذ ان التهام لقمة أكبر مما يستطيع المرء مضغه على مائدة الطعام ، تؤدي فقط الى غصة . أما في ميدان المعركة ، فان ذلك يعتبر بمثابة الطريق المستقيم نحو الكارثة . وذلك هو عين ما تتعلمه سرايانا ووحداتنا ، عند كل مناسبة تحاول فيها أن تغطي أرضا واسعة جدا بعدد قليل جدا من الرجال .

---

(١) ليس المقصود هنا المعارك التي خاضتها بريطانيا بل المعركة الجوية الهائلة فوق القنال البريطاني والجزر البريطانية والتي أدت في النهاية الى انتقال السيادة الجوية الى يد الحلفاء المترجم

يعتبر التوسع الزائد في التكتيكات العسكرية (التعبية) زلة صغيرة فقط ، أما في الاستراتيجية (السوق) فهو أمر لا يغتفر . وعليه فانني من أجل التأكيد اكرر الآن ما سبق أن ذكرته فأقول ، ان أية دولة أو منظومة سياسية منكبة على تبجيل أو تعظيم نفسها ، مهما كان الثمن الذي يدفعه الآخرون ، تكون المجازفة في التوسع البعيد جدا بالنسبة إليها داء مزمناً لا علاج له . وعليه لا بد لي من التعليق قائلا ان اصدقائي الالمان ينظرون الى النتيجة ويخطئون باعتبارها هي السبب . وهذا ايضا يقع في الجانب الحسن من المشكلة ، طالما ان عدم استيعاب الدرس يضطر المحاضر الى اعادته من جديد . . ان الفكرة الوحيدة التي تبعث على الارتياح بخصوص العدوان ، هو انه يولد دائما سمه الخاص . ان هذه الفكرة ستبقى صحيحة طالما ان أصحاب النوايا الحسنة يسارعون دائما الى مقارعة العدوان .

١ـ عام القدر (١٩٣٩ ـ ١٩٤٠)

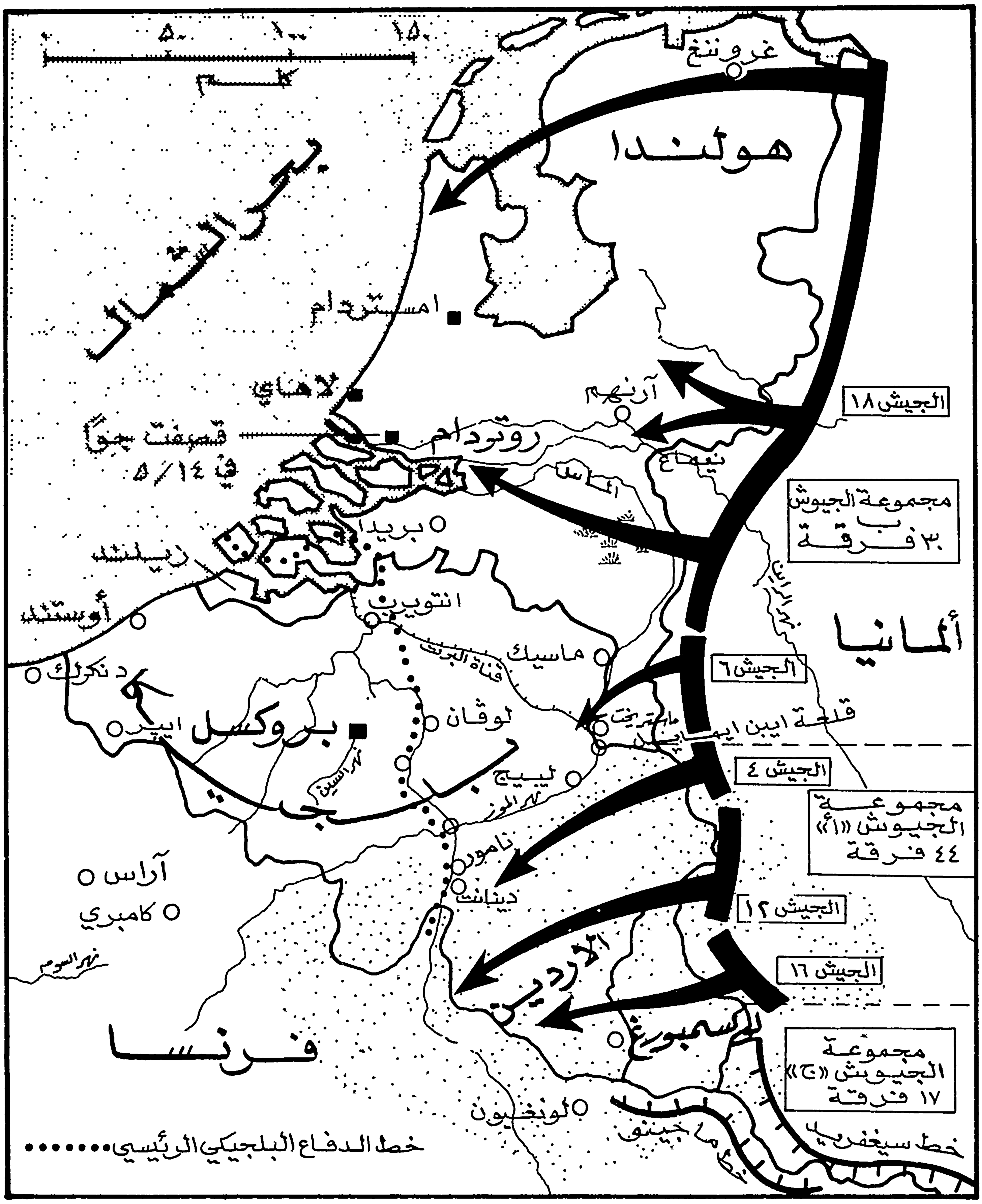
بقلم : سيغفريد ويستفال[1]

كلنا نتذكر بصورة جيدة ذلك الصدام الاول الذي نتج عنه الانفجار الذي يسمى الآن بالحرب العالمية الثانية . لقد كان فتيل ذلك الانفجار هو المشكلة الالمانية ـ البولونية حول مسألة الممر ، (اقتطع الجانب الشرقي من بروسيا من بقية المانيا بموجب شروط معاهدة فرساي) ، مضافا اليها مطالبة الالمان الملحة حول انضمام المدينة الحرة ، دانزغ . ابتدأت المشكلة بالظهور في نيسان عام ١٩٣٩ ، عندما مزقت الحكومة الالمانية معاهدة عدم الاعتداء المعقودة بينها وبين بولونيا قبل خمس سنوات . وبانتهاء ذلك العام أخذت النار تقترب من البارود ، فلقد كان من الواضح ان هتلر لم يكن راغبا في حل يتضمن بعض التنازلات ، كما ان موقف البولونيين ، كما هو معلوم الآن ، قد ساهم بتعقيد الموقف في النصف الثاني من شهر آب .

لم يكن لدى الالمان سوى خطة واحدة للحركات في حالة اندلاع الحرب ، وذلك في الفترة الواقعة بين احتلال أراضي السوديت وربيع عام ١٩٣٩ . وكانت هذه الخطة تستند على افتراض ان الفرنسيين سيقومون بالهجوم على المانيا . لذا كانت الخطة ترتأي ، بصورة مشددة ، اتخاذ تدابير دفاعية في كلا جانبي الحدود الغربية والحدود المتاخمة في نفس الوقت . وعليه فقد كان القسم الاكبر من الجيش البري جاهزا للحركة ، ولو انه كان في ذلك الوقت في مناطق تحشده. وفي عام ١٩٣٩ أمر هتلر باتخاذ الترتيبات اللازمة لاعداد الصنوف المحاربة الثلاث (الجيش والبحرية والقوة الجوية) وتهيئة خطة الهجوم على بولونيا بأسرع وقت ممكن ، وذلك في حالة عدم التوصل الى حل معقول مع بولونيا بالطرق السلمية . ولقد أعطيت هذه الخطة اسماً رمزياً هو (الخطة البيضاء) . أما سابقتها ، وهي الخطة الدفاعية ، فقد اعطي لها اسماً رمزياً هو

---

(١) كان أمير اللواء ويستفال ضابط الأركان الأول لرئيس أركان الجبهة الغربية ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ .



معركة الآردين ١٩٤٠

(الخطة الحمراء) . وكانت الاولى (الخطة البيضاء) ، تتضمن استخدام كتلتي المشاة والقوة الجوية ضد بولونيا ، بينما يتم الاحتفاظ بالحد الادنى من القطعات على الحدود الغربية . ولقد افترض هتلر ان فرنسا وبريطانيا لن تتدخلا في الحرب ، بالرغم من موقفهما المؤيد لبولونيا . وشجعه على تبني هذه الفكرة نجاحه في عقد اتفاقية عدم الاعتداء مع ستالين في ٢٣ آب ، والتي كان من المقرر أن يتبعها تقسيم بولونيا للمرة الرابعة .

ابتدأت الاستعدادات العسكرية لغزو بولونيا عام ١٩٣٩ ، وتم ارسال عدد من الفرق النظامية الى القاطع الشرقي من الحدود . حيث جرت عملية حفر المواضع واعداد دفاعات الميدان . وكان يوم ٢٥ آب هو موعد الهجوم الاصلي الذي ألغي من قبل هتلر في اللحظة الاخيرة . ولم نستطع تلافي الهجوم في ذلك اليوم الا بصعوبة كبيرة ، تمكنا بعدها من ايقاف الارتال المتقدمة نحو أهدافها باتجاه الحدود . ولقد ترك هذا الحادث شعورا عاما بالانفراج ، وتسرب هذا الشعور الى قادة الجيش ايضا ، ظنا منا اننا قد تمكنا من تلافي وقوع الحرب في اللحظة الاخيرة مرة اخرى . ولكن ذلك الشعور بالانفراج كان سابقا لاوانه ، وذهبت جميع الامنيات بتجنب الحرب هباءً ، ففي يوم ٣١ آب صدرت الاوامر بالتقدم مرة ثانية . وفي هذه المرة لم تلغ في اللحظة الأخيرة . وفي صباح الأول من أيلول ، وفي الساعة ٠٥,٤٥ تقدمت ٤٤ فرقة نظامية كانت من ضمنها جميع تشكيلاتنا الآلية والسيارة عبر الحدود الالمانية ـ البولونية ، وكان هدفها تدمير القطعات البولونية المسلحة .

تلقى الشعب الالماني خبر اندلاع الحرب ببرود . ولم يكن هناك أي أثر للاستحسان كما كان الحال في عام ١٩١٤ . وبكل هدوء ، أطاع الرجال الذين كانوا في سن الخدمة أوامر النفير العام ، والتحقوا بمراكز تدريبهم . وكان الامر يبدو وكأن البلد كله ، رجالا ونساء ، جنودا ومدنيين ، يدرك الطبيعة المهلكة لهذه البداية . ويبدو ان هتلر وغورنغ شعرا ايضا انهما قد أقدما على عمل خطير ، وتجاوزا الحد الفاصل بين السلم والحرب باتخاذهما ذلك القرار الخطير . ففي خطاب له في الرايخشتاغ في ١ أيلول ، أقسم هتلر انه سيعود الى الوطن منتصرا أو لا يعود اطلاقا . وعندما علم غورنغ في ٣ أيلول ان بريطانيا وفرنسا قد أعلنتا الحرب قال : « اللهم خذ بيدنا ان تحتم علينا أن نخسر هذه الحرب » .

وابتدأت الحملة على بولونيا بنصر بعد آخر . وقاتل الجيش البولوني بشجاعة ، الا أنه لم يكن ندا للجيش الالماني ، في السلاح أو التدريب أو القيادة . ولذلك فقد اندحر في الميدان خلال ثلاثة أسابيع ، فقُتل من قُتل ، ووقع الباقون اسرى بأيدي الالمان . ومن نجا من البولونيين وقع أسيرا بيد الروس ، الذين شقوا طريقهم داخل الاراضي البولونية ، حتى وصلوا إلى الخط الفاصل الذي رسمه ريبنتروب مع الروس في موسكو ، وهكذا أزيلت الدولة البولونية من الوجود مرة اخرى كبلد مستقل ، وجرى تقسيمها بين المانيا والاتحاد السوفييتي ، وسمي

القسم الغربي من بولونيا عندئذ ، وهو الواقع تحت سيطرة الالمان ، « بالحكومة العامة » وجرى تنصيب حاكم الماني داخل قلعة كراكو التي كان يعتبرها البولونيون رمزا وطنيا .

وإثر اندحار بولونيا بوشر بنقل الفرق الالمانية نحو الغرب ، وبالرغم من الدعاية التي راجت آنذاك ، فان الجدار الغربي أو خط سيغفريد، كما كان معروفا في الخارج ، لم يكن قد انتهى بعد ، كما انه كان أضعف من أن يعتبر « صعب الاجتياز » . وفي خلال الحملة البولونية كان هذا الخط ممسوكاً من قبل ٣٥ فرقة المانية فقط كانت معظمها رديئة التدريب ومؤلفة من الاحتياط أو وحدات الدفاع الداخلي . أما الجيش الفرنسي ، فكان يتألف من ٦٥ فرقة عاملة و ٤٥ فرقة احتياطية . وعليه فلو ان هذا الجيش قام بهجوم عام على جبهة واسعة ضد قوات الامن الالمانية التي كانت تحرس الحدود (سميت قطعات أمن لان من الصعب تسميتها بغير ذلك) في ذلك الحين ، فانني لا أشك بمقدرتها على اختراق الجبهة والاندفاع الى الداخل ، وخاصة في خلال الايام العشرة الاولى من شهر أيلول . وان هجوما كهذا ، لو تم قبل امكانية جلب عناصر جيدة من الجيش الالماني عبر الحدود من بولونيا ، لكانت النتيجة وصول الفرنسيين الى نهر الراين بأقل مجهود ، وربما كان في استطاعتهم عبور النهر ايضا . وعليه فان النتائج المترتبة كانت سترسم طريقا آخر لمجرى الحرب يختلف تمام الاختلاف . ولكن لشدة دهشة الضباط الالمان ، فان الفرنسيين الذين لم نشك بمعرفتهم بضعفنا المؤقت ، لم يقوموا بعمل أي شيء عدا بعض الاشتباكات في النقاط الامامية في قطاع ساربروكن وفي منطقة بيرل في جنوب ترير ، حيث تلتقي حدود كل من المانيا وفرنسا ولكسمبورغ . أما باقي الجبهة ، وخصوصا على امتداد الراين الاعلى ، فكان كل شيء هادئاً ، ولم تطلق اطلاقة واحدة من كلا جانبي الحدود خلال أسابيع عديدة . وكان بامكان العمال المدنيين الاستمرار في بناء التحصينات خلف الحدود مباشرة ليلا ونهارا . ولقد استمرت هذه الحالة ، حتى بعد أن اجتمعت جميع الفرق الالمانية تقريبا في الغرب . وهكذا أثبت هتلر انه كان مصيبا بتأكيده ان الفرنسيين لن يستثمروا الفرصة الذهبية . وفعلا فان الفرنسيين بفشلهم في استغلال موقف المانيا الدقيق بشن هجوم فوري قد فوتوا على أنفسهم الفرصة الذهبية التي سنحت لهم لإيقاع الهزيمة الشنيعة بالمانيا الهتلرية، لذا ظهر أن المرحلة الثانية من المعركة ستكون الاطاحة بفرنسا في أقرب فرصة مناسبة . وفي ضوء هذا الهدف ، تغير نظام المعركة للجيش الالماني بكامله . وبدلا من ثلاثة جيوش فقد تجمعت الآن ثمانية جيوش في الغرب . أما وحدات الدفاع المحلي القاصرة التي كانت على الحدود ، في الجدار الغربي ، فقد استبدلت بفرق فعالة أكملت تدريبها في ميدان المعركة في بولونيا .

أخذ ظل الحرب يخيم منذ أواخر أيلول على جميع أقاليم المانيا التي اعتُبرت منطقة حرب داخلية . وصدرت الاوامر بطلاء أنوار جميع البيوت ووسائط النقل في تلك الأقاليم باللون الاسود . وفي شتاء ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ ، تساقطت القنابل بفترات متقطعة وجرى تقنين الارزاق بصورة تامة كما جرى تقنين جميع المواد الاولية ، وأصبح من غير الممكن الحصول على الارزاق

الا بواسطة بطاقات التموين أو بتصريح آخر . واستمرت عملية التحشد بدون انقطاع ، وسمحت دعوة المجندين الاحتياطيين بتوسيع الجيش في الغرب ، حتى أصبح المجموع في ربيع عام ١٩٤٠ (١٣٦) فرقة .

لقد رغب هتلر في أن يبدأ الهجوم في ١٢ تشرين الثاني عام ١٩٣٩ ، الا أن رئيس أركان الجيش لم يوافق على ذلك بسبب الاحوال الجوية ، ولعدم قدرة الجيش على شن هجوم واسع النطاق بصورة كافية . وكان هذا الرفض سببا في اثارة الجدل بين هتلر ورئيس الاركان . ولم ينته ذلك الجدل الا عندما تدخل براوخيتش واقنع هتلر بسحب أمر الهجوم .

كانت الخطة الاصلية للهجوم عبارة عن نسخة أكثر قوة ومتانة من صورة الخطة التي استخدمت في ١٩١٤ . وهي تنص على القاء المجهود الاساسي على كاهل الجناح الايمن من جحافل الجيوش الالمانية ، التي كان عليها أن تتقدم عبر هولندا وبلجيكا ، الا أن هذه الخطة أُهملت في شباط عام ١٩٤٠ ، وأُعطيت الافضلية الى « خطة مانشتاين » ، التي ألقت واجب المجهود الاساسي على القسم المركزي .

وحُدد في ذلك الشتاء إثنا عشر موعدا للهجوم ، الا أن جميعها أُلغيت في اللحظة الاخيرة بسبب رداءة الأحوال الجوية ، التي كان فيها الشتاء قارس البرد بصورة استثنائية . وأخيراً، وفي العاشر من أيار في الساعة ٥,٤٥ تحركت الجيوش الغربية التي أكملت تدريبها الى أعلى مستوى ، وقامت بهجوم كبير على طول الجبهة الممتدة بين امدن،وكارلسروه. أما الخطة التي طبقت في هذا الهجوم فهي خطة مانشتاين .

تطورت الحركات بسرعة وبنجاح أكثر مما كنا نتوقع ، حيث ان الجيش الهولندي أُجبر على القاء سلاحه في ١٤ نيسان . وبعد اسبوعين من ذلك التاريخ استسلمت القوات البلجيكية ، وأُجبرت على اللحاق بمليكها ليوبولد الثالث الى الاسر . ودفع اندحار القوات البلجيكية قوات الحملة البريطانية الى السواحل، حيث وجدت نفسها في موضع مكشوف لم تنج منه الا بقرار من هتلر الذي أوقف تقدم الجيوش الالمانية من ناحيتي الشمال والجنوب بغية اكمال عملية تطويق قوة الحملة البريطانية . وكان هذا القرار بناء على اقتراح من غورنغ ، الذي طلب الاكتفاء باستخدام سلاح الطيران لقصف البريطانيين المجمّعين على الشاطىء. الا أن سلاح الطيران الالماني لم يكن قادراً على ايقاف عملية إجلاء القوات البريطانية التي ساعدها سوء الاحوال الجوية . وبحلول الرابع من حزيران ، تمكن البريطانيون من إجلاء القسم الاكبر من الفرق البريطانية التي حاربت بكل شجاعةواقدام ،ورحلت معها قوات فرنسيةوبلجيكية تعادل أكثر من ضعفها .

وقامت أجهزة الدعاية الالمانية آنذاك بتصوير معركة دنكرك على انها اندحاربريطاني.وكان البريطانيون قد خسروا ولا شك جميع معداتهم ، الا أنهم تمكنوا من انقاذ قطعاتهم التي ساهمت

فيما بعد بتجهيز ملاكات الجيوش ، التي تمكنت أخيرا من دحر الالمان في افريقيا وايطاليا وفي الغرب ايضا .

ورجوعا الى تسلسل الحوادث ، نذكر ان الجيوش الالمانية قد عبرت السين في هذا الوقت ، أي في ٥ حزيران ، وفي ١٤ منه أُعلنت باريس مدينة مفتوحة وتم احتلالها من قبل الالمان . وكانت طلائع الالمان تقترب من نهر اللوار . وفي ١٧ حزيران ، اضطر رئيس الوزراء الفرنسي الماريشال بيتان الى طلب شروط اعلان الهدنة ، الا أن هذه الشروط لم تسلم الا بعد أن بلغ الجيش الالماني سواحل الاطلسي ، ومنذ ١٠ حزيران دخل الايطاليون الحرب . وأخيرا تم توقيع الهدنة في غابة كومبيين في نفس المكان الذي تم فيه توقيع الهدنة في عام ١٩١٨[١] .

استمرت الحملة مدة ٤٤ يوما ، تمكنت الجيوش الالمانية في خلالها من دحر جيوش فرنسا وبلجيكا وهولندا ، واحتلت معظم الاراضي الفرنسية ، ولم يبق الا عدو واحد لم يتم القضاء عليه ألا وهو انكلترا . وان هذا الخطأ الذي تطرقت اليه الآن سيكلفنا كثيرا وكثيرا جدا . ومن الجدير بالذكر أن نبين هنا انه قبل بدء الحملة في الغرب، كانت هنالك حركة جريئة اخرى تأخذ مجراها بنجاح ألا وهي احتلال الدانمارك والنرويج . اذ ان المانيا كانت تستورد ، لوقت طويل ، القسم الاكبر من الحديد الخام من السويد عن طريق النرويج ، وكان هذا المعدن ولا شك ذا أهمية حيوية لمجهود المانيا الحربي . لذا كان من المهم ضمان بقاء هذا الطريق مفتوحا باستمرار . وفي الوقت نفسه ، كان من المهم ايضا بالنسبة الى بريطانيا أن تسعى لقطع هذا الطريق الحيوي ، ونحن نعلم الآن ان القرار الذي اتخذ بناء على هذه الأهمية (احتلال النرويج) كان قد تم في آن واحد في كل من بريطانيا والمانيا . وهذا يعني خرق حياد الدول الاسكندنافية في كلتا الحالتين ،واتُخذت الترتيبات لذلك في شتاء ١٩٣٩ - ١٩٤٠ ، أي خلال فترة هجوم الاتحاد السوفييتي على فنلندا ، التي قاتلت بكل شجاعة ومهارة .

لقد كان هتلر أسرع من خصومه . ففي ٩ نيسان نزلت قطعاته في جميع الموانىء النرويجية المهمة[٢] من اوسلو الى نارفك . ولم تمض الا خمسة أيام حتى القيت القطعات البريطانية

---

(١) تم توقيع الهدنة في نفس عربة الماريشال الفرنسي (فوش) التي بقيت في نفس تلك البقعة مدة ٢٢ سنة وهي محفوظة داخل غرفة زجاجية . ولقد حضر كل من هتلر وغورنغ وريبنتروب وهيس وكايتل وبراوخيتش ورايدر عن الجانب الالماني ، والجنرال هونتزيغر وجنرال الجو بيرجوري والفايس ادميرال لي لولوك و م . نوويل (السفير الفرنسي لدى بولندا) عن الجانب الفرنسي .

(المترجم)

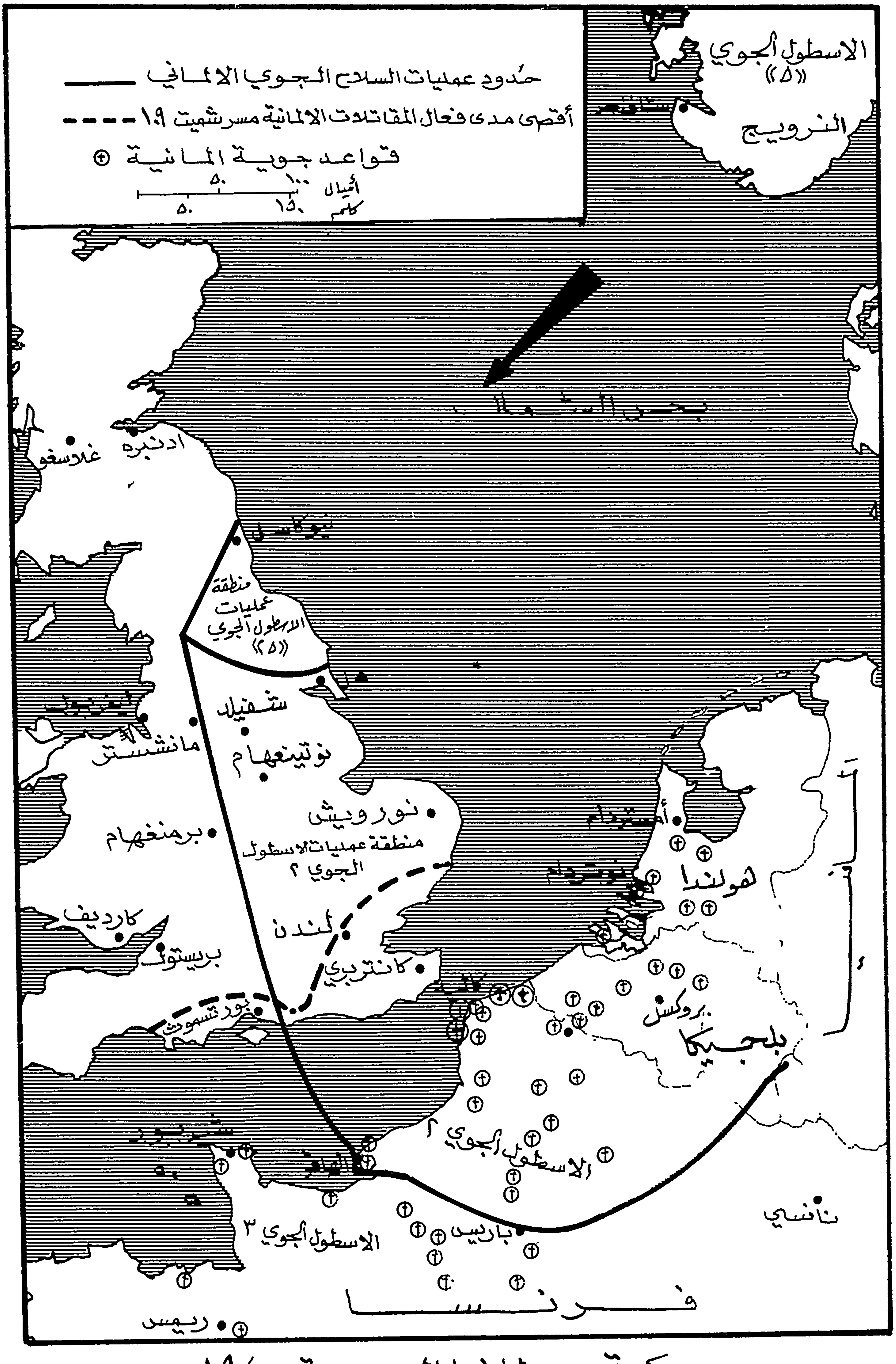
(٢) تم نقل الجنود الالمان بواسطة السفن التجارية التي كانت تبحر ضمن المياه الاقليمية للدول الاسكندنافية تحت سمع وبصر البوارج الحربية البريطانية ، وتسللت الى الموانىء المذكورة أعلاه خلسة في أثناء الليل ، واحتلتها بعملية أشبه بغزوات القراصنة « عن كتاب يوميات برلين للصحفي الامريكي وليم شيرر » .

(المترجم)

والفرنسية على سواحل نامسوز واندالسنرنز . وامتنعت الدانيمارك عن القيام بأية مقاومة لا قيمة لها لذلك تم احتلالها بدون أي سفك للدماء . الا أن النرويجيين من الناحية الأخرى قاتلوا بضراوة تحت قيادة مليكهم المسن . وتكبد الأسطول الالماني من جراء ذلك خسائر جسيمة وبصورة خاصة بالطرادات والمدمرات . وفي نهاية شهر أيار أصبح الموقف في نارفك حرجاً جداً ، حتى ان هتلر فكر آنذاك بايقاف الحركات في شمال النرويج . الا أن القطعات الجبلية الالمانية تشبثت في هذه الأثناء بمواقعها ، وتابعت القتال بشجاعة حتى توقفت النرويج عن القتال في ٨ حزيران ، وانسحبت قوات الحلفاء البرمائية .

أصبحت الآن جميع سواحل الاطلسي الممتدة من نارفك حتى ملتقى الحدود الفرنسية الاسبانية بيد الالمان وامتدت امبراطورية هتلر من برسبت في الغرب الى أطراف برست ليتوفسك في الشرق وكان ذلك قمة مجده حيث اندحر جميع أعدائه السابقين ما عدا بريطانيا .

لقد ابتدأ الكفاح الآن في سبيل ازاحة تلك العقبة وكانت فاتحة هذا الكفاح ما يسمى الآن بمعركة بريطانيا . تلك المعركة الجوية العظمى التي ستكون عنوانا للفصل القادم من هذا الكتاب ، ولقد كان على سلاح الطيران الالماني أن يقوم الآن بما قامت به الغواصات ، التي لم تفلح بالرغم من نجاحاتها النسبية ، وذلك بسبب نقاط الضعف العديدة . أما علامات الاستفهام المتعلقة بقرار غزو الجزر البريطانية والاسباب التي أدت الى ترك الخطة المقررة (خطة الانزال) ، فسيجري ايضاحها ومناقشتها في الصفحات القادمة .



محركة بريطانيا الجوية ١٩٤٠

الأول

١ - معركة بريطانيا

بقلم : جنرال القوة الجوية
فيرنر كريب

خدم فيرنر كريب في وحدة القاذفات (كي جي٢) من كانون الاول ١٩٣٩ حتى حزيران ١٩٤٠ ، حيث عُين بمنصب رئيس شعبة العمليات للاسطول الجوي الثالث . وشغل بعد ذلك مناصب أركان أخرى في الجبهة الغربية وفي روسيا ، وحاز خلالها على عدة ترقيات بسرعة ، وعين رئيساً لهيئة أركان القوة الجوية الالمانية عام ١٩٤٤ . وهو يبلغ الآن (تاريخ تأليف الكتاب) الواحدة والخمسين من العمر .

ان التاريخ الذي يجب أن أنسب اليه ابتداء أو افتتاح معركة بريطانيا ـ أو ربما البداية التي سبقت المعركة ـ هو ٢٨ أيار ١٩٤٠ . ففي يوم ٢٧ أيار ، كان الجحفل الثالث من جناح القاذفات الثاني عائدا من احدى غاراته الهجومية على بقايا الجيش الفرنسي المنهزمة بدون نظام ، بعد أن تسلل قسم من طائرات الجحفل بعيدا في القسمين المركزي والجنوبي من فرنسا دون أن يلقى أي تدخل من القوة الجوية الفرنسيةالتي أصبحت من الناحية العملية لا وجود لها . ولدى وصول ذلك الجحفل في تلك الامسية (مساء ٢٧ أيار) الى مطاره في روكروا قرب الحدود الفرنسيةالبلجيكية بدون أية خسائر ، وجد آمر الجحفل أوامر جديدة في انتظاره . « غدا سيكون هدفه قوة الحملةالبريطانية التي كانت متجمعة في دنكرك خلال المرحلة الاولى من عملية الإخلاء ، أما عدوه فسيكون القوة الجوية الملكية » .

أقلع الجحفل في صباح اليوم التالي بكامل قوته البالغة ٢٧ طائرة ، وطار باتجاه الشمال على ارتفاع ١١ ألف قدم ، وكان هذا الارتفاع تحت مستوى الغيوم بقليل ، ومن هذا الارتفاع الشاهق ، ألقى ملاحو الطائرات نظرة على دنكرك التي كانت فريسة لالسنة النيران ، أما السواحل فكانت في ذلك الوقت مزدحمة بالجنود والخيول والعربات على اختلاف انـواعها

والتجهيزات المختلفة ، وقبل أن تتمكن قاذفات الدورنيير من تفريغ حمولتها من القنابل على ذلك الهدف النموذجي ، استلم جهاز اللاسلكي الاشارة التالية : « مقاتلات العدو تتقدم من الجانب » وما هي الا ثوان حتى اندفع سرب من مقاتلات سبيتفاير ، وهي طائرات لم يرها اولئك الملاحون الالمان من قبل ، وألقى بكامل زخمه على جحفل القاذفات الالمانية . وبالرغم من كثافة النيران الدفاعية للقاذفات الالمانية ، فقد هاجمتها المقاتلات الانكليزية بكل شدة ، وكانت تعيد هجماتها مرة تلو الأخرى ، حتى نجحت في ابعاد القاذفات الالمانية من فوق أهدافها .

رجعت القاذفات الالمانية الى مطارها في روكروا ، فوجدت ضباط الأركان ينتظرون وهم على علم تام بشراسة قتال الطيارين البريطانيين ، فلقد اطلع ضباط الاركان في القاعدة على طبيعة المعركة عند استلامهم اشارات الطائرات الالمانية : « يجب أن نقطع الاشتباك ، يجب أن نهبط » . أما الآمر الذي كان يقود هذا التشكيل ، فقد هوجم مما لا يقل عن خمس مرات من طائرة سبيتفاير واحدة. وعندما حط بطائرته في المطار ، استطعت أن أُحصي ٨٦ ثقباً في بدن الطائرة . وهذه الحقيقة وحدها تكفي دليلا على متانة القاذفة دورنيير ١٧ ، وهي احدى قاذفاتنا الرئيسية خلال المراحل الاولى من الحرب . ولقد كلفت هذه الغارة على دنكرك خسارة طائرة واحدة واصيبت طائرتان بأضرار بليغة .

ما كاد الجحفل يهبط فوق أرض المطار ، حتى استلم امراً بالاقلاع ثانية . وكان الهدف هذه المرة هو نيو بورت ، وفي اللحظة التي ظهرت فيها قاذفات الدورنيير ، هاجمها البريطانيون ، الا أن القاذفات الالمانية كانت هذه المرة بحراسة المقاتلات . وبالرغم من تكرار هجمات البريطانيين ، فقد تمكنت القاذفات الالمانية من الوصول الى أهدافها ، بعد أن تجمعت ضمن تشكيل متماسك ومتقارب . أما خسائرنا هذه المرة فكانت ذات مغزى ، حيث اجبرت ثلاث قاذفات على الهبوط الاضطراري خلف خطوطنا ، الأمر الذي سبب خسائر في الملاحين ، بينما أصيبت خمس طائرات اخرى بأضرار بليغة جعلتها غير صالحة للخدمة لمدة طويلة .

وهكذا ، وفي خلال يوم واحد ، تعطلت احدى عشر طائرة من مجموع سبع وعشرين . . لقد ولت أيام الانتصارات السهلة الى غير رجعة ، وأصبحنا وجها لوجه مع القوة الجوية الملكية .

تم توقيع الهدنة مع فرنسا في ٢٢ حزيران ١٩٤٠ ، واستمتعت القوة الجوية الالمانية ببضعة أيام من الراحة . وفي هذه الاثناء ، انتشرت شائعات مفادها ان الحرب قد انتهت تقريبا ، وأفرز في مقرنا ضابط ليقوم باعداد الترتيبات اللازمة للاستعراض العسكري بمناسبة النصر العظيم الذي سيجري في شارع الشانزليزيه . أما في الجيش فقد سُرّح بعض الاشخاص المتقدمين بالسن واعيدوا الى المانيا .

وضع المقر الاعلى للقوات المحاربة بالقرب من مطارنا ، فاستفدت من هذه الفرصة لزيارة

بعض الاصدقاء القدامى الذين كانوا آنذاك من ضمن هيئة أركان هتلر ، ومن بينهم كايتل الذي كان آمري فيما مضى ، والنقيب فون بيلو الذي خدم تحت امرتي في الايام الماضية والذي هو الآن مساعد هتلر الجوي. ومن زيارتي لهذين الضابطين، وجدت أنهما مقتنعان بأن بريطانيا تريد السلم، وان الحرب يمكن اعتبارها بحكم المنتهية. وبالرغم من موجة التفاؤ ل هذه في الاوساط العليا ، فقد صدرت الاوامر الى القوة الجوية باجراء التصليحات والتعويضات لخسائرها الخفيفة نسبيا في الاشخاص والآلات ، لتكون جاهزة للمعارك القادمة التي لا بد من حدوثها فوق مياه القنال الانكليزي وفي سماء بريطانيا نفسها ، وفي خلال بضعة أيام أصبحت القوة الجوية الالمانية جاهزة وعلى أتم استعداد .

كانت القوة الجوية الالمانية آنذاك في قمة قوتها الا أنها لم تستطع الحفاظ على ذلك المستوى خلال أية فترة اخرى عبر سنوات الحرب الطويلة .

أما تعداد القوة الجوية في المناطق المحتلة وفي شمال المانيا فكان كما يلي :

١ ـ احد عشر جناح مقاتلات ، تضم ١٣٠٠ طائرة مقاتلة تقريباً ، ذات محرك واحد نوع مسر شميت ١٠٩ .

٢ ـ جناحان من الطائرات القاصفة المقاتلة ، تضم ١٨٠ طائرة ذات محركين نوع مسرشميت ١١٠ .

٣ ـ عشرة أجنحة قاذفات تضم ١٣٥٠ طائرة تقريبا ذات محركين نوع هنكل ١١١ ، ويونكرز ٨٨ ، ودرونيير ١٧ .

أما الطيارون فكانوا جميعهم ذوي كفاءة عالية . وكانوا ، بالاشتراك مع ملاحيهم ، مدربين تدريبا جيدا على أساليب الحرب الجوية وتكتيكاتها . ولقد اكتسبوا معظم خبرتهم تلك ابان الحملتين البولونية والفرنسية ، ولذلك أصبحت معنوياتهم عالية . وكانوا واثقين من النصر بالرغم من أنهم كانوا يعرفون ان هناك معارك قاسية تنتظرهم . . هكذا كانت القوة الجوية الالمانية التي اشتركت في معركة بريطانيا .

كانت تلك القوة منظمة في اسطولين جويين هما : الأسطول الثاني بقيادة الفيلد ماريشال كيسلرنغ والاسطول الثالث بقيادة الفيلد ماريشال سبيرل . وكان الإسطولان تابعين الى القيادة العليا للقوة الجوية التي كانت بدورها تحت اشراف رئيس هيئة أركان القوة الجوية ماريشال الرايخ غورنغ . اتخذ الاسطول الثاني مقره الرئيسي في بروكسل مع مقرات متقدمة في رأس غري ني بمواجهة دوفر ، أما الاسطول الجوي الثالث فكان مقره في باريس مع مقر متقدم له في دوفيل ، وعند وصول غورنغ وهيئة أركانه الى الغرب استقر قطار القيادة الخاص برئيس الاركان في Boves بالقرب من المطار الذي يسمى بنفس الاسم .

لقد كان ضباط الاركان ووحدات الانشاءات الالمانية التابعين للقوة الجوية الالمانية على قسط من النشاط ملحوظ خلال فترة الهدوء التي سادت بين انتهاء الحملة الفرنسية وبداية معركة بريطانيا ، حيث انهم تمكنوا خلال تلك الفترة من تهيئة المطارات الفرنسية والبلجيكية واعادتها الى حالاتها السابقةمنالجودة،كما تمكنوا من بناء عدة مطارات جديدة في مناطق مختلفة من الاراضي المحتلة . وفي اليوم الثاني من تموز أصدرت القيادةالعليا للقوات المسلحة اولى وصايا الحركات الى القوة الجوية ، معلنة بذلك بدء الحملة ضد بريطانيا . وكانت تلك الوصايا تمهيدا للقيام بغزو الجزر البريطانية . وأُعطي للقوة الجوية واجبان رئيسان هما .

١ ـ منع سفن الشحن البريطانية من الاستفادة من القنال ، وينجز هذا الواجب بالتعاون مع القوة البحرية الالمانية ، وذلك بشن غارات على قوافل سفن البضاعة وتدمير جميع تسهيلات الموانىء وزرع الالغام في مناطق الموانىء وفي طرق التقرب اليها .

٢ ـ تدمير القوة الجوية الملكية .

في ١٠ تموز انطلقت تشكيلات من القاذفات ، تحرسها مقاتلات احادية المحرك ومقاتلات ثنائيةالمحرك ، وابتدأت بمهاجمة قوافل سفن الشحن التي كان البريطانيون مستمرين على ارسالها الى ميناء لندن الذي يشكل مركز الثقل لشبكة تموينهم بكاملها ، دون ان يأخذوا في الاعتبار امكانية أي تدخل أو ازعاج عبر القنال . ولقد اشتركت أنا شخصيا في احدى تلك الغارات الاولية مع جحفل القاذفات الثالث من الجناح الثاني ، وكان مقرنا آنذاك في كامبري ، ورصدت القافلة بين دوفر ودنجينس ولم تستغرق عملية اصدار الاوامر الا بضع دقائق ، واستطعنا في خلال نصف ساعة منذ اقلاعنا رؤ ية سواحل كنت البريطانية .

كان القنال يسبح في أشعة الشمس المتألقة ، وكانت السماء والبحر يتبادلان ظلالهما الزرقاء غير المتجانسة عبر الافق ، وانتشر ضباب خفيف فوق الساحل الانكليزي . وهناك . . بعيدا الى الاسفل كانت القافلة تسير وكأنها ، لصغر حجمها ، دمى للاطفال ، وكانت ترسم خلفها مروحة من خطوط مسيرها التي تجمع فوقها زبد البحر ، وما كاد العدو يرانا حتى انتشرت سفنه بسرعة ، وراح ملاحو السفن التجارية يناورون سفنهم بمنتهى العنف . أما سفن الحراسة الحربية ، فقد تحركت الى الجانبين بأقصى سرعتها وامتلأت السماء من حولنا بقذائف المدافع المضادة للطائرات . وظهرت في هذه الاثناء مقاتلاتنا ، وافتتحنا المعركة بالجولة الأولى ، فألقينا قنابلنا وارتفعت نافورات الماء عاليا حول السفن ، واشتركت البطاريات المضادة للطائرات الموجودة على السواحل في المعركة لمساعدة البواخر الحربية ، بالرغم من اننا كنا بصورة عامة خارج مدى نيرانها . وبانتهاء الجولة الاولى ، استدرنا نحو فرنسا وتهيأنا للجولة الثانية . استغرقت عملية القاء القنابل في الجولة الاولى مدة نصف ساعة فقط وبانتهائها ظهرت اسراب مقاتلات القوة الجوية الملكية ، واندفعت الى المعركة ، فاختلط الحابل بالنابل ، وامتلأت السماء

فوق الساحل الانكليزي بخليط من الطائرات المنقضة تارة والمرتفعة أو المستديرة تارة اخرى . وكان هذا الخليط يضم طائراتنا مسرشميت ١٠٩ وتحتها مسرشميت ١١٠ ، ومن الجانب البريطاني مقاتلات سبيتفاير وهريكان . وبعد ثلاث ساعات في المعركة ، توجه جحفلي في طريق عودته الى القاعدة حيث رفعنا تقريرا بخسائر العدو كالآتي : غرق طراد ثقيل واربع سفن تجارية واصابة سفينة خامسة بأضرار ، أما خسائر العدو بالطائرات فهي احدى عشرة مقاتلة بين مسقطة ومعطوبة ، أما نحن فقد خسرنا قاذفتين ومقاتلتين ذات محركين وثلاث مقاتلات ذات محرك واحد .

استمرت الحركات على هذا النحو خلال الاسابيع القليلةالقادمة . وفي تلك الاثناء كانت الشائعات تسري في صفوف الجيوش ، ومفادها ان الحملة العظمى ستقع في المستقبل القريب جدا . وساعد على انتشار تلك الشائعات ولا شك سعة الاستعدادات المحمومة للغزو ، والتي كانت تأخذ مجراها على طول السواحل بصورة واضحة لكل عين ، فلقد كانت المرافىء الفرنسية والبلجيكية والهولندية مملوءة بكل أنواع السفن ، وفي الوقت نفسه ، كانت تمرينات الاركاب والانزال تجري على قدم وساق وبدون انقطاع ، أما هيئات الاركان فكانت تعمل بدون انقطاع .

لقد كانت المعنويات في القوة الجوية عالية والثقة بالنفس كبيرة . وانتشرت نظرية الجنرال الايطالي دوهي القائلة « بأن القوة الجوية هي التي ستقرر بدون أي شك مصير أي حرب حديثة » . ولاقت هذه النظرية انصاراً عديدين بين ضباطنا ، حتى ان بعضنا ذهب به الاعتقاد الى ان القوة الجوية وحدها هيّ التي ستضرب ضربتها الحاسمة في معركة بريطانيا . إلا أنه ظهرت بين ضباط أركان القوة الجوية الاقدمين فئة أكثر تعقلا وتبصرا ، وتلاقت تحفظاتها مع تحفظات ضباط هيئة أركان الجيش العامة ، حيث أشير بتكرار الى أن الاسطول الملكي لا زال قوة كبيرة ولم تصب الا بأضرار قليلة نسبيا ، لذا يجب اعتباره اسطولا قائماً بكل ثبات . وبالاضافة إلى ذلك ، فان القوة الجوية تفتقر ، كما أفاد المسؤولون بكل صوابٍ ، الى القنابل الخارقة للدروع الضرورية لشل البوارج الحربية البريطانية المدرعة تدريعا ثقيلا . وعلى العموم يمكن القول ان القوة الجوية التي كانت تعتبر نفسها السلاح الحاسم ، لم تصل الى حد الزعم والتباهي ان بوسعها كسب الحرب لوحدها . وفي هذه الاثناء ساد الشك في أوساط الجيش ـ وهو الذي بنى تقاليده على اسس الحرب في القارة الاوربية ـ في امكانية تنفيذ عملية سي لايون (أسد البحر) وهو الاسم الرمزي لخطة غزو الجزر البريطانية .

في ١٦ تموز أصدر هتلر توجيهاته بخصوص عملية (سي لايون) الى القيادة العليا للقوات المسلحة وابتدأت كما يلي :

« لما كانت انكلترا قد أظهرت أنها غير راغبة في الوصول الى أي صلح معقول ، فقد

قررت البدء في التهيؤ للغزو ، وتنفيذ عملية غزو انكلترا عند الضرورة ، والهدف من ذلك هو منع انكلترا من أن تكون قاعدة لمتابعة الحرب ضد المانيا . . . تنتهي الاستعدادات بكاملها قبل منتصف شهر آب . . . » .

وبعد ثلاثة أيام انعقد الرايخشتاغ في جلسة خاصة للاحتفال بمناسبة احتلال فرنسا ، وفي مجرى خطبته في هذا الاجتماع ، دعى هتلر بريطانيا العظمى إلى إنهاء الحرب . وحصلت القناعة بصورة عامة ان هتلر كان يعتقد فعلا بامكانية التوصل الى سلم معقول مع البريطانيين . الا ان هذه المنحة رُفضت بكل برود من جانب الحكومة البريطانية بعد أيام قلائل .

لقد سبق لي أن تطرقت الى وجهات النظر المتضاربة داخل الأسلحة الالمانية المختلفة[1] فيما يختص بإمكانية تنفيذ عملية سي لايون (اسد البحر) . وفي خلال الايام الاخيرة من تموز ، أرسل هتلر آمر القوة الجوية الثالثة الى رئيس هيئة أركانه (الجنرال كورتن الذي فقد حياته في محاولة الاعتداء بقنبلة على حياة هتلر بعد أربع سنوات) وحاول هتلر باسلوبه المعهود اسكات جميع الشكوك التي اثيرت من قبل مستشاريه العسكريين ، وذلك بطلبه المستعجل باستخدام القوة الجوية بأقصى شدة ممكنة ضد بريطانيا .

انتقلت الحركات الجوية في الغرب الى مرحلة جديدة في الاول من شهر آب وانتقل ثقل هجومنا من البواخر المبحرة في القنال الى اهداف ذات علاقة مباشرة بالغزو المتوقع للجزر البريطانية . ولاجل تأمين السيادة الجوية فوق القنال وفوق سواحل انكلترا ، صدرت الاوامر الى أسرابنا بمهاجمة المنشآت الارضية للقوة الجوية الملكية ومدارس التدريب التابعة لها ، أما الهدف الثانوي فكان الصناعة الحربية البريطانية وبصورة خاصة معامل صنع الطائرات ،وأُهملت الملاحة في القنال الى الدرجة الثالثة من الأهمية . ولقد أُعلمت القوة الجوية انها ستستلم أوامرها الخاصة بالدور الذي ستلعبه في اسناد الجيش أثناء الغزو الحقيقي عندما توشك الحملة أن تبدأ . وفي تلك الاثناء ، كان واجبنا الآتي هو الإعداد للغزو ، وذلك بتحطيم القوة الجوية الملكية . وكان علينا ايضا أن نعرقل اعادة تنظيم وتجهيز القوات البرية البريطانية الذي كان مستمرا آنذاك منذ اندحار البريطانيين في دنكرك ، وأن نقلل من تموين العدو بالوقود والغذاء الى مستوى أقل من الحد الادنى المقبول . وكان الاعتقاد الذي ساد آنذاك هو ان هذا الاجراء سيجعل الاهلين متشوقين للسلم ، خاصة وأن الشعب البريطاني كان يشعر آنذاك ، ولأول مرة في تاريخه الطويل ، بكامل ثقل الحرب بصورة مباشرة . وكان من المتوقع ان معنوياته ستنحط نتيجة لذلك .

اندفعت أسرابنا نحو السماء في حالة من الوثوق الاكيد . . . ان هذا العدو الاخير

---

(١) الجيش والقوة الجوية والاسطول . (المترجم)

(انكلترا) هو الذي يقف حائلا بيننا وبين النصر النهائي . الا أن الايام الاولى من القتال أظهرت لنا بكل وضوح ان هذا العدو أكثر ثباتا ومنعة من جميع أعدائنا السابقين ، واننا نلاقي في الواقع اندادنا ، وهم طيارون شجعان سوف يقاتلوننا حتى النهاية بغض النظر عن قائمة الخسائر الطويلة. وفي وقت من الاوقات، بدت الامور وكأننا لن نحتاج إلا إلى مجهود أخير من جانبنا حتى نطرد القوة الجوية الملكية من الجو . وبناء على الحسابات النظرية لهيئة الأركان العامة للقوة الجوية ، كان من المفروض أن قيادة المقاتلات البريطانية قد امحت من الوجود الآن ، ومع ذلك اصطدم الطيارون الالمان في اليوم التالي مرة اخرى بطائرات سبيتفاير وهريكان ، وهي تندفع بسرعة الى اعالي الجو لمقاتلتهم . وقاتل البريطانيون فعلا بكل شجاعة ، وكأنما هم يعرفون انهم يقاتلون في سبيل بقائهم . وبالرغم من النجاحات التي أسفرت عنها غاراتنا ، فان التأثير المتوقع لم يظهر ابدا . ولقد اتضح لنا ، حتى في هذه المرحلة من معركة بريطانيا ، أهمية وجود قوة جوية كبيرة جدا اذا ما اريد ادامة النجاحات الأولية لأي فترة زمنية .

تألقت في هذه المعركة أسماء عديدة . وكان أكثرها تألقا العقيد غالاند ، الذي غدا فيما بعد مفتشا للمقاتلات برتبة فريق . وهو في وقت كتابة هذا الكتاب يشغل منصب قيادةالقوة الجوية الالمانية المساهمة في منظمة حلف شمال الاطلسي (ناتو) . وكان هذا العقيد أشهر الطيارين المقاتلين في معركة بريطانيا ، أما الآخر فقد كان صديقه الكابتن مويلدرز . لقد أدرك هذان الضابطان حالا طبيعة الاضرار التي أصيبت بها القوة الجوية الالمانية ، كما أدركا ضعف التكتيك الجوي ، ونقاط ضعف اخرى كشف عنها النقاب الآن ، الا انهما عملا مع ذلك كل ما في استطاعتهما ، بالمبادرة الشخصية والقيادة ، من اجل مساعدة رفاقهما في السلاح ، ولم يترددا في ابداء رأيهما ، وعند الضرورة تحذيراتهما للمسؤولين على اعلى المستويات .

ظهرت في خلال هذه المعركة روح الفروسية الحقة بين الطرفين المتحاربين وكمثال على ذلك ، نورد قصة الساق الاصطناعية المشهورة لقائد السرب ـ كما كان آنئذ ـ دوغلاس بادر .
وخلاصة القصة ان قائد السرب دوغلاس بادر كان قد فقد كلتا ساقيه قبل الحرب ، الا أنه استطاع بفضل ارادته أن يتغلب على هذا العائق الكبير ، واصبح مقاتلا بطلا واسقطت طائرته قرب سانت اومير ، وتحطمت ساقاه المصنوعتان من الالمنيوم . وفي مساء ذلك اليوم ، دُعي بادر الى نادي الضباط التابع لجناح غالاند ، ولدى وصوله هناك استفسر عن امكانية جلب ساقيه الاحتياطيتين اللتين كان يحتفظ بهما في انكلترا بأي واسطة كانت . فما كان من غالاند الا أن اتصل بي ـ وكنت آنذاك رئيس شعبة العمليات (ضابط ركن الحركات الاول) للاسطول الجوي الثالث ـ وعرضت الامر على الفيلد ماريشال **سبيرل** وأرسلنا بعد موافقته رسالة لاسلكية ، مستخدمين لذلك موجة الطوارىء العالمية ، وبعد مرور ثمان واربعين ساعة هبطت الساقان الاصطناعيتان على أرض مطار سانت اومير بواسطة مظلة .

وفي هذه الظروف ، كانت كل من القيادة العليا للقوات المسلحة والقيادة العليا للقوة الجوية غير متأكدتين ومترددتين في تبني أي رأي بصورة قاطعة ازاء المسألة ، وبالرغم من التوجيهات الاستراتيجية التي اعطيت لنا ، فان غورنغ بصورة خاصة كان يتدخل باستمرار في الادارة الفعلية للهجوم . ونظرا لمسؤولياته المتشعبة، كان عليه أن يتغيب بين حين وآخر في برلين لمدة بضعة ايام بل وحتى بضعة اسابيع ، وكانت المسافة البعيدة التي تفصل برلين عن مقر قيادته في فرنسا لا تحول دون تدخله الشخصي، بالرغم من وجود هيئة أركانه . لذا كانت تصلنا من العاصمة أكثر الأوامر غرابة ، بحيث انها أثرت في بعض الاوقات على سير الحركات التكتيكية . ومرة اخرى ابتدأت القيادة البحرية العليا والقيادة العليا للجيش بابداء مخاوفهما وشكوكهما بخصوص حركة سي لايون . كما ان هتلر نفسه لم يكن مقتنعا اقتناعا تاما بموضوع الغزو ، وفي ١٠ آب تأجل موعد الغزو الى أواخر أيلول ، بينما كان في الاصل في نهاية شهر آب ، وفي ٤ أيلول قال هتلر : «اذا كان الناس في انكلترا حائرين وتساءلوا لما لم يأت ؟ فانني استطيع ان أريح ادمغتهم ، انني قادم» . وقال في نفس الخطبة الكلمات التالية : «اذا أعلن الانكليز انهم يضمرون نية شن هجمات ثقيلة على مدننا ، فإن جوابنا على ذلك سيكون ازالة مدنهم من الوجود» . وفي هذه الاثناء كانت القوة الجوية الالمانية تكافح باستمرار لتحقيق السيادة الجوية كما أُمرت بذلك ، وطرد القوة الجوية الملكية من الجو . وقد شعر الطيارون والملاحون مراراً ان النصر قد أصبح في متناول ايديهم تقريباً . وبعدئذ جاء يوم ١٥ أيلول ليرسم نقطة التحول ، إذ أسقط في هذا اليوم خمس وستون طائرة من طائراتنا في معارك ضارية فوق سماء انكلترا .

في ١٧ أيلول أجّل هتلر موعد الهجوم مرة أخرى ، واستمرت المعركة الجوية ، الا أن اسرابنا تعرضت الى عملية سحق شديدة وعانت كثيراً من الخسائر ، لدرجة أصبح من الصعب ان لم يكن من المستحيل اعادتها الى سابق قوتها . وعلى أثر ذلك طلب قائدا الاسطولين الجويين الثاني والثالث من غورنغ التخلي عن الهجمات النهارية التي تكلف كثيرا ، والانتقال الى القصف الجوي الليلي . وكان ذلك يعني التدريب على تكتيك جديد . ورويدا رويدا أصبح هذا التكتيك (القصف الليلي) عملية سهلة للغاية . وفي ١٢ تشرين أول قرر هتلر الغاء جميع خطط الغزو في ذلك العام . ومع هذا ، فقد استمر الاعتقاد بأن ذلك الاجراء هو مجرد تأجيل لحركة سي لايون الى ربيع عام ١٩٤١ . وبهذا القرار وُضع حد لتبجح القيادة العامة الالمانية وادعائها بالنصر في بادىء الأمر ، وجاءت الجولة الحاسمة ليرسو النصر الى جانب البريطانيين .

وهكذا أُمهل البريطانيون ليستعيدوا أنفاسهم اللاهثة ، بينما انتقلت أسراب قاذفاتنا الى القصف الليلي ، أما في خلال الجانب النهاري من معركة بريطانيا ، فان القوة الجوية الملكية (بالرغم من شبه الدائرة العظيمة للمنطقة المعادية المحيطة بها نظرا لاحتلالنا هولندا وبلجيكا وفرنسا) لم تكن في موقف غير جيد . إذ كانت تقاتل في معركتها الدفاعية فوق أراضيها ، كما كانت تمتلك منشآت أرضية من الدرجة الاولى . ولقد أظهر الطيارون البريطانيون أقصى

ضروب الشجاعة ، واستخدموا تجهيزاتهم ومعداتهم على أحسن وجه . وكانت القوة الجوية البريطانية إبان الدفاع تستخدم مقاتلاتها الى أقصى حد ممكن ، حتى ان الطيارين كانوا يقلعون مرة تلو الاخرى وبصورة متعاقبة في اليوم الواحد دون أن ينال منهم الكلل . وبذلك أثبتوا ان عنادهم الانكليزي المعروف لا يشبهه الا شجاعتهم . وفي هذا الوقت بالذات ، ظهر الاختراع الجديد (الرادار) الذي كان أسوأ مفاجأة لنا . وساعد هذا الاختراع على مضاعفة قابلية القوة الجوية الملكية ، لأنه زودها بامكانية تحشيد طائراتها وارسالها لمواجهة طائراتنا المقاتلة والقاذفة حال اقترابها ، في الوقت والمكان المناسبين . وبهذه المناسبة ، لا بد من الاشارة الى ان رماة المدافع البريطانية المضادة للطائرات أصبحوا في غاية المهارة خلال وقت قصير ، وأوقعوا خسائر جسيمة بالتشكيلات الالمانية المهاجمة . وساهم تردي الاحوال الجوية في هذه الفترة بمساعدة العدو في الدفاع ، كما ان تأخر الفصل كان عاملا شجع هتلر على التخلي عن خطط الغزو لعام ١٩٤٠ . وفي نهاية عهد المعارك النهارية الكبرى أجرت القيادة العليا حساباتها على الخسائر والارباح لحملة الصيف الجوية فكانت النتائج لا تبعث على السرور .

هبط عدد طائراتنا الصالحة للعمل الى ٥٠٠ دون الرقم الاصلي ، وذلك خلال الفترة الواقعة بين ١ آب و ١ تشرين اول ، بالرغم من التعويضات المستمرة . وبناء على حساباتنا ، فان القوة الجوية الملكية قد خسرت خلال نفس الفترة ١١٠٠ طائرة ، ولم يكن أحد منا يعرف ان البريطانيين كانوا هم ايضا على وشك استنفاد مواردهم ، فلقد كنا منشغلين على كل حال بمشاكلنا الخاصة ، ومن بينها مشكلة تعويض الخسائر بالطيارين والملاحين المدربين التي كانت لا تقل صعوبة عن تعويض نقص الطائرات . وكان على القيادة العليا أن تتبنى استراتيجية جديدة تتفق وتلك الحقائق ، ولذلك تقرر الانتقال الى الوجه الثالث من معركة بريطانيا ، والذي استهدف تدمير الصناعة البريطانية . وتقرر ايضا أن يتم التنفيذ بواسطة القصف الجوي الليلي الذي يجب أن يقلل خسائرنا الى أدنى حد ممكن .

لم يستحسن ادولف هتلر هذا النوع من القصف طيلة المدة السابقة . أما الآن ، فقد اعطى موافقته عليه ، وذلك لأن القوة الجوية الملكية كانت قد قامت بغارات مشابهة خلال الصيف الماضي على ويلهلم شافن وكولونيا ومدن حوض الرور . وعندما هاجمت قيادة القاذفات البريطانية ميناءي هامبورغ وبريمن ، أمر هتلر بأن تركز القاذفات الالمانية غاراتها على لندن . وهكذا تم التخلي عن الهدف الاصلي المتمثل في دحر القوة الجوية الملكية كتمهيد للانزال على سواحل انكلترا ، الامر الذي منح خصمنا الفرصة ليستعيد انفاسه ، وليتمكن من اعادة بناء قوته الجوية بالنسبة الى المقاتلات ، التي كان عددها قد تقلص الى حد الزوال .

بالاضافة الى غارات القصف الليلي ، فقد اعطي الى وحدات اخرى واجب لغم مصبات الانهار والمرافىء البريطانية الرئيسية . وتجحفلت هذه الوحدات مع بعضها لتشكل الفيلق الجوي

التاسع ، الا أن تردي الاحوال الجوية خلال الاشهر القليلة التالية جعل تنفيذ حركات واسعة كهذه أمرا في غاية الصعوبة .

في خلال هذه المرحلة الثالثة من معركة بريطانيا ، كنا نحصل على معلوماتنا المتعلقة بترتيبات العدو ، والتي كنا نبني خططنا عليها من المصادر التالية :

اولا ـ الرصد الجوي : وفي هذا المجال ، كانت أسراب الاستطلاع ـ التي انضمت هي ايضا الى الفيلق الجوي التاسع ـ نشطة للغاية ، ولقد شاركت شخصياً في تلك الرحلات الاستطلاعية بطائرة يونكرز٨٨ معدّلة لهذا الواجب .

ثانيا ـ التنصت اللاسلكي : لم يزودنا هذا الاسلوب بقابلية فحص المعلومات المستقاة من الاستطلاع فحسب ، بل انه مكّننا ايضا من تكوين صورة واضحة لانتشار القوة البريطانية على الأراضي البريطانية .

ولقد تعاون آمرو وضباط اركان الاسطولين الجويين الثاني والثالث في تهيئة خطة هجوم شهرية ضد الاهداف المعينة من قبل القيادة العليا للقوة الجوية ، نظرا لاهميتها الخاصة .

كنت في هذا الوقت رئيسا لشعبة خطط الاسطول الجوي الثالث ، وكنا نجزىء الخطة الشهرية الاصلية الى أوامر مفصلة تعنى بالغارات الليلية أو النهارية لكل يوم من أيام الشهر ضد المراكز الصناعية وأحواض السفن في لندن والمرافىء البريطانية الرئيسية الاخرى . وكانت الاوامر آنفة الذكر توضع بتعاون وثيق مع جارنا الاسطول الجوي الثاني . الا أن التذبذب في الأمور الاستراتيجية كان مستمرا في الاوساط العليا ولم يكن هذا التذبذب أكثر وضوحا في أي مكان مما هو عليه في القيادة العليا للقوة الجوية . ففي هذا الوقت انسحب غورنغ مع ضباط اركانه الى برلين ، الا انه تابع التدخل في حركاتنا ، وغالبا ما أصدر أوامره بالغاء عملية مهيأة بصورة جيدة . وأحيانا كثيرة كان أمر الالغاء يصل في اللحظة الاخيرة قبل بدء التنفيذ ، أو يأتي أمر للقيام بعملية تختلف كل الاختلاف عن العملية المقررة . وذلك اما استنادا إلى خبر غير مؤيد استلم في ذلك اليوم بالذات ، أو ربما لاسباب سياسية ذات أهمية خاصة في نظر القيادة العليا . والحقيقة ان الرجال المسيطرين على القوة الجوية الالمانية كانوا يفتقرون الى الاهداف الثابتة أو الفكرة الاستراتيجية الواضحة . ومن الجدير بالذكر ان هذا الضرب من عدم الكفاءة لم يقتصر على فترة معركة بريطانيا . . . فلقد تبنى غورنغ تعاليم الجنرال دوهي كما فهمها . ومع ذلك فقد انحى بأقسى انواع اللوم والتقريع على طياريه عندما لم تكن خططه تسير في الوجهة الصحيحة. وكمثال على ذلك ما حدث في الغارتين على ميناء ليفربول ، عندما ألقى الطيارون قنابلهم على منشآت كاذبة أقامها البريطانيون لذلك الغرض .

اتسعت المعركة الجوية وازدادت عنفا طيلة أشهر الشتاء ، واندفعت القاذفات الالمانية في

غاراتها ضد كوفنتري وليفربول وهل وبورتسموث ومانجستر ومدن اخرى عديدة . واصبحت هذه المدن رموزا ملتهبة لارادة ملاحي القاذفات وعزمهم على النصر . وليلة اثر اخرى ، كانت طائرات زرع الالغام البحرية تنسل بخفة وهدوء لتنثر شحنات التدمير المرعبة في مقتربات المرافىء الكبرى وفي مصب نهر التايمس ، وتدريجيا أصبحت المرافىء الجنوبية غير صالحة للاستخدام لاغراض العدو الملاحية ، وتكبد العدو خسائر جسيمة في اسطوله التجاري في السواحل المنتشرة من هل في الشمال وبامتداد السواحل الشرقية والجنوبية وكذلك في السواحل الغربيةالى حد برستول . غير ان كثرة الاهداف وتوجيه العمليات المتشعبة في وقت واحد ضد الاهداف المختلفة ، كالمرافىء والمدن الصناعية ولندن العاصمة ، أديا الى بعثرة الجهود ـ اذ انعدم التركيز ضد أي من الاهداف السابقة ـ وأدت بعثرة الجهود بدورها الى ايقاع خسائر كبيرة في قاذفاتنا . وبمقارنة خسائرنا وأرباحنا خلال تلك الاشهر ، ظهرت النتائج في صالح العدو . فلقد كانت قوتنا الجوية ـ بالرغم من مهارة طيارينا وملاحينا واندفاعهم في تنفيذ واجباتهم ـ كانت غير منشأة فنيا لتشن حربا على مديات واسعة وعبر البحار . . لقد كنا نفتقر قبل كل شيء الى قاذفات ذات أربعة محركات ، مدرعة تدريعا سميكا ، وذات مديات في الطيران لا تقل عن ١٢٠٠ ميل ، وتستطيع العمل على ارتفاع ٣٠٠٠٠ قدم أو اكثر .

وصل ماريشال الرايخ الى باريس في شباط ١٩٤١، للتباحث مع كيسلرنغ وسبيرل حول مستقبل ادارة الحرب الجوية ضد انكلترا . وبتظاهر لا يوازيه في الفخامة الا سعة تدابير الامن ، انعقد المؤتمر في « الكي دورسيه » في قاعة « دي لاهورلوج » ، وكان غورنغ في هذا الاجتماع غير راض (كعادته) عما اعتبره هو عدم كفاية نجاحات القوة الجوية الالمانية ، كما لم ينس في هذا الاجتماع أن يهاجم آمري وملاحي الاسطولين الجويين وينعتهم بعدم الكفاءة . ولقد حاول الماريشالان أن يردا بكل احترام على تلك الاتهامات ، كما حاولا اقناعه بعنف القتال وصعوبة الواجبات الملقاة على عاتق اسطوليهما الجويين ، الا أن غورنغ رفض الاستماع لهما . وحتى زياراته لوحدات الخط الامامي ، ومن ضمنها محادثته مع غالاند ـ الذي أصبحت تجاربه الكبرى معروفة لدى الجميع في هذا الوقت ـ فقد فشلت في اعطاء أي أثر . . وبكل بساطة استمرت غارات القاذفات وفق النهج السابق ، مع أن اتخاذ قرارات جديدة في ضوء الظروف القائمة ، كان آنئذ مسألة ملحة .

ارتفع في هذا الوقت عدد منتسبي مدارس التدريب حتى يكون هناك سيل مستمر من الملاحين لاجل التعويض عن اولئك الذين خسرهم سلاح الطيران . وكانت نتيجة ذلك ان هؤلاء الملاحين الاحداث ذهبوا ضحية في اول غارة لهم على الغالب ، بسبب قلة خبرتهم من جهة وارتفاع مهارة الطيارين البريطانيين على القتال الليلي من جهة اخرى ، مع اننا أعطيناهم تدريبا اضافيا في وحدات التدريب المتقدمة في الجبهة . وفي شباط عام ١٩٤١ ، أعطي الاسطول الجوي الثالث واجباً جديداً، هو اعداد خطط مفصلة لعملية (فيلكس) . وكانت

هذه العملية ،التي لا يمكن أن تتم الا بموافقة مسبقة من الحكومة الاسبانية ، تتضمن تحريك وحدات معينة من الجيش والقوة الجوية عبر اسبانيا واحتلال جبل طارق ، وكما هو معروف ، فان عملية (فيلكس) لم تذهب الى أبعد من مرحلة التخطيط في هيئة الأركان ، وذلك بسبب فشل اجتماع هتلر مع فرانكو في مونتير على الحدود الفرنسية ـ الاسبانية في تشرين الاول عام ١٩٤٠ . ولم يسفر هذا الاجتماع عن أية نتائج ايجابية ، وعليه فقد كانت المباحثات التالية بين ضباط الأركان الالمان والاسبان عقيمة ايضا ، كل ذلك بسبب حذر الجنرال فرانكو ورفضه الثعلبي في توريط نفسه وبلده . ولذلك لم تكن خطط عملية (فيلكس) أكثر من ورق . وفي هذه الاثناء تابع ضباط الأركان الاقدمون للقوة الجوية في الغرب عملهم بالتعاون مع مجموعة الجيوش (أ) تحت قيادة الفيلد ماريشال فون رونشتت ومع مجموعة الجيوش (د) تحت قيادة الفيلد ماريشال فتسليبن ، بغية تطوير الخطط المعدة لغزو انكلترا في عام ١٩٤١ . ويرجع ذلك الى أننا لم نكن قد أحطنا علما بالتبدلات الجذرية في نوايا المقرات العليا الا في شهر آذار من تلك السنة (١٩٤١) ، حيث أُحيط عدد قليل من ضباط الأركان الكبار علما بامكانية حدوث صدام بين المانيا والاتحاد السوفييتي وان ذلك سيفرض بالضرورة التخلي نهائيا عن معركة بريطانيا .

بالرغم من هذه التطورات المتتابعة ، فقد زار غورنغ فرنسا خلال شهر آذار برفقة الفيلد ماريشال سبيرل ، وفتش أحدث نموذج لطائرة يونكرز ٨٨ ، إلا أنه فشل فشلا تاما في تقدير الامكانات الحقيقية لتلك الطائرة ، وأمر بأن ترسل قوة مكونة من تلك الطائرات الجديدة ضد ابردين ، وهنا أشار الفيلد ماريشال سبيرل بأن ذلك أشبه ما يكون باصدار الامر الى ملاحي الطائرات بالانتحار . وحدث إثر هذه الاشارة جدل مرير أدى الى غضب سبيرل غضبا شديدا . وبعد جهد جهيد استطعت منعه من تقديم استقالته .

استمرت المعركة الجوية الكبرى ، وتراكمت خسائرنا في القاذفات مقابل بعض النجاحات . وخلال هذه الفترة ، بلغ مجموع الغارات على لندن خمساً وستين غارة رئيسية ، وذلك بفضل إرسال الطائرات نفسها مرتين في كل ليلة من ليالي الشتاء الطويلة . وكان عدد الطائرات يبلغ أحيانا في الغارة الواحدة على لندن ٨٠٠ طائرة قاذفة ، وكانت هذه الغارات الضخمة بمثابة عرض مدهش في تلك الفترة من الحرب . وكان تعاوننا مع البحرية ، وبصورة خاصة مع الغواصات ، يتوثق بثبات واستمرار ، وكنتيجة لهذا التعاون تشكل في آذار ١٩٤١ منصب قيادي جديد اسمه « قائد الجو للمحيط الاطلسي » ، ومقره في بوردو . وكان هذا الضابط مسؤولا عن الاستطلاع الجوي فوق المحيط الاطلسي ، نيابة عن سلاح الغواصات ، كما كان يقوم بقيادة أسراب القاذفات الثقيلة المتعاونة مع الغواصات في حربنا ضد الملاحة البريطانية . وكانت هذه الاسراب تقوم بتطويق الجزر البريطانية بالتناوب ، ثم تعود أدراجها سالكة طريقا يمتد حول أقصى نقطة في شمال اسكتلندا ، وتهبط في الاراضي النرويجية ، ثم تقلع من جديد لتبدأ رحلة اخرى . وفي أواخر نيسان سنة ١٩٤١ حاولت قاذفات « قيادة الجو

للمحيط الاطلسي » المسلحة بالطوربيدات الاسراع لنجدة البارجة بسمارك ، إذ ان هذه البارجة العظيمة ، بعد انتصارها على الطرادين هود ، وبرنس أوف ويلز ، وجدت نفسها محاطة بقوة بحرية تتمتع بتفوق ساحق ، على مسافة ٤٠٠ ميل غرب برست . ولم تستطع البارجة هذه المرة الافلات ، واختفت تدريجيا تحت أمواج اليم ، ورايتها مرتفعة خفّاقة . وبغرق تلك البارجة العظيمة أصبحت معركتنا على السطح مع الاسطول البريطاني بحكم المنتهية . ولم يبق لنا ما نعول عليه بعد ذلك سوى الغواصات وقوتنا الضاربة في الجو .

وفي صيف ١٩٤١ اقتنع كبار القادة بعدم جدوى الاستمرار في معركة بريطانيا وضرورة ايقافها حالا ، بعد ان استلمت مقرات القيادة في باريس لوائح طويلة بأسماء الفيالق الجوية والوحدات الاخرى التي سيتم نقلها الى الجبهة الشرقية ، وأصبح من الواضح تماما انه لن تبقى لنا في الغرب القوة الكافية للاستمرار في المعركة . وبالرغم من الاحتجاجات الملحة ، فقد ظهر ان من غير المحتمل ان تكون مقاتلاتنا الباقية كافية حتى لمجرد حماية السواحل الهولندية - البلجيكية - الفرنسية الواقعة تحت سيطرتنا . وفي هذه الاثناء ، غادرنا الماريشال كيسلرنغ ، قائد الاسطول الثاني ، وهيئة أركانه الى واجباتهم الجديدة في الشرق ، وبقي الاسطول الجوي الثالث مسؤولا وحده عن كافة العمليات الجوية على المسرح الغربي .

في شهر نيسان عام ١٩٤١ ، تمت العملية الكبرى ، واعربت الوحدات التي انتقلت الى الشرق بالتعاقب عن شعورها القلبي بالانفراج بمغادرتها لمسرحنا ، أما القوة التي تخلفت فكانت ضعيفة لدرجة لم تعد معها كافية للواجبات الملقاة على عاتقها ، وكان الضعف ملموساً بصورة خاصة في التنظيمات والترتيبات الارضية . ولقد استطعنا إخفاء حركة انتقال الوحدات الى الشرق عن استخبارات العدو ، وذلك بخداع منظومة تنصتهم اللاسلكية ، حيث اننا حافظنا على اتصالاتنا اللاسلكية في نفس مستواها العالي سابقا ، كما قمنا بتكليف القوات المتبقية بفعاليات واسعه ، وبذلك تسنى لنا ابقاء العدو في ظلام الجهل بحقيقة الامور عدة اسابيع . وبهذه الطريقة ، وبدون مهرجانات أو ختام حقيقي ، انتهت معركة بريطانيا .

لقد وصف الجنرال فولر ، الكاتب المشهور في المسائل العسكرية ، معركة بريطانيا قائلا عنها انها تعتبر ، من الناحية الاستراتيجية من أكثر العمليات تقريرا للمصير في التاريخ . ويشير فولر بقوله انه ، مع احترامه لمهارة الجنود الالمان ، يرى ان هتلر ومستشاريه كانوا سجناء فكرتهم عن الحرب في القارة الاوربية فقط ، ودليله على ذلك ، كما يعتقد ، هو ان القيادة العليا الالمانية اعتقدت خطأً بامكانية دحر بريطانيا العظمى عن طريق القوة الجوية وحدها . . . أما أنا ففي رأيي ان الجنرال فولر اخطأ بخصوص النقطة الاخيرة ، لان المسؤولين من ضباط أركان الجو الالمان ، على الاقل ، لم يعتقدوا ابدا بامكانية دحر بريطانيا العظمى بقوتنا الجوية وحدها ، وان الذي اعتقدناه فعلا ، هو ان قوة جوية قوية تستطيع ايقاع الضربة الحاسمة بالمملكة المتحدة . بشرط اشتراك الجيش والقوة البحرية بصورة تامة في الانزال . الا أن امكانية الانزال هذه كانت

قد انعدمت بحلول خريف عام ١٩٤٠ . وفي تلك الفترة ، ربما كانت القوة الجوية الالمانية على درجة كافية من القوة والمقدرة ، بالمقارنة مع القوة الجوية الملكية ومستوى انتاج معاملها من الطائرات ، وكانت مؤهلة للقيام بالقسم المخصص لها من عملية سي لايون ، الا أن الجيش والقوة البحرية لم يكونا في وضع يمكّنها من اداء دوريهما ، لذا أصبحت القيادة الالمانية العليا غير متحمسة للعملية كلها . اما اعتراضات الماريشال غورنغ المتكررة والصاخبة حول هذه الامور ، فانها لم تؤد الا الى اخفاء شكوكه الداخلية . واظهارا للحقيقة ، فان غورنغ لم يؤمن ابداً بعملية سي لايون ، الا انه كان متأثرا لدرجة كبيرة بأفكار الجنرال دوهي ، وانني أشك بان يكون قد استوعب المعاني الكاملة لتعاليم الجنرال الايطالي . . . كما انني اتفق مع استنتاجات الجنرال فولر فيما يخص مصر وقناة السويس ، التي (كما أشار فولر) كانت تقدم الهدف المثالي لقوات المانيا المسلحة في ذلك الوقت . ويقول فولر ، لو ان المانيا ألقت بكامل ثقل آلتها الحربية في الشرق الاوسط ، بدلا عن بعثرة قواتها الجوية في اجواء انكلترا لألحقت بمجموع الامبراطورية البريطانية ضربة قاتلة .

والحقائق الواضحة الآن هي : بالرغم من أن معركة بريطانيا يمكن اعتبارها انتصارا من ناحية المهارة والشجاعة بالنسبة للطيارين والملاحين الالمان ، الا انها تعتبر ، من وجهة نظر الاستراتيجية الالمانية ، معركة خاسرة . وكان يجب ألاتقع أبدا. إن القرار الذي ابتدأها وضع علامة على نقطة التحول في تاريخ الحرب العالمية الثانية ، كما ان القوة الجوية الالمانية ، التي كانت تفتقر الى أي هدف واضح مطروح امامها من قبل القيادة العامة ، كانت تنزف الى حد الموت تقريبا ، ولحقت بها خسائر كبيرة لم تتمكن بعدها ابدا من استعادة سابق قوتها طيلة مدة الحرب . وختاما فانني اعتقد ان الدروس المستخلصة من الحرب الجوية في تلك المعركة ، قد ساعدت القيادة الانكليزية ، ومن ثم الامريكية ، على التصميم من اجل اعطاء سلاح الطيران قوة كبيرة ، والاعتماد عليه ، كسلاح اخير قادر على الحسم اكثر من أي سلاح آخر .

٢ - الحرب تنتشر

بقلم : سيغفريد ويستفال

أثبت فشل سلاح الطيران الالماني في معركة بريطانيا ، عدم امكانية اجبار شعب شجاع على الركوع بمجرد القصف الجوي ، وكان ذلك واضحاً بصورة خاصة في حالة لندن ، وتأكد ذلك أكثر في السنوات التي تلت من خلال ثبات الأهلين الالمان ، وتحملهم لأثقل وأعنف انواع القصف الجوي . ولم ينجح سلاح الطيران الالماني أيضاً في شل المقاتلات البريطانية ، وكان ذلك يعني أن أحد الظروف الحاسمة لغزو بريطانيا لم يكن له وجود . وطالما بقيت دفاعات بريطانيا البحرية والجوية على حالها ، فان القوات الالمانية كانت ستتعرض بالتأكيد الى خسائر جسيمة جداً لو أنها أقدمت على الإنزال . ولما كان الجو لا يسمح بالقيام بالانزال في أي وقت بعد النصف الأول من شهر تشرين الأول ، لذلك قرر هتلر عدم القيام بتنفيذ عملية سي لايون في عام ١٩٤٠ .

لقد كان هتلر منذ البداية غير راغب في تنفيذ عملية كهذه ، لأن أفكاره الاستراتيجية كانت في الأساس محدودة ضمن اطار الحرب التقليدية في القارة الأوروبية . ولقد شعر بنفور ظاهر من الحرب البرمائية . وتجلّى نفوره هذا مرة اخرى في البحر الأبيض المتوسط عندما طرحت مسألة الهجوم على مالطة عام ١٩٤٢ . وكان يشجعه في نفوره من تنفيذ عملية سي لايون ، تقديره الصحيح من دون شك لقابلية القوة البحرية ، إذ انه كان يعتقد بأن الأسطول الالماني لا يستطيع حماية اسطول الغزو الضخم من تدخل الاسطول البريطاني ، نظراً لضعف القوات الموجودة لديه .

ومن الجهة الأخرى ، كانت قيادة الجيش العليا متفائلة الى حد انها ، وبكل بساطة ، اعتبرت عملية عبور القنال الانكليزي لا تعدو عن كونها عملية عبور نهر ، ولكن على نطاق واسع جداً ، كما انها اعتقدت بأن العدو لن يبدي مقاومة فعالة ولن تستمر مقاومته أمداً طويلاً ، نظراً للكميات الهائلة من المعدات التي خسرها وتركها خلفه في دنكرك . وبالرغم من تفوق الاسطول

البريطاني وقلة وسائط النقل المتوافرة لدينا ـ والتي كانت تتألف مبدئياً من قطع نهرية ـ فان القيادة العليا للجيش كانت تأمل أن تنجح بعد فترة وجيزة من الانزال في انشاء رأس جسر يمتد بعمق كاف ويسمح باستمرار ورود النجدات عبر القنال على نطاق واسع . ومهما يكن رأي تلك القيادة ، فان اخراج انكلترا من الحرب بعد انزال ناجح كان يبدو ، حتى في ذلك الوقت ، أمراً مشكوكاً فيه ، طالما ان الأمة البريطانية معروفة بصلابتها وعنادها . وعليه كان علينا أن نتوقع من الحكومة البريطانية أن ترحل الى كندا وتصطحب معها اسطولها وقسماً من قواتها المسلحة الأخرى لتتابع الحرب من هناك .

أما الاعتبار الآخر ، فكان عامل التصميم في خطط هتلر ، حيث انه أسر أقرب مستشاريه العسكريين قبل نهاية الحملة الغربية بقليل عن رأيه حول ضرورة سحق الخطر الأحمر في الشرق حالاً ، وان الذي عزز رأيه هذا حوادث عدة ، منها هجوم الروس على فنلندا في السنة الماضية ، واستيلاؤهم في صيف عام ١٩٤٠ على دول البلطيق وعلى اقليم بسارابيا الروماني . وكان التهديد الروسي لرومانيا يعرض تموين المانيا من النفط الروماني للخطر . وهذا هو ما أقلق هتلر بصورة خاصة . وكان جوابه الفوري على ذلك التهديد بعثة عسكرية أرسلها الى رومانيا حيث كان يسود آنذاك حكم انتونيسكو على المملكة ، وأدى ذلك الاجراء الى زيادة الشعور بعدم الثقة لدى الروس . وعندما فشل المؤتمر الذي حضره مولوتوف في تشرين الثاني عام ١٩٤٠ في التوصل الى اتفاق حول مناطق النفوذ لكل من المانيا وروسيا ، قرر هتلر أن يعمل .وفي الشهر التالي أصدر أمره الانذاري الشهير رقم ٢١ ، والذي نص على أن الجيش الالماني يجب أن يعد العدة لحملة سريعة من أجل سحق روسيا السوفييتية ، وان كلا من رومانيا وفنلندا يمكن اعتبارهما حلفاء . وهكذا القى النرد مرة اخرى ، وليته لم يفعل ذلك .

نتيجة لذلك القرار ، أخذت الفرق المتحشدة في الغرب تتحرك واحدة اثر الأخرى الى منطقة واقعة خلف الحدود الشرقية ، التي كانت حتى ذلك الحين مجردة من القطعات تقريباً . ومن الواضح أن ذلك جعل خطر الغزو يبتعد عن البريطانيين . وأصدرت القيادة العليا للقوات المسلحة وصاياها للتظاهر بالاستمرار في تهيئة الاستعدادات للغزو ، الا أن تدابير كهذه لم تتمكن من خداع العدو لمدة طويلة ، بالرغم من استمرار الغارات العنيفة على المدن الانكليزية طيلة شتاء ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ .

وفي الجنوب ايضاً كانت الفعاليات في ازدياد ، ففي البحر الأبيض المتوسط ، كانت أشهر الصيف خالية من الأحداث نسبياً . ولكن ذلك المسرح ابتدأ الآن بجذب الانتباه . فبالرغم من ادعاءات موسوليني ، فإنه لم يقم بهجوم فوري على جزيرة مالطة ـ الجزيرة المحصنة الخطيرة ـ ولو فعل لضرب عصفورين بحجر واحد : أولهما قطع خط المواصلات الرئيسي لبريطانيا مع الشرق الأقصى ، وثانيهما حماية مواصلاته مع مستعمراته في شمال وشرق افريقيا . وفي أيلول عبر الماريشال

غرازياني الحدود المصرية مع ثماني فرق ، وتقدم الى حدود سيدي براني ووقف هناك . وكان لوقوفه هذا ما يبرره تماما (كما ستثبت الحوادث) . ففي كانون الأول ، قام الجنرال ويفل بهجومه المعاكس على القوات الايطالية الرديئة التجهيز ، وسرعان ما وجدت تلك القوات نفسها على حافة التهلكة . وبسرعة وبزخم كبيرين ، اندفع البريطانيون واستولوا على البردية وعلى الحصن المنيع طبرق وبنغازي . وفي نهاية كانون الثاني ١٩٤١ ، كانوا على بعد بضعة مئات من الأميال عن طرابلس . وأخيراً وفي هذه الساعة المحفوفة بأشد المخاطر ، وقع ١٤٠ ألف ايطالي أسرى بيد الانكليز ، وبدت ليبيا وكأنها على وشك الضياع بأكملها . وهنا فقط وافق موسوليني على عرض الالمان بالمساعدة المسلحة ، والذي كانوا قد قدموه في السنة الماضية ورفضه في حينه . وفي شباط نزل الماريشال روميل في شمال افريقيا ، واستطاع دحر البريطانيين بعد قيامه بأروع هجوم معاكس ، وتمكن من ملاحقتهم حتى الحدود المصرية في نهاية شهر آذار . وفي الفصول الأخرى القادمة سنسمع عن روميل الشيء الكثير .

في نهاية فصل الخريف أخذ الايطاليون ينشطون في مسرح آخر . وتقدمت القطعات الايطالية عبر الحدود الالبانية ـ اليونانية في ٢٧ تشرين الأول عام ١٩٤٠ ، على أمل الحصول على نصر سريع . ويبدو انهم لم يقدروا قوة مقاومة الجيش اليوناني بصورة صحيحة ، ولذلك وجدوا أنفسهم في الحال في ورطة شديدة الخطورة . وفي احدى المرات كانوا ازاء خطر الالقاء في البحر ، وقبل أن يقدموا على تلك المجازفة ، كانت المانيا قد حذرتهم من عاقبة التورط فيها . ومهما يكن الأمر ، فإن تطور الحرب اليونانية ـ الايطالية على ذلك النحو استوجب التدخل من جانب المانيا . وفي منتصف كانون الأول تم تحريك سبع فرق المانية باتجاه جنوب رومانيا ، وانقذ الايطاليون من تلك المعضلة العويصة بواسطة الحملة الربيعية ضد يوغسلافيا التي تنصلت عن المحور وكذلك ضد القطعات البريطانية التي نزلت في اليونان . ونجحت هذه العملية ، التي تبعتها الحملة المشهورة على كريت من قبل المظليين والقطعات الأخرى المنقولة جواً ، وأسفرت عن تحطيم الجيوش اليوغسلافية واليونانية وطرد البريطانيين من الزاوية الجنوبية الشرقية للقارة الاوروبية ، الا انها لم تؤد الى احلال الهدوء في البلقان ، وبقيت دول البلقان جرحاً دامياً أدى الى تجميد كميات كبيرة من القطعات حتى نهاية الحرب .

لم تكن هذه هي المرة الأخيرة التي تجلى فيها سوء طالع ايطاليا . ففي نيسان اضطر دوق اوستا ـ وهو القائد الايطالي في اثيوبيا ـ الى الاستسلام للبريطانيين . وفي الوقت نفسه انهارت الثورة في العراق . أما سورية التي كانت تحكم من قبل الفرنسيين قبل انتقالها للايطاليين بعد توقيع معاهدة الصلح في كومبيين فقد ذهبت الى الحلفاء ، وبذلك انتهى النفوذ الالماني في منطقة الشرق الأوسط .

لقد تم سحب القطعات التي استوجبتها الحملة على البلقان من الجيوش المخصصة للشرق ، مما أدى الى تأخير بدء الحملة على روسيا مدة ستة أسابيع ، أي تقليص الفترة المحدودة من

صيف أوربا الشرقية القصير ، والملائمة للقيام بعملية الغزو . وكان ستالين على علم بتحشد الفرق الالمانية وراء حدوده الغربية ، ويتوجس منها خيفة ، لذا راح يعزز قواته . الا انه ، كما يبدو ، احتفظ حتى اللحظة الأخيرة بأمل عدم تطور المسألة الى حد وقوع الحرب . وهكذا عندما وقع الهجوم في الساعة ٠٣,٣٠ من يوم ٢٢ حزيران سنة ١٩٤١ كان الروس مستعدين من الناحية الاستراتيجية الا أنهم بوغتوا تكتيكياً .

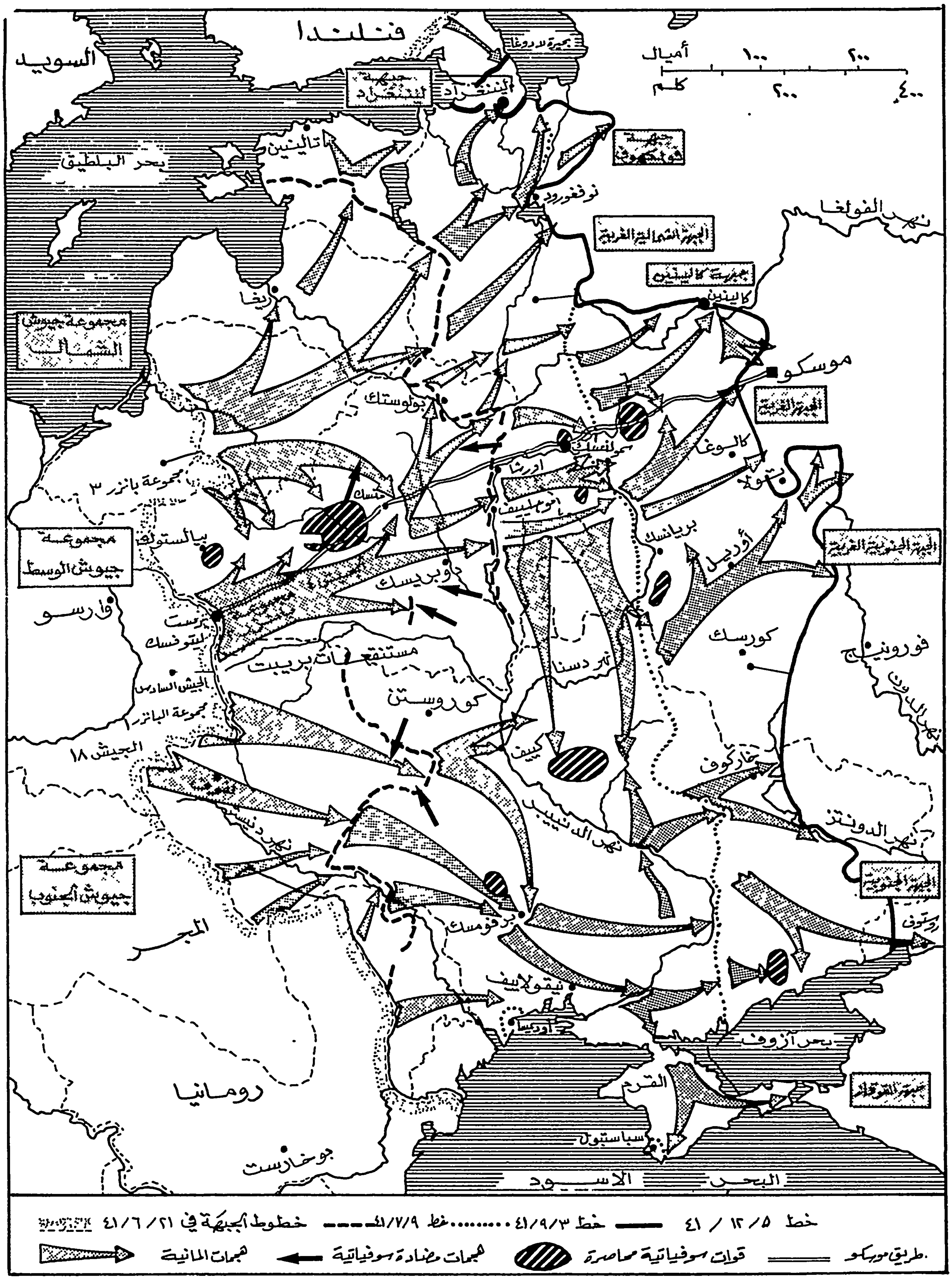
تقدمت في هذا الهجوم مائة وخمس وأربعون فرقة منظمة في ثلاث مجموعات جيوش وموزعة على جبهة تمتد من رومانيا الى بحر البلطيق . وكانت تتعاون مع مجموعات الجيوش الالمانية الثلاث ـ الآن وفي المستقبل ـ قطعات من المتطوعين الرومانيين والهنغاريين والبلجيكيين والاسكندنافيين. وفي أقصى الشمال ، أعلنت فنلندا الحرب على الاتحاد السوفييتي ، وبذلك بدت أوروبا وكأنها تزحف كلها لدحر الاتحاد السوفييتي .

والحقيقة أن تلك العناصر الأجنبية لم تكن الا مجموعات صغيرة من القطعات وأن بعضها لم يتجاوز في تعداده قوة فوج ، كما أن قليلا منها تجاوز قوة فرقة . . لقد انخدع هتلر بالاندحار السريع للجيش الروسي ، وبلغ اعتقاده بالنصر حدا جعله يصدر أوامره بتقليل انتاج الذخيرة الحربية . وكان تقديره لحقيقة الموقف خطأ محضاً كما سيتبين قريبا في حين كان تقدير القيادة العليا للجيش صائبا تماما . . صحيح أن عشرات الألوف من الجنود الروس قد انسحبوا خلال المراحل الأولى من القتال ، ووقع ملايين الأسرى بيد الألمان من جراء معارك التطويق الواسعة في بيالستوك ومنسك وكييف وفيازما ، حتى آن الاذاعة الألمانية كان بامكانها أن تذيع بل أذاعت فعلا نبأ الانتصارات المدهشة واحدا بعد الآخر . ومع ذلك كله ، فان القسم الأعظم من الجيوش الروسية ، مدفوعا بتشجيع مفوضيه السياسيين ، تابع القتال بحرارة والى حد الموت . وكان لظهور الأسلحة الروسية المتفوقة بالنسبة لأسلحتنا مفاجأة غير سارة لنا . ومثال على ذلك ظهور الدبابة الروسية (ت ٣٤) التي لم تستطع مدافعنا المضادة للدبابات عمل أي شيء ازاءها . وأكثر من ذلك ، فقد ظهر حالا أن الألمان لم يدخلوا روسيا كمحررين بل انهم جاءوا ومعهم نظام لا يقل اضطهادا عن النظام السابق . وبالرغم من أن تصرف الجنود الألمان في المناطق المحتلة كان على العموم تصرفا صحيحا ، الا أن النشاطات المخجلة للقوات الخاصة في المناطق الخلفية أصبحت معلومة للجميع . وعليه فإن الكراهية المبررة تماما ، والتي بعثتها تلك الأعمال المخجلة لدى الروس الخائبين ساعدت على رص صفوفهم وتقوية عزيمتهم في المقاومة . وهكذا ساعد الغزاة أنفسهم الحكومة السوفياتية في التغلب على محنتها . وعندما فشلت القيادة العليا في اقناع هتلر بأفضلية احتلال موسكو قبل أوكرانيا ، وضاعت أسابيع ثمينة في الجدال مرة أخرى ، كسب الروس فرصة نادرة لاستعادة أنفسهم اللاهثة واعادة استقرار الموقف .

يصف الفصل القادم الأزمة الناتجة عن الحلول المبكر لفصل الشتاء ، وكيف جاءت هذه الأزمة لتجد الطلائع الألمانية على أبواب موسكو . وكان الجيش الألماني يعتبر حتى ذلك الحين

جيشاً لا يقهر . إلا أنه وجد نفسه قاب قوسين أو أدنى من الابادة . . ولكن من الأفضل أن نذكر بضعة كلمات مناسبة بخصوص الأسلحة الأخرى المشتركة في الحرب ، قبل الخوض في معركة موسكو .

بالرغم من أن القوة الجوية الألمانية لم تظهر الى الوجود إلا في السنوات التي سبقت اعلان الحرب بقليل ، فإنها حققت خلال حقبة قصيرة سجلا حافلا بالانجازات العظيمة ، في بولونيا والغرب والبلقان وفي مسرح البحر الأبيض المتوسط وفوق السهوب الواسعة للاتحاد السوفييتي . وبدون سلاح الطيران ، كان من المستحيل شن عمليات الحرب الخاطفة . الا أن الخسائر الجسيمة ، وبصورة خاصة في معركة بريطانيا ، تركت أثرها الواضح على سلاح الطيران ، الذي كان يحاول استعادة مستواه السابق . . . أما البحرية ، التي كانت ضعيفة جدا فوق سطح الماء وتحته ، فقد كانت حديثة التكوين كسلاح الطيران ، ومع ذلك فانها لم تشغل جميع غواصاتها فحسب ، بل زجّت أيضاً جميع سفنها بمنتهى الجرأة . وبخلاف الحالة في عهد البحرية الامبراطورية خلال الحرب العالمية الأولى . وهكذا تمكنت من جعل أعالي البحار غير مأمونة . وبنهاية عام ١٩٤٠ أصبح مجموع ما أغرقته البحرية من سفن العدو التجارية يزيد على مليونين من الأطنان . ولكن أسلوبها في العمل جعلها تتكبد خسائر جسيمة في السفن الحربية المتوسطة والكبيرة والمدمرات . أما أكبر الخسائر وأعظمها ، فكانت تلك التي أصابت الغواصات .



عملية «باربا روسا»

القسم الثاني
١ ـ موسكو

بقلم : الجنرال غونتر بلومنتريت

كان غونتر بلومنتريت قد عُين رئيس هيئة أركان الجيش الرابع في خريف ١٩٤٠ واحتفظ بمنصبه هذا حتى عُين من جديد رئيسا لشعبة العمليات في القيادة العليا للجيش الألماني في كانون الثاني عام ١٩٤٢ . وفي نهاية ذلك العام غدا رئيسا لأركان مجموعة الجيوش (د)، وكان يحمل آنذاك رتبة فريق . وبقي في هذا المنصب حتى أيلول عام ١٩٤٤ ، عندما أعطيت له قيادة الفيلق الثاني عشر لقوات (.S.S) . ثم عُين قائدا للجيش الخامس والعشرين ، في كانون الثاني عام ١٩٤٥، وانتقل الى قيادة الجيش المظلي الأول في آذار عام ١٩٤٥، وهو يحمل وسام الصليب الحديدي من رتبة فارس .

تمهيد :

كانت معركة موسكو أول اندحار رئيسي للجيش الألماني على اليابسة في الحرب العالمية الثانية . وسجلت هذه المعركة نهاية عهد الحرب الخاطفة ، الذي ساعد هتلر وجيشه على تحقيق الانتصارات الرائعة في بولونيا وفرنسا والبلقان . إن أول القرارات المهلكة اتخذت هنا في روسيا . أما من وجهة النظر السياسية ، فقد كان القرار بمهاجمة هذا البلد قرارا مهلكا منذ البداية بل ربما كان أكثرها اهلاكا . والسبب هو أننا أصبحنا نقاتل خصما أقوى بكثير من جميع الذين حاربناهم من قبل . وعليه فإن انتصاراتنا لن تكون سهلة في الشرق الذي لا نهاية له .

وهنا لا بد لي أن أذكر أن كثيرا من قادتنا لم يقدروا العدو الجديد حق قدره ، وذلك بسبب الجهل ، حيث ان قسما منهم لم يعرفوا شيئا عن الشعب الروسي أو الجندي الروسي ، كما أن نفرا من كبار ضباطنا المسؤولين لم تتسنّ لهم فرصة القتال في الشرق أبدا ، لأنهم قضوا فترة

الحرب العالميةالأولى كلها في الجبهة الغربية ، ولم تتكون لديهم أية فكرة عن الصعاب التي تقدمها المنطقة أو عن صلابة الجندي الروسي ، ولذلك فضلوا تجاهل تحذيرات الخبراء في هذا الخصوص .

قال نابوليون ذات مرة : « ان الفن العسكري مجرد مسألة سايكولوجية ». وطبيعي أن هذا القول غير صحيح تماما ، وأن الامبراطور أحب المبالغة ، ولكن الصحيح هو أن نصف فن القيادة على الأقل هو القابلية على البقاء في مستوى الأمور غير المتوقعة والتي لم تكن في الحسبان ، أما النصف الآخر فهو سرعة البديهة مضافا اليه أعمال الأركان المفصلة . ولذلك فإن كثيرا من أحداث التاريخ المثيرة للجدل ، يمكن أن نجد لها تفسيرا اذا ما تفحصنا الشخصيات التي تتضمنها تلك الأحداث .

ان المصادر الرئيسية التي سأعتمد عليها في كتابة حوادث هذا الفصل ستكون ملاحظاتي ومذكراتي الشخصية . . فلقد كنت رئيسا لأركان الفيلد ماريشال فون كلوغ ، قائد الجيش الرابع في القطاع الأوسط من الجبهة حتى نهاية كانون الثاني عام ١٩٤٢. وكانت لي أيضا منافذ للوصول الى سجل وقائع الحرب المحفوظ لدى الرائد فون وينسكاوسكي في الجيش الرابع خلال هذه الفترة ، وهذا السجل هو المادة الخام للتاريخ . ولكنني قبل مناقشة معركة موسكو بالذات ، أشعر أنه سيكون من الأوفق إلقاء نظرة عجلى على المقدمات ، وعلى الحملة التي أسفر عنها ذلك الاندحار .

هتلر والشرق :

أخبرني مساعد هتلر الشخصي الجنرال شمندت ، في كانون الثاني عام ١٩٤٠، عن محاورة حديثة له مع الفوهرر حول موضوع روسيا . وفي حينها سجلت ما قاله لي شمندت ، ويمكن اجمال رأي هتلر حول روسيا خلال الشتاء الأول من الحرب عندما كان ذلك البلد لا يزال محايدا صديقا بما يلي :

لقد مضى على سيطرة البلاشفة على روسيا فترة جيل كامل . والزمن وحده هو الذي سيرجع الشعب الروسي وخصوصا الشباب منهم الى مذهبهم . لقد كان انهيار الامبراطورية النمساوية ـ الهنغارية في عام ١٩١٨ يعني أن العدو التقليدي لروسيا ، وحصن أوروبا ضد الشرق ، قد زال من الوجود . كما أن جمهورية ڤيمار[1] بجيشها ذي المائة ألف جندي فقط ، لم تشكل أي نوع من التهديد ضد الاتحاد السوفييتي . ومع ذلك فإن السوفييت أوجدوا عبر

(١) وهي الجمهورية التي تشكلت في ألمانيا بعد الحرب ، إثر تخلي الامبراطور ولهلم الثاني عن العرش . (المترجم).

العشرينات والثلاثينات جيشا هائلا تعداده أكثر من مليون رجل في زمن السلم ، وتابعوا تقويته بانتظام ، وهذا هو الأمر الذي أدى الى الاستعجال باعادة تسليح ألمانيا عام ١٩٣٥ . ولا يصح أن يعتبر ذلك الاستعجال نتيجة الاستجابة لدعوة هتلر باعادة تطبيق الخدمة الاجبارية . وقد تساءل هتلر عن ماهية الغرض من هذه الآلة العسكرية الضخمة ، ولم يستطع الا أن يستنتج أن ستالين ينوي اجتياح أوروبا كلها . وطالما أن الجيش الألماني يشكل الآن الحاجز الفعال بين الجيش الأحمر وأوروبا ، فان هتلر اعتبر أن ألمانيا ستحمل رسالة القضاء على الخطر الوافد من الشرق ، ودحر قوى البلشفية المعتدية . ولذلك كان هتلر يراقب عن كثب التطورات التي تحدث هناك ، كما كان يتهيأ للعمل عندما تدعو الضرورة للعمل .

لقد كانت تلك هي نظرته ، كما أسلفت ، خلال شتاء ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ . ويجب أن يكون مفهوما أن هتلر لم يكن رجل دولة واقعياً ، وأنه لم يكن يعتبر أبدا أن السياسة سعي ثابت ومستمر نحو هدف معين . فبالنسبة إليه كانت السياسة حلماً . أما هو فكان الحالم المتجاهل لحقيقة الزمان والمجال ، متناسيا حقيقة أن ألمانيا نفسها مجرد رقعة صغيرة فوق عالم واسع . ويمكننا أن نفترض أن حلمه أصبح مشدوداً نحو الشرق بعد الحملة البولونية بقليل ،وربما وصل به الخيال الى حد تصور جرمنة حديثة للمناطق الشرقية الواسعة ، كما حدث في القرون السالفة . أما ما لم يؤبه له في هذا الحلم ، فهو السهول اللامتناهية والطرق الرديئة أو غير الموجودة اطلاقا والمستنقعات والغابات الواسعة والقرى التعيسة المبعثرة . وفوق كل ذلك : الجندي الروسي الصلب الشديد البأس . . ان هتلر نفسه ، كجندي في الحرب العالمية الأولى ، خدم في الجبهة الغربية فقط . وعليه لم تكن لديه أية معرفة بظروف الجبهة الشرقية .

اعتقد هتلر بعد انتصاراته الرائعة في بولونيا وفرنسا والنرويج ، أنه سيتمكن من سحق الجيش الروسي بنفس السهولة التي دحر بها أعداءه الآخرين . وكان لذلك غير آبه بجميع أصوات التحذير التي ارتفع منها الكثير . وفي ربيع عام ١٩٤١ ، قام الفيلد ماريشال رونشتت ، الذي كان قد أمضى طيلة الحرب العالمية الأولى في الجبهة الشرقية ، بسؤال هتلر عما اذا كان يعلم ماذا يعني غزو روسيا ، كما أن رئيس أركان الجيش الفيلد ماريشال فون براوخيتش ورئيس أركانه الجنرال هالدر ، حذرا هتلر من عاقبة العملية . وكذلك فعل الجنرال كوسترنغ الذي عاش في روسيا لسنوات وعرف البلاد وستالين معرفة جيدة . الا أن تلك التحذيرات كلها لم تؤد الى أية نتيجة ، ورفض هتلر تصديقها أو الاهتمام بها .

يبدو أن أول مرة فكر فيها هتلر بصورة جدية في شن هجوم على الاتحاد السوفييتي كانت خلال شتاء عام ١٩٤٠ . أما دوافعه فكانت ذات حدين : أولهما انزال ضربته قبل أن يتمكن الروس من مهاجمته ، وثانيهما الحصول على مجال حيوي للفائض من سكان ألمانيا . وفي هذا الوقت لم يخبر هتلر أحداً بنواياه عدا القادة السياسيين والعسكريين الكبار جدا . وكان يعلم أنه لا يستطيع تنفيذ نواياه في الشرق بنجاح ، ما لم تكن جبهته الغربية أمينة . وكما هي العادة

دائما ، فإن حربا على جبهتين كانت تعني هلاكا حتميا لألمانيا . ولكن عندما أصبح من الواضح تماما أن بريطانيا لا تريد سلما مع ألمانيا الهتلرية ، تم تجاهل ذلك الشرط الجوهري ، ولم يتخل هتلر عن مجازفته الشرقية ، بل أدار الدفة بقبضة ثابتة ، واتجه بسفينة الدولة الألمانية بصورة مستقيمة لينطح بها صخور الهلاك .

اتخذ القرار السياسي خلال خريف عام ١٩٤٠ ، بمناسبة زيارة مولوتوف الرسمية لبرلين . فقد طرح مولوتوف عدداً من الطلبات الروسية في البلقان وفي مناطق اخرى إلا أن هتلر رفضها بفظاظته ، ولم يكن هناك أي اتصال حقيقي بين الحكومتين بالرغم من معاهدة عدم الاعتداء الروسية ـ الالمانية واقتسام بولونيا . لقد كانت العلاقات بين البلدين علاقات مؤدبة إلا أنها كانت تتسم بالبرود وعدم الثقة المتبادلة . وعلى كل فقد كانت علاقة روسيا مع الغرب وبصورة خاصة مع بريطانيا أسوأ من ذلك. والحقيقة أن بريطانيا قد أوشكت تقريباً على اعلان الحرب على الاتحاد السوفيتي ، عندما قام بغزو فنلندا قبل عام مضى . والآن صمم هتلر على القيام بما ترددت بريطانيا عن القيام به ، وباتخاذه لهذا القرار ، كانت المانيا قد خسرت الحرب .

الاستعدادات ، ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ :

في عام ١٩٤٠ ، وبعد انتهاء الحملة في الغرب مباشرة ، نقل مقر قيادة مجموعة الجيوش (ب) ، تحت قيادة الفيلد ماريشال فون بوك ، الى بوزن . وبعد ذلك بقليل استقر مقر الفيلد ماريشال فون كلوغ قائد الجيش الرابع في وارسو . ولم يكن لنا على الحدود الشرقية حتى ذلك الحين سوى بضع فرق مبعثرة على طول الحدود ، ومن جملتها فرقتنا الخيالة ، وانتشرت تلك الفرق على مساحات واسعة كما لو كان الوقت ما زال سلماً تقريباً . ولم تكن تجري على الحدود اية فعاليات ما عدا بعض تدابير الأمن . وكان الجيش الأحمر على الجانب الآخر من خط التقسيم لبولونيا يتصرف بنفس الاسلوب السلمي . وكان واضحاً ان أياً من الطرفين لا يضمر نية الحرب . ولكن ما كادت العمليات تتوقف في فرنسا ، حتى ابتدأت الفرق الالمانية بالحركة الى الشرق بانتظام وبدون الحاح .

لم يتسلم الفيلد ماريشال فون كلوغ ولا هيئة أركانه أية اشارة حول امكانية الحرب مع روسيا حتى كانون الثاني عام ١٩٤١ . ففي ذلك الوقت أرسل الينا أمر متحفظ من قيادة مجموعة الجيوش في بوزن ، تضمن مناقشة امكانية القيام بحملة في الشرق ، وكانت عبارات ذلك الامر بصورة عامة غامضة .

أما أصل خطة العملية باربا روسا (وهو الاسم الرمزي لعملية غزو روسيا) فلم تصدر إلينا الا مؤخراً . وفي ربيع ١٩٤١ انتقلت الى الشرق فرق اكثر فأكثر . ولأجل غرض اخفاء وجود تلك الفرق عن الروس ، جرى تحشيدها خلف الحدود بمسافة كافية.

وأخذت الاستعدادات تتسع وتتضخم ، كما أُنشئت في الشرق هيئات أركان هيكلية لقيادات عليا أخرى ، وجرت تمارين عديدة على الخرائط مع مناقشات تعبوية مستمرة . ولما أصبح من الواضح جداً ان حرباً بين هتلر والسوفييت لا محالة واقعة ، ازدادت الاستعدادات من قبل الاركان على جميع المستويات .

ساد في خلال تلك الاشهر جو غريب . وأدركنا منذ البداية ما ستجره هذه الحرب الجديدة ، اذ ان الكثيرين منا كانوا قد حاربوا في روسيا كضباط اعوان ما بين عامي ١٩١٤ - ١٩١٨ ، وعرفنا ماذا ينتظرنا . وكان ثمة عدم ارتياح في صفوف الاركان وكذلك في داخل الفرق . ومن الناحية الأخرى ، كان الواجب يتطلب منا عملاً متصلاً ومضبوطاً . وفي الحال اختفت جميع الكتب التي لها علاقة بروسيا من المكتبات ، وانني أتذكر ان مكتبة كلوغ في مقره في وارشو كانت مزدحمة بمطبُوعات كهذه . وكانت حملة نابليون عام ١٨١٢ بصورة خاصة موضع دراسة مستفيضة . وكشف ذلك الكتاب عن صعوبات القتال بل وحتى المعيشة في روسيا . وأمامنا على الخرائط كانت تبدو الامكنة التي خاض فيها « الجيش الكبير » معاركه ومناوشاته وعرفنا انناسنتعقب عن قريب خطوات نابوليون .

لقد درسنا أيضاً الحرب الروسية - البولونية عام ١٩٢٠ . وألقيت بصفتي رئيس أركان الجيش الرابع ، سلسلة من المحاضرات عن الموضوع لضباط أركاننا مستعيناً بخرائط كبيرة . لقد لعبت مستنقعات البريبت دوراً فعالاً في تلك الحرب . إن هذه الرقعة الواسعة من الاهوار والغابات الممتدة من برست ليتوفسك وحتى الدنيبير تقريباً ، والتي تعادل مساحتها مساحة بافاريا كلها ، لم تكن خالية من المسالك تماماً كما اعتادت ان تكون في السابق ، وكنا قد شققنا طريقنا عبرها خلال الحرب العالمية الأولى . وها نحن سنقوم بذلك مرة اخرى عما قريب .

قوطعت استعداداتنا لعملية (باربا روسا) مؤقتاً خلال فصل الربيع بسبب حادث البلقان[٢] ، وخشي هتلر ، وهو يتذكر غاليبولي[٣] ، ان البريطانيين ربما سيحاولون لعبة اخرى في هذه الزاوية من أوروبا . وتوقع انزالاً محتملاً للعدو في اليونان . إن انزالاً كهذا سيمكّن البريطانيين من الاندفاع شمالاً عبر بلغاريا ومهاجمة مؤخرة مجموعة جيوش الجنوب بقيادة فون رونشتت عند تقدمه شرقاً . ولتجنب ذلك ، ولتأمين سلامة النفط الروماني ايضاً ، كان يحدوه القلق من اجل تقوية الروابط العسكرية والسياسية التي تشد دول البلقان الى المانيا .

---

(١) « الجيش الكبير » : هو الاسم الذي اطلق على جيش نابوليون في حملته على روسيا (١٨١٢) . (المترجم)

(٢) الثورة في يوغوسلافيا . (المترجم)

(٣) معارك الدردنيل في الحرب العالمية الأولى . (المترجم)

أما فيما يخص رومانيا ، فإن الجنرال انتونيسكو كان مستعداً تماماً ليتجاوب مع خطط هتلر . ولأجل التعرف على الجيش الروماني ، تم ارسال بعثة عسكرية المانية الى بخارست ، وكان الجنرال انتونيسكو تواقاً لاستعادة بساربيا ، التي احتلها الروس في السنة الماضية ، كما انه كان يأمل باقتطاع جزء من اوكرانيا لصالحه . وعليه فقد وقعت رومانيا ميثاقاً تحالفياً متكاملاً مع المانيا ، وهي مسوقة بأمل تحقيق اهدافها آنفة الذكر .

وكان البلغاريون أكثر تحفظاً ، ولا يرغبون في معاداة بريطانيا أو المانيا . لذا قدم لهم هتلر طعماً يتمثل في مقاطعة سالونيكا والمناطق المفقودة في ثريس ، وبعد مساومات قاسية وافق البلغاريون أخيراً على السماح بعبور القطعات الالمانية عبر بلادهم من أجل مهاجمة البريطانيين في اليونان .

وفي ألبانيا وصلت الحرب اليونانية ـ الايطالية الى حالة الجمود ولصالح اليونانيين . وكانت يوغسلافيا تُعد العدة لتوجيه صدمة عنيفة الى هتلر . وكان هتلر يعتمد على الترحاب الحار الذي استقبل به الوصي على عرش يوغسلافيا الامير بول في برلين عام ١٩٣٩ . ولذا اعتقد ان الامير سيبقي يوغسلافيا محايدة على أقل تقدير ، ولكن فجأة حدثت الثورة التي يبدو انها اندلعت بتحريض من لندن وموسكو ، واطيح بحكومة الامير بول ، ولم يعد البلد حليفاً قوياً ، وبذلك تهددت خطوط مواصلات الجيوش الالمانية في كل من رومانيا وبلغاريا . وكان رد الفعل عند هتلر سريعاً وتم غزو يوغسلافيا ودحر جيشها الباسل بسرعة واسهمت بذلك العداوة المتبادلة بين الصرب والكروات .

ليس من اختصاص هذا الفصل مناقشة الحملة البلقانية القصيرة الأجل بأي تفصيل كان ، أما أهميتها بالنسبة الى عملية (باربا روسا) فتكمن في انها تسببت في تأخير موعد المباشرة بالهجوم على روسيا . وانها جمدت عدة فرق رغم قصرها ونجاحها . وكان من الضروري إعادة هذه الفرق الى أماكن انطلاقها الاصلية ، فضلاً عن ان عدة فرق بانزر (مدرعة) مهمة غدت بحاجة الى ادامة شاملة واعادة في التجهيز بعد مسيرتها الطويلة عبر جبال اليونان .

كان الموعد الأول للقيام بعملية (باربا روسا) هو ١٥ أيار . وهو تاريخ ممكن طالما كان من الضروري الانتظار ريثما يجف الطمي بعد زخات الربيع . ولو عين شهر آذار موعداً لبدء الهجوم ، لتوقفت وحداتنا الآلية بسبب امتلاء الانهار والسواقي بمياه الثلوج الذائبة . وفي الواقع ان مساحات واسعة من غربي روسيا ستكون ، لسبب أو لآخر ، مغطاة بالمياه ، إلا أن التاريخ المثالي للقيام بالهجوم كان قد تأخر خمسة اسابيع ونصف بسبب حادثة البلقان . وكما حدث فعلاً فإن التأجيل ربما كان سيقع حتى بدون حادثة البلقان ، لأن زخات الربيع جاءت متأخرة عام ١٩٤١ وفاض نهر بوغ ، في قطاع الجيش الرابع ، على ضفتيه ، في وقت آخر قارب موعده مطلع شهر حزيران ، وأخيراً اختير يوم ٢٢ حزيران موعداً ليوم الصفر . وهذا الموعد يتفق تماماً مع موعد بدء هجوم نابليون عام ١٨١٢ .

لقد كانت حملة البلقان وزخات الربيع المتأخرة سبباً في خسارتنا أسابيع ثمينة . ولم يبق الا بضعة اشهر صالحة للحركات الآلية ، حيث ان الظروف المناسبة لحرب الحركة في روسيا تقع بين حزيران ونهاية أيلول . وهذا يعني ان لدينا مدة أربعة أشهر فقط . وفي تشرين أول تحل فترة الطمي الخريفية . وعندئذ يكون من الصعب جداً التقدم طالما ان العربات الثقيلة ستغرز في الوحل . أما فترة الصقيع الواقعة بين شهري تشرين الثاني وشباط ، فإنها صالحة للحركات العسكرية ، ولكن على شرط أن تكون التجهيزات والاسلحة والآليات مصممة خصيصاً لتقاوم ظروف الحرب في البرد الشديد ، كما يجب أن تكون القطعات مجهزة بصورة جيدة ومدربة للقتال في ظروفٍ كهذه ، كما هي الحال في الجيش الروسي . وبالرغم من دراساتنا الواسعة للظروف الروسية ، فقد فوجئنا بشدة فترتي الطمي الربيعية والخريفية . وهنا أيضاً ظهر ان التجربة المستخلصة من الحرب العالمية الأولى لم تكن عديمة النفع فحسب ، بل كانت مضلِّلة أيضاً ، إذ اننا كنا قد قاتلنا الجيش القيصري في تلك الحرب على الأرض البولونية عموماً ، وليس في أعماق روسيا ، حيث الظروف أكثر صعوبة .

وأخيراً كانت هناك مسألة معنوياتنا ، إذ لا يمكن أن يكون ثمة شك في ان الآمرين وقطعاتهم شعروا بعدم ارتياح بالنسبة إلى مستقبل هذه الحملة الجديدة . وكانت الفكرة العامة اننا ذاهبون الى أرض مجهولة وغير مأمونة . . الى أرض لا نهاية لها . وعلى كل حال . لم يوقفنا ذلك عن اتخاذ أكثر الاستعدادات شمولاً ، وكل ما كان بامكاننا عمله قبل بدء الحملة قد تم على أحسن ، ما تسمح به مقدرتنا .

السوفييت والاتحاد السوفييتي :

من الحكمة عند تقدير قوة عدو ما ، اتخاذ الحذر في ذلك ، مع الافتراض انه ربما يكون أقوى مما يبدو في الواقع . والفشل في ذلك يمكن ان يؤدي الى ظهور مفاجآت مزعجة جداً .

يختلف الرجل الشرقي كثيراً عن الرجل الغربي ، فهو يتمتع بطاقة أعظم على تحمل الصعاب ويتعامل بدرجة كبيرة من رحابة الصدر مع قضايا الحياة والموت . وفي الشرق لا يؤبه بالفرد كثيراً ، كما هي الحال في الغرب . وعليه فإن الخسائر الكبيرة بالأرواح تقابل بلا مبالاة ، كما أن الرجل الشرقي لا يتمتع بقابلية كبيرة للابداع الذاتي وانه معتاد على تلقي الأوامر وعلى أن يقاد[1] كما ان طريقة حياته تتسم بالبساطة وحتى انها تعتبر طريقة بدائية بالنسبة الى مستوياتنا .

---

(١) هذه مع الاسف هي فكرة الغربيين عن الرجل الشرقي بصورة عامة ، وهي ولا شك مستوحاة من فلسفة السمو العنصري ، ولا تستند الى الواقع الملموس ، وبالتالي تؤخذ مبرراً لاستعباد شعوب الشرق واستثمارها .

(المترجم)

أما ظروفه فرديئة عموماً ، ولقد حقق البلاشفة انجازات عظيمة في المدن منذ عام ١٩١٧ ببناء الأبنية الأخاذة والشوارع الحديثة . أما القرى فلم تتبدل عما كانت عليه في الحرب العالمية الأولى وبقي الرجل الريفي يعيش حياة ليست أحسن من سابقتها . ومعظم البيوت الريفية مصنوعة من الخشب وسقوفها على درجات متفاوتة من التآكل ، إلا أن السكان يفتقرون بصورة عامة الى أي طموح لتحسين ظروفهم طالما انهم لم يعرفوا حياة أفضل ، وبالتالي فهم لا يأبهون كثيراً لمأكلهم ومشربهم وملبسهم . ومدهشة هي المدة التي يعتاشون فيها على ما يمكن اعتباره بالنسبة للرجل الغربي غذاء لحفظ الأود . ويعيش الفرد الروسي قريباً جداً من الطبيعة ، ولا تؤثر فيه الحرارة والبرودة كثيراً . وفي الشتاء يحمي نفسه ضد البرد القارس بأية وسيلة تقع عليها يده وهو يعتبر استاذاً في فن الابتكار ، ولا يحتاج الى أجهزة معقدة للتدفئة . أما النساء الروسيات فإنهن يتمتعن بأجسام قوية ويعملن بنفس صلابة الرجال . ولقد مكن الاحتكاك المتقارب بالطبيعة هؤلاء الناس من التحرك بحرية أثناء الليل وفي الضباب وخلال الغابات وعبر المستنقعات ، وهم لا يخشون الظلام ولا ترهبهم غاباتهم اللامتناهية ولا البرد القارس ، لأنهم معتادون على شتاء تهبط فيها درجة الحرارة غالباً الى ٤٥ درجة مئوية تحت الصفر . أما السيبيريون الذين هم سكان آسيون ، كلياً أو جزئياً ، فهم أشد صلابة وعندهم قابليات للمقاومة أعظم مما لدى الروس الأوروبيين . ولقد خبرنا ذلك خلال الحرب العالمية الأولى ، عندما التقينا ، بالفيلق السيبيري . وبالنسبة للفرد الأوروبي الغربي المعتاد على البلدان الصغيرة ، تبدو المساحات الشاسعة في الشرق وكأنها لا نهاية لها ، إلا أن الامريكي الساكن في الولايات المتحدة ، والذي اعتاد التفكير بمقاييس السهول الواسعة والبراري المعشبة فربما لا يشارك الأوروبي في هذا الشعور ، الذي يبعث في الشخص الأوروبي احساساً أقرب الى الرعب بطريقة لا يمكن تلافيها . ومما يعزز هذا الشعور طبيعة الاصقاع الروسية الكئيبة ، الممتدة على وتيرة واحدة ، والتي أشد ما تكون ايلاماً خلال أيام الخريف المعتمة وفي ظلمة الشتاء المتمادية . وعليه فإن الفرد الروسي يكون أكثر خضوعاً للبلد الذي يعيش فيه ، وفي اعتقادي ان تلك الاصقاع المترامية الاطراف مسؤولة الى درجة كبيرة عن سلبيته وروتين حياته .

لم يكن التأثير السايكولوجي الذي تركه هذا البلد على الفرد الالماني الاعتيادي أمراً يسيراً ، فلقد شعر هذا الفرد بضآلته وضياعه في الفراغ الذي لا نهاية له ، كما افتقد الحياة السعيدة ومستوى المدنية العالي الذي كان معتاداً عليه في بلاده . وفي الوقت عينه ، كان الجنود القادمون من المانيا الشرقية أسهل تكيفاً مع هذا البلد الغريب الجديد ، وذلك لأن المانيا الشرقية هي الحلقة التي تربط بين روسيا والغرب . أما الآخرون فقد تعلموا على كل حال كيف يتكيفون كما فعل آباؤهم من قبل في الحرب العالمية الأولى . وهكذا أصبح مسرح العمليات الشرقي محكاً حقيقياً لقطعاتنا ، ومدرسة صعبة قاسية . أما الرجل الذي استطاع أن يبقى حياً بعد مقارعة الجندي الروسي والطبيعة الروسية ، فلم يبق له ما يتعلمه عن الحرب سوى القليل .

لقد كانت جميع الحروب التي اشتركت فيها روسيا حروباً وحشية ودامية . فقد تعلم فردريك الكبير كيف يحترم نوعية الجندي الروسي خلال حرب السنوات السبع . أما نابوليون فقد اعتبر معركة بورودينو أبشع المعارك التي حارب فيها دموية اطلاقاً . وكانت الحرب الروسية ـ التركية في ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ حرباً ضارية ، وكذلك كانت الحرب الروسية ـ اليابانية في بداية قرننا هذا . وكانت الاصابات خلال هاتين الحربين عالية بدرجة كبيرة . وفي خلال الحرب العالمية الأولى ، تعرفنا على الجيش الامبراطوري كجيش من الدرجة الأولى ، والحقيقة المهمة وغير المعروفة الا قليلاً ، هي ان خسائرنا في الجبهة الشرقية كانت أعظم من جميع خسائرنا التي تكبدناها في الغرب خلال حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ . وفي تلك الحرب ، كانت القيادة الروسية متخلفة بكل تأكيد بالنسبة الى قيادتنا ، وكان تكتيك جيوشهم الضخمة مرتجلاً وغير متقن ، ولكن الجيوش الامبراطورية الروسية كانت تقاتل في الدفاع بعناد ، وتظهر براعة في اعداد المواقع الدفاعية بسرعة خارقة . ولقد أبدى الجندي الروسي مهارة عظيمة في العمليات الليلية وفي قتال الغابات ، كما أنه كان يفضل قتال الالتحام . أما احتياجاته المادية فكانت قليلة ، وقابليته على تحمل العقاب بدون ارتجاف مدهشة حقاً . . . هكذا كان الجندي الروسي الذي عرفناه وتعلمنا كيف نحترمه قبل ربع قرن مضى . ومنذ ذلك الحين ، حرص البلاشفة على اعادة تثقيف شبابهم بطريقة مرسومة ، وعليه فقد كان منطقياً ,أن نفترض ان الجيش الاحمر سيثبت انه (جوزة) أكثر صلابة وجلداً ضد الكسر مما كانَ عليه سلفه الجيش الامبراطوري .

لقد درس الروس حملاتنا السابقة بامعان ، وتوقعنا ان يكون قادتهم الكبار قد تعلموا دروس تجاربنا . ولكن اتضح ان ضباطهم ، في المراتب الصغيرة والمتوسطة ، كانوا ما يزالون غير ماهرين نوعاً ما .

لقد كان من الصعب جداً تكوين أية صورة واضحة عن تجهيزات الجيش الاحمر ، إذ ان تدابير أمنهم كانت شاملة ومؤثرة . ورفض هتلر ان يصدق ان انتاج روسيا الصناعي يمكن ان يساوي انتاج المانيا . وكان أكبر فشل للاستخبارات الالمانية ، هو فشلها في جمع المعلومات عن الدبابات الروسية . إذ لم تكن لدينا فكرة واضحة عن عدد انتاجهم الشهري . وحتى الخرائط كان من الصعب الحصول عليها ، طالما ان الروس كانوا يعتبرون جغرافيتهم سراً حربياً ويخفون خرائطهم في أماكن أمينة . أما الخرائط التي حصلنا عليها ، فكانت غير دقيقة ، بل ومضللة .

ولم يكن لدينا تقدير ثابت ومقبول حول قوة الروس اجمالاً . وبصورة عامة ، فإن أولئك الذين قاتلوا في روسيا خلال الحرب العالمية الأولى ، اعتبروا قوة الروس الحالية عالية ، بينما كان الآخرون الذين لم يعرفوا العدو عن كثب يميلون الى تقدير قوته دون حقيقتها . وكان هناك غموض كبير حول موقف السكان المدنيين . لقد كانوا في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ودودين مخلصين وذوي الاخلاق . ولكن ترى كيف أصبحوا الآن ؟ لا يمكن ان يعرف ذلك أحد . .

ولكنا نحن الذين عرفناهم في السابق ، كنا نعتقد ان ذلك الشعب المسالم كان يستحق حكومة أفضل من التي أجبر على العيش تحت حكمها لمدة ربع قرن .

النوايا الاستراتيجية (السوقية) :

كان الجيش الالماني عام ١٩٤١ ما يزال يتألف مبدئياً من فرق المشاة الراجلة ، يمونها رتل من العربات المسحوبة بالخيل . وبخلاف ذلك فقد كان جزء صغير من الجيش مؤلفاً من الفرق المدرعة والفرق المنقولة بالآليات ، وعليه فإن المشكلة الرئيسية كانت تكمن في كيفية قطع تلك المسافات الشاسعة في ذلك الوقت المحدود . وبالاضافة الى ذلك ، كانت الجبهة واسعة الامتداد ، تبتدىء من الكربات وتنتهي بسواحل البلطيق قرب ميميل . وكانت الحدود بشكل لا يجعل القيام بحركة الاحاطة أو ضرب الجناح امراً ممكناً حالا ولم يكن لنا بد من القيام بهجوم جبهوي .

كان تقديرنا لقوة روسيا في حزيران عام ١٩٤١ كما يلي : ـ ١٦٠ فرقة مشاة ، ٣٠ فرقة خيالة ، ٣٥ لواء مدرعاً ومنقولاً بالآليات . وان جزءاً من هذه القوة موضوع على حدود روسيا في الشرق الاقصى . أما قوّة روسيا في الرجال عند اعلان النفير الكامل ، فقدرت باثني عشر مليون رجل . وكان يعتقد ان الدبابات الروسية متفوقة علينا عدداً ، الا انها دون دباباتنا من الناحية الفنية . أما بقية التجهيزات فقد اعتبرت جيدة ، ولم تعتبر القوة الجوية الروسية والاسطول الروسي سلاحين ماضيين . وكانت معرفتنا عن الهيكل الداخلي للجيش الأحمر مغلوطة .

لقد كانت مشكلتنا الجوهرية ، كما أسلفت ، هي كيف يتسنى لنا دحر العدو في هذا المسرح الواسع للحركات خلال الوقت المحدود المتوافر لنا . ولم يكن لدينا إلا بضعة أشهر يجب علينا أن نحطم خلالها القسم الأعظم من الجيوش الروسية غرب نهري الدنيبر والدفينا . وفي حالة نجاح العدو بالانسحاب خلف هذين المانعين المائيين في حالة سليمة فإننا سنجابه عندئذ نفس المشكلة التي جابهها نابوليون عام ١٨١٢ . وعندئذ سيتعذر القول متى ستنتهي الحرب في الشرق .

كانت أهداف هتلر الأولية تستند على النواحي الاقتصادية ، اذ انه كان يريد الحصول على أراضي اوكرانيا الغنية بالحبوب ، وعلى المنطقة الصناعية في حوض الدوينتز . وبعدئذ الحصول على آبار الزيت في القوقاز .

أما براوخيتش وهالدر ، فكانا ينظران الى الحملة من وجهة نظر اخرى . وكانا يرغبان بالقضاء على الجيش الأحمر أولاً ، ثم الانتقال الى المكاسب الاقتصادية . وعلى أية حال كانت خطتا هتلر ومستشاريه العسكريين الكبار تتطلبان القاء زخم القوات الالمانية شمال أهوار

البريبت ، حيث تقوم مجموعتا جيوش بالهجوم ، على أن تكون مجموعة الجيوش اليمنى هي الاقوى . أما واجبها فكان ينص على ارسال دروعهما على الجناحين للاحاطة بالعدو غربي نهري الدنيبير والدفينا ، ومنعه من التملص شرقاً . وفي هذه الاثناء تقوم عناصر اخرى من مجموعة جيوش الشمال باحتلال لينينغراد ثم الاتصال بالفنلنديين . وهكذا يتم عزل وابعاد جميع القوات الروسية عن البلطيق ، وعندئذ فقط تهاجم موسكو من الشمال والغرب .

أما جنوب أهوار بريبت ، فكان على مجموعة جيوش الجنوب ان تقوم بهجوم جبهوي والتقدم شرقاً . ولم تجر الاشارة الى خطط ابعد من ذلك ، طالما ان تطور الحملة سيتوقف تلقائياً على نجاح تلك العمليات الأولية . وهكذا بقيت نقاط الخلاف بين وجهة نظر هتلر من جهة ووجهة نظر القيادة العليا للجيش من جهة اخرى على حالها بدون حل عندما ابتدأت المعركة . وسيكون هذا فيما بعد ، سبباً للاحتكاك الشديد بينهما خلال الصيف ، وستكون نتائج هذا الاحتكاك سيئة للغاية .

ربما يكون من المفيد ان نذكر هنا بعض آراء الضباط القادة التي أشيعت في هذا الوقت ، قبل الخوض في وصف نظام معركتنا وخطط عملياتنا بصورة مفصلة .

أعطاني الفيلد ماريشال فون رونشتت ، قائد مجموعة جيوش الجنوب ، وهو يعتبر ، بعد مانشتاين ، أكبر قادتنا الموهوبين خلال الحرب العالمية الثانية ، أعطاني آراءه حول المعركة المقبلة في آذار عام ١٩٤١ ، والتي يمكن اجمالها فيما يلي : « ان هذه الحرب مع روسيا فكرة سخيفة لا أستطيع ان أرى لها نهاية سارة . ولكن اذا كنا لا نتمكن من تجنبها ، لأسباب سياسية ، فلا بد إذا أن نواجه حقيقة ان هذه الحرب لا يمكن ان تربح في حملة صيفية واحدة . وما عليك الا أن تلقي نظرة على هذه المساحات المنتظمة ، ليبدو لك اننا ليس في استطاعتنا دحر العدو واحتلال روسيا الغربية بكاملها من البلطيق الى البحر الاسود خلال بضعة اشهر قصيرة . وعليه يجب أن نتهيأ لحرب طويلة الامد ، وأن نذهب لتحقيق أهدافنا خطوة بعد خطوة . وأولاً وقبل كل شيء يجب احتلال لينينغراد والمنطقة المحيطة بها ، بواسطة مجموعة جيوش قوية في الشمال ، لأن ذلك سيمكننا من الاتصال بالفنلنديين وابعاد الاسطول الأحمر عن البلطيق وتقوية نفوذنا في اسكندنافيا . أما مجموعة جيوش الوسط ومجموعة جيوش الجنوب ، فيجب عليهما في هذه الأثناء التقدم فقط الى خط وهمي على امتداد اوديسا ـ كييف ـ اورشا ـ بحيرة المين ، بينما تتحرك مجموعة جيوش الوسط شرقاً ، وتطبق على العاصمة . أما بقية العمليات فيجب تأجيلها كلها حتى عام ١٩٤٢ . وعندئذ علينا اعداد خطط جديدة مستندة على الموقف الحاصل » ، الى هنا تنتهي آراء رونشتت .

أما آمري المباشر في الجيش الرابع ، الفيلد ماريشال فون كلوغ ، الذي قاد فيما بعد جيش البانزر الرابع في الهجوم الرئيسي على موسكو ، فقد عبر لي عن رأيه فيما يلي : « تعتبر موسكو

رأس النظام السوفييتي وقلبه النابض . وبالاضافة الى انها العاصمة ، فهي مركز تسليح مهم ، وعقدة مواصلات حيوية لمنظومة شبكة سكك الحديد الروسية ، وبصورة خاصة لتلك الخطوط التي تؤدي الى سيبيريا ، وان الروس سيضطرون الى القاء قوات قوية في المعركة لمنعنا من الاستيلاء على العاصمة . وعليه فإن من رأيي أن نتقدم بكل قوانا المتوافرة باستقامة على امتداد طريق موسكو مارّين عبر منسك ـ اورشا ـ سمولنسك . واذا استطعنا الاستيلاء على هذه المنطقة قبل حلول الشتاء ، نكون قد أنجزنا ما فيه الكفاية بالنسبة لسنة واحدة ، وعندئذ سيتحتم علينا التفكير فيما سنضع من خطط لعام ١٩٤٢ » . . . ومن تعليقات ما بعد الحرب للمعلقين غير الالمان ، تقول احدى النظريات انه كان يجب علينا أن نركز جهودنا للاستيلاء على البحر الاسود والبلطيق ، وذلك بواسطة العمليات البحرية والجوية ، بينما يقوم الجيش بدور ثانوي فقط، وان ذلك كان سيؤدي الى عزل روسيا . . وعلى أية حال فإن خطة كهذه لم تكن عملية حقاً ، طالما ان بحريتنا وقوتنا الجوية كانتا صغيرتين جداً ، كما انه كان من الجوهري ان ندحر روسيا بسرعة ، لأن موقع المانيا الجغرافي يجعل اشتراكنا في حرب طويلة الامد امراً انتحارياً ، ولأن قوات بحرية عظيمة فقط يمكنها ان تتدبر أمر عمليات مطولة كهذه ، طالما انها ـ لمختلف الاسباب والاغراض ـ غير قابلة للمهاجمة وغير خاضعة للمضايقة الاقتصادية .

وكان رأيي الشخصي حول الموقف كالآتي :

« علينا أن نأخذ منطقتي موسكو ولينينغراد في عام ١٩٤١ ، وعلينا بعد ذلك أن نحتل عاصمة العدو ، وبذلك نكون قد وضعنا أيدينا على مركز سكك الحديد الرئيسية وأهم مدنه ، ويمكن ان يتم ذلك اذا حشدنا اقصى قوتنا في قاطعي مجموعة جيوش الشمال ومجموعة جيوش الوسط . وفي هذه الحالة يكون الواجب الرئيسي لمجموعة جيوش الجنوب ، خلال حملة عام ١٩٤١ ، مجرد التقدم جنوبي اهوار بريبت ، وستر الجناح الايمن لمجموهة جيوش الوسط ، وان أية محاولة لاحتلال جميع روسيا الجنوبية في هذا العام ستكون خارج البحث » .

ان لكل من تلك الخطط محاسنها ومساوئها . وتخطيط الحركات العسكرية علم صعب في أنسب الاوقات ، وتزداد صعوبته عندما يجب ان تخضع القرارات العسكرية الى الاعتبارات السياسية والاقتصادية .

الرجال في القيادة :

موضوع هذا الفصل هو موسكو ، لذا سألزم نفسي باعطاء صور مختصرة لاولئك الرجال الذين أنيطت بهم مسؤولية احتلال العاصمة الروسية . . . وبالرغم من أن عمليات مجموعة جيوش الوسط كانت وثيقة الاتصال بعمليات كل من مجموعة جيوش الشمال ومجموعة جيوش

الجنوب ، فان الذي سنتعرض له هنا هو مجموعة جيوش الوسط بقيادة الفيلد مارشال فون بوك .

كان بوك واحداً من أرقى أدمغتنا العسكرية ، وكان له (مثل رونشتت ومانشتاين) نبوغ في ادارة العمليات الواسعة النطاق . أما صفاته الخاصة فقد كان طويل القامة ، رشيق القوام ، أي انه كان نموذجاً بروسيا من المدرسة القديمة . وفي خلال الحرب العالمية الأولى ، كان بوك خلال مدة معينة رئيساً لشعبة العمليات في مقر مجموعة جيوش ولي العهد الالماني في الجبهة الغربية ، وكان نشيطاً وقاسي العبارة غالباً ، ويعبر عن أفكاره بوضوح واتقان . ولم يكن مظهره يدل على سنه ، ولو انه ربما قد تجاوز الاربعين من العمر، وعلى أية حال ، فإن صحته لم تكن على ما يرام، لانه كان يشكو من ألم دائم في معدته .

أما الفيلد ماريشال فون كلوغ ، فكان قائداً مقداماً ونشيطاً من الطراز التقليدي. وكان نبوغه تكتيكياً أكثر منه استراتيجياً ، ولم يكن يدخن أو يشرب الكحول الا نادراً ، وكان يأوي إلى فراشه في وقت مبكر دائماً، وينهض مبكراً أيضاً مهما كان الموقف خطيراً. وكان (مثل رومل) أكثر ما يكون سعادة عند وجوده بين القطعات في أقصى خط الجبهة ، وحتى انه كان يسيطر أحياناً على العمليات في الجبهة بنفسه، الامر الذي جعل عمل هيئة اركانه صعباً ، بالرغم من انه كان دائماً يرتب الامور بحيث تبقى هيئة أركانه مطلعة تمام الاطلاع على كل أمر قد يعطيه في تلك النقطة.

لقد كان الفيلد ماريشال مولعاً بالطائرات ، وكان فخوراً جداً بأجنحته التي نالها في الحرب العالمية الاولى ، وكان غالباً ما يشبه نفسه ، بطريقة مازحة ، بالماريشال ني في جيش نابوليون ، لانه كالماريشال ني لم يكن يعرف الخوف اطلاقاً . وكان في الواقع يتجاهل المخاطر ، ولم يتردد ابداً عن الطيران أو قيادة الآليات وسط نيران العدو . وكان عندما يزور الجبهة يستصحب معه دائماً خيمة ومدفئة وطعاماً وماء ، بالاضافة الى عجلة قيادة مدرعة وعجلة بيت لاسلكي وواحد أو أكثر من السعاة على دراجاتهم النارية ، وهكذا كان مستقلاً عن مقره وباستطاعته النوم أينما داهمه الليل. ولقد جرح مرات عديدة ، كما تعرض لحوادث كثيرة من حوادث السقوط والاصطدام بالطائرات والسيارات . ولم يكن يناله النصب ، أما مزاجه فكان دائماً شديد الاصرار.

أما الجنرال غودريان الذي كان قائداً لفيلق البانزر الثاني الذي تعاون بوثوق مع جيش كلوغ الرابع ، فقد كان قبل الحرب أحد الذين أوجدوا قوات المانيا المدرعة وكان يعتبر قائداً مولوداً للدروع .وكانت جميع عربات فيلقه موسومة بالحرف الاول من اسمه، (G) باللون الأبيض. ولقد كون لنفسه سمعة عظيمة في بولونيا ثم في فرنسا كقائد للقوة المدرعة . ولم يكن بالرجل الذي يسهل التعامل معه ، واذا ما دعت الضرورة يكون احياناً عنيداً للغاية ، وليست هذه

الصفة نادرة في الرجال البارزين . لقد كان غودريان جنرالاً فذاً بالتأكيد ، وكان علاوة على ذلك شعبياً ومشهوراً جداً بين أفراد القوات المدرعة .

أما الجنرال شتراوس ، قائد الجيش التاسع الذي عمل شمال جيش كلوغ الرابع ، فكان قائداً هادئاً ومتأنياً ومحنكاً ، ولقد تعاون مع جيشه الفيلق المدرع الثالث بقيادة الجنرال هوث ، وكان هذا الأخير قائداً بارزاً للدروع . وهو رجل وديع ودقيق في أعماله.

ويدخل اسم الجنرال هوبنر في القصة مؤخراً كقائد الفيلق البانزر الرابع ، وكانت قواته هي التي وصلت في النهاية الى أقرب نقطة عن موسكو، وتمكن هو أيضاً من الحصول على سمعة عالية كقائد مفعم بالحيوية والنشاط.

اولئك هم القادة وليس من حاجة الى القول ان الاختلافات في وجهات النظر بينهم كانت تتطور باستمرار خلال مجرى الحملة ، الا أن تلك الاختلافات لم تمنع هيئات الاركان من العمل بتقارب وتناغم فيما بينها . . . لقد عملنا دائماً ما استطعنا عمله الواحد مع الآخر باخلاص وبأحسن ما سمحت به امكاناتنا.

نظام المعركة الالماني (حزيران ١٩٤١):

مجموعة جيوش الجنوب:

كان الفيلد ماريشال فون رونشتت يضم تحت امرته أربعة جيوش مضافاً اليها فيلق البانزر الأول ، تحت قيادة الجنرال فون كليست ، وكان ترتيبها من اليمين الى اليسار كما يلي :

الجيش الالماني - الروماني في منطقة جاسي ، الجيش الهنغاري في جبال الكربات ، الجيش السابع عشر تحت قيادة الجنرال فون ستولبناغل شمال جبال الكربات ، الجيش السادس تحت قيادة الجنرال فون رايخناو بين الجيش السابع عشر و (لبلن) . أما فيلق البانزر (كليست) فكان قد وضع غرب توماسزو في غاليسيا.

وكان واجب مجموعة جيوش الجنوب التقدم شرقاً والى الجنوب من أهوار البريبت ، مع تركيز جهودها على جناحها الغربي وهدفها (كييف).

مجموعة جيوش الوسط :

سنتطرق الى كيفية تأليف واسلوب انفتاح هذه المجموعة تحت قيادة الفيلد ماريشال فون بوك فيما بعد ، وبصورة مفصلة ، وعموماً فان هذه المجموعة انفتحت الى الشمال من أهوار البريبت، وكان عليها أن تتقدم الى موسكو.

مجموعة جيوش الشمال:

ضم الفيلد ماريشال (رتر فون ليب) تحت امرته كلا من الجيش السادس عشر ، تحت امرة الجنرال بوش ، والجيش الثامن عشر ، تحت امرة الجنرال كوخلر، وضم اضافة لذلك جحفل جيش البانزر الرابع تحت امرة هوبنر، وانفتح جحفل جيش الشمال بين (سوالكي) و (ميميل)، حيث كان عليه ان يزحف على لينينغراد ثم يستدير نحو الجنوب.

القوة الجوية :

خصص لكل مجموعة جيوش اسطول جوي لاسنادها حسب الترتيب التالي :

الاسطول الجوي الرابع بقيادة العقيد لوهر لاسناد مجموعة جيوش الجنوب (رونشتت).

الاسطول الجوي الثاني بقيادة الفيلد ماريشال كيسلرنغ ، وهو أقوى الجميع ، لاسناد مجموعة جيوش الوسط (بوك) .

الاسطول الجوي الأول بقيادة الجنرال كوللر لاسناد مجموعة جيوش الشمال (ليب).

القوات :

في ٢١ حزيران ١٩٤١، كان لدى القيادة العليا الالمانية حوالى (١٣٥) فرقة معظمها كانت في الجبهة الشرقية او متجهة اليها . وكانت هذه القوة تضم: (٨٠) فرقة مشاة ، (١٥) فرقة مشاة منقولة بالسيارات أو العربات الاخرى، (١٧) فرقة بانزر (مدرعة)، (١) فرقة خيالة . كما كان ثمة بضع فرق للامن واجبها حراسة المناطق التي نتوقع احتلالها.

كانت مجموعة جيوش الجنوب تضم : (٢٥) فرقة مشاة ، (٤) فرق مشاة منقولة ، (٥) فرق بانزر (مدرعة) (٤) فرق مشاة جبلية .وكانت هذه كلها وحدات المانية . وبالاضافة اليها ، كانت المجموعة تضم فيلقاً هنغارياً وفرقاً سلوفاكية كما انضم إليها فيما بعد فيلق ايطالي .

أما الجيش الروماني بقيادة الماريشال انتونيسكو ، فكان تحت قيادة رونشتت ، من وجهة العمليات فقط ، ولقد جابه هذا الجيش قوات سوفييتية متفوقة عليه عدداً بقيادة الماريشال بوديوني.

مجموعة جيوش الوسط :

وهي أقوى المجموعات الثلاث . وكانت تتألف من : (٣٠) فرقة مشاة ، (١٥) فرقة بانزر أو منقولة ، وفرقة خيالة واحدة . وكانت تقابل هذه المجموعة قوات الماريشال تيموشنكو ، التي كانت اكثر عدداً بقليل .

أما مجموعة جيوش الشمال فقد تألفت من : (٢١) فرقة مشاة ، (٦) فرق بانزر أو منقولة، وكان يقابل هذه المجموعة في الجانب الآخر قوات روسية متفوقة عددياً بدرجة كبيرة بقيادة الماريشال فوروشيلوف .

وكان تعداد أساطيلنا الجوية الثلاثة في الطائرات حوالى ١٢٠٠ طائرة.

نظام معركة مجموعة جيوش الوسط :

تحركت القيادات العليا الى مقراتها الميدانية المتعاقبة قبل ٢١ حزيران بأيام قليلة . وكانت مجموعة جيوش الوسط المتألفة من الجيش الرابع والتاسع ، وفيلقي البانزر الثاني والثالث (وهي تشكيلات أكبر من فيلق الا انها تفتقر الى خاصية الجيش) ،تؤلف بمجموعها القوة التي ستتقدم وتأخذ العاصمة السوفييتية . . . وسنقتصر كلامنا منذ الآن على هذه القوة ، وبصورة خاصة على الجيش الرابع وفيلقي البانزر.

عُيّنت ساعة الصفر في الساعة ٠٣,٣٠من يوم ٢٢ حزيران ، وقبل ذلك الموعد تحرك رئيس أركان مجموعة جيوش الوسط مع ضباط أركانه الى وارشو ، بينما ترك كلوغ وهيئة أركان الجيش الرابع العاصمة البولونية واستقروا في غرب برست ليتوفسك ، أما غودريان ، وهوث وضباط أركانهما فقد كانوا أقرب الى خط الفتح .

كان تعليق كلوغ ، عندما فتش انفتاحنا ، كالآتي «اننا نبدوا رقيقين[1] جداً على الأرض كما ترون ، وكلما تقدمنا شرقاً كلما ازداد اتساع الجبهة وقل عمق خطنا، وعليه فإن من الجوهري ان تبقى قطعاتنا حسنة التركيز ، حتى لو أدى ذلك الى حدوث ثغرات بين قواتنا والجيوش العاملة على الجناحين». لقد كانت تلك الملاحظة تلخيصاً دقيقاً للموقف ، اذ إن شكل حدود روسيا الاوربية كان يقودنا بامتداد مجاز يتوسع باستمرار بين بحر البطليق والبحر الأسود . أما مخططنا للعمليات فكان كما يلي :

كان فيلقا البانزر موضوعين على أجنحة كلا الجيشين ، بحيث يكون فيلق غودريان على يمين الجيش الرابع في منطقة برست ليتوفسك . أما فيلق هوث فكان على يسار الجيش التاسع الى الغرب من سوالكي . وكان على هذين الفيلقين المدرعين أن يندفعا عبر خطوط العدو ويتقدما بأقصى سرعة الى منسك ، ويلتقيا هناك بحركة كماشة هائلة ، بغية تطويق أكبر عدد من القطعات الروسية ، وفي هذه الاثناء تقوم قوات المشاة المؤلفة من الجيش الرابع والتاسع بحركة احاطة محدودة ومصممة ، لهدف تحطيم قوات الجيش الروسي على الحدود او بالقرب منها . وقد

---

(١) المقصود بالرقة هنا ليس ما يتعلق بالخلق ، وانما هو تعبير عسكري يعني عكس العمق.
(المترجم)

خصصت قوات ضعيفة لمسك الجناح الايمن الذي كان محمياً بأهوار ريبت. هكذا كانت خطتنا الاساسية آنئذ.

ساعة الصفر :

أخذ شعور الانفعال يتنامى في الجانب الالماني باطراد . وفي مساء ٢١ حزيران، اعتقدنا ان الروس لابد قد أدركوا ما كان يبيت لهم ، ومع ذلك فقد كان كل شيء هادئاً في جبهة الجيش الرابع وفيلق البانزر الثاني ، أي بين برست ليتوفسك ، ولوزما عبر نهر بوغ . وكانت المراكز الامامية الروسية تسلك سلوكاً اعتيادياً تماماً . وبعد منتصف الليل بقليل، عندما وُجّهت جميع مدفعية فرق النسق الأول وفرق النسق الثاني نحو أهدافها . في ذلك الوقت مر قطار برلين ـ موسكو الدولي خلال برست ليتوفسك بدون أي حادث . لقد كانت لحظة رهيبة حقاً.

وبعد مرور ثلاث ساعات ، راقبنا الطائرات الالمانية المقاتلة وهي تقلع . وما هي الا لحظات حتى غابت في ظلام الليل ولم نشاهد منها غير انوارها الخلفية وهي تتجه نحو الشرق . وفي هذه الاثناء كان الفيلد ماريشال فون كلوغ وهيئة اركانه في قاطع فرقة المشاة (٣١) شمال غربي برست ليتوفسك. وعلى بعد أميال قليلة من نهر بوغ . ولما اقتربت الساعة ٠٣,٣٠، وهي ساعة الصفر، ابتدأ الظلام ينقشع، وتحول لون السماء الى اللون الاصفر . . . ، ومع ذلك فما زال كل شيء هادئاً ! . وفي تمام الساعة ٠٣,٣٠ فتحت جميع مدفعيتنا نيرانها ، وبعدئذ حدث ما كان يبدو معجزة، اذ لم ترد المدفعية الروسية على النيران . وقليلة جداً هي المرات التي انطلق فيها مدفع معاد من الضفة البعيدة . وفي خلال ساعات قليلة أصبحت فرق النسق الأول عبر نهر بوغ ، بينما كانت الدبابات تعبر النهر وهي محملة على الاطواف . وكانت الجسور القائمة تنشأ على قدم وساق . . كل ذلك تقريباً بدون أي تدخل من جانب العدو ، ولم يكن بعد هذا ثمة مجال للشك في ان الجيش الرابع وفيلق البانزر الثاني قد حققا مفاجأة تامة .

وأصاب الاختراق التكتيكي نجاحاً مماثلاً، وفي الحال تقريباً ، تمكنت دروعنا من اختراق دفاعات الحدود الروسية ، وتوجهت الى الشرق عبر الأراضي المفتوحة ، ولم نجابه مقاومة الا من قبل حامية برست ليتوفسك التي قاومت بتعصب وعناد لبضعة ايام .

ولاجل الانتقال الى معركة موسكو بأسرع ما يمكن ، فانني سأتعرض الى العمليات المتحركة للأشهر القادمة بما استطيعه من اختصار.

جيب بياليستوك ـ سلونيم :

لقد كان واضحاً ، كما اعتقد، ان الروس قد بوغتوا تماماً في جبهتنا ، وفي الحال تقريباً ، استمعت مجموعتنا للتنصت اللاسلكي الى رسالة روسية هذا نصها : «النار تطلق علينا . ماذا

نعمل ؟» ، فجاءهم الجواب من مقر قيادتهم الاعلى الذي طلبوا منه الاوامر : «لابد انكم مجانين . . ثم ، لماذا رسالتكم بغيررموز ؟». هذا من ناحيتنا، أما من الناحية الاخرى ، فان مجموعة جيوش الجنوب اصطدمت بمقاومة قوية في الحال ، وتطورت المقاومة بعد ذلك الى قتال شديد.

وعلى أية حال، فان كل شيء كان قد تم في قاطعنا وفقاً للخطة المرسومة، اذ اندفع فيلقا البانزر شرقاً ، ثم انعطفا نحو الداخل، وتابع غودريان اندفاعه شرقاً بجزء من قواته ، بغض النظر عن معركة التطويق الناشبة في مؤخرته ، وتقدم باندفاعه الشديد الى منسك ، آخذاً في الاعتبار الاهمية القصوى المترتبة على منع العدو من التملص عبر خطوط الانهر المتعاقبة وهي : ـ البريزينا ، والدنيبير ، والدفينا .

ومرت وحدات المشاة في ظروف قاسية ابان التقدم . وكان قيامها بقطع مسافة ٢٥ ميلاً من الأهوار يومياً حالة غير استثنائية كما انها لاقت صعوبات كبيرة من جراء التقدم على أشد أنواع الطرق فظاعة ووعورة . أما الصورة الواضحة التي بقيت عالقة في تلك الاسابيع، فهي السحب العظيمة للغبار الاصفر الناجم عن تحرك الارتال الروسية وهي تحاول التراجع، مضافا اليها الغبار الذي أثاره مشاتنا وهم يسرعون المطاردة . . كانت الحرارة عالية جداً ، بالرغم من زخات المطر المفاجئة التي حولت الطرق بسرعة الى وحل قبل طلوع الشمس مرة ثانية ، وتحول الوحل بدوره الى طمي متكسر حال طلوع الشمس مرة اخرى .

انتهت المعركة الأولى في الثاني من تموز . وكنا قد ربحناها وأسرنا بنتيجتها ١٥٠ الف رجل، وغنمنا أو دمرنا ١٢٠٠ دبابة و٦٠٠ مدفع . وكشف لنا انطباعنا الاول ان الروسي محارب عنيد، كعهدنا السابق به ، الا ان الدبابات الروسية لم تكن متينة كما ينبغي .أما قوته الجوية فلم نر لها أثراً حتى ذلك الحين .

لقد ظهر لنا ، حتى في هذه المعركة الاولى ،ان سلوك القطعات كان مغايراً بصورة قاطعة ، لسلوك البولونيين والحلفاء الغربيين . فلقد تشبث الروس في مواضعهم ، وتابعوا القتال في حالة تطويقهم ، وساعدتهم في ذلك مساحات البلد الواسعة بغاباتها ومستنقعاتها ، ولم يكن هناك العدد الكافي من القطعات الالمانية لاحكام إغلاق حركة تطويق واسعة كالتي تمت في بيالستوك ـ سلونيم . أما قواتنا المنقولة ، فقد قاتلت على الطرق أو بالقرب منها . وفيما بين تلك الطرق ، حيث الفراغات الهائلة من المساحات المحرومة من الطرق ، تركت القطعات الروسية بدون أي تصد لها ، ولهذا السبب كان بامكان الروس خرق الطوق دائماً ، وذلك بتحرك أرتال كاملة منها ليلاً عبر الغابات الممتدة بعيداً نحو الشرق . . . لقد كانوا يحاولون دوماً خرق الحصار من ناحية الشرق ، ولذلك عملنا على تكليف أقوى قطعاتنا لمسك هذه الجهة في كل حركة احاطة نقوم بها . وكانت تلك القطعات تتألف عادة من البانزر . وبالرغم من ذلك ، فنادراً ما

كانت احاطاتنا ناجحة تماماً . أما سرعة تقدمنا فيمكن تصويرها بالحقيقة التالية : انتقل مقر الجيش الرابع الى الامام مرتين خلال الايام الاربعة الأولى ، حتى يبقى على مسافة معقولة من مسرح العمليات . ففي يوم ٢٤ حزيران انتقلنا الى كامينيتس ـ لاتفسكي . وفي ٢٦ منه انتقلنا الى بروزاني .

معركة منسك وخرق خط ستالين :

قبل معركة منسك العظمى واختراق خط ستالين، أعادت مجموعة جيوش الوسط تنظيم نفسها بصورة أساسية ، وكما في الماضي عندما كانت كتلة الخيالة تندفع أمام جيوش المشاة بغية استثمار حركة الخرق ، تقرر الآن أيضاً مزج فيلقي بانزر هوث وغوديريان وارسالهما الى أبعد ما يمكن شرقاً ، وأنشىء مقر جديد لقيادة هذا الخضم من الدروع ، على أن يكون الفيلد ماريشال كلوغ مسؤولاً عن الحركة كلها . وأخذ هذا الاخير هيئة اركان الجيش الرابع معه بعد أن تغير اسمه الى جيش البانزر الرابع .أما الجيش الرابع السابق فقد حمل منذ ٢ تموز اسم الجيش الثاني ، وغدا تحت قيادة الجنرال فريهر فون فيخس ومقره في بروزاني . . . تحركنا الى الامام نحو منسك حيث وصلنا في ٣ تموز لاستلام واجباتنا الجديدة.

كانت معركة منسك الشديدة ناشبة عند وصولنا ، لكننا تركنا مهمة تصفية القوات المطوقة الى المشاة ، وتابعنا تقدمنا نحو الدنيبير والدفينا . وفي خلال تقدمنا الاخير هذا (٢ ـ١٢ تموز) تسببت المنطقة لاول مرة في احداث أضرار جدية في دباباتنا ، وأثبت نهر بيريزينا انه صعب العبور ، فقد كانت محاور الاقتراب منه مليئة بالمستنقعات ،والجسور الرئيسية مخربة جميعها . أما الجسور الثانوية التي أبقيت على حالها فلم تكن سوى أشياء خشبية رقيقة . وفي هذه المنطقة المحفوفة بالمستنقعات قاتل الروسي بصلابة . ولاول مرة ، أخذنا نصطدم بكميات كبيرة من الالغام . وأدى ذلك كله الى عرقلة تقدم الدبابات، ومكّن المشاة ، بعد انتهاء معركة منسك ، من اللحاق بالقوات المدرعة مرة اخرى . الا ان ابطاء كل من هوث وغوديريان لم يستمر طويلاً ، فقد استطاع الاخير الوصول الى الدنيبير على جانبي موغيليف ، واورشا بسرعة خارقة، بالرغم من الصعاب التي اعترضته . أما في الشمال فقد استطاع هوث أن يسجل بالمثل وقتاً جيداً في سباقه نحو نهر دفينا على فيتبسك، وبولوتسك. وهكذا استطاعت الدروع الوصول أخيراً الى ما كان يسمى بخط ستالين ، والذي كان يشكل الدفاعات الروسية الرئيسة .

لم يكن ذلك الخط محصناً في جميع أجزائه، ولم تكن تشغله قطعات روسية كافية للدفاع عنه بكفاءة ، على الرغم من التعزيزات التي ارسلت من الشرق ، ولهذا أصبح هوث وغوديريان في الحال على نهرى الدنيبير والدفينا بالتتابع وأصبح الطريق الى داخل روسيا مفتوحاً .

في اليوم الثامن من تموز انتقلت هيئة اركان جيش البانزر الرابع الى بوريسوف على نهر البريزينا ، وهنا وجدنا آثار نابوليون ـ فهنا على بعد عدة اميال شمال بوريسوف ، اضطر الجيش

الكبير (هكذا أطلق على جيش نابوليون) الى عبور النهر المتجمد في شتاء عام ١٨١٢ ، وتعرض الى خسائر مرعبة في الأرواح ، وعندما يكون ماء النهر صافياً تشاهد حتى الآن بقايا الدعامات الخشبية التي انزلت الى قعر النهر لتحمل الجسر الذي بناه المهندسون الفرنسيون في جيش نابوليون .

معركة سمولنسك:

بعد عبور فيلق البانزر الثاني لنهر الدنيبير ، وفيلق البانزر الثالث لنهر الدفينا، ازدادت المقاومة الروسية صلابة، ودفع الروس نجدات قوية من الشرق وحاولوا استرجاع خط ستالين ، ولا يمكن التحدث هنا عن المعركة مفصلة ويكفي القول ان التكتيك الروسي كان في هذه الآونة يتلخص في مهاجمة أجنحة ارتالنا المدرعة . واستمرت المناوشات فيما بين ١٢ و ٣٠ تموز ، وامتدت الى شهر آب ، حيث كانت تنشب معارك منعزلة من حين لآخر في المنطقة . وكانت أهم تلك المعارك حركة الاحاطة الكبرى لسمولنسك ،فبينما تابعت كتلة فيلقي البانزر تقدمها شرقاً ، بعد أن تركت بعض العناصر لترد هجمات السوفييت ضد أجنحتها ، أفرزت قوات أصغر لإغلاق الجانب الشرقي من جيب سمولنسك ، وبعد مسيرات هائلة تمكن جيشا المشاة من اللحاق بالمدرعات مرة اخرى . ومسك هذان الجيشان الجوانب الثلاثة الاخرى للجيب، بينما أغلقت دباباتنا المخرج قرب يارتسيفو . الا ان قوات العدو قامت بهجوم تملص ليلاً، وتمكنت من شق طريقها نحو الشرق ، وهكذا تبين بوضوح ان القوات المدرعة لم تكن مناسبة لمثل هذا النوع من الحركات، وبصورة خاصة ، في الاراضي المليئة بالمستنقعات والمحاذية لنهر الدنيبير .

تحرك مقر الفيلد ماريشال فون كلوغ من بوريسوف الى تولوشن ، وهناك زارنا السفير الياباني في برلين ، الجنرال اوشيما ، وصدرت بهذا الخصوص تعليمات مشددة من أجل ضمان سلامة حياة السفير . بيد انه اصر على رؤ ية نهر الدنيبير بالقرب من اورشا . وما كاد يفعل ذلك حتى فوجىء بسد من نيران مدفعية العدو الا انه لم يصب بأي أذى . وعاد فخوراً الى مقرنا حيث عرض سيفه الساموري للفيلد ماريشال كلوغ لمشاهدته .

وفي يوم ١٠ تموز ، استولت الفرقة المنقولة (٢٩) على سمولنسك ، وهي تعتبر أهم مدينة روسية تسقط في أيدينا حتى الآن ، وتحركنا في ٢٤ تموز مرة أخرى ، وأقمنا في هذه المرة مقرنا تحت الخيم في غابة تقع جنوب غربي سمولنسك ، وعلى بعد أميال قليلة من الجبهة . ومن هنا كان الطريق العام الذي سار عليه نابليون في طريقه الى موسكو لا يبعد مسافة كبيرة.

لقد أضيعت أسابيع ثمينة، فيما بين أواخر تموز وأوائل آب، وذلك عندما انشغلت قيادتنا العليا بالمداولة حول أي استراتيجية يجب ان نتبعها الآن . لقد سبق القول ان هتلر كان تواقاً

لضمان المغانم الاقتصادية الكبرى وهي اوكرانيا وحوض الدونيتز وأخيراً القفقاس ، وتقع هذه المغانم جميعها ضمن قاطع مجموعة جيوش الجنوب . أما هدفه الثانوي فكان لينينغراد ، التي بدت في هذه المرحلة من الحملة على وشك السقوط ، وربما كانت قد سقطت الآن لو لم يكرر هتلر خطأه السابق في دنكرك واصداره الامر الى الفيلد ماريشال فون ليب بايقاف دباباته خارج المدينة مباشرة . أما اهتمامه بموسكو فكان يأتي في المنزلة الثانية . نعم لقد كانت خطته الاصلية تتضمن ايقاف مجموعة جيوش الوسط على امتداد خط ديزنا والى الشمال، ومن ثم يتم نقل جزء لا بأس به من قواته الى مجموعة جيوش الجنوب ، والامتناع بعد هذا عن أية محاولات اخرى للتقدم نحو موسكو في هذه السنة . وبموجب هذه الغاية تم حل جيش البانزر الرابع ، وسُحبت هيئة اركان الفيلد ماريشال فون كلوغ الى الاحتياط ، ومرة اخرى اخذ فيلقا البانزر يستلمان أوامرهما مباشرة من مجموعة جيوش الوسط ، واقترح ان يعطى كلوغ الآن قيادة للسيطرة على فيلق غودريان المدرع وعلى جيش مشاة جديد . وكان على هذه القوة ان تتقدم باتجاه الجنوب الشرقي في قطاع مجموعة جيوش الجنوب ، وتدمير قوات العدو المنيعة جداً المجتمعة هناك .

لقد عارض هذه الخطة بشدة كل من رئيس أركان الجيش الفيلد ماريشال فون براوخيتش ورئيس هيئة أركانه العامة الجنرال هالدر ، فقد فضل براوخيتش أن يرى مجموعة جيوش الوسط مستمرة بتقدمها باستقامة نحو موسكو التي اعتبرها بمثابة الهدف الاساسي للحملة بكاملها ، وشاركه رأيه هذا كل من الفيلد ماريشال فون بزك وهيئة أركان مجموعة جيوش الوسط ، ومن الناحية الاخرى ، كان فون كلوغ يميل الى تفضيل فكرة هتلر الاستراتيجية ، ولذلك فقد جرى تبادل شديد في الآراء ، الامر الذي أدى في النهاية الى فوات اسابيع ثمينة قبل التوصل الى اتخاذ قرار نهائي .

في هذه الاثناء ، استمر القتال بين الدنييبر والديزنا ، وكذلك بين الدفينا والدنييبر الاعلى ، وتكون تدريجيا خط ثابت نوعا ما يمتد على طول خط ديزنا ـ شرق روسلافل ـ ويلنيا والى الغرب من دوروغو بوج . ولقد مُسك هذا الخط بقطعات الجيش الرابع القديم ، واتصل بالخط الذي مُسك من قبل قطعات الجيش التاسع في الشمال، واعيد الآن تركيب الجيش الرابع واعطيت القيادة للفيلد ماريشال فون كلوغ مرة اخرى ، فأخذ هذا هيئة اركانه معه . وهكذا أصبحنا مسؤولين عن خط ديزنا .

وشهد النصف الثاني من شهر آب وأيلول قتالاً للجيش الرابع على طول نهر ديزنا ، وقتالاً للجيش التاسع على طول نهر الدنييبر شمال دوروغوبوج . وفي هذه الاثناء كان فيلق غودريان البانزر الثاني يقاتل مع الجيش الثاني الى الجنوب منا ، بينما كان فيلق هوث البانزر الثالث مع الجيش التاسع ، واقتصرت أعمالنا على حرب مواقع تمتد على طول نهر الديزنا ، وذلك بسبب انعدام أي اسناد مدرع كاف ، الامر

الذي استدعى طلب أقسى المهام من القطعات . الا أن الروس هاجموا بعنف ونجحوا مرة اثر اخرى في اختراق خطوطنا الدفاعية الرقيقة ، مما استوجب استدعاء وحدات من الدبابات لسد الخرق . ولقد علمتنا هذه الحوادث ان وحدات المشاة لا تحتاج في الحرب الحديثة الى اسناد الدروع لها في الهجوم فحسب بل انها تحتاجها في الدفاع ايضا .

ان قولي عن خطوطنا الدفاعية انها كانت رقيقة هو تقدير دون الواقع ، فلقد أعطيت للفرق قواطع عرض الواحد منها ٢٠ميلا ، وبالنظر للخسائر الجسيمة التي تكبدناها خلال مجرى الحملة ، أصبحت الفرق دون قوتها الاعتيادية ، ولم يكن هنالك وجود للاحتياطات التكتيكية . وتكبدت فرقنا في القتال الذي نشب بصورة خاصة حول يلنيا خسائر جسيمةاخرى .

بالاضافة الى الاختلافات في الرأي بين هتلر وكبار مستشاريه العسكريين فيما يختص بالاستراتيجية كان هناك عدم اتفاق واقعي يختص بالامور التكتيكية ، فبالرغم من أن معارك الاحاطة الواسعة أدت الى أسر أعداد كبيرة من قطعات العدو والحصول على كميات هائلة من الغنائم ، الا أن النتائج لم تكن مع ذلك مرضية تماما كما كانت تبدو لاول وهلة ، وأحد الاسباب هو ان هذه الاحاطات الواسعة كانت تتطلب مزيدا من قواتنا المدرعة . أما السبب الآخر فهو ان نجاحها نادرا ما كان نجاحا تاما ، وغالبا ما تمكنت مجموعات كبيرة من الروس المحاصرين من التملص خارج الجيوب ، واتجهت نحو الشرق . ولذلك رغب هتلر أن يتم تكتيك التطويق على نطاق أصغر ، معتقدا بذلك ان المناورة ستكون ناجحة هكذا مائة بالمائة . وأخيرا تم القرار في أيلول على الخطة الاستراتيجية للمستقبل ، بموجب الخطوط العامة التي أوصى بها الفيلد ماريشال براوخيتش . وهكذا كان علينا أن نذهب الى موسكو ، الا أن السؤال الذي ظهر الآن كان حول ما اذا بقي لدينا وقت كاف لاحتلال العاصمة البعيدة بقواتنا المنهكة قبل حلول الشتاء الروسي . لقد كان علينا أن ندفع ثمن الاسابيع التي أضيعت في جدل عقيم خلال شهر آب وأوائل أيلول ،وأخيرا وصل الامر الاكيد . وكان على مجموعة جيوش الوسط أن تهاجم باتجاه موسكو على أن تبدأ الحركة في ٢ تشرين الأول، وهكذا ألقيت أوراق اللعب !! إن المعركة الكبرى على وشك أن تبدأ . وكانت فاتحتها معركة فيازما .

معركة فيازما :

في الوقت الذي راحت فيه القيادة العامة الألمانية تتناقش فيما يجب أن نفعل، أنجز الروس بناء خط دفاعي جديد على طول الدنيبير الاعلى والديزنا ، مقابل مجموعة جيوش الوسط . وكان هذا الخط عبارة عن الحلقة الخارجية للدفاعات التي تغطي موسكو . وكان واجبنا الآن هو أن نكسر هذه الحلقة ، ثم نقوم بحركة احاطة مزدوجة للعدو ، ومن ثم نباشر بالزحف الى داخل موسكو قبل بدء الشتاء . أما ترتيب قطعاتنا آنذاك فكان كما يلي :

الجيش الثاني وفيلق بانزر غودريان الثاني في بريانسك والى الجنوب ، وقد تجمعا لأجل الاندفاع الى أوريل ، والاتجاه من هناك شمالا ، وعلى جناحهما الايسر كان جيش كلوغ الرابع وبصحبته فيلق بانزر هوبنر الرابع في حالة الاستعداد ، وكان جناحه الايسر ممتدا بموازاة الدنيبير الاعلى شرقي سمولنسك .

لقد كان على هذا الجيش القيام بالهجوم الرئيسي على موسكو . أما في شمال الدنيبير ، فكان جيش شتراوس التاسع واقفا مع فيلق بانزر هوث الثالث في الاسناد . وكما في المعارك الاولى شرقي نهر بوغ ، فقد تحشد فيلقا البانزر العائدان لكل من هوث وهوبنر على الاجنحة الخارجية لجيشي المشاة التابعين لهما. وكان على قوتي الدبابات هاتين أن تندفعا نحو الشرق مرة اخرى ، ثم تنعطفان نحو الداخل للاحاطة بفيازما . أما جيوش المشاة فكان عليها أن تعيد من جديد تكتيكها الذي أثبت نجاحه في السابق ، وكان عليها اضافة لذلك أن تقوم بتنفيذ حركات احاطة صغرى ضمن حركة الكماشة المدرعة الكبرى ، وحالما يلتقي طرفا الكماشة ، يكون على فيلقي البانزر أن يتجاهلا ، إن أمكن ذلك ، معركة التطويق التي ستتطور في مؤخرتهما (في فيازما) وأن يتابعا اندفاعهما بأقصى قوة وأقصى سرعة نحو موسكو .

ابتدأ الهجوم في الضوء الاول من يوم ٢ تشرين الأول، وقام بالصولة كل من جيش كلوغ وجيش شتراوس بدقة مدهشة حقا ، ولقد تعاقبت جميع التحركات تماما كما جاء في حسابات هيئة الاركان العامة ، وكانت نتيجة هذه المعركة ـ التي تشبه ما يرد في كتب التدريب ـ والتي تمت فيما بين ٢ و١٣ تشرين الأول ، هي ان مجموعة جيوش الوسط تمكنت من أسر ٦٥٠ ألف جندي ، وفقد الروس ٥٠٠٠ مدفع و ١٢٠٠ دبابة .

كان عدد الاسرى والمعدات الحربية التي غُنمت أو دمرت من قبل مجموعة جيوش الوسط ، منذ ابتدأت الحرب ، تشكل أرقاما خيالية ، والقصة نفسها قد تكررت في قاطع مجموعه جيوش الشمال وقاطع مجموعة جيوش الجنوب ، ولم تكن مفاجأة لنا عندما اعتقد هتلر وقادته وكذلك القطعات نفسها ، ان الجيش الاحمر قد شارف على نهايته بالنسبة الى موارده في الرجال والاسلحة . ولقد أفاد الاسرى ان هذا الهجوم الجديد ، الذي شُنّ في وقت جد متأخر من السنة ، لم يكن متوقعا بالمرة . وبانت لنا موسكو وكأنها على وشك السقوط في أيدينا ، وساد مجموعة جيوش الوسط شعور متفائل ، واعتقدنا جميعا ـ من الماريشال فون بوك حتى أبسط جندي في الجبهة ـ ، اننا سنستعرض قواتنا عن قريب في شوارع العاصمة الروسية . وفي الواقع ان هتلر كان قد أنشأ قبل وقت قليل قيادة هندسة خاصة ليعهد اليها مهمة تخريب الكرملين ، ومهما يكن من أمر ، فانه لمن المحزن ان وزارة الدعاية قد وجدت الوقت مناسبا لتعلن بتفاخر ان الحرب في الشرق قد رُبحت ، وان الجيش الاحمر قد قُضي عليه من الناحية العملية .

لاجل أن نتفهم تماما المأساة المقتربة ، فإن من الضروري أن نفهم الحالة العقلية لكل من القادة والقطعات في هذه الفترة من الزمن . فمنذ ٢٢ حزيران والجيوش تنتقل من معركة ناجحة

الى اخرى ، على طرق سيئة للغاية وفي مختلف الاجواء ، وذلك ابتداء من نهر بوغ وحتى مشارف موسكو ، وبما ان أغلب الجيوش كانت تزحف على الاقدام مع عربات تجرها الخيول ، فان هذه المأثرة وحدها بالتأكيد هي أكثر المآثر الاخرى حرية بالاعجاب ، وقد تم ذلك كله في خلال ثلاثة أشهر ونصف فقط ، ناهيك عن الاسابيع التي ضاعت منها خلال مناقشات القيادة العليا للمسألة الاستراتيجية . وعندما انتهت معركة فيازما ، عدا عن بضعة مناوشات منعزلة في ١٢ تشرين الأول، كان من حقنا حينئذ أن ننظر الى انجازاتنا السابقة بكل فخر واعتزاز ، وأن نتطلع الى المستقبل بكل ثقة واطمئنان .

في منتصف تشرين الاول زحفت جميع الجيوش الى موسكو ، أما مقرنا ، الذي كان في روسلافل عندما ابتدأت معركة فيازما ، فقد تحرك الآن الى الامام ووجهته سباك ديمنسك ، وذلك في ٦ تشرين الأول. ثم توجه في العاشر منه الى يوخنوف ، وبعد ذلك بأيام قلائل ، كانت مجموعة جيوش الوسط بكاملها في حالة زحف نحو الشرق . وكل ما بقي الآن بيننا وبين العاصمة هو ما يدعى بالموضع الدفاعي لموسكو . ولم يكن لدينا أي سبب للاعتقاد بأن هذا الموضع سيثبت أنه جوزة صعبة الكسر بصورة استثنائية ، بل اعتقدنا اننا بمجرد اختراقنا لذلك الموضع سيكون الطريق أمامنا مفتوحا .

المزاج يتبدل :

والآن وبعد أن أصبحت موسكو في مدى البصر تقريباً ، تغير مزاج كل من القادة والقطعات ، وبكل دهشة وخيبة أمل اكتشفنا في أواخر تشرين الاول وأوائل تشرين الثاني ان الروس المغلوبين ظهروا وكأنهم يجهلون تماما انهم ، كقوة عسكرية ، لم يعد لهم وجود تقريبا . ففي خلال تلك الاسابيع ازدادت مقاومة العدو صلابة ، وأصبح أكثر مرارة بعد كل يوم يمر . وفي هذه الآونة استلم الماريشال جوكوف قيادة القطعات الساترة لمدينة موسكو ، وكان رجاله طيلة أسابيع عديدة منهمكين ببناء موضع دفاعي بعمق يمتد خلال الغابات المحاذية الى نارا ، اعتبارا من سربوخوف في الجنوب والى نارو ـ فومنسك ، ومن هناك تتجه شمالا : وامتلأت الآن الغابة التي تستر محاور التقرب الغربية الى موسكو بالمراكز الدفاعية القوية وبالموانع السلكية وحقول الالغام الكثيفة وكلها مخفية بمهارة فائقة . كما تشكلت الآن جيوش قوية من بقايا تلك التي دحرت في الغرب البعيد ومن تشكيلات حديثة ايضا ، كما كانت تصل باستمرار فيالق جديدة من سيبيريا . وكان قد تم في هذا الوقت اخلاء أغلب السفارات والبعثات الاجنبية ، بالاضافة الى جزء من الحكومة الروسية خارج موسكو وذهبوا شرقا . الا أن ستالين بقي مع عدد قليل من أركانه الخصوصيين في العاصمة التي صمم على عدم تسليمها ابداً . كل ذلك جاء بمثابة مفاجأة تامة لنا ، ولم نستطع أن نصدق ان الموقف سيتغير بصورة درامية بعد كل عملياتنا الفعلية ، وعندما بدت الجائزة في متناول ايدينا تقريبا . أما القطعات فقد انتابها الآن شعور

بالاشمئزاز ، ومعها الحق ، من البيانات الطنانة التي روجتها دعايتنا في تشرين الأول[١]. وابتدأ الواحد منا يسمع تعليقات قاسية عن القادة العسكريين البعيدين جدا في المانيا ، وشعرت القطعات بأن الوقت قد حان لقادتنا السياسيين أن يأتوا ويلقوا نظرة على الجبهة . وكان جنودنا الآن قد هدهم التعب الشديد ، وأصبحت وحداتنا دون قوتها . وبرزت هذه الحالة بصورة خاصة بين المشاة حيث تقلصت سرايا عديدة الى مجرد ستين أو سبعين رجلاً[٢] كما عانت الخيول من خسائر جسيمة ايضا . أما المدفعية فقد جابهت صعوبة كبيرة في تحريك المدافع ، وهبط عدد الدبابات الصالحة للخدمة في فرق البانزر الى حد بعيد دون ملاكها الاصلي ، ومنذ أن اعتقد هتلر بأن الحملة قد انتهت ، أصدر أوامره بتقليص مستوى انتاج الذخيرة الحربية في مصانعنا ، فلم تصل الوحدات المقاتلة الا نتف من التعويضات عن خسائرها . . لقد كان الشتاء على الابواب ، ومع ذلك لم نشاهد في أي مكان ما يدل على ان القطعات ستجهز بملابس الشتاء . أما خطوط مواصلاتنامع المانيا، فقد كانت ، بطولها الخيالي ورقتها المتناهية ، بالكاد تكفي لامداد الجيوش بحاجاتها من العتاد والتجهيزات الضرورية الاخرى ، فاضطررنا الى تكييف سكة الحديد الروسية ذات المقياس العريض لتناسب قاطراتنا الاوربية قبل أن نستطيع الاستفادة منها ، وخلفنا ، بعيدا من الجبهة ، كانت الوحدات الاولى من الانصار قد ابتدأت تشعرنا بوجودها في الغابات الشاسعة والمستنقعات . . وكنا نفتقر بصورة عامة الى الوسائل اللازمة لمقاتلتهم ، وغالبا ما نصبت الكمائن لأرتال التموين ، الامر الذي أدى الى معاناة القطعات الامامية من التقشف . وفي هذا الوقت أخذت أشباح (الجيش الكبير)[٣] وذكرى مصير نابوليون تفعل سحرها بأحلامنا ، ولم تبرح مذكرات الجنرال دو كولينكور منضدة فون كلوغ ، لقد كانت تلك المذكرات بمثابة انجيل له . وتضاعفت تدريجيا أوجه المقارنة مع اندحار نابوليون عام ١٨١٢ ، الا أن أحداثا غير ملموسة كهذه ذبلت جميعها ازاء مقارنتها مع فترة الوحل التي جاءت الآن لتزعجنا .

لقد توقعنا ذلك طبعا لاننا كنا قد قرأنا عنه في دراستنا للاحوال الروسية ، الا أن الواقع تجاوز الى حد بعيد أسوأ توقعاتنا ، فلقد ابتدأت في منطقة فيازما ببطء ، في أواسط تشرين الاول ، وأخذت تتحول تدريجيا من سيىء الى أسوأ حتى منتصف تشرين الثاني . وانه لمن الصعب اعطاء صورة واضحة عما كانت عليه لاي شخص لم يجربها بصورة فعلية .

---

(١) يشير الكاتب هنا الى البيانات التي روجتها اجهزة الدعاية الالمانية عن قرب سقوط موسكو وخروج روسيا من الحرب .

(المترجم)

(٢) ان ملاك السرية الاصلي في التنظيم الرباعي (وهي المتبع في الجيش الالماني) لا يقل عن ١٢٠ رجلاً .

(المترجم)

(٣) المقصود هو جيش نابوليون Grande Armée .

(المترجم)

لا يوجد في هذا الجزء من العالم الا عدد قليل جدا من الطرق المعبدة ، أما بقية الطرق وكذلك الاراضي المفتوحة فقد تحولت الى أهوار لزجة وراح رجل المشاة يتخبط وهو يسير بالوحل ، بينما احتاج كل مدفع الى عدة مجموعات من الخيول لسحبه الى الامام ، وغطست جميع العربات ذات العجلات حتى محاورها في الوحل اللزج . وحتى العربات المجنزرة كانت لا تستطيع التحرك الا بصعوبة كبيرة . وتعطل جزء كبير من مدفعيتنا الثقيلة عن الحركة في الوحل ، ولذلك لم تكن متيسرة للاشتراك في معركة موسكو . أما نوعية هذا الوحل فربما يمكن ادراكها اذا عرفنا ان الدبابات نفسها والعربات المجنزرة الاخرى استطاعت بشق الانفس أن تتقدم ، وغالبا ما كانت تغرز بتكرار . وربما يمكن الآن تصور الاجهاد الذي سببه ذلك كله الى قطعاتنا المنهكة أصلاً من السابق .

في هذا الوقت جوبهنا بمفاجأة غير سارة اخرى ، هي الدبابة الروسية ت ٣٤ . فلقد ظهرت اول دبابة من هذا النوع خلال معركة فيازما ، وفي عام ١٩٤١ كانت هذه الدبابة أعظم دبابة ضد النيران المضادة . ولم يكن بالامكان معالجتها الا من قبل دبابة اخرى أو من قبل المدفعية . وكانت منيعة كل المنعة ازاء الأسلحة المضادة للدبابات التابعة للمشاة ، لان مشاتنا في ذلك الوقت كانوا مجهزين فقط بمدافع ضد الدبابات عيار ٣٧ ملم و ٥٠ ملم ، وكان هذان المدفعان كافيين تماما للقضاء على جميع أنواع الدبابات الروسية التي اصطدمنا بها حتى ذلك الوقت ، إلا أنه لم يكن لهما أي تأثير ضد دبابة ت ٣٤ . وهكذا أصبح موقف فرق المشاة حرجا جدا وشعروا انهم عراة تماما ازاء هذه الدبابة الجديدة . وظهرت الحاجة الى مدفع عيار ٧٥ ملم على الاقل ، إلا أن مدفعا كهذا لا بد أن يصنع اولا . وفي معركة فيازما ، اندفعت الدبابات الروسية رأسا وبكل بساطة من خلال فرقة المشاة السابعة ، واتجهت نحو مواضع المدفعية ، وركضت فوق المدافع بالذات . وكان التأثير الذي أحدثته هذه الدبابات على معنويات رجل المشاة واضحا كل الوضوح ، فكانت هذه بداية لما سمي فيما بعد برعب الدبابات .

لقد اطلعنا على أمر للعدو كان قد وقع في أيدينا ، وكان موقعا من قبل الماريشال تيموشنكو ومعدا بعناية فائقة لاجل تشجيع قطعاته بعد هزائمها العديدة . وقد أدرج فيه نقاط الضعف المزعومة لدى الالمان حيث قال تيموشنكو لرجاله : ان قوة الالمان الرئيسية تكمن في مهارتهم الفنية وفي تجهيزاتهم . أما الجندي الالماني ، كما قال تيموشنكو ، فهو لا يجاري الجندي الروسي في القتال يدا بيد ، وانه (أي الجندي الالماني) يصبح مضطربا وخائفا عندما يقاتل ليلا أو في الغابات الشاسعة والاهوار ، وفي حرب من هذا النوع يكون الجندي الروسي هو الاحسن . وطبعا ان هذا القول ليس صحيحا تماما ، ولو كان كذلك لما كنا الآن على أبواب موسكو . ومع ذلك فان هذا الامر الروسي احتوى فعلا على شيء من الحقيقة،لان الاوروبي الغربي شخص متمدن بدرجة عالية جدا ، بحيث انه لا يستطيع ، من نواحي عديدة ، مجاراة الشرقي الاكثر خشونة ، والذي يعيش بتماس أكثر مع الطبيعة . أما بخصوص قوتنا الجوية فقد قاتلت

باتقان ، ولكن أصبح عدد الطائرات الصالحة للخدمة الآن قليلا ، كما كان هناك ايضا نقص في أراضي الهبوط القريبة من الجبهة ، وعلى الاخص ، خلال فترة الوحل . وبناء على حالة الارض ، حدثت عدة حوادث مؤسفة خلال الاقلاع والهبوط . أما القوة الجوية الروسية فلم تكن قد ظهرت حتى الآن الا نادرا . . .

في ٢٦ تشرين الأول حرك فون كلوغ مقره الى الامام مرة اخرى . وفي هذه المرة كان انتقاله من يوخنوف الى مكان ما وراء مالوياروسلافيتش وقريبا جدا من خط القتال حيث أحب كلوغ ان يضع مركز قيادته . وفيما بعد ، كما سنرى ، اوشكت هيئة أركانه ان تؤسر خلال الهجوم المعاكس الكبير السوفييتي . ومن الجدير بالذكر هنا ان نابوليون كان قد مر خلال مالوياروسلافيتش في عام ١٨١٢ .

في نهاية شهر تشرين الاول عقّب قطاعنا من الجبهة الالمانية مجرى نهر أوكا ، اعتبارا من اليكسن شمالا ثم استمر مع مجرى نهر نارا حتى نارو ـ فومنسك ، وانعطف بعدها نحو الشمال الغربي قاطعا الطريق الرئيسي وطريق موسكو متجها نحو (روزا) و (فولوكو لامسك). وحدد هذا القاطع ، في الوقت الحاضر على الاقل ، نهاية تقدمنا ، لان مقدرتنا الهجومية قد اصابها الوهن ، واصبحت قطعاتنا ضعيفة وهزيلة ، وبمواجهتنا اتخذ الروس مواضع تمتد عميقة في الغابة الساترة لموسكو ، وتركنا وراءنا جزءا من مدفعيتنا وعرباتنا الثقيلة عندما غرزت في الوحول في مكان ما بين فيازما ونارا . الا أن موسكو كانت في متناول قبضتنا ، وفي ظلام الليل كنا نشاهد قذائف الروس المضادة للطائرات وهي تنفجر فوق عاصمتهم . . . ولكن ماذا سيحدث بعد ذلك ؟.

مؤتمر اورشا :

في شهر تشرين الثاني ، دعا رئيس هيئة الاركان العامة رؤساء اركان مجموعات الجيوش الثلاث وكذلك بقية الجيوش المشتركة في القتال في الجبهة الشرقية ، لحضور مؤتمر في اورشا الواقعة على نهر الدنيبير . أما المسألة الخطيرة التي أراد مناقشتها في هذا المؤتمر ، فكانت تتعلق فيما اذا سيتحتم الآن على الجيوش الالمانية في الشرق أن تحضر موضعاً دفاعياً على طول خط الجبهة الحالية ، وتنتظر هناك حتى يتجدد الجو المناسب للهجوم في الربيع ، أو فيما اذا كان عليها أن تتابع هجومها خلال أشهر الشتاء . لقد عارض ممثل رونشتد (مجموعة جيوش الجنوب) أي حركات هجومية اخرى ، وفضل الانتقال الى الدفاع . اما مجموعة جيوش الشمال فقد كانت ضعيفة لدرجة لا تسمح لها بالقيام بأي هجوم جديد في هذه المنطقة . أما مجموعة جيوش الوسط فقد فضلت القيام بمحاولة أخيرة لاحتلال موسكو . وبالاضافة الى ذلك ، فإنه بمجرد وقوع العاصمة في أيدينا ، سيكون ممكنا أن تتحرك فرق مستقلة من البانزر شرق المدينة لاجل قطع المواصلات الحديدية الرئيسية مع سيبيريا.

كان الانقسام في وجهات النظر بسيطا للغاية . فمن ناحية كان هناك الامل الجذاب بالوصول الى الكرملين ، ومن الناحية الاخرى كانت هناك شكوك في مقدرة قطعاتنا على انجاز هذا الهجوم الاخير بالنظر لحالتها الضعيفة .

المحاولة الاخيرة :

وبعد هذا المؤتمر تمت مناقشات فورية ومفصلة مع القادة الحقيقيين في الميدان . وزار الفيلد ماريشال فون كلوغ وحداته في خط الجبهة الامامي مرات عديدة ، حتى انه سأل ضباط صفنا وضباطنا عن آرائهم .

لقد بقينا ضعفاء في الرجال والتجهيزات ، لاننا لم نستلم الا القليل من التعويضات والاسلحة ، ومن الناحية الاخرى فإن الفرق قد استطاعت ، منذ نهاية تشرين الاول ، أن تنال قسطا معينا من الراحة في المواضع التي مسكتها بمواجهة موسكو . وكان الجناح الايمن للجيش الرابع فقط قد تعرض الى هجمات معادية مستمرة كانت تأتي من منطقة سربوخوف وعلى امتداد جانبي طريق بودولسك ـ مالويارو سلافيتش،وكانت جبهتنا هنا ممسوكة من جهة اليمين بدقة. ولم تتمكن قطعاتنا من دحر تلك الهجمات الا بصعوبة .

استمرت مناقشات الموقف من قبل رؤساء الاركان ساعات طويلة ورسا القرار الاخير في صالح فكرة المحاولة الاخيرة . . . هجوم واحد أخير هدفه موسكو . !! لقد كانت القيادة العامة على اتم علم في ان هذه المحاولة لا يمكن ان تبدأ قبل انتهاء فترة الوحل عندما ستتجمد التربة مرة اخرى .

توزيع القطعات :

كان الجيش الذي القيت على عاتقه مهمة الهجوم على منطقة موسكو هو الجيش الرابع بقيادة الفيلد ماريشال فون كلوغ ، الذي تمت تقويته لهذا الغرض . اما جناحنا الايمن الممتد من نهر اوكا الى نهر نارا فقد تم اشغاله من قبل قوات ساترة خفيفة ، والى الجنوب من اوكا كان على فيلق بانزر غودريان الثاني أن يتقدم ، بالتعاون مع الجيش الثاني ، عبر تولا ثم الى الشمال الشرقي . اما كتلة الجيش الرابع فقد تحشدت على طول نهر نارا بين طريق بودولسك ـ مالويارو سلافيتش ، وطريق موسكو ـ سمولنسك ، والى الشمال من الطريق الاخير وشمال نهر موسكو تجمع فيلق بانزر هوبنر الرابع بين روزا وفولوكولامسك . وكان هوبنر تابعا لأمرة الماريشال فون كلوغ ، كما جرى تخصيص عدد من فيالق المشاة الى هوبنر ، لان التجارب السابقة اظهرت ان الحركات المشتركة بين الدبابات والمشاة في هذه الظروف قد اثمرت احسن النتائج . اما خطتنا للعمليات فكانت تنص على أن يهاجم فيلق البانزر الرابع باتجاه الشمال والى يسار الطريق

العام ثم عليه أن ينعطف نحو الشرق ويتجه نحو موسكو من الغرب ومن الشمال الغربي ، بينما يهاجم الجيش الرابع عبر نهر نارااليثبتالعدوفي هذه الجبهة .

الهجوم الأخير :

في منتصف تشرين الثاني انتهت فترة الوحل ، وأعلن الصقيع اقتراب الشتاء ، وأصبحت الطرق والأراضي المفتوحة صالحة لمرور مختلف انواع العربات ، واستخدمت الجرارات المجنزرة لتخليص المدفعية الثقيلة من الوحل ، وتم ربط عجلاتها الواحدة بعد الأخرى وارسلت الى الامام . ولقد حدث خلال عملية سحب المدافع من الأرض المتجمدة حولها بقوة أن تمزق عدد من تلك المدافع الى قطع عديدة .

كانت نتائج هجوم فيلق البانزر الرابع خلال الأيام القليلة الأولى مرضية تماماً ، حيث دفع العدو باستمرار الى الخلف باتجاه الشرق في قتال شديد . والى الشمال ، كان فيلق البانزر (رينهاردت) الثالث يهاجم أيضاً . اما الماريشال كلوغ فقد كان يمارس قيادته على كلا فيلقي البانزر المذكورين اضافة الى قيادته للجيش الرابع . كل هذاأعطاه قوة يبلغ مجموعها الكلي (١١) فيلقاً تضم (٣٥) فرقة ، تسع منها فرق بانزر ، ولكن طبعاً ، كانت هذه التشكيلات جميعها دون قوتها الاعتيادية سواء في الأشخاص أم في الأسلحة . وفي حوالى ٢٠ تشرين الثاني تغير الجو فجأة ، وبين ليلة وضحاها تقريباً خيم علينا الشتاء الروسي بكل أهواله ، وهبطت الحرارة فجأة الى (٣٠) درجة مئوية تحت الصفر ، وكان هذا البرد الشديد مصحوباً بهطول كثيف من الثلج . وفي خلال أيام قليلة عكس الريف صورة تقليدية للشتاء الروسي ، وبزخم يتناقص رويداً رويداً ، وبصعوبة تزداد شيئاً فشيئاً ، تابع فيلقا البانزر شق طريقهما نحو موسكو ، وتمكنا ، بعد أن القيا بآخر قسط من قوتهما ، من الاندفاع خلال (كلين) . ووصلت الطليعة المدرعة الى قناة موسكو ـ فولغا ، وفي هذه النقطة هوجم جناحها الشمالي من قبل تشكيلات سوفييتية جديدة كانت قد تحركت عبر الضفة الشرقية من القناة .

تمكنت وحداتنا الامامية ، عند تقدمنا المباشر على موسكو ، من الوصول الى اوسر تيكوي خلال الأيام الأخيرة من تشرين الثاني ، حتى ان دوريات الاستطلاع المدرعة كانت قد توغلت خلال ابعد ضواحي العاصمة من ناحية الغرب . والى هنا انتهت آخر قوى الهجوم لفيلقي البانزر ، فتوقفا عن الحركة نهائياً وسط الثلوج والجليد .

هكذا كان الموقف مساء ٢٨ تشرين الثاني ، عندما طلب الجنرال هوبنر من الفيلد ماريشال فون كلوغ ان يأمر الجيش الرابع بالهجوم على موسكو بموازاة نهر نارا لأن هجوماً كهذا ، كما قال هوبنر ، سيخفف من الضغط المسلط على فيلقي البانزر ، كما انه سيجذب القوات الروسية من جبهتهما الى جبهة جيش المشاة . وبعد مناقشة هذا الطلب معي ومع رئيس

اركانه من جميع الوجوه ، أصدر الفيلد ماريشال أوامره للهجوم في ٢٩ تشرين الثاني ، وتم الهجوم في صباح اليوم التالي (٣٠ / ١١) . وكانت نقطة المجهود الرئيسي للهجوم تقع على جانبي طريق نارو ـ فومنسك ؛ وقام فيلق بانزر بدعم الجناح الجنوبي للجيش المهاجم ، ومضى الهجوم الموحد وفقاً للخطة . وفي خلال الأيام القليلة التي تلت ، نجح المشاة في التوغل داخل المواضع الدفاعية السوفييتية المرتبة بالعمق وسط الغابات على امتداد نهر نارا في بضعة نقاط، ولكن في ٢ كانون أول ظهر لنا واضحاً أن قواتنا هنا أيضاً لم تعد كافية بالنسبة للمهام الملقاة على عاتقها ولم ينجح الا فوج الاستطلاع التاسع من فرقة المشاة ١٨٥ في ايجاد ثغرة في خط دفاعات العدو . ولذلك فقد اندفع هذا الفوج الى الامام خلال ساعات الظلام الطويلة ، ووصل تقريباً تخوم موسكو الجنوبية الغربية ، الا أنه لم يلبث أن هوجم هناك في وقت مبكر من صباح يوم ٣ كانون الأول من قبل الدبابات الروسية وعمال مصانع موسكو .

والآن قرر الفيلد ماريشال فون كلوغ أن يوقف الهجوم الذي أصبح بلا جدوى ، ولا يمكن أن يؤدي الا الى خسائر لا ضرورة لها . وعليه فقد أصدر ، في الليلة التالية ، أوامره الى وحدات الجيش الرابع الموجودة جنوب الطريق العام للانسحاب الى مواضعها الأولية خلف نهر نارا . وتم الانسحاب بمنتهى النجاح ، بينما راح العدو يتعقب القطعات المنسحبة بحذر .

لقد كان هذا القرار من جانب الفيلد ماريشال فون كلوغ صائباً بالنسبة إلى الظروف ، إذ لم تمض الا أيام قلائل حتى قام الروس بهجومهم المعاكس الكبير بقيادة الماريشال جو كوف ، وذلك في ٦ كانون الأول . وكان هذا الهجوم المعاكس موجهاً مبدئياً ضد فيلقي البانزر شمال غربي موسكو . وهكذا تم الوصول الى نقطة التحول في الشرق ، وفي اللحظة الأخيرة تماماً تلاشت آمالنا في اخراج روسيا من الحرب عام ١٩٤١ .

لقد كان من الجوهري الآن أن يتفهم قادة المانيا السياسيون ان أيام « البليتز كريغ » (الحرب الصاعقة) قد ولت الى غير رجعة ، واننا أصبحنا ازاء خصم كان يجب أن يحسب له حساب أكثر بكثير من أي عدو واجهناه حتى الآن . ولا بد من التأكيد هنا أن الجيش الألماني ، بقادته وقطعاته على حد سواء ، أظهروا شجاعة متساوية في مواجهة المصائب الفادحة والأخطار الجسيمة التي تواجهنا الآن . ولقد عرف كل جندي رابض خارج موسكو ان هذه كانت معركة حياة أو موت ، وإذا ما نجح الروس في دحرنا هنا فلا يمكن أن يكون ثمة أمل ، اذ ان نابوليون استطاع على الأقل في عام ١٨١٢ أن يعود ببقايا جيشه الممزق . أما في عام ١٩٤١ فليس للألمان الا أحد أمرين : اما أن يثبتوا أو يبادوا ، وفي هذه الأثناء راحت الدعاية الروسية تلقي علينا صوراً من الجو كانت تبدو فيها السهول الروسية المغطاة بالثلوج وهي مغطاة بجثث الجنود الألمان . لكن تلك الدعاية لم تترك أي انطباع سيىء على قطعاتنا .

أثبتت أفواج المتطوعين الفرنسيين الأربعة التي أُلحقت بالجيش الرابع أنها أقل صلابة مما يجب . وهذا ما دفع الفيلد ماريشال فون كلوغ إلى أن يلقي عليها خطاباً في ميدان المعركة في

بورودينو وبين لها فيه كيف قاتل الفرنسيون والالمان كتفاً لكتف في جيش نابوليون الكبير ضد العدو المشترك . ولكن من المؤسف أن الجنود الفرنسيين ، عندما أُرسلوا في اليوم الثاني الى المعركة لم يتمكنوا من الصمود أمام حدة هجمات العدو ولا أمام البرودة والعواصف الثلجية التي لم يعهدوها أبداً في بلادهم ، ومع ذلك فقد قاتلوا بشجاعة ، وسحقت الفرقة الفرنسية ، وكانت خسائرها جسيمة جداً بسبب العدو والبرد معا ، وتحتم سحبها من الجبهة بعد أيام قليلة ، وارسالها الى الغرب .

حالة الجيشين :

قبل أن نلقي نظرة عجلى على الحوادث التي تعاقبت بعدئذ ، فانه لمن الضروري أن نكون صورة عن القطعات للجانبين الالماني والروسي اللذين تقاتلا خارج موسكو في كانون الأول عام ١٩٤١ ، وكذلك عن الظروف التي نشبت فيها المعركة .

كان النهار على العموم مظلماً في الجبهة ، ما عدا بضع ساعات من الرؤ ية المحدودة لليوم الواحد ، وحتى الساعة التاسعة صباحاً ، يكون منظر الأرض ملفوفاً بضباب كثيف ، وتدريجياً نشاهد الشمس وكأنها كرة حمراء في السماء الشرقية ، وفي الساعة الحادية عشر تقريباً تصبح الرؤ ية ممكنة قليلاً ، ثم يحل الغسق في الساعة الخامسة عشر ، وبعد مرور ساعة من الزمن يسود الظلام بصورة كاملة تقريباً .

لقد كان في مالويا روسلافيتش مطار معبد ، حيث كانت تصلنا عن طريقه أحياناً طائرات الشحن من سمولنسك وأورشا ووارسو ، وهي تحمل إلينا اعداداً من التعويضات . الا أن تلك التعويضات لم تكن كافية تماماً للتعويض عن قوائم خسائرنا اليومية . وغالباً ما كانت تلك التعويضات عبارة عن سراويل طويلة و (جزم) ذات أشرطة ، أما المعاطف والبطانيات فلا واحدة منها . وكانت أرتال نقل الفرق تنتظر وصول الطائرات في المطار وهي متجمدة الى حد التصلب . وحال وصول التعويضات البشرية الى المطار ، كانت ترسل بسرعة الى الجبهة ، حيث يُنتظر وصولها على أحر من الجمر . وغالباً ما كانت تُرسل الى الجبهة في ليلة وصولها . وهكذا فإن الأشخاص الذين كانوا قبل يومين يعيشون في ثكنات ممتازة في وارسو ، يجدون أنفسهم خلال ٤٨ ساعة في الجبهة الرهيبة خارج موسكو .

عندما علم الفيلد ماريشال براوخيتش في أواخر الصيف أن الحرب في الشرق ستستمر في الشتاء ، ألح على هتلر لاتخاذ ترتيبات مسبقة تضمن تجهيز القطعات في روسيا بما تحتاجه من الملابس والتجهيزات الشتوية الملائمة . الا أن هتلر رفض ذلك ، بسبب اعتقاده الثابت أن الروس سيُدحرون قبل حلول الشتاء ، والآن ، أصبح مفهوماً فجأة وحتى في مقر هتلر ، أن الحرب في الشرق لم تكن في الواقع الا في بدايتها فقط ، وان على القطعات الالمانية أن تخوض المعارك الضارية القادمة بدون ملابس ملائمة للشتاء ! ! ، لقد كان ذلك مرعباً حقاً ، ولقد أصدر

هتلر أوامر مشددة لارسال تلك الملابس الى الشرق . وفي المانيا تم جمع كميات كبيرة من الفراء والملابس الشتوية الأخرى على نطاق واسع . وفي الحقيقة تم انجاز قسم كبير من عملية الجمع هذه بسرعة مرموقة ، ومع ذلك فقد جاء هذا الاجراء متأخراً ، لأن الملابس التي تم جمعها كانت تحتاج الى عدة أشهر من الوقت قبل أن تصل الى القطعات فعلاً ، ولذلك فقد كان على الجنود أن يقضوا شتاءهم الأول في روسيا يقاتلون بشدة ، وهم مجهزون فقط ببدلة صيفية ومعطف وبطانية . . صحيح ان ما كان متوافراً في روسيا نفسها من (جزم) مبطنة وأغطية رأس من الفراء وملابس صوفية داخلية قد تمت السيطرة عليه ، الا أن كل ذلك لم يكن الا قطرة في محيط ، ولم يؤثر الا قليلاً على حالة القسم الأكبر من جنودنا .

لقد كان التموين ناقصاً عادة ولم تتيسر الابضعة طرق حديدية في المنطقة التي وراء الجبهة ، وكانت هذه الطرق غالباً ما تقطع من قبل قوات الانصار ، اضافة الى أن الماء قد تجمد في مراجل القاطرات التي لم تصنع لتحمل الطقس الروسي ، ولم تستطع القاطرة الواحدة أن تسحب أكثر من نصف العدد الاعتيادي من الشاحنات ، كما أن كثيراً من القاطرات قد تعطل عن الحركة أياماً كاملة من جراء الثلوج والجليد . ولم يكن يؤبه لطلباتنا الفورية بخصوص تزويدنا بقذائف المدفعية الا نادراً ، وبدلاً من ذلك ، ولأجل تشجيع الجنود في الجبهة الشرقية ، أرسل لنا ما يعادل حمولة قطارات كاملة من النبيذ الأحمر من فرنسا والمانيا . ويمكننا أن نتصور غضب احدى الوحدات التي استلمت حمولة قطار من النبيذ عوضاً عن القذائف التي هي بأمس الحاجة اليها . وحتى شحنات النبيذ هذه كانت على الغالب غير مجدية ، لأن الخمر في درجة (٤٠ درجة) مئوية تحت الصفر ، وهي درجة ليست غير اعتيادية في هذا البلد ، غالباً ما كان يتجمد خلال نقله وينفجر في زجاجاته . وكل ما يتبقى منه بعد ذلك عبارة عن ثلج أحمر اللون ! .

أما المواضع الدفاعية التي يفترض أن تمنح ساكنيها ملجأ ، فلم يكن لها وجود تقريباً ، الأمر الذي أدى الى تطور تكتيكي ، راح فيه الطرفان يقاتلان بمرارة من أجل وضع اليد على القرى المتناثرة التي يتوافر فيها على الأقل بعض الحماية من البرد . أما النتيجة الأخرى التي ترتبت على ذلك ، فهي أن الطرفين كانا يصبان نيران مدافعهما على تلك القرى ويشعلان النيران في البيوت الخشبية ، من أجل حرمان العدو من الانتفاع بفوائدها . أما حفر المواضع فقد كان أمراً لا جدوى منه ، حيث انه لا يمكن الحفر في أرض متجمدة تشبه الحديد بصلابتها ، وحتى الأسلحة لم تستطع أن تأمن شر البرد ، فقد تجمد الزيت في قطع المدفعية ، كما تجمدت آلية الرشاشات ، وغالباً ما كان يستحيل فتح المغلاق ، ولم يكن لدينا أي (غليسرين) أو وقود مصمم للاستعمال في البرودة الشديدة . وفي الليل كان من الضروري أن نشعل النيران الصغيرة ونديم استعارها تحت دباباتنا لئلا تتجمد محركاتها فتنفجر . وكثيراً ما انزلقت الدبابات فوق الأرض الجليدية ، ثم انكفأت مائلة على جوانبها .

وأخيراً لعل هذا الوصف المختصر يعطي القارىء فكرة ما عن حقيقة الظروف التي عاشها الجيش الألماني في روسيا خلال شتاء عام ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ .

وكان الروس أحسن منا حالاً ، لسبب واحد هو أن البرد الشديد لم يكن عندهم بدعة ، اذ كانوا معتادين عليه . واضافة لذلك ، فان موسكو كانت تقع وراءهم مباشرة ، ولذلك كانت خطوط التموين الى الجبهة الروسية قصيرة ، كما تم تجهيز وحدات روسية عديدة بسترات اللباد ذات الفراء ، وبجزم اللباد ، وأغطية الرأس المصنوعة من الفراء والمزودة بواقيات آذان واسعة ، كما كان عندهم جزمات مبطنة ولا يفتقرون الى القفازات أو الى الملابس الداخلية الدافئة . أما قطاراتهم الشاحنة فكانت تسحب بماكنات سيبيرية مصنوعة خصيصاً لتحمل البرودة. الا أن الشاحنات والدبابات الروسية كانت بطبيعة الحال تعاني من نفس النواقص التي في دباباتنا وشاحناتنا ، ولكنها كانت مع هذا أحسن مما لدينا نسبياً ، لانها كانت مصممة أيضاً لتقاوم برودة الطقس . أما القوة الجوية الروسية فنحن ما زلنا لا نرى منها الا قليلاً ، بالرغم من أن الجبهة لا تبعد الا دقائق قليلة عن المطارات في موسكو .

هكذا كانت الظروف في ٦ كانون الأول عندما قام الماريشال جو كوف بشن هجومه المعاكس الهائل والمشؤوم على جبهة موسكو .

الهجوم المعاكس السوفياتي :

ان المعارك العنيفة التي أدت تقريباً الى تحطيم أجزاء كبيرة من الجبهة الالمانية تشكل بمجموعها سلاسل تاريخية من المعارك ، كما أن وصفها مفصلاً يحتاج الى كتاب بكامله . ولكن لأجل أن نتفهم معركة موسكو ككل لابد من رسم تلك المعارك بخطوطها العريضة على الأقل ويمكن القول ان معركة موسكو قد استمرت حتى منتصف شهر آذار عام ١٩٤٢ .

في بداية الحركات الافتتاحية للهجوم المعاكس السوفياتي ، هاجمت قوات سوفياتية متفوقة الى الشمال من موسكو ، وعبرت قناة موسكو ـ فولغا من الشرق باتجاه كلن ، وانقضت على الجناح الأيسر لفيلق البانزر الثالث (رينهاردت) في المنطقة الكائنة جنوب بحيرات الفولغا، وفي الوقت نفسه هاجم السوفيات جبهة فيلق البانزر الرابع، وأبعد من ذلك الى الجنوب وجه هجوم قوي الى الجنوب الغربي من موسكو ، على طول خط طريق موسكو ـ سمولنسك العام ، وصدم هذا الهجوم عقدة الاتصال بين فيلق البانزر الرابع والجيش الرابع نفسه . ولم تستطع قوات البانزر الالمانية الصمود بحالتها الضعيفة امام هذا الضغط الهائل، وعليه فقد اجبرت على الانسحاب ببطء ، وهي تقاتل قتالاً شديداً فوق الثلج والجليد، بغية ايجاد جبهة موحدة بعيداً الى الغرب. واستوجب ذلك الانسحاب التخلي عن الكثير من التجهيزات الثقيلة . وكانت الطرق والمسالك الاعتيادية مغمورة الى عمق كبير بالثلج المندوف ، الامر الذي أدى الى توقف عدد من المدافع والدبابات عن الحركة ، وكانت خسائرنا من جراء هجوم العدو جسيمة حقاً ،

الا ان خسائرنا من جراء شدة البرد كانت أكثر جسامة. وقد أثر هذا بصورة خاصة على اقدام الجنود بسنبب ضيق الأحذية التي زودوا بها ، حيث انها لم تسمح لضيقها بارتداء أكثر من زوج واحد من الجوارب . وأخيراً وافق هتلر نفسه على انسحاب فيلقي البانزر . وفي منتصف كانون الاول امتد الهجوم السوفياتي الى الجنوب الغربي، وشُنت هجمات اخرى جديدة ضد الجيش الرابع بين سيربو خوف ودجوتكوف . وهنا نجح العدو في الوقت الحالي فقط ، بتحقيق بعض الاختراقات المحلية . الا ان الجيش الرابع تمكن بصورة عامة من المحافظة على جبهته بحالتها السليمة.

الا أن نقطة الخطر الحقيقية كانت جنوب الجيش الرابع . لأن جيش بانزر غودريان الثاني (كان سابقاً فيلق البانزر الثاني) كان قد تعرض هناك الى هجوم عنيف جداً من قبل العدو . ولم يكن غودريان يمتلك في ذلك الحين سوى قوة مدرعة ضعيفة جداً . ولقد ابتدأ العدو بتقدم كثيف الى تولا ، ولم يكن جيش البانزر الثاني قوياً الى الحد الذي يسمح له بمقاومة ذلك التقدم . وبعد أن نال السوفيات هذا الهدف الأول تابع قسم من قواتهم الهجوم باتجاه الغرب ، بينما انعطف الباقي نحو الشمال الغربي باتجاه كالوغا ، ووقع هجوم آخر على قطاع أوكا في منطقة تاروزا ـ أليكسن ، وهنا أيضاً اندفع قسم من القوة السوفياتية نحو الغرب ، بينما انعطف القسم الآخر نحو الشمال الغربي . ولكن في هذه المرة نحو مالوياروسلافيتش وميدن .

لقد كانت نوايا السوفيات من وراء مناورتهم هذه واضحة . إذ انهم كانوا يعدون حركة احاطة مزدوجة واسعة لجيش كلوغ الرابع وذلك بواسطة هجمات في الشمال والجنوب . والهدف الأخير من ذلك هو تطويق ثم تدمير الجيش الرابع في مواضعه الحالية غربي موسكو .

لقد كان صعباً على القادة الألمان أن يأملوا بمجرد ايقاف (ناهيك عن دحر) الذراع الجنوبي العظيم للكماشة السوفياتية ، فلقد أصبحت هناك الآن ثغرة بين الجيش الرابع وجيش البانزر الثاني . وراح السوفيات يوسعون تلك الثغرة باستمرار وبقوة . ومن ناحية اخرى ، فان الماريشال فون كلوغ لم يكن يملك أية احتياطات ليتمكن بواسطتها من تحسين الموقف الذي يزداد خطورة على جناحه الجنوبي . وبالاضافة لذلك فان الجيش الرابع لم يكن يملك سوى طريق واحد للتموين في الخلف ، وهو طريق يوخنوف ـ ميدن ـ مالوياروسلافيتش ـ بودولسك العظيم ، وفيما عداه فان أي طريق آخر في كافة منطقة الجيش كان قد اختفى تحت الثلوج ، وإذا ما نجح السوفيات المتقدمون من الجنوب في قطع هذا الطريق الذي لا طريق سواه فان كل شيء سينتهي عندئذ على جبهة الجيش الرابع .

« الجيش الرابع يجب أن يثبت ويقاتل » :

ليس من قبيل المفاجأة ، في ضوء الحالة السائدة ، أن تتدبر مجموعة جيوش الوسط مسألة اصدار الأمر بانسحاب مدبر يقوم به الجيش الرابع مع القطعات المتجحفلة معه باتجاه الغرب .

وأصبحت هذه المسألة أكثر منطقية طالما أن فيلق البانزر الثاني كان قد أُجبر على التراجع من منطقته في الجنوب الى ما وراء نهر أوكا على جانبي فاليف . وبناء على ذلك فقد وضع خط على الخريطة يمتد اجمالاً من فاليف ويمر عبر يوخانوف الواقعة على نهر أوغرا ثم يمر بغزانسك وينعطف بعدئذ شمالاً . وكان من المنتظر انسحاب الجيش الرابع الى ذلك الخط ، وصدرت الأوامر باستطلاع ذلك الخط . وفي هذه الاثناء كانت هناك فرقة منقولة في طريقها فعلاً الى يوخانوف ، أما الفيلد ماريشال كلوغ وهيئة أركانه فقد بقيا بشكل متعمد في مالوياروسلافيتش ، بالرغم من أنها غدت الآن مهددة جدياً . وفي منتصف كانون الأول دعا كلوغ كلا من آمري فيالقه ورؤساء أركانه لحضور مؤتمر داخل كوخ خشبي كان يتخذه مقراً له ، من أجل مناقشة تفاصيل انسحاب وحدات الجيش الرابع الكائنة في جنوب طريق موسكو ـ سمولنسك العام . وكان كل شيء واضحاً تماماً . ولكن جاءنا فجأة نداء هاتفي من الجنرال فون غريفنبيّرغ رئيس هيئة أركان مجموعة جيوش الوسط ، وكان يرغب في الكلام مع رئيس هيئة أركان الجيش الرابع . فذهبت الى الهاتف . . . لقد كان غريفنبيرغ صديقي الشخصي الحميم . وعندما رفعت السماعة سمعته يقول: « من الأفضل لكم أن تريحوا أنفسكم حيث أنتم الآن . . . لقد وصل تواً أمر من هتلر . . . الجيش الرابع لن ينسحب ياردة واحدة » .

لا بد أن القارىء الذي رافق تسلسل القصة حتى الآن سيدرك الأثر الذي تركه هذا الامر علينا ، لأنه لا يمكن أن يعني في أي حال من الأحوال سوى دمار الجيش الرابع ، ولكن مع دلك فقد أطيع ذلك الأمر وأعيدت الوحدات التي كانت في طريقها نحو الغرب الى مواضعها في الجبهة ، وتهيأ الجيش الرابع ليقاتل معركته النهائية ، وأصبح انقاذه بحاجة الى معجزة . ولم يكن هذا كل ما هنالك ، اذ في هذه اللحظة الحرجة جرت تصفية واسعة في صفوة الجنرالات والقادة .

فرص في القيادة :

كان الفيلد ماريشال فون بوك قائد مجموعة جيوش الوسط يعاني منذ وقت طويل آلاماً متناوبة في معدته . ولقد تردت حالته الصحية كنتيجة لانحدار مجموعته على أبواب موسكو . وكان عليه الآن أن يتخلى عن القيادة ، ولو مؤقتاً على الأقل ، وحل محله الماريشال فون كلوغ ، ذلك الرجل الحديدي الذي غادر الجيش الرابع في ١٨ كانون الأول واستلم قيادة مجموعة الجيوش التي كان مقرها آنئذ في الغابة الواقعة غرب سمولنسك .

وهكذا وجد الجيش الرابع نفسه ، في هذه اللحظة البالغة الخطورة ، بدون قائد . ولقد اعتقد كلوغ أنه ما زال بامكانه أن يمارس سيطرته الشخصية المباشرة على جيشه القديم من سمولنسك بواسطة الهاتف واللاسلكي ، ولذلك ارسل لي ، بصفتي رئيساً سابقاً لهيئة أركانه ، أوامر وتوجيهات كان علي حينئذ أن انفذها على مسؤوليتي الخاصة بصورة مطلقة . واستمرت

هذه الحالة حتى ٢٦ كانون الأول عندما وصل القائد الجديد الجنرال ماونتن الى مقر الجيش الرابع ، وفي وقت ما ، بقي هذا الجيش لمدة مؤقتة تحت قيادة الجنرال ستومي ، وهو بالأصل قائد قطعات بانزر . انه لمن السهل ملاحظة العبء الاضافي الذي فرض على الجيش من جراء تنظيم القيادة المربك والمرتبك في آن واحد .

وفي هذه الآونة كانت هناك تبدلات أكثر دلالة وأهمية في المستويات العليا ، فلقد ساءت العلاقة بين هتلر ورئيس أركان الجيش الفيلد ماريشال فون براوخيتش . ولم يعد أحد منهما ينظر في عيني الآخر منذ وقت طويل ، كما أن الثاني كان يعاني من مرض في قلبه منذ سنوات ، وأخيراً كان للموقف السيىء غربي موسكو وقع شديد عليه فاستقال من الخدمة وحل محله هتلر نفسه كرئيس لرئاسة أركان الجيش ، وأعطى لنفسه وحده جميع الصلاحيات التي يخولها له ذلك المنصب البالغ الأهمية . أما مستشاره الوحيد الذي له صلاحية اشغال منصبه فقد كان رئيس هيئة الأركان العامة الجنرال هالدر .

لقد اعتقد هتلر أن بامكانه شخصياً ابعاد المأساة التي كانت تلوح امام موسكو ، ولا بد من القول بمنتهى الصراحة ، انه نجح فعلاً في ذلك ، وان أمره التحكمي بوجوب ثبات القطعات في كل موضع من مواضعها مهما استحالت الظروف ، كان صحيحاً بلا شك . فلقد أدرك هتلر بحاسته الغريزية أن أي تراجع عبر الثلوج.والجليد سيؤدي حتماً ، خلال أيام قليلة ، الى تفكك الجبهة . واذا ما حدث ذلك فان الجيش الالماني سيلقى نفس المصير الذي حل بجيش نابوليون، ففي الظروف التي كانت سائدة حينذاك ، لم يكن من الممكن سحب الفرقة لأكثر من ثلاثة أو ستة أميال في الليلة الواحدة ؛ ولم يكن ممكناً أن يطلب أكثر من ذلك من القطعات أو الخيول في حالتها المنهكة آنذاك . وكان على المنسحبين أن يمروا عبر البراري المفتوحة ، طالما أن جميع الطرق والمسالك كانت مطمورة بالثلوج . وما هي الا بضع ليال حتى تجد القطعات نفسها منهكة الى درجة تفوق قدرتها على التحمل،وستلقي بنفسها على الأرض لتموت أينما حلت . ولم تكن ثمة مواضع مهيأة في الخلف ليتم سحب القطعات اليها، كما لم يكن ثمة أي خط دفاعي يمكنها الثبات فيه .

وهكذا وفي خلال الاسابيع التالية ، انتقلت المعارك بتباطؤ نحو الغرب، وأجبرت جيوشنا على التراجع خطوة بعد خطوة وهي تقاتل بضراوة ، وتمكن السوفيات من اختراق جبهتنا مرات متكررة، وكان في طاقتنا دائماً ما يكفي فقط لاخراجهم ثانية . . لقد انخفضت قوة القتال فى السرايا تدريجياً حتى أصبح الموجود من كل منها الآن لا يزيد على ٤٠ رجلاً، كما كانت خسائرنا في الاسلحة والتجهيزات جسيمة أيضاً ، وبقي الخطر الرئيسي يتمثل في تهديد الجناح الجنوبي للجيش الرابع حتى نهاية كانون الأول.

والآن ابتسم القدر لهتلر وتباطأ هجوم العدو بالرغم من أن قوته كانت أكثر منا بكثير . ولقد خاب ظن العدو بدون شك عندما لم ينجح في تحطيم الجبهة الالمانية غربي موسكو ، وأصيب بالدهشة أمام ثبات القوات الالمانية المضعضعة وهي تقاتل دونما أية حماية ضد قساوة الجو، فراحت القيادة السوفياتية تدفع قواتها الى الامام دون هوادة، وقبل عيد الميلاد، ببضعة أيام تنصتت أجهزتنا في مالوياروسلافيتش الى الرسائل اللاسلكية التالية التي لا تخلو من مدلول.

أرسل آمر كتيبة سوفياتية هذه الرسالة الجوابية «يستحيل مؤقتاً تنفيذ الهجوم كما نص الامر . . . التأجيل لمدة اثنتي عشرة ساعة أمر ضروري . . . » فجاء الجواب من الضابط الاقدم كما يلي : «عليك أن تهاجم حالاً والا فانني أخشى على صحتك . . . » .

لقد حدث شيء ما أشبه بالمعجزة على الجناح الجنوبي للجيش الرابع ، ومما لا يمكن تفسيره هو ان السوفيات فشلوا بالرغم من تفوقهم المحلي في احتلال طريق يوخنوف ـ مالويارو سلافيتش .وهكذا لم يوفقوا في قطع خط تموين الجيش الرابع الوحيد. أما فيلق فرسان بيلو الذي سبب لنا قلقاً عظيماً لعدة ليال متعاقبة خلال النصف الثاني من كانون الاول ، فكان قد توغل عميقاً في مؤخرتنا باتجاه يوخانوف، وواصل تقدمه فعلاً حتى الطريق الحيوي آنف الذكر، ولكنه فشل، هو الآخر في قطعه، وتابع التقدم غرباً واختفى في أهوار بوغوروديتسكوى الكبرى.

وفي يوم عيد الميلاد عام ١٩٤١ كانت هيئة أركان الجيش الرابع ما زالت في مالوياروسلافيتش، مع انه في اليوم الذي سبق عيد الميلاد نشب قتال مستمر طيلة الليل قريباً جداً من مقرنا ولم يكن يفصلنا عن السوفيات سوى فرقة البانزر التي سحبت خارج الجبهة ، ولم يكن قد بقي لهذه الفرقة سوى (٥٠) دبابة صالحة للخدمة. وفي خلال تلك الاسابيع لم يكن للقوة الجوية الالمانية تأثير كالسابق ، فلقد نقلت عناصر قوية من اسطول كيسلرنغ الثاني الى شمال افريقيا لمساعدة رومل الذي كان في ورطة هناك، وفي يوم ٢٥ كانون الأول نقل مقر الجيش الرابع في آخر لحظة ممكنة الى يوخنوف.

وبحلول ٢٢ كانون الاول أصبح كل من فيلقي البانزر الثالث والرابع مفصولين عن الجيش الرابع ، وأصبح هذا الأخير وحده الآن تماماً ، ولم يكن بامكانه ممارسة صلاحيات القيادة على فيلقي البانزر شمال طريق موسكو ـ سمولنسك العام . والآن فان مقارنة لقوى الطرفين كما كانتا في نهاية كانون الأول ستكون ذات دلالة.

تألف الجيش الرابع الكائن بين كالوغا ودجوتكوفو في هذا الوقت من : (١٣) فرقة مشاة و (١) فرقة بانزر . وكانت هذه التشكيلات على كل حال دون قوتها بكثير ، وكثير من الفرق كانت في الحقيقة لا تعدو عن كونها فيالق مؤلفة من جميع الاسلحة. وفي هذا الوقت كان يواجه جبهة الجيش الرابع من الجانب السوفياتي القوات التالية التي كان معظمها في القطاع الجنوبي:

(٢٤) فرقة مشاة ، (٦) ألوية مشاة ، (٣) ألوية مدرعة ، (٢) لواءان من المظليين . وكانت تتقدم الى الغرب جنوب كالوغا القوات الاضافية التالية : (٦) فرق مشاة ، (١) لواء مدرع ، (٤) فرق خيالة . وفي منطقة تولا كانت تتجمع (٣) فرق مشاة ، (١) فرقة منقولة بالسيارات، (٢) فرقتان مدرعتان (٢) لواءان مدرعان . . ان هذه الارقام ولا شك تتكلم عن نفسها ولا حاجة للقول ان الفرق السوفياتية لم تكن كلها كاملة الملاك ، وان قسماً منها كان ضعيفاً لدرجة كبيرة حقاً ، كما كان تنظيم الفرق متفاوتاً، الامر الذي جعل قيمتها الحربية تختلف تبعاً لذلك . . أما قابلية السوفيات للابتكار فقد كانت جلية واضحة : وكمثال على ذلك كانت فرق الخيالة تصطحب غالباً المشاة على الزلاقات ، وكانت هذه الزلاقات تسحب بواسطة حبل مربوط بسرج الفارس ، ولكم كان منظراً غريباً ذلك الذي رأيناه في احدى الليالي المقمرة عندما تقدمت أرتال طويلة ومتصلة من الفرسان فوق الثلوج وكل منهم يسحب وراءه زلاقة جلس فيها جندي مشاة.

لقد وازت خسائرنا في التجهيزات خسائرنا في الرجال ، ان لم نقل انها فاقتها ، وكمثال على ذلك نورد حالة مدفعية الجيش الرابع . فلقد كانت قوة هذه المدفعية ـ التي لم تكن جزءاً من الفرق أو الفيالق بل كانت قطعات خاضعة مباشرة الى قائد الجيش كما يلي:

(٤٨) هاوتزراً ثقيلاً ، (٣٦) هاوناً ، (٨٤) مدفعاً عيار ١٠٠ ملم (٩) مدافع عيار ١٥٠ ملم مع (٨٤) مدفع ميدان (٢٥٢) قاطرة مدافع ثقيلة وخفيفة . أما في ١٩٤٢/١/١ ، فقد انخفضت قوتها الى ما يلي:

(٥) مدافع هاوتزر ثقيلة (٨) مدافع هاون (١٧) مدفعاً عيار ١٠٠ ملم (٢) مدفعان عيار ١٥٠ ملم (١٢) مدفع انقضاض صالح للخدمة (٢٢) قاطرة.

معركة مطلع عام ١٩٤٢:

لم يفلح السوفيات ، بالرغم من تفوقهم ، في تدمير الجبهة الالمانية غرب موسكو في نهاية عام ١٩٤١ . ولا يعني ذلك بأية حال من الاحوال ان الازمة الدقيقة قد مرت ، لأن الجيش الرابع وجد نفسه في ظروف شديدة الخطورة طيلة الاشهر الثلاثة الاولى من عام ١٩٤٢.

وفي كانون الثاني هبطت الحرارة الى أدنى درجة ، وهي (٤٢) درجة مئوية تحت الصفر . ولم يستمر هذا الانخفاض في درجة الحرارة الا لبضعة ايام تذبذبت بعدها درجة الحرارة.

ليس من الممكن في هذا الفصل القصير شرح جميع المعارك التي نشبت بصورة مفصلة ولو انها تشكل جزءاً من معركة موسكو الكبرى . لقد كانت هذه الأشهر هائلة ومزعجة ، وأصدر هتلر مؤخراً أمراً بسك وسام دعاه (الوسام الشرقي) لاجل توزيعه على جميع اولئك الذين ساهموا في القتال العنيف في الجبهة الشرقية خلال شتاء عام ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ ، وكان امتلاك ذلك

الوسام ،ولا يزال ، امتيازاً خاصاً جداً . وفي ٢٦ كانون الاول ١٩٤١ استلم قيادة الجيش الرابع الجنرال كوبلر قائد القطعات الجبلية وهو جندي ذو بأس . وبعد مضي عدة اسابيع أدرك القائد الجديد أنه غير مؤهل للسيطرة على الموقف ، لذا فقد تم استبداله خلال النصف الثاني من كانون الثاني ١٩٤٢ بالجنرال هنريكي الذي تمكن من قيادة الجيش الرابع بنجاح لوقت طويل.

الخاتمة :

كانت الحملة في الاتحاد السوفياتي، ولا سيما نقطة التحول أمام موسكو ، تمثل أول تراجع الماني كبير في كلا الميدانين السياسي والعسكري . ففي الغرب ، أي في مؤخرتنا ، لم يعد هناك أي أمل في الصلح المرغوب فيه مع انكلترا ، وفي شمال افريقيا ايضاً أصبنا بانتكاسة حادة. لقد كانت هناك جبهات المانية على طول سواحل النرويج والدانيمارك وهولندا وبلجيكا وفرنسا ، وكان الموقف في البحر الابيض المتوسط خطيراً ، وكانت القوات الالمانية منتشرة في البلقان واليونان، ونظرة واحدة على خريطة العالم ستكشف بوضوح ان منطقة صغيرة في اوربا تدعى المانيا كانت غير قادرة تماماً على تقديم قوة كافيةلاحتواء القارة الاوربيةكلها. وخطوة بعد خطوة، قادت سياسة هتلر الشعب الالماني والقوات المسلحة الى غور سحيق في بحر الخيال. وهنا يتذكر المرء السنوات الأخيرة للاسكندر المقدوني وهو يزحف مع جيشه الصغير داخل آسيا حتى أصبح الموقف أخيراً مستحيلاً ، وانهارت أحلامه فوقه ، أو يتذكر الملك السويدي شارل الثاني عشر الذي توغل في روسيا عام ١٧٠٩، ووصل الى بولتافا ، حيث دمر جيشه الصغير من قبل الموسكوفيين . . لقد مرت مجموعة جيوش الجنوب ببولتافا خلال هذا الصيف من عام ١٩٤١ .

الا ان أقرب مثال لحالتنا يقدمه لنا الامبراطور نابوليون ، ابن الثورة الفرنسية الذي اعتقد ان بامكانه احتلال جميع اوربا، ولكنه لاقى في روسيا عقابة الصارم ، وسط ألسنة النيران المندلعة من موسكو المحترقة . وستكون لنا عودة الى هذا المثال.

غالباً ما يُسأل في هذه الآونة السؤال التالي : هل كان الالمان سينتصرون في الحرب لو انهم نجحوا في احتلال موسكو ؟ ان هذا سيبقى سؤالاً أكاديمياً خالصاً ، لانه ليس هناك من يستطيع الاجابة عنه بأية درجة من التأكيد . أما رأيي الشخصي فهو اننا حتى لو استطعنا أخذ موسكو فان ربح الحرب نهائياً كان سيبقى أمراً بعيداً ، لان روسيا بلد واسع جداً وكانت الحكومة السوفياتية مصممة تصميماً أكيداً على استمرار الحرب ، بحيث تتخذ لها اشكالاً جديدة داخل المساحات الهائلة لذلك البلد الكبير . أما أحسن ما كان بامكاننا أن نتوقعه فهو حرب للانصار على نطاق واسع جداً في روسيا الأوربية، ناهيك بالمساحات الهائلة لآسيا التي هي منطقة سوفياتية ايضاً .

وهنالك حقيقة واحدة لا تحتمل الجدل، وهي ان القيادات والقطعات الالمانية ، قد حققت ما كان أقرب الى المستحيل . ولقد كانت الحرب في الشرق محكاً نهائياً لجنودنا الذين

أظهروا في خلال حربين عالميتين انهم يمتلكون الصلابة الفولاذية الضرورية لمواجهة الظروف هناك .

١٨١٢ و ١٩٤١ :

لاجل أن أنتهي من هذا الفصل ، لابد لي أن أمتع القارىء باطلاعه على مقارنة بين حملة نابوليون الروسية في عام ١٨١٢ وحملة هتلر في عام ١٩٤١، وبالرغم من وجهة نظر المؤرخين القائلة ان المقارنات التاريخية لا جود لها ، طالما ان الاسباب والظروف للحوادث المتشابهة ظاهرياً تكون دائماً مختلفة كل الاختلاف. وعلى كل حال فان استعراض الحملتين المذكورتين كما كانتا وجنبا الى جنب لن يخلو من فائدة.

لم يكن نابوليون فرنسياً تماماً ، وانما كان ايطالياً من كورسيكا . وهي جزيرة غدت جزءاً من فرنسا. وكذلك هتلر لم يكن ألمانياً حقاً ، بل المانياً ـ نمساوياً. ولقد استغل نابوليون القوة التي ولدتها الثورة الفرنسية واعتمد على قوة فرنسا ، وكذلك استفاد هتلر من قوة المانيا . ولقد شن نابوليون ، وهو ابن الثورة الفرنسية ، سلسلة من الحروب واحتل بلدان اوروبا واحداً بعد الآخر ، وجاء هتلر ليعقب خطاه . وكانت انكلترا هدف نابوليون الاول وكان مستعداً فعلاً لغزوها من بولوني. أما عملية سي لايون الهتلرية عام ١٩٤٠ فلم تكن أكثر من تهديد اتخذ لتحقيق أهداف سياسية . ولقد دحر الاسطول البريطاني الفرنسيين وحطم حلم نابوليون في غزو انكلترا واحتلالها بالقوة ، لذا قرر نابوليون أن يلحق الضرر بالجزيرة بواسطة الحصار القاري واضطرت ، غالبية البلدان الاوروبية إلى تنفيذ الاجراءات التي أمر باتخاذها ، ولم يتردد في ذلك الا روسيا ، فكان ذلك أحد الاسباب التي حدت بنابوليون لان يعلن الحرب على روسيا . أما هتلر فقد ابتدأ حربه على أمل الحصول على أراض سوفياتية ، والقضاء على البلشفية ليصبح فيما بعد سيد اوروبا.

لقد اعتقد كل من نابوليون وهتلر ان حربيهما في روسيا ستنتهيان بنصر حاسم سريع كبقية الحروب التي ربحاها سابقاً . وكان كلاهما أيضاً قد كونا صورة خاطئة عن القوة الكامنة في روسيا وعن سعتها الهائلة ، وهكذا ذهبا الى الحرب دون أن يستعدا الاستعداد الكافي، كما أسقط كلاهما من حسابه مشاكل التموين التى ستعترض جيوشهما في تلك الاراضي الشاسعة والمقفرة . وكما لم يوافق العديد من ماريشالات وجنرالات نابوليون على خطته لعام ١٨١٢ ، كذلك فعل كثيرون من ماريشالات هتلر وجنرالاته .

غزا نابوليون روسيا عام ١٨١٢ بجيش قوامه ٦٠٠ ألف رجل (ومن الجدير بالذكر ان ٢٠٠ الف منهم كانوا من المجندين الالمان والفلمنكيين والبولونيين والسويسريين والاسبان والبرتغال)، و١٤٠٠ مدفع، و ١٨٠ الف حصان . وجاء هتلر ليفعل الشيء نفسه اي انه

حاول أن يقود جيشاً أوروبياً في حملته على روسيا . ومع انه فشل في محاولته تلك ، الا أن جيشه كان مع ذلك يضم بين صفوفه جنوداً رومانيين وهنغاريين وإيطاليين وسلوفاك وفنلنديين اضافة الى فرقة اسبانية وفرقة اخرى من المتطوعيين الفرنسيين . . . وفي ٢١ حزيران عام ١٨١٢ أصدر نابوليون أمره الشهير الى قطعاته ، وقبل افتتاح حملة ١٩٤١ أصدر هتلر أمراً مشابهاً .

وفي مساء ٢٢ حزيران ١٨١٢ راقب الامبراطور جنوده وهم يعبرون نهر نيمن في كوفنو . أما جيوش هتلر فقد عبرت نهر بوغ في نفس التاريخ ذاته (٢٢ حزيران) بعد مائة وتسعة وعشرين عاماً . ولقد افتتح نابوليون القتال في ٢٤ حزيران ، وفي كلتا الحالتين كان تاريخ بدء الحملة في الشرق متأخراً.

وفي عام ١٨١٢ كان هناك توقف غير مقصود في الحركات كما هي الحال في عام ١٩٤١ . فلقد نجح القيصر آنذاك في طمأنة نابوليون عبر مناقشات سياسية ، وهكذا ضاعت أسابيع ثمينة من الامبراطور الفرنسي . ومع ذلك ، وفي موسم متأخر نسبياً ، استأنف نابوليون تقدمه الى موسكو كما فعل هتلر في ٢ تشرين الاول ١٩٤١ . وفي عام ١٨١٢ نفذ الروس انسحابهم وهم يقاتلون قتالاً تراجعياً ضارياً ، وجذبوا نابوليون الى اعماق روسيا والى الشتاء الروسي القاسي . ونجح الامبراطور الفرنسي في الاستيلاء على موسكو عام ١٨١٢ ، الا ان نجاحه لم يضع نهاية للحرب بل بالعكس من ذلك ، حيث ان الحرب بالنسبة الى الروس لم تكن قد ابتدأت فعلاً الا في هذه المرحلة ، اما هتلر فقد فشل في الاستيلاء على موسكو ولم يكن العدو قد ابتدأ القتال فعلاً في هذه الحملة الا في هذه المرحلة المتأخرة ايضاً . وعندما اضطر الامبراطور ، بعد فوات الاوان ، إلى ترك موسكو المحترقة ، كان ذلك اول أندحار كبير له . وفي عام ١٩٤١ كانت الحالة مشابهة لسابقتها تماماً ؛ وفي كلتا الحالتين شن الروس في هذا الوقت بالذات هجومهم المعاكس العظيم . . أما الأنصار فقد لعبوا في الحربين دوراً كبيراً .

اعتقد نابوليون في عام ١٨١٢ ان بامكانه انقاذ جيشه بسحبه عبر الثلوج والجليد ، فجاءت النتيجة عكس ذلك تماماً ، حيث ان التراجع الطويل كان قد دمر الجيش الكبير . ولكن في كانون الاول عام ١٩٤١ أمر هتلر بعدم التراجع مهما كان الثمن ، فمُسكت الجبهة بجهود جبارة وتم التغلب اخيراً على الازمة .

بامكاننا العثور على تشابهات اخرى لو أردنا التعمق بالتحليل . ولكن ، كما أشرنا سابقاً ، يجب ان تعامل المقارنات التاريخية بمنتهى الحذر .

لقد أثبت كل من عام ١٨١٢ وعام ١٩٤١ ان وسائل النقل ذات الطراز القديم ، وبتعبير آخر الخيول والجنود السائرين على الاقدام ، لا تسمح بالاستيلاء على مناطق شاسعة مترامية الاطراف (وكالموجودة في روسيا) وفي وقت محدود . ولم تكن قوات الخيالة في جيش نابوليون ولا

التشكيلات المنقولة في جيوش هتلر كافية عددياً للاستيلاء على براري ذلك البلد الشاسعة ومتابعة السيطرة عليها.

أقرأ ما يلي بامعان :

قبل أن يشن نابوليون هجومه قام بمحاولة اخيرة لاقناع القيصر بالاستجابة لمطالبه فكان جواب القيصر للسفير كما يلي : «ليس عندي تخيلات، وأنا اعرف جيداً ان امبراطوركم جنرال عظيم ، ولكن عندي حليفان ممتازان هما المساحة والوقت . فليس في هذا البلد الهائل زاوية لن انسحب اليها مهما تضاءلت ، ولا موضع لن أدافع عنه مهما ابتعد ، قبل أن أكون مستعداً لتوقيع معاهدة صلح غير مشرفة . . وانني لست الذي سيبتدىء الهجوم ولكنني لن ألقي السلاح طالما ان هناك جندياً اجنبياً باقياً فوق الأرض الروسية». كان ذلك التصميم من قبل القيصر في عام ١٨١٢ مشابهاً تماماً لتصميم ستالين في عام ١٩٤١. وبقي ان نعرف ان الفرق العظيم بين الحربين هو ان الامبراطور الجندي قاد جيشه بنفسه الى موسكو ذهاباً واياباً ، أما هتلر فلم يفعل ذلك .

وفي مجلس الحرب الروسي الذي انعقد ابان الازمة في عام ١٨١٢ ، دار النقاش حول ما اذا كان اخلاء موسكو سيتم أم لا ، فنهض الامير كوتوزوف وقال: «ان ضياع موسكو لا يعني ضياع روسيا وانني اعتبر ان من واجبي انقاذ جيشي من التدمير و صيانة سبل حياته ، حتى لو أدى ذلك الى اخلاء موسكو. وعليه فان نيتي هي التراجع عبر موسكو على طول طريق ريازان. وانني مدرك ان علي دفع ثمن كل ما سأفعل ولكنني مع ذلك مستعد للتضحية بنفسي في سبيل بلدي . . اني آمر بالانسحاب».

ان تلك السابقة تجعلنا نعتقد بصورة أكيدة ان السوفييت كانوا سيعملون وفق الاسلوب نفسه لو قدر للالمان احتلال موسكو .

ولعل من الممتع الاطلاع على التوارد التالي : استلم الماريشال موريتيه في ٢١ تشرين الاول عام ١٨١٢ أمراً من نابوليون يطلب فيه منه ان يفجر الكرملين قبل الانسحاب من موسكو ، وكان هتلر يضمر النية ذاتها في حالة الاستيلاء على موسكو.

سبق وأن تطرقنا الى شرح مصاعب التموين في حملة عام ١٨١٢ وعام ١٩٤١. وكانت المشكلة الرئيسية في عام ١٩٤١ تتمثل في كيفية ادامة إمداد القطعات بالعتاد وتزويد القطعات المنقولة بالوقود . أما في عام ١٨١٢ فكانت المعضلة الرئيسية هي في ايجاد العلف للخيول، ويمكننا ان نفترض أن الـ ١٨٠ ألف حصان في جيش نابوليون لم تكن قادرة على العيش في نفس التقشف الذي اعتادت عليه خيول القوزاق الصغيرة . ولقد عانت خيالة الامبراطور عناء عظيماً من جراء معارك ومسيرات الحملة ، وارتفعت الخسائر بين الخيول ارتفاعاً كبيراً وباستمرار .

وبعد معركة بورودينو وبخ مورا قائد الفرسان العظيم جنرالاته قائلاً لهم ان هجمات الفرسان لم تدفع بعزم كاف، فأجاب على ذلك آمر الفرسان نانسوني : «الخطأ هو خطأ الخيول لانها تنقصها الوطنية الكافية!؟ ان جنودنا يقاتلون جيداً حتى بدون الخبز أما الخيول فانها لن تستمر على التقدم بدون علفها».

هناك لوحة مشهورة تصور نابوليون راكباً حصانه المطهم وهو غارق في أفكاره عندما توجه الى الشرق على رأس رتل من الحرس الامبراطوري بامتداد طريق رملي في روسيا، وإسم تلك اللوحة :

«تذمروا . . لكنهم اتبعوه مطيعين». ان هذه العبارة هي أحسن وصف لعام ١٨١٢ وعام ١٩٤١ ، لانه لا يمكن ان يكون هناك أدنى شك في ان القطعات الالمانية قد فعلت ايضاً كل ما في وسعها وهي مدفوعة بحبها للطاعة.

٢ ـ الصراع يقترب من قمته

بقلم : سيغفريد ويستفال

بينما كان السوفيات والالمان يتصارعون في معركة حياة أو موت فوق سهول أوروبا الشرقية المغطاة بالثلوج ، تحول المحيط الهادىء فجأة الى مسرح للحرب بهجوم اليابانيين على ميناء بيرل هاربر في ٧ كانون الأول عام ١٩٤١ . وهكذا أصبح العالم كله يلتهب الآن في اتون الحرب . ولم تدع الحكومة الالمانية هذه الفرصة تفلت من يدها ، فأعلنت الحرب على الولايات المتحدة بعد ثلاثة أيام فقط من وقوع الهجوم الياباني على الميناء المذكور . ولقد استند هذا القرار على استهانة كاملة بقوة امريكا الحربية الضخمة . وأدى عمل هتلر هذا الى دهشة كل رجل متزن في المانيا . وكانت النتيجة المباشرة لهذه الاستهانة ، والتي انجلت بسرعة كبيرة هي أن الامدادات الامريكية للاتحاد السوفياتي وصلت حداً أقرب الى الفيضان . وغني عن القول ان تلك الامدادات ساهمت بصورة حاسمة في نجاح الجيش الأحمر في التغلب على خسائره الجسيمة من ناحية ، وساعدت من الناحية الأخرى في نموه المطرد وتعاظم قوته كلما طال أمد الحرب . أما أرقام الامدادات الامريكية للاتحاد السوفياتي وذلك اعتماداً على مصادر موثوقة فهي : ١٧٠٠٠ طائرة و٥١٠٠٠ سيارة جيب و٤٠٠٠٠٠ شاحنة و١٢٠٠٠ عربة قتال مدرعة و٨٠٠٠ مدفع ضد الطائرات و١٥ مليون زوج أحذية خدمة طويل (جزمة) و٣٧٠٠٠٠٠ اطار عربة و٢٨٠٠٠٠٠ طن فولاذ و٨٠٠ ألف طن مواد كيماوية و٣٤٠ ألف طن متفجرات و٢٦٠٠٠٠٠ طن منتوجات نفطية و٤٧٠٠٠٠٠ طن أغذية و٨١٠٠٠ طن مطاط[1] . وليس من قبيل المبالغة القول انه بدون هذا الاسناد الامريكي الواسع ما كان بامكان السوفيات أن يشنوا هجومهم العام في ١٩٤٣ .

---

(١) تذكر المصادر السوفياتية ، أن ٤٠٪ من المواد التي أرسلتها امريكا لم تصل بسبب غارات العدو الجوية أو هجمات غواصاته . (المترجم)

في افريقيا ايضاً كان الموقف حرجاً في نهاية عام ١٩٤١ . حيث ان رومل لم يكن قد نجح بعد في الاستيلاء على طبرق خلال الربيع الماضي لأن البريطانيين صمموا (وهذا قرار صائب) على عدم إخلائها عندما تراجعوا الى الحدود المصرية، وفشلت محاولات الاستيلاء على الحصن بهجمات مباغتة وافتقر رومل الى القوة اللازمة لهجوم مدبر. وفي هذه الاثناء كان رومل مشغولاً جداً من أجل استئناف الهجوم حالما تصله التعزيزات الكافية، وأصبحت قوافل النقل ، التي كانت تمخر الأبيض المتوسط بدون ازعاج سابقاً ، معرضة الآن لهجمات القوة الجوية والاسطول البريطانيين المتزايدة باستمرار . واضطر رومل والحالة هذه الى تأجيل موعد هجومه من أيلول الى تشرين الأول ثم الى تشرين الثاني وأخيرا الى كانون الأول . وهكذا تحققت النتيجة التي كان يخشاها رومل دائماً ، ألا وهي قيام العدو بتنفيذ الضربة قبله .

ففي ١٨ تشرين الثاني شن الجيش الثامن البريطاني هجومه بقيادة الجنرال أوكنلك ، وكان هذا الجيش آنذاك أقوى بكثير من قوات المحور المواجهة له ، وبعد معركة متأرجحة استمرت بضعة أسابيع تمكن اوكنلك من التوغل عبر القوات الايطالية المحيطة بطبرق وأنقذ حاميتها ، ولذلك اضطر رومل الى الانسحاب . وفي مطلع السنة الجديدة كانت قواته موضوعة في منعطف خليج سرت العظيم بين اجدابية وطرابلس وهذا يعني أنها كانت تقريباً في نفس المكان الذي ابتدأت منه عندما استلم رومل القيادة لأول مرة قبل سنة واحدة . وهنا أدرك رومل الفرصة التي أتاحها انتشار قوات العدو ومشاكل التموين التي لم يحلها البريطانيون حتى الآن . وكان موقف الجيش الثامن في الواقع ضعيفاً، فاستغل رومل الفرصة حالاً وشن هجوماً معاكساً في ٢١ كانون الثاني ونجح في مطلع شهر شباط مرة أخرى في التقدم الى أبواب طبرق ، بعد أن ألقى بكل ما يملك في المعركة بدون تردد .

أما في الجبهة الشرقية ، فقد واجه الجيش الالماني ـ بعد أن تمكن من ايقاف الهجوم السوفياتي خلال الأشهر الأولى من عام ١٩٤٢ ـ مهمة تنظيف جيوب العدو الكثيرة التي دفعت خلال خطوطنا ، وكذلك مهمة كسر أطواق الاحاطة السوفياتية العديدة التي اقتطعت اجزاءً صغيرة وكبيرة من قطعاتنا ، وأهم تلك الحركات هي التي وجهت ضد احاطات كولم وديمنسك ، وكذلك الجيب العميق باتجاه أسيوم الى الجنوب من خاركوف ، وأخيراً رأس الجسر الروسي في فيودوسيا الواقعة في القرم . وأصبح ممكناً الآن اتخاذ الاجراءات فيما يخص سحب التشكيلات التي أصبحت عاجزة تماماً في خلال معركة الشتاء لاراحتها ولتشكيل فرق جديدة في المانيا ، وتم في هذا الوقت توسيع قوات الـ (س . س) الخاصة أكثر من ذي قبل . وكان ذلك التوسع في غير صالح الجيش الذي جردت فرقه التي خبرت المعركة من ضباطها الاعوان ومن ضباط صفها القدامى الذين لا يمكن تعويضهم .

بلغ موجود قوات الـ « س . س » قبل نهاية الحرب ثماني وثلاثين فرقة . وعندما أصبح من الضروري في مجرى عام ١٩٤٢ تلافي التضخم في المؤسسات الأرضية للقوة الجوية الالمانية

لصالح الجيش ، أمر هتلر بعدم نقل الفائض من أفراد القوة الجوية الى فرق الجيش لأنه كان يخشى على رجال القوة الجوية المشبعين بالروح النازية من أن يتأثروا ايديولوجيا أو عقائدياً بنتيجة اختلاطهم هذا ، وبدلاً من الحاقهم بفرق الجيش ، قبل هتلر باقتراح غورنغ الداعي الى تأليف ست عشرة فرقة باسم فرق ميدان القوة الجوية .وكانت احدى نتائج هذا العمل هي ان فرق الجيش التي كانت بحاجة للتعويضات أخذت تتوقف تدريجياً ، بينما تعرضت فرق ميدان القوة الجوية الى خسائر جسيمة في غير محلها بمجرد دخولها القتال ، وذلك بسبب افتقارها الى الخبرة العملية في القتال .

لقد كان هتلر وقيادة الجيش العليا على طرفي نقيض كالعادة فيما يخص مسألة الحركات الاستراتيجية في المستقبل.وجعل هتلر من رئيس أركان الجيش السابق الفيلد ماريشال فون براوخيتش كبش الفداء لتبرير التراجعات في السنة السابقة ، إذ طرده من منصبه وحل محله بنفسه . ووقع اختيار هتلر الآن على منطقة دون ـ فولغا ومنطقة القفقاس بما فيها من ثروات معدنية ، وجعلهما هدفاً لعملياتنا . ولقد عارض هذه الفكرة رئيس هيئة الأركان العامة الجنرال هالدر ، الذي اعتقد ان موسكو باعتبارها العاصمة الروسية ومركز ثقل شبكة المواصلات ، كانت وما زالت أهم هدف ويجب أن يتم الاستيلاء عليها الآن نهائياً . كما أشار هالدر بتأكيد جدي الى خطر احداث جناح مكشوف يبلغ طوله ٣٠٠ ميل ، والذي كان حدوثه امراً محتماً فيما اذا تقدم الجيش الى منطقة دون ـ فولغا والى القفقاس . إلا أن هذه المجادلة فشلت في اقناع هتلر .

في ١٢ أيار هاجم الماريشال تيموشنكو مواضع الالمان في منطقة خاركوف ، وصد الالمان ذلك الهجوم بصعوبة بالغة . وفي الوقت نفسه افتتح جيش مانشتاين هجومه على كيرتش . ويمكن اعتبار هذا الهجوم فاتحة للهجوم الكبير على سيفاستوبول والذي شن في الأول من حزيران . وبعد شهر من القتال أمكن التغلب على مقاومة الحامية العنيدة الباسلة وتم الاستيلاء على سيفاستوبول . وفي اليوم نفسه ابتدأ هجوم الالمان الصيفي الكبير ، وتم تقسيم قطاع مجموعة جيوش الجنوب الى قسمين جديدين هما : مجموعة الجيوش (أ) في اليمين ومجموعة الجيوش (ب) في اليسار . وصدر الأمر الآن الى مجموعة الجيوش (ب) للاستيلاء على ستالينغراد وارسال تشكيلات آلية باتجاه مجرى الفولغا الى استراخان ، بينما تعيد مجموعة الجيوش (أ) الاستيلاء على روستوف . وامتدت جبهة القفقاس حتى بلغت أكثر من ٦٠ ميلاً عرضاً . وفي ٨ آب احتلت القوات الالمانية مايكوب الواقعة في حقول النفط . . كان ذلك التقدم بمثابة نهاية المد الالماني في الشرق ، وبلغ مجموع السكان القاطنين ضمن المناطق المحتلة الآن ما يناهز الخمسين مليوناً من السوفيات ، واحتوت هذه المناطق على اكثر من نصف المصادر السوفياتية للفحم والالمنيوم والمنغنيز والحديد وشملت كذلك ٤٠٪ من سكك الحديد السوفياتية . وفي هذه الاثناء كان من الضروري صد الهجمات السوفياتية المعاكسة الشديدة على القاطع الاوسط من

الجبهة ، والتي شنوها بغية تخفيف الضغط عن جيوشهم البعيدة في الجنوب . وكلفتنا تلك المعارك الدفاعية خسائر جسيمة لا ضرورة لها بسبب عناد هتلر وامتناعه عن القيام بأي انسحاب حتى لو كان محلياً .

في ٢٥ آب نجحت القطعات الجبلية الالمانية برفع علم الصليب المعقوف فوق قمة ايلبرس وهي أعلى قمة في جبال القفقاس ، ولكن التقدم الالماني تباطأ بعد ذلك بسبب نقص الوقود أولاً وبسبب الهجمات السوفياتية المعاكسة القوية التي تطورت الآن على امتداد نهر تيريك ثانياً . أما الهجوم على ستالينغراد الذي ابتدأ في ١٤ آب فلم يحقق الا تقدماً بطيئاً ايضاً . وفي ١ أيلول فقط استطاعت القوات الالمانية التوغل ضد مقاومة عنيفة داخل الضواحي الخارجية للمدينة ، . . . وفي خلال هذا الصيف استيقظت القوات الالمانية المنتشرة على سواحل الاطلسي من غفوتها ابان الهدوء الخادع الذي ساد المنطقة اثر نزول قوات كندية في دييب تحت قيادة الادميرال مونتباتن ـ وهو ضابط بحري كتب له أن ينال شهرة واسعة في الحرب فيما بعد ـ وتمكن الالمان من دحر القوات الكندية الهاجمة وكبدوها خسائر جسيمة . إلا أن ذلك الانزال الفاشل لم يكن يخلو من فائدة حقاً ، اذ انه أعطى العدو تجربة قيمة كانت ستفيده في الغزو العظيم عام ١٩٤٤ .

لننتقل الآن الى افريقيا لنجد هناك تحسناً مؤقتاً في موقف تموين رومل ، مما ساعده على تنفيذ هجوم مجدد على طبرق حيث ان القيادتين العامتين الالمانية والايطالية كانتا قد اتفقتا على احتلال طبرق اولاً ثم القيام بحملة على مالطا ، لأن احتلال الجزيرة (مالطا) سيقضي في النهاية على القاعدة التي كان البريطانيون يشنون منها هجماتهم البحرية والجوية عى قوافل المحور ويكبدونها خسائر جسيمة جداً .

في ٢٦ أيار شن رومل هجومه بست فرق مدرعة أو منقولة بالسيارات ، ثلاث منها المانية ومثلها ايطالية . وكانت خطته تتضمن احاطة العدو من الجنوب . وقبل حلول مساء اليوم التالي كان قد أصبح خلف موضع البريطانيين في الغزالة ، وهنا ابتدأ رومل في مجابهة المتاعب ، إذ آن المعركة قد طالت لمدة ثلاثة أسابيع ، ولولا سيطرته الشخصية المتوقدة والمستمرة على قطعاته لما تمكن جيشه من التغلب في النهاية على مراكز العدو القوية واحداً بعد الآخر ليستعيد بعدها حرية العمل . أما أعنف مقاومة جوبهت هنا فقد كانت من قبل حصن بئر حكيم الصحراوي الذي كانت تشغله قطعات فرنسية وفوج يهودي . ولم يتم الاستيلاء على ذلك الحصن إلا في ٩ حزيران . . . وفي ٢٠ منه ابتدأ رومل هجومه على قلعة طبرق ، ذلك الهجوم الذي ساندته القاذفات والقاذفات المنقضة التابعة لاسطول كيسلرنغ الجوي . ولقد نجح رومل في تحقيق المباغتة في هذا الهجوم ، لأنه أوهم العدو في اليوم السابق وجعله يعتقد بعدم نيته في مهاجمة القلعة ، وانه سيخلفها وراءه كما فعل في عام ١٩٤١ ليطارد قوات البريطانيين الرئيسية المنسحبة الى مصر ، وبذلك نجح في اختراق المنظومة الدفاعية حول طبرق منذ اليوم الأول للهجوم . وفي عصر اليوم نفسه وصلت القوات الالمانية المنهكة اخيراً الى أهدافها التي كلفت كلا من المدافعين

والمهاجمين خسائر عديدة في الأرواح . واستولى الالمان على كميات لا حصر لها من التجهيزات والمواد وأخذوا ثلاثين الف أسير .

كان الاستيلاء على طبرق ، بلا شك ، آخر نقطة في المد الالماني في حملته الصحراوية . وبعد مطاردة قاسية في أعقاب العدو المنسحب ، عبر روميل الحدود المصرية في ٣٠ حزيران وواجه الموضع البريطاني القوي في العلمين ، وهو آخر خط دفاعي يستر خطوط الاقتراب من الاسكندرية ودلتا النيل . وفي هذا الوقت بلغ روميل نهاية امكانياته ، وبصورة خاصة منذ ان تردى الموقف الاداري من جديد . فقد أخذت التجهيزات تصله بكميات قليلة ، وتم التخلي عن خطة الاستيلاء على مالطا لأن القوة الجوية الالمانية لم تكن قادرة على تنفيذ هذه العملية والقيام في الوقت نفسه باسناد تقدم أبعد لجيش روميل المدرع . وكان هذا القرار بالطبع مؤسفاً جداً ، طالما اننا الآن نعرف جيداً ان الجزيرة كانت في ذلك الوقت تشكو من نقص كبير في تموينها الى درجة انها كانت مستعدة للاستسلام تقريباً .

لقد كانت أشهر الصيف في جبهة العلمين سلسلة من الازمات المتواصلة بالنسبة لروميل . ففي ٣٠ آب اوشكت ان تنجح محاولته في خرق دفاعات البريطانيين في العلمين والتقدم نحو الاسكندرية . وكان السبب الرئيسي لفشلها في النهاية هو غرق ناقلات النفط المحورية التي وصلت الى أرصفة طبرق تقريباً ، فنقص بنتيجة ذلك تموين الوقود الى درجة جعل قوات روميل المهاجمة تتوقف عن الحركة لمدة ستة أيام في الصحراء ، واطلقت القطعات على تلك الحركة الخائبة التي كلفتها خسائر جسيمة في الأرواح اسم « سباق الستة أيام للدراجات الهوائية » . ولقد عانى جيش البانزر الافريقي كثيراً من تلك المجزرة ، ولم يشف منها طالما بقي موقف تموينه يزداد سوءاً ، ويتم بأوقات متباعدة اكثر فأكثر على نحو مستمر ، اذ كان من النادر وصول قوافل التموين سليمة الى مرافىء شمال افريقيا . وكنتيجة لتراكم الخسائر ، أخذت حمولة سفن الشحن المتيسرة لقوات المحور تتناقص بسرعة كبيرة . وكان روميل واعياً تماماً لثقل كلماته عندما اطلع القيادة العامة للقوات المسلحة في منتصف ايلول ١٩٤٢ بقوله : « ما لم ترتكز طريقة تموين افريقيا على اسس ثابتة ، فإن جيش البانزر لن يكون قادراً على المقاومة لأي فترة من الزمن ، وستكون القوات الموحدة لقوتين عالميتين ، ان عاجلاً أو آجلاً ، امام خطر معاناة نفس المصير الذي حل بحامية حلفاية »[1] . وعند النظر الى الصورة ككل فإنها عندئذ تبدو كما يلي :

في خريف عام ١٩٤٢ وصلت القيادة الالمانية الى أوج نجاحاتها ، ففي الغرب مسكت القوات الالمانية سواحل الاطلسي من الرأس الشمالي الى خليج بسكاي ، بينما كانت كل من النرويج والدانيمارك وهولندا وبلجيكا وفرنسا ولكسمبورغ دولاً محتلة . أما في الشرق فقد كان الجنود الالمان على تخوم لينينغراد وعلى طول ضفاف نهري الدون والفولغا ، بينما كان جميع شبه

---

(١) كانت هذه الحامية قد اضطرت الى الاستسلام في مطلع عام ١٩٤٢ بسبب نفاد تموينها .

جزيرة البلقان تحت السيطرة الالمانية . وفي الجنوب كانت القوات الالمانية والايطالية لا تبعد اكثر من ثلاثين ميلاً عن نهر النيل . اما في البحر فقد شغلت الغواصات الالمانية والطرادات المساعدة جميع المحيطات في العالم ، فشكلت بذلك اعظم تهديد لملاحة الحلفاء . كما ان القوة الجوية الالمانية كانت لما تزل قادرة على انزال بعض الضربات القوية جداً بالحلفاء ، رغم انها لم تعد قوية كما كانت من قبل .

لقد كان وتر القوس مشدوداً بعنف . الا أن ذلك لم يبد واضحاً إلا الآن ، فالارزاق في المانيا ما زالت متوافرة ولو ان اللحوم والشحوم كانت قليلة نوعاً ما ، وبقي موقف الارزاق بالنسبة للقوات المسلحة حسناً حتى نهاية الحرب . وفي هذه الآونة كانت الغارات الجوية على المدن الالمانية تزداد شدة ، كما كانت نتائجها بالغة الخطورة . وكان تموين الخامات الأساسية يقترب من حده الاقصى . وبالرغم من كل ذلك كانت صناعة التسليح تنتج بدرجة عالية جداً، ولم يبق سوى القليل جداً من الاشخاص الاصحاء الذين شملهم النفير نتيجة للخسائر الفادحة التي تكبدناها خلال الشتاء الماضي في روسيا . وتنافست القوات المسلحة والصناعة على أخذ كل ما تبقى من الطاقة البشرية ، مما أدى الى الاستيراد الاجباري للعمال من المناطق المحتلة ، والذي أدى بدوره الى ايجاد أو تعزيز حركة الانصار في فرنسا وأكثر من ذلك في المناطق الشرقية والبلقان . وعلى العموم لم يفكر الشعب الالماني بصورة جدية حتى الآن في احتمال الاندحار ، بل راح يهيىء نفسه لحرب ظهرت له انها ستكون طويلة الامد . وبالرغم من ان أُسراً المانية كثيرة كانت حزينة بسبب من فقدتهم من أبنائها ، فإن الشعب الالماني كان مستعداً للمضي في القتال طالما لم يكن أمامه بديل آخر . أما في ايطاليا وهي اقوى حلفائنا ، فقد كان المناخ الفكري مختلفاً تماماً ، اذ ان الايطاليين لم يحققوا أية انتصارات كبرى ، فضلاً عن انهم تلقوا سلسلة متواصلة من الاندحارات ، وخسروا شرق افريقيا الايطالية ، وراقبوا عن كثب كيف اختفى عدد هائل من جنودهم في معتقلات الاسر البريطانية، كما شاهدوا وحدات كبيرة من بحريتهم تختفي في لجة اليم ، وأخيراً فانهم كانوا يعانون من الجوع .

وهكذا عندما اقتربت سنة ١٩٤٢ ، وهي السنة الثالثة للحرب ، كان الموقف يبدو مرضياً بصورة عامة. ولكنه حدث في بقية اشهر تلك السنة حادثان وبتتابع سريع . وغيّر هذان الحادثان الصورة كلياً . . الحادث الأول في الجنوب والثاني في الشرق ، وكلاهما يعتبر نقطة تحول حاسمة في الحرب ، وسيجري شرح الحادث الأول بصورة مفصلة في الفصل القادم .

القسم الثالث

١ ـ العلمين

بقلم : اللوفتنانت جنرال فريتز بايرلين

عين فريتز بايرلين ضابطاً للعمليات في فيلق بانزر غودريان في فرنسا في حزيران عام ١٩٤٠ ، وخدم عام **١٩٤١** في روسيا كضابط للعمليات في فيلق بانزر غودريان الثاني ، وفي أيلول عام **١٩٤١** أصبح رئيساً لهيئة اركان الفيلق الافريقي ، واشتغل رئيساً لاركان رومل منذ صيف **١٩٤٢** حتى مطلع عام **١٩٤٣** ، واستلم قيادة فرقة البانزر الثالثة في عام **١٩٤٣** وقيادة فرقة بانزر ليهر في كانون الثاني من السنة التالية . . وفي أيار **١٩٤٤** تمت ترقيته الى رتبة لفتنانت جنرال .

على أبواب مصر :

صحراء قاحلة ، حيث تتناوب الصخور الناتئة الجرداء مع مساحات من الرمال المغطاة بصورة متناثرة بالاشواك تحت شمس افريقيا القاسية . هكذا كانت جبهة العلمين في تموز ١٩٤٢ . وبين تل العيسى الصخري على ساحل البحر الأبيض المتوسط وهرم قارة الحميمات البالغ ارتفاعه ٦٠٠ قدم[١] والواقع على منخفض القطارة ، كان يقع الموضع الوحيد في الصحراء الافريقية الذي لا يمكن الالتفاف حول جناحه . وهناك توقفت بقايا جيش رومل وهي منهكة القوى بسبب القتال الشديد في طبرق والمطاردة الطويلة . وكانت تلك القوات تواجه أمامها قوات الامبراطورية المندحرة التي ما زالت رغم ذلك قوات متينة .

لم يتمكن جنود المشاة من الحفر في الأرض الصخرية ، فاستعاضوا عن ذلك ببناء جدران حصوية ساترة لتقيهم على الاقل من نيران العدو الخفيفة .

« لقد تلاشت قوتنا » . هكذا كتب رومل في مذكراته في ٣ تموز عام ١٩٤٢ . وهذا صحيح فلقد وصلنا العلمين ومعنا ثلاث عشرة دبابة صالحة للخدمة . وتألفت الدفاعات البريطانية من أربعة مواضع متسلسلة في العمق . ولم نتمكن من الاستيلاء الا على واحد منها في الهجمة الأولى ، ثم تمكنا اخيراً من اجتياح الموضعين الثاني والثالث . ولكن بالرغم من هجماتنا اليائسة ، فقد نجح البريطانيون في الاحتفاظ بالموضع الدفاعي الرئيسي في العلمين الذي كان يستر عيون الماء الصافي الوحيدة في هذه الصحراء الموحشة ويمكن القول ان معركة العلمين ابتدأت حقاً خلال أيام تموز المحرقة .

أخبرتنا طائرات الاستطلاع بعيدة المدى ان الاسطول البريطاني كان يغادر الاسكندرية بأقصى سرعته متوجهاً نحو الشرق ، وعرفنا بعدئذ ان البريطانيين كانوا قد اتخذوا الخطوات اللازمة للدفاع عن دلتا النيل كتدبير احتياطيّ في حالة نجاح رومل باختراق آخر باب يستر مصر . وفي الواقع تم وضع الخطط للانسحاب الى فلسطين بل والى العراق اذا ما ثبت عدم امكانية الدفاع عن دلتا النيل .

ضياع المبادأة ـ اوكنلك :

إلا أن الجنرال اوكنلك لم يكن ينوي التخلي عن خط العلمين ، كما تبين ذلك حالاً . فقد تابع الجيش الثامن مهاجمة مواضعنا طيلة شهر تموز لغرض استعادة المبادأة ثم فرض الاندحار علينا . وفي ١٠ تموز استولى الاستراليون على تل العيسى الحيوي الواقع الى الغرب من العلمين ، وثبتوا فيه رغم هجماتنا المعاكسة العنيفة لاسترجاعه . وفي ١٤ تموز شنت القطعات

---

(١) المقصود بهذا الهرم هو تل صخري مرتفع بصورة تشبه الهرم .

النيوزيلاندية والهندية هجوماً ليلياً بغية الاستيلاء على أراضي ذات أهمية استراتيجية في مرتفع الرويسات . وفي هجوم ليلي آخر في ١٦ تموز استولى الاستراليون على مرتفع يدعى مرتفع الرويسات في الجنوب . وفي ١٨ ، ١٩ منه شن رومل هجمات معاكسة لاسترجاع مرتفع الرويسات . الا ان تلك الهجمات فشلت في تحقيق غايتها . وفي ٢١ تموز اندفع الاستراليون الى الامام مرة اخرى في الشمال بينما حاولت الفرقة النيوزيلاندية الجديدة مع اسناد مدرع قوي شق مواضعنا في الوسط . الا أن الخرق لم ينجح . وفي ٢٦ تموز شنت الفرقة التاسعة الاسترالية هجوماً رئيسياً آخر شمال تل العيسى ، ونجحت تدابيرنا المضادة في منع وقوع كارثة .

تشرشل في القاهرة :

يبدو ان اوكنلك قد أدرك في ٣٠ تموز عدم امكانية القيام بعمليات هجومية اخرى بالقوات المتوافرة لديه ، فاستعاض عن ذلك بتقوية جبهة العلمين . وفي آب وصل تشرشل الى القاهرة بطريق الجو وهو في طريقه الى موسكو ،وسرعان ما أظهر تجمع القوات البريطانية في الصحراء الغربية ان الازمة العصيبة التي سببها وصول دباباتنا الى بوابة مصر لم يعد لها وجود . ولقد عُيِّن الآن شخص جديد لمنصب رئيس أركان الشرق الاوسط . وكان ذلك الشخص هو الجنرال سير هارولد الكساندر ، أبرع شخصية استراتيجية وأحسن عقلية سياسية في رصيد الامبراطورية البريطانية . كما استلم سير برناردلو مونتغومري قيادة الجيش الثامن . ومونتغومري هو اكثر الجنرالات البريطانيين تجديدا وأكثرهم نبوغا ، وهو الشخصية الاستراتيجية البارزة الذي كان لديه تفهم واضح لطبيعة الحرب الآلية ومعضلاتها . وبالرغم من انه كان على الغالب شديد الضغط وحاداً جدا في تعامله مع رؤسائه ومرؤوسيه على حد سواء ، فإن خططه الاستراتيجية كانت نموذجية مثالية ، فلقد أصر دائما على التمتع بتفوق حاسم في المواد قبل ابتدائه أية معركة . وبناء على تقريره الخاص الذي ضمنه كتابه « من العلمين الى نهر سانغرو » فقد اعتبر مونتغومري ان واجبه الاول والفوري للغاية هو تقوية وتعميق المواضع الدفاعية البريطانية في العلمين ، أما الاوامر والخطط السابقة بخصوص انسحاب آخر للجيش الثامن الى الشرق الاوسط فقد ألقى بها في سلة المهملات حال استلامه للقيادة ، كما بيّن للجميع بوضوح تام ان تسليم موضع العلمين أمر مستحيل وغير قابل للمناقشة ، وإذا ما انتقل رومل الى الهجوم من جديد ، فيجب التصدي له عندئذ في النقطة ذاتها . وأصدر مونتغومري أوامره الى فرقه قائلا لها : ان الوحدات التي تحت امرتها ستقاتل كوحدات فقط ، وان انتشار وتبعثر القوات الذي قاد الى التهلكة في السابق سوف لن يتكرر مرة ثانية ، كما طلب ، ضمن اطار اعادة التنظيم التكتيكي هذا ، ألا تشترك الدبابات والمدفعية الا على شكل تشكيلات متكتلة في المستقبل . ولقد أدرك مونتغومري ان أي قائد لا يستطيع ابدا أن يجد لديه القطعات الكافية في النقطة الحاسمة ، وعليه فإن النقص العددي في الرجال لا يمكن تعويضه الا بتفوق ساحق بالحديد .

وبعد أن أتم مونتغومري اتخاذ الاجراءات الضرورية لضمان الدفاع ،باشر باعادة تنظيم جذري لجيشه ، فشكل فيلقاً جديداً ليكون بامكانه استثمار الخرق الناجح الذي توقع حصوله بعد عملية المناوشات الأولية . ومنذ الآن فصاعدا ، أخذ التفوق المادي للجيش الثامن على رومل يسجل أرقاما عالية جدا ، بسبب استنفار الصناعة البريطانية كليا ، واطراد الزيادة بالمساعدات الامريكية . فقد كانت الدبابات والطائرات والمدافع من جميع العيارات وقاطرات الدبابات والمحروقات والذخائر تتحرك حول رأس الرجاء الصالح الى بور سعيد فالسويس فالاسكندرية .

مالطة أوكريت ـ القرار الانتحاري بالنسبة الى جيش رومل :

تضاءل في هذه الاثناء جريان تموينا عبر البحر الابيض المتوسط الى معدل ٦ آلاف طن شهرياً ، أو ما يعادل خُمس حاجاتنا الاعتيادية تقريبا . والسبب هو اغراق القوة الجوية الملكية والاسطول الملكي لثلاثة ارباع سفن التموين التي أبحرت . وهكذا أصبح من المستحيل اجراء أي تكديس تلبية لمتطلبات المعركة الحاسمة في المستقبل . وكانت القوة الجوية البريطانية أقوى بكثير مما كانت عليه في أي وقت سابق ، سواء بالطائرات أم بقابلية القتال ، وعلى العكس من ذلك كانت قوة كيسلرنغ الجوية الضاربة تذوب باطراد ، ولم تصل التعويضات اللازمة لان هتلر احتاج الى كل طائرة امكنه أن يضع يده عليها للجبهة الشرقية. وهكذا أصبحت قوة المقاتلات الالمانية ضعيفة جدا من الناحية العددية ، كما أُسقط ومات أخيرا ملك الاجواء الافريقية والبطل الذي انتصر في مائة وثمانٍ وخمسين معركة جوية الكابتن مارسيللي .

استعادت مالطا أهميتها كقاعدة تهاجم منها قوافل التموين المتحركة من ايطاليا ومن شمال افريقيا ، وذلك لان معظم سفن البضائع كانت تقلع من صقليا وتتوجه الى بنغازي ، وهو ميناء التفريغ الرئيسي لتموين القوات الالمانية ـ الايطالية . وكان طريق النقل هذا يقع ضمن المسافة الضاربة لجزيرة مالطا بسهولة . ولم تكن سعة مرفأ طبرق كافية تماما ولذلك اضطرت قوافل إمداد لا نهاية لها الى قطع المسافات الطويلة بين المرافىء الافريقية ومواضع قطعاتنا في العلمين ، وكانت هذه القوافل تحت رحمة القوة الجوية الملكية بصورة مستمرة ، كما أنها استهلكت هي نفسها محروقات ذات كلفة عالية وكانت تتطلب اعدادا ضخمة من السيارات والإطارات . وكانت المسافات على الطريق الى موضع العلمين تقارب ٣٣٠ ميلاً من طبرق و ٦٦٠ ميلاً من بنغازي . ومن طرابلس حيث كانت تفرغ بضائع عديدة كانت المسافة تبلغ ١٢٠٠ ميل . ويقابل هذه المسافات من الناحية الاخرى خطوط تموين البريطانيين التي لا تزيد عن ٥٥ ميلاً من الاسكندرية وأكثر بقليل من ٢٠٠ ميل اعتبارا من السويس . وطالما بقيت مالطا بيد البريطانيين ، فان تموين جبهتنا الافريقية بدرجة كافية كان أمرا مستحيلاً ، ما لم تضاعف قوة كيسلرنغ الجوية الى أضعاف قوتها الحالية . ولكن هتلر لم يقرر حتى هذا الوقت القضاء على

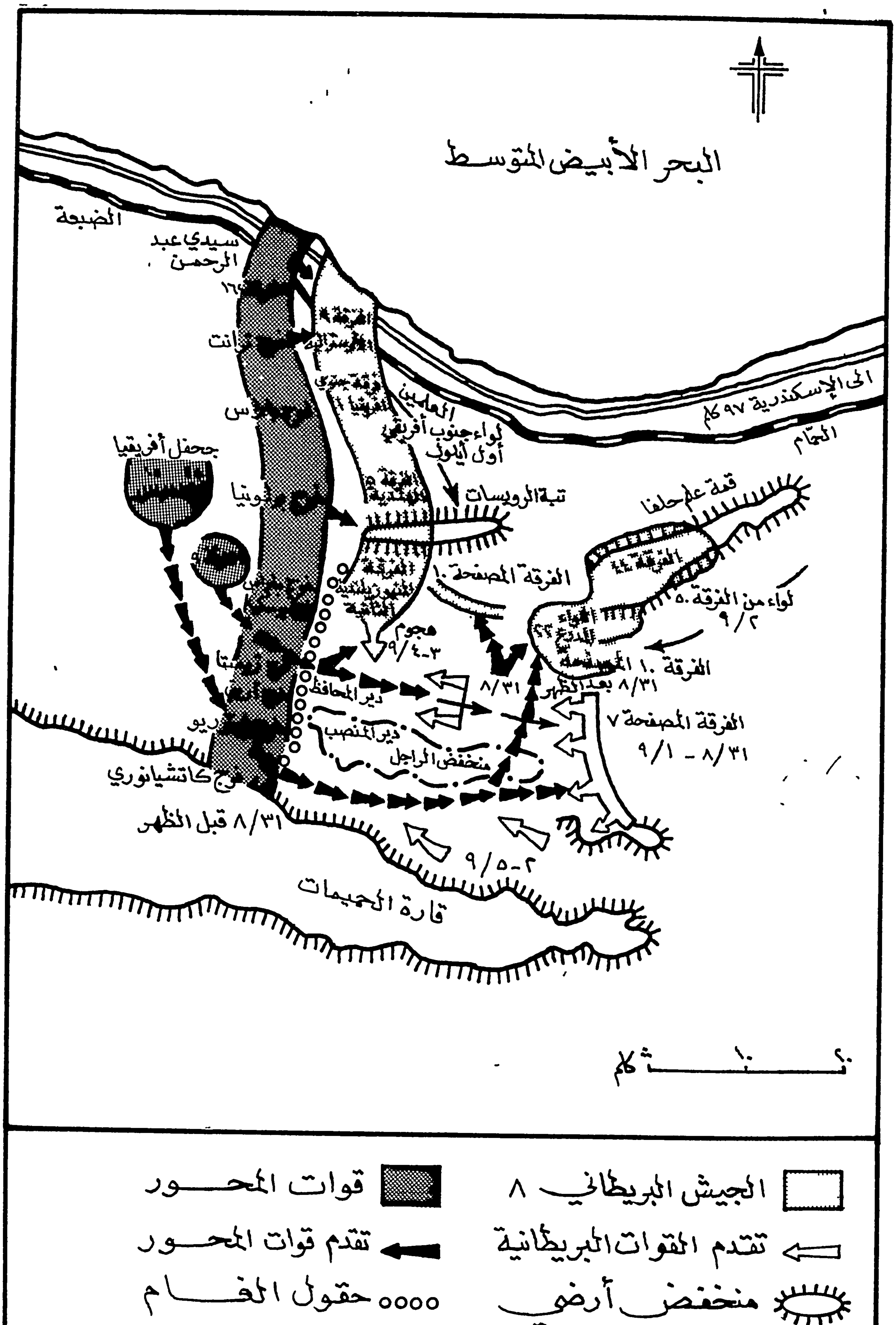
الجزيرة المحصنة . وكان يقول دائما : « يمكن تموين العلمين بصورة مرضية عن طريق كريت ، أما مالطا فتحتاج فقط الى أن تبقى ساكنة. عبر قصفها بشدة » . وهكذا أعادت قصة دنكرك السابقة في ١٩٤٠ نفسها من جديد « ستسلم دنكرك الى سلاح الطيران » . تلك كانت تبجحات الفوهرر في ذلك الوقت ، فكانت النتيجة تملّص قوة الحملة البريطانية ونجاتها من الهلاك المحقق . . . ان أي تقدير استراتيجي حصيف للموقف في آب ١٩٤٢ كان سيؤدي بدون أدنى شك الى ادراك ان القاعدة الجوية ـ البحرية في مالطا كانت وستكون ـ حتى لو توقفت عن العمل ـ شوكة في جسم مواصلاتنا الخلفية. وليس هناك أي احتمال في امكانية تحسن الموقف في الجبهة ، الامر الذي ينعدم معه أي أمل في الاستيلاء على دلتا النيل حيث تقع مراكز القوة البريطانية شرقي البحر الابيض المتوسط .

توقف جيش رومل عن الحركة وسط الصحراء بعيدا عن مرافىء تموينه ، بينما كان التفوق الجوي البريطاني يتزايد يوما بعد آخر . وكنتيجة لذلك ، بقيت امكانات تقوية كفاءتنا الحربية أو حتى اراحة وحداتنا المنهكة ضئيلة للغاية .

كان يفترض ان تطرح هذه الاعتبارات التساؤ ل التالي : « ألم يكن أكثر حكمة اجراء انسحاب طويل ، رغم قوة موضع العلمين بجناحيه الامينين ؟ » . ان ذلك الانسحاب كان سيعطي العدو أميالا طويلة من رمال الصحراء التي لا نفع فيها ، فضلا عن انه سيفرض على العدو اطالة خطوط تموينه ، في حين اننا سنصل الى احدى المناطق الدفاعية القريبة من قواعد تموينا مثل منطقة السلوم مثلاً . وكان من الممكن عندئذ اعادة بناء القوة التعرضية للجيش دون تدخل من العدو . وفي هذه الاثناء كان من الممكن أن تتم الحملة البرمائية على مالطا . . . هذه كانت فكرة رومل الخاصة . بيد ان جميع آراء الانسحاب كهذه كانت غير مقبولة لدى هتلر الذي تسمر نظره على قناة السويس . وهكذا لم يتم عمل شيء ، ولم تُهاجم مالطا ، ولم ينسحب جيش رومل . وكان هذا هو القرار الانتحاري فيما يخص جبهة العلمين ، حيث لم يكن بالامكان تجنب الكارثة التي فرضها موقف تموين رومل . وبنتيجة ذلك تلاشى كل أمل في الاستيلاء على دلتا النيلَ وقناة السويس ، كما وضع ذلك نهاية الحلم في حركة الكماشة الهائلة التي ينحدر فيها جيش الماني من أواكرانيا عبر القفقاس بينما يأتي جيش آخر شمالاً من الصحراء الغربية عبر قناة السويس . وكان الهدف من ذلك هو الاستيلاء على حقول نفط الشرق الاوسط، ثم يعقبه هجوم على الجناح الجنوبي المكشوف للاتحاد السوفياتي.

الآن أو أبدا ـ علم الحلفا :

على كل حال أصدر هتلر أوامره باتخاذ الاستعدادات اللازمة لمهاجمة دلتا النيل ، كما توسلت القيادة العليا الايطالية الى رومل بعدم الانسحاب مهما كانت الظروف ، ووصل



معركة علم حلفا (١٩٤٢)

موسوليني نفسه الى افريقيا ، وبقي ينتظر بفارغ الصبر في درنه ذلك اليوم الذي قد يقف فيه على منصة التحية ليستعرض دبابات المحور تحت ظلال الاهرام . وسرعان ما استجاب روملِ ايضا الى رغبات دكتاتورية ـ هتلر وموسوليني ـ أما القطعات التي أريد بها في الاصل القيام بالحملة على مالطا فقد ارسلت اليه الآن كتعزيزات . واتخذ روملِ في النهاية قراره بمهاجمة البريطانيين في خط العلمين ، واختراق موضعهم ، والاندفاع الى قناةالسويس ، معتمدا فقط على وصول بضعة آلاف الاطنان من الغازولين بطريق البحر أو الجو . . فلقد اعتقد روملِ ان محاولة التقدم الى الدلتا يجب أن تتم الآن والا فلن تتم ابدا .

وفي مؤتمر انعقد في ٢٧ تموز ، تعهد له كل من الفيلد ماريشال كيسلرنغ وكافاالليرو بستة آلاف طن من الوقود يُنقل واحد منها بطريق الجو . فقال روملِ : « ان نتيجة المعركة ستتوقف على تسليم هذه الكمية من الوقود في الوقت الملائم » ، فأجاب كافاالليرو : « يمكنك أن تبتدىء المعركة ايها الفيلد ماريشال ، فالوقود في طريقه اليك الآن » . وفي خلال ليلة **٣٠ ـ ٣١ آب** هاجم روملِ وكان البريطانيون حتى في هذا الوقت المبكر متفوقين علينا كثيرا بالمدفعية والذخائر والدبابات . أما سيادةالقوة الجوية البريطانية على الاجواء فلم يكن ينافسها فيها منافس ، ولذلك السبب كانت أي محاولة لاختراق الخطوط البريطانية جبهوياً غير ممكنة . ولذلك اختار روملِ المسلك الوحيد الممكن والذي يؤدي الى تطور واسع النطاق . ولتحقيق ذلك شن عدة هجمات كاذبة على النهاية الشمالية من الخط الدفاعي ، يسندها هجوم قوي في الوسط ، بينما يتم الاندفاع الرئيسي في الجنوب . وكانت غايته من ذلك التوغل على طول حافة منخفض القطارة حيث كان البريطانيون ضعفاء في ذلك القاطع ، وبعد نجاح الاختراق هناك تندفع قواته شمالا والى الشرق من علم الحلفا حتى تصل الى الحمام الواقعة على ساحل البحر . وكانت هذه بالضبط الخطة التي اتبعها في الغزالة قبل ثلاثة أشهر . ولو نجحت هذه المرة لأمكنة تطويق الجيش الثامن وقطع مواصلاته بيد أن مونتغمري والكساندر توقعا هذه الخطة . وكما عرفنا مؤخراً ، فان هذا الاخير كان ، بعد وصوله الى الصحراء العربية قد بنى دفاعات قوية على مرتفع علم الحلفا الهام ، وترك جزءا كبيرا من قوة دباباته في تلك المنطقة لاغراض دفاعية ، كما دبر خطة لاسقاط خريطة مؤشرة في أيدينا تظهر فيها المنطقة الواقعة الى الجنوب من علم الحلفا وكأنها صالحة تماما لتقدم الآليات ، مع انها كانت في الواقع أرضا رملية ، وسببت متاعب لا نهاية لها بالنسبة الى عرباتنا ذات العجلات .

وفي صباح ٣١ آب كان قد مضى على الهجوم خمس ساعات ، الا أن حقول الالغام البريطانية كانت لا تزال غير خاضعة لسيطرتنا ، وكان ذلك مناقضا تماما لجميع توقعاتنا . ومع ذلك فان ثعلب الصحراء لم يكن قد فقد مراوغته وحاسته السادسة الحاذقة التي أسعفته دائما بالحلول الصائبة .فما كاد يدرك انه لم ينجح في مباغتة العدو حتى حاول ايقاف الهجوم . وكنت أنا شخصيا مسؤولا عن اقناع روملِ بالسماح لي بمتابعة الهجوم باتجاه علم الحلفا (لان الجنرال

نهرنغ قائد الفيلق الافريقي كان قد جرح جرحا بليغا خلال الليل واستلمت قيادةالفيلق بالوكالة) فقد كانت هناك عاصفة رملية تهب على البريطانيين وتلقي على وجوههم غيوما كثيفة من الغبار في علم الحلفا ، فرغبت آنذاك في استثمار تلك الفرصة للاستيلاء على المرتفع .

ولكن الهجوم فشل على كل حال ، وابتدأت جرذان الصحراء بمهاجمة أجنحتنا بشدة ، وأغارت علينا أسراب القوة الجوية الملكية وهي تطير دونما أية مقاومة على شكل تشكيلات متراصة ، وأسقطت على رؤ وسنا سيلاً بعد آخر من القنابل ، فسببت لقطعاتنا خسائر جسيمة في الارواح فضلا عن انها تركت تأثيرا لا ينكر على معنويات جنودنا . أما الوقود الذي وعد به كافالليرو فلم يصل ، لان اثنتين من أثمن ناقلاتنا قد اغرقتا في عرض البحر وضربت الثالثة بطوربيد خارج طبرق ، أما التموين الجوي الذي وعد به كيسلرنغ فقد فشل في اثبات وجوده . وهكذا اضطر رومل أخيرا الى إيقاف هجومه . وفي ٣ أيلول ، وبعد أن ضعفنا كثيرا بسبب خسائرنا ، وبخاصة في الدروع ، ابتدأنا نتراجع .

وعود هتلر :

ما كدنانعيد اشغال مواضع وثوبنا الاصلية حتى وصلت رسالة من هتلر يأمر فيها رومل بالعودة الى المانيا في اجازة مرضية لتجري له المعالجة التي أوصى بها أطباؤه واعتبروها في حينه ضرورية . ونقل الجنرال ستومي من الجبهة الشرقية لتسلم منصب نائب القائد خلال تغيب الفيلد ماريشال . وقبل رحيله بقليل أرسل رومل رسالة لاسلكية الى القيادة العامة للقوات المسلحة يحذر فيها ويؤكد مرة اخرى على الاهمية الحاسمة للأزمة الادارية ، الا أن رسالته بقيت دون رعاية . وقبل أن يذهب الى المصحة في جبل سيميرنغ حضر رومل مؤتمرا مع هتلر في مقر الاخير شرقي بروسيا ، والذي اطلق عليه الاسم الرمزي وولف لير (عرين الذئب) .

ولاجظ رومل في هذا المؤتمر ان الجو السائد في المقر العام يميل الى التفاؤ ل بصورة غير اعتيادية خصوصاً بالنسبة الى غورنغ ، فقد كان هذا يميل الى الاقلال من الصعوبات التي واجهناها في افريقيا . وعندما جلب رومل انتباهه الى حقيقة ان القاذفات المقاتلة البريطانية كانت تقضي على دباباتنا بقذائف عيار (٤٠ ملم) تحفز هذا واعتبر تلك الاشارة اهانة شخصية له ، وقال : « مستحيل قطعا . لا شيء سوى اشاعات عفنة ، وكل ما يمكن أن يصنعه الامريكيون هو أمواس الحلاقة والثلاجات » . فأجاب رومل : « انني أرغب فقط يا حضرة ماريشال الرايخ في أن نزود بأمواس حلاقة من النوع نفسه » . وبهذه المناسبة فان رومل كان قد استبق الأمور وجلب معه قذيفة بريطانية خارقة للدرع كانت قد دمرت احدى دباباتنا فعلا .

لقد وعد هتلر بحل مشكلة التموين خلال بضعة أسابيع قادمة ، وذلك باستخدام ناقلات سيبل باعداد هائلة . وهذه الناقلة عبارة عن سفينة منيعة ضد الهجمات الجوية والطوربيدية ، وكانت احصائيات انتاج الاسلحة التي ذكرت في هذه الجلسلة تنبىء حقا ان مشاكل تموييننا

سيمكن التغلب عليها في وقت قريب . « في المستقبل القريب سأرسل إليكم في افريقيا لواء من الهاونات الثقيلة ، خمسمائة سبطانة ، بالاضافة الى أحدث ٤٠ دبابة تايغر ، وسيعقبها عدة وحدات من مدافع الميدان » . هكذا كانت وعود هتلر . لكن تبين في النهاية انها مجرد أكاذيب .

توجب على رومل أن يحضر بنفسه مؤتمرا للصحافة العالمية في برلين لاجل اسكات الاشاعات التي تخصه بالذات . وطبيعي انه لم يكن قادرا في هذه المناسبة على اعطاء الصحفيين أي تصريح واقعي عن الموقف الحالي في شمال افريقيا ، ولكنه كان يأمل انه اذا ما تكلم بطريقة متفائلة فانه قد يستطيع التأثير على البريطانيين ويجعلهم يؤجلون تاريخ هجومهم الرئيسي . وكان آنذاك قلقا جدا بخصوص الموقف الصعب لجيشه ، ولم يستطع الحصول على الراحة الذهنية وخلو البال وهما أمران ضروريان لشفائه ، اذ كانت الاخبار القليلة التي تصله في الفندق غير سارة ، ومنها اننا خسرنا معركة التموين لان القاذفات البريطانية كانت تحلق طيلة الليل والنهار جيئة وذهاباً فوق مواضعنا وخطوط تموينا . وكانت الدفعة الاولى من دبابات شيرمن الامريكية تصل الى دلتا النيل . وازدادت قوة مونتغومري الهجومية بوصول أعداد هائلة من المدفعية وأكداس لا تنضب من الذخيرة. وكان كل يوم يمر يزيدنا وضوحا اننا، بالرغم من كل تشبثاتنا ، لم نعد نأمل بتحسين موقف تموينا قبل أن يضرب مونتغومري ضربته ، فلقد تأخرنا أكثر مما ينبغي .

قبل المعركة الحاسمة بيوم واحد :

كان الموضع الالماني ـ الايطالي في العلمين يقع بين ساحل البحر ومنخفض القطارة ، ولا يوجد في الصحراء الغربية موضع دفاعي عدا هذا الموضع لا يمكن مفاجأته والالتفاف حول جناحه من الجنوب ،وهنا فقط يتحتم على المهاجمين تحقيق اختراق جبهوي . وكانت هذه الحركة تلائم القطعات البريطانية بصورة جيدة ، طالما كان كل تدريبها في ذلك الوقت ما زال يستند على تجارب الحرب الموضعية للحرب العالمية الاولى ، والتي يستطيع جندي المشاة النيوزيلاندي والاسترالي الممتاز أن يجد فيها الكثير من الفرص لاظهار بأسه ، في حين ان المدفعية البريطانية التي ازدادت قوتها وكفاءتها بما تيسر لها من ذخيرة تستطيع أن تؤثر تأثيرا مهلكا . ومن الناحية الاخرى ، قرر رومل منع اختراق مواضعنا من قبل العدو مهما كان الثمن ، طالما لم يعد بامكانه القتال في معركة دفاعية متحركة من النوع الذي أظهر فيه براعته خلال شتاء ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ ، حيث ان نقص الوقود الذي تحتاجه دباباتنا والتفوق الساحق للقوة الجوية الملكية قضيا على أية امكانية لربح معركة كهذه ، لذا كان علينا أن نتمسك بمواضعنا بغض النظر عن فداحة الثمن ، كما ان أي توغل للعدو يجب أن يصد بهجوم معاكس فوري ، لئلا يتطور الى اختراق . ولاجل انجاز هذه المتطلبات ، كان رومل قد قوى ميادينه الدفاعية بزرع اعداد لا تحصى من الالغام ، وبناء ما سُمي بحدائق الشيطان ، وجرى تطعيم الايطاليين برفاقهم الالمان في الخط

الامامي ، الى حد تناوب الافواج الايطالية بالافواج الالمانية . واتخذت فرقة ألمانية ولواء مظليين ألمان وخمس فرق مشاة ايطالية مواضع دفاعية ثابتة في الجبهة ، ووضعت الاحتياطات المتحركة في القاطع الشمالي ، وكانت تتألف من فرقةالبانزر الخامسة عشر والفرقة المدرعة الايطالية ليتوريو والى خلفها الفرقة تسعين الخفيفة والفرقة الايطالية تريسيتا . وفي الجنوب وضع احتياط الجيش المتألف من فرقة البانزر ٢١ و الفرقة الايطالية المدرعة آريبتي .

فشل الاستخبارات العسكرية الالمانية :

من الامور التي يبدو انها لا تصدق ، هو وثوق الاستخبارات العسكرية للقيادة العامة للقوات المسلحة من أن الانكليز لن يتمكنوا من القيام بهجوم في شهر تشرين الاول . فلقد أرسلت دائرة الاركان العامة ـ شعبة الجيوش الاجنبية الغربية ـ ضابطا الى شمال افريقيا في منتصف تشرين الاول ، أي قبل هجوم مونتغومري بخمسة أيام لغرض اخبارنا بذلك ، والحقيقة ان مونتغومري نجح ليس في اخفاء تاريخ الهجوم الرئيسي عن الاستخبارات الالمانية فحسب ، بل في إخفاء الاتجاه الذي سيعقبه الهجوم الرئيسي . ولقد استخدم بانتظام عظيم أساليب ووسائل عديدة لجعلنا نعتقد ان هجومه سيأتي من القاطع الجنوبي ، بينما أخفى استعداداته للهجوم الرئيسي في الشمال، كما انه بذل كل ما في وسعه لاعطائنا انطباعاً عن عدم اكمال استعدادته للهجوم من الجنوب حتى الآن . فلقد أخفيت مئات من الدبابات في مناطق الوثوب تحت عربات كاذبة من جميع الانواع ، كما وضعت قاطرات كاذبة في مواضع المدافع ، ثم جلبت المدافع ليلا وأخفيت تحت الاهداف الهيكلية . أما في المناطق الخلفية فقد وضعت اهداف هيكلية بدلا من الدبابات والمدافع التي تم نقلها الى الامام. وفي الجنوب انشئت عنابر ضخمة للتموين ، وكانت كاذبة ايضا ، وأنجز كل ذلك ببطء شديد دفعنا الى الاعتقاد بأنهم لن يكونوا مستعدين للهجوم قبل شهر تشرين الثاني . وأنشئت في الجنوب شبكة اتصالات كان واجبها الوحيد هو تضليل منظومة تنصتنا ، كما تم بناء محطات كاذبة لضخ الوقود من أجل اعطائنا انطباعا خاطئا بان العمل جار في مد خط انابيب ، وأكدوا على ذلك ببناء خزانات كاذبة ايضا للوقود ، وهذه ايضا تم وضعها ببطء متعمد . واتخذت احتياطات خاصة لمنع ترك أي أثر للعجلات المتحركة فوق الرمال . وكنتيجة لهذه الاجراءات كان خداع الاستخبارات الالمانية ناجحا تماما لدرجة ان القيادة العامة لم تعرف التاريخ المعد للهجوم ، ولا نقطة الجهد الرئيسي له ، ولا مناطق تجمع الدبابات ، كما نجح البريطانيون ايضا في اخفاء الفرق التي وصلت حديثا مع قوة قوامها (٢٤٠) مدفعاً و (١٥٠) دبابة .

لقد كان مونتغومري ينوي استخدام تكتيك هجومي جديد للمرة الاولى في المعركة القادمة . ومنذ بدء الحرب حتى الآن ، كان الهدف الاول في جميع المعارك الحديثة هو تدمير دروع العدو كتمهيد للواجب الاسهل نسبيا ألا وهو الانقضاض على قوات العدو « ذات الجلد

الطري » . « قررت أن أختار الطريقة المعكوسة . . » هكذا يقول مونتغومري في كتابه « من العلمين الى نهر سانغرو » ، « وذلك بأن ابدأ بابادة مشاة المحور الماسكة للمناطق الدفاعية ؛ ولقد ابتغيت تقويض جدار العدو صخرة بعد صخرة، والقيام بهجمات منعزلة ومهيأة بعناية، وهو واجب كان يلائم إمكانيات قطعاتي » .

كانت نقطة المجهود الرئيسي في خطة مونتغومري تقع في القاطع الشمالي من الجبهة ، وكانت القوة التي ستقوم بالهجوم الرئيسي هنا هي الفيلق (٣٠) بقيادة الجنرال سير أوليفرليز . وكان هذا الفيلق يتألف من أربع فرق مشاة هي :

الفرقة التاسعة الأسترالية والفرقة (٥١) الاسكتلندية والفرقة الثانية النيوزيلاندية والفرقة الأولى من قطعات جنوب أفريقيا ، وكان على هذه الفرق فتح ثغرتين في حقول الألغام الألمانية ، تندفع عبرهما الفرقتان المدرعتان الأولى والعاشرة التابعتان لفيلق الجنرال هربرت لامسدن العاشر بغية القضاء على الهجمات المدرعة المعاكسة في مهدها . والى الجنوب كان على فيلق الجنرال سير برايان هوروكس الثالث عشر أن يقوم بهجومين بالاشتراك مع فرقتي المشاة (٤٤) و(٥٠)، وفرقة جرذان الصحراء المدرعة السابعة . وغاية هذين الهجومين تضليل المدافعين ، وجعلهم يعتقدون أن الهجوم الرئيسي سيأتي من هنا . وكان من المؤمل أن ذلك سيجمد حركة فرقة البانزر (٢١) ويمنعها من الاشتراك في المعركة الحقيقية في الشمال .

كان في جيش مونتغومري ثلاث فرق مدرعة ، بالاضافة الى أربعة ألوية مدرعة مستقلة . وكانت قوته الكلية في الدروع تتألف من ١٠٠٠ دبابة مقابل فرقتي بانزر ألمانيتين بقوة ٢٧٠ دبابة ، وفرقتين مدرعتين ايطاليتين بقوة ٣٠٠ دبابة ، مع أن الدبابات الايطالية كانت كلها قديمة وعديمة الفائدة تقريبا .

معركة ميؤوسة ـ رومل :

كانت ليلة ٢٣ تشرين اول ليلة ساكنة وصافية ، وفي الساعة ٢١,٤٠ وتحت ضوء القمر اللماع ، فتحت مدفعية مونتغومري سدها الناري فسقط ذلك السد على شكل (١٠٠٠) قذيفة فوق بطارياتنا ، وكان التأثير الناجم عن ذلك القصف مروعاً ، وأصبح موقع العلمين جحيماً من الانفجارات والدخان والغبار . وفي الساعة ٢٢,٠٠ انتقل القصف الى مواضع مشاتنا الامامية والى « حدائق الشيطان » التي ابتدعها رومل ، وباشر الفيلقان (١٣) و (٣٠) بالهجوم ، وفتح الاستراليون والاسكتلنديون الثغرة الشمالية في حقول الالغام وتحركوا باتجاه الغرب ، وإلى الشمال من مرتفع المطيرية ، كما هاجم النيوزيلنديون والافريقيون الجنوبيون المرتفع نفسه من الشمال الشرقي واستولوا عليه ، ثم فتحوا ثغرة ثانية في حقول الغامنا . وفي الوقت نفسه قام الهنود بهجمات سبر على نطاق واسع ضد مواضعنا في منطقة مرتفع الرويسات ، بينما قام

الاستراليون في أقصى الشمال بشن هجوم ضعيف نسبياً بين تل العيسى والبحر . وتطور القتال بشدة واستمر طيلة الليل ، وتصلبت المقاومة الالمانية ـ الايطالية ، وعندما طلع الفجر كانت قطعات مونتغومري قد استولت على أهدافها الأولية في معظم الحالات . أما الثغرتان فكانتا قد فُتحتا عبر حقول الالغام ، وجُلبت عن طريقهما الأسلحة الثقيلة الى الامام ، ومن ورائها اندفع الفيلق (٣٠) والفرقتان المدرعتان الأولى والعاشرة بدباباتهما (التي بلغ مجموعها ٧٠٠ دبابة) عبر الثغرتين المذكورتين ، وعندما وصلت الفرقة العاشرة المدرعة الى قمة مرتفع المطيرية توقف تقدمها بسبب نيران المدفعية والمدافع المضادة للدبابات . أما اللواء النيوزيلاندي المدرع فقد تحرك غرباً فوق الأرض المرتفعة ، ولكنه توقف أخيراً وسط حقول الألغام الواسعة والمستورة من قبل نيران دفاعية شديدة . وعندئذ سحبت الدبابات خلف مرتفع ساتر ، وابتدأت المناوشة بنيران المدفعية بعيدة المدى . وهكذا كانت نتيجة الحركة نجاح الجيش الثامن في اختراق مواضع المحور ومسكه لمواضع الخرق هذه ، الا أن دباباته فشلت في التوغل والخروج الى المنطقة المفتوحة الواقعة الى الغرب من مواضعنا . في هذه الاثناء كانت كل من الفرقة السابعة المدرعة وفرقة المشاة الـ (٤٤) قد ابتدأتا هجومهما في الجنوب ، وتم لهما فتح ثغرتين عبر القسم الشرقي من حقول الالغام ، الا أن محاولتهما بمتابعة التوغل عبر القسم الغربي من حقول الالغام قد فشلت ، لذلك اضطر الفيلق (١٣) الى تبديل تكتيكه وابتدأ بشن هجمات صغيرة ذات اهداف محدودة .

وفي هذا الوقت كان رومل لا يزال في المانيا ، فاتصل به هتلر هاتفياً وهو في مصحته فوق جبل سيميرنغ في ظهر يوم ٢٤ تشرين أول ، وقال له : « رومل . . . الاخبار القادمة من افريقيا تبدو سيئة والموقف يبدو غامضاً نوعاً ما ، ولا أحد ، كما يظهر ، يعرف ماذا قد حدث للجنرال ستومي ، وعليه هل تشعر بقدرتك على العودة الى افريقيا لتأخذ قيادة الجيش من جديد ؟ » .

كان رومل قد أمضى تحت المعالجة مدة ثلاثة أسابيع ، ولا يزال بكل تأكيد مريضاً وغير مستعد استعداداً كافياً لاستئناف القيادة في معركة شديدة ظهرت وكأننا قد خسرناها بدون أمل . ومع ذلك فانه لم يتردد لحظة واحدة ، وطار في صباح اليوم التالي وهو يشعر بأن فرصته في الحصول على النصر ضئيلة . وفي خلال رحلته حط رحاله في روما ، وقام بزيارة قصيرة لمناقشة مشاكل التموين ، ثم استأنف رحلته الى جزيرة كريت . وفي مساء ٢٥ / ١٠ وصل رومل الى مقره في الصحراء الغربية ، وقدم له الجنرال رتر فون توما ، الذي كان في تلك الأثناء قائداً مؤقتاً للجيش ، تقريراً عن تطور المعركة بالاسلوب التالي :

« لقد تطور الموقف أيها الفيلد ماريشال كما كان متوقعاً ، وذلك يعني في غير صالحنا . فلقد دمرت مدفعية العدو الكاسحة حقول ألغامنا قبل أن تطأها أرجل مشاته ، وهي الآن في حوزته . كما نجح الهجوم المعاكس لفرقة البانزر (١٥) في ايقاف العدو الا أنه فشل في رده على

اعقابه . أما المسكين الجنرال ستومي فقد كان متوجهاً بسيارة اسعاف الى وسط المعركة في الساعات الأولى من يوم ٢٤ تشرين اول ، بغية الاطلاع بنفسه على سير الأمور ، عندما وجد نفسه فجأة وهو محاط بمشاة بريطانيين مسلحين بالمدافع الرشاشة وأسلحة ضد الدبابات . وفي الحال اخترقت طلقة رأس الكولونيل بيوشتنغ ، وهو الضابط الوحيد الذي كان معه ، فأردته قتيلاً في الحال ، فاستدار السائق بسيارته فوراً وقفز الجنرال ستومي خارجاً واستطاع التعلق بجسم السيارة بينما أسرع السائق بالانبطاح فتخلص بذلك من نيران العدو . ولا بد أن الجنرال ستومي قد سقط في تلك النقطة ولم يلاحظ من قبل السائق ، ووجد فيما بعد ميتاً بالقرب من السيارة من جراء نوبة قلبية . . ولسوء الحظ عندما ابتدأ البريطانيون هجومهم منعنا ستومي من تدمير مواضع وثوبهم بسبب النقص في الذخيرة ، وبالنتيجة نجح البريطانيون في الاستيلاء على أقسام من حقول ألغامنا ومواضعنا الدفاعية مقابل خسائر طفيفة نسبياً من جانبهم . أما موقف الوقود فلم يسمح الا بتحركات محدودة وهجمات معاكسة موضعية من قبل وحداتنا البانزر التي كانت تقف على أهبة الاستعداد خلف القواطع المهددة من الجبهة . وأرسلت عناصر من فرقة البانزر (١٥) نهار الأمس لنقوم بهجوم معاكس ، كما أرسلت هذا اليوم لنفس المهمة عدة مرات ، ولذلك فقد تكبدت خسائر شديدة من قبل القوة الجوية الملكية . وفي عصر هذا اليوم لم تبق من دباباتها سوى ٣١ دبابة صالحة للقتال كما لم يبق من الوقود الا كمية قليلة بالقرب من الجبهة » . . وهكذا أنهى فون ثوما تقريره . وفي روما ، عندما توقف فيها ، كان رومل قد طلب أن تستخدم جميع زوارق الطوربيد ومدمرات الاسطول الايطالي حالاً في نقل الوقود والذخيرة عبر البحر الأبيض المتوسط . أما قوة كيسلرنغ الجوية فلم تكن في حالة تسمح لها بمنازلة القوة الجوية الملكية في هجماتها القاصفة ، ومع ذلك فقد كان رومل مصمماً على طرد العدو خارج خط دفاعاتنا الرئيسية مهما كانت الظروف ، ومن ثم استعادة مواضعنا القديمة خلال الأيام القليلة القادمة . ولأجل ذلك الغرض ، راح رومل يجمع كل قواته الآلية التي كانت مبعثرة خلف القاطع الشمالي من الجبهة . ولم يترك الا الفرقة (٢١) بانزر في الجنوب ، ولم يكن عمله هذا مفيداً لنا كما سيثبت ذلك .

خلال ليلة ٢٥ / ٢٦ تشرين اول اطلق البريطانيون مرة أخرى نيران مدفعيتهم بشدة على طول الجبهة ، وأصبحت نيران مدفعيتهم في الحال سداً واحداً زاحفاً . وهاجم البريطانيون طوال تلك الليلة ، وألقيت في المعمعة عناصر قوية من فرقنا البانزر ودفعت الى أقصى خط دفاعي ، طالما لم يكن لدينا عدد كاف من المشاة . وأغارت علينا القاذفات الليلية البريطانية كسيل لا ينقطع ، وألقت حممها فوق قطعاتنا . ونجح العدو قبل منتصف الليل بقليل في الاستيلاء على النقطة (٢٨) ، مرتفع كيدني ، ثم باشر العدو بتعزيز ذلك الموضع خلال الليلة نفسها حتى يكون قادراً في صباح اليوم التالي على الاستمرار في هجومه وتوسيع رأس الجسر الذي ربحه الى الغرب من حقول الألغام . الا اننا قمنا بهجوم معاكس فوري ضد رأس الجسر هذا

بواسطة الفرقة (١٥) بانزر وفرقة ليتوريو الايطالية ، وأسند الهجوم بنيران مركزة من مدفعية الجيش والمدفعية المضادة للطائرات ، الا أن هذا الهجوم المعاكس لم يحصل. الا على نجاح بطيء ، إذ كان دفاع البريطانيين مستميتاً ، وكانت كل ياردة من الأرض يجري في سبيلها قتال مرير ، فسفكت لذلك دماء كثيرة . وعلى كل حال ، فلقد أعيد احتلال كلا جناحي مرتفع كيدني الشرقي والغربي ، ومع ذلك بقيت قمة المرتفع في أيدي البريطانيين ، الأمر الذي سيزود مونتغومري فيما بعد بنقطة الانطلاق لمزيد من عملياته الحاسمة .

في ٢٦ تشرين اول راح روميل يراقب سير الهجوم على النهاية الشمالية للخط ، ومرة بعد اخرى كانت تشكيلات القوة الجوية الملكية تأتي لتصب قنابلها فوق قطعاتنا . وراح البريطانيون يعززون باستمرار قواتهم في منطقة مرتفع كيدني،فأمر روميل المدفعية باطلاق رشقات نارية لغرض تشتت تحركات العدو ، ولكننا كنا نفتقر الى الذخيرة افتقاراً شديداً ، الأمر الذي جعل رماتنا عاجزين عن تنفيذ الأمر بما يضمن النجاح .

وخلال مجرى هذا اليوم (٢٦ تشرين اول) اشتركت الفرقة (٩٠) الخفيفة في المعركة . وكان المفروض أن تهاجم مرتفع كيدني ، وواضح أن الانكليز الذين كانوا يلقون باستمرار وحدات جديدة رغبوا في الاستيلاء على المنطقة الواقعة حول سيدي عبد الرحمن . ولأجل إحباط هذه المحاولة ، حرك روميل فرقة تريستا الايطالية الى الشرق من الصنبعة . وفي عصر ذلك اليوم حاولت أسراب القاذفات المنقضة الالمانية والايطالية اعاقة الارتال البريطانية التي كانت متوجهة آنذاك الى الشمال الغربي ، وفي هذه المحاولة قدم الطيارون الالمان مثلاً حقيقياً بالتضحية بالنفس ، فلقد هوجمت طائراتنا البطيئة من قبل خمسين مقاتلة بريطانية ، الأمر الذي اضطر الايطاليين وهم في ساعة يأس الى القاء حمولة طائراتهم من القنابل فوق رؤوس قطعاتنا ، بينما شق الطيارون الالمان طريقهم بالقوة إلى أهدافهم وتعرضوا من جراء ذلك الى خسائر جسيمة . وقبل هذه الغارة الالمانية لم نكن قد شاهدنا أبداً في افريقيا سداً بهذه الكثافة من نيران المدافع المضادة للطائرات . مئات من القذائف الخطّاطة انطلقت عبر السماء في كل اتجاه ، وبذلك تحولت السماء الى جهنم حقيقية .

قام البريطانيون بمحاولات متكررة لخرق خطنا الى الجنوب من مرتفع كيدني بواسطة الهجمات المدرعة ، ولكنهم لم ينجحوا الا بعد أن ألقوا بمائة وخمسين دبابة في المعركة بعد ظهر ذلك اليوم وعندئذ فقط تمكنوا من التوغل عميقاً . ومع ذلك تمكنت الدبابات الالمانية والايطالية بعد قتال شديد من اعادتهم الى الوراء ، الا أن أسراب القاذفات البريطانية التي يضم الواحد منها عشرين طائرة كانت تهاجمنا طيلة النهار وبفاصلة ساعة واحدة بين غارة واخرى . ولم تكلف هذه الهجمات المحور خسائر جسيمة في الارواح فحسب، بل انها أوجدت بين قطعاتنا علامات الانهاك وشعوراً بالنقص . أما موقف التموين فقد كان يقترب من الكارثة ، حيث أغرقت

الناقلة الوحيدة بروزربينا التي كان باستطاعتها أن تساهم في حل مشكلتنا النفطية نسبياً ، وذلك بقصفها من الجو خارج طبرق . ولقد كان من الأمور ذات الأهمية القصوى أن نجمع كافة قواتنا الآلية في الشمال لأجل طرد البريطانيين عن طريق هجمات مركزة ، ولكن لم يكن لدينا البنزين الكافي لهذا الغرض .وهكذا لم يكن لنا خيار سوى ارسال وحدات دباباتنا لقمة بعد اخرى في هجمات منعزلة ضدأرتال العدو المدرعة . ولولا تردد رومل الشديد وحذره المتناهي قبل الاقدام على أية حركة ، لكان باستطاعتنا القيام بتحشيد كبير لجميع قواتنا المدرعة في محاولة ربما كانت ستقودنا الى عمل ناجح ، وبالرغم من سوء موقف التموين ، قرر رومل أن ينقل جميع الفرقة (٢١) بانزر من القاطع الجنوبي الى الشمال ، وكان يدرك تماماً انه في حالة الضرورة سوف لا يتمكن من اعادة هذه القوة الى الوراء أو الى محلها في الجنوب « سوف نخسر هذه المعركة إذا لم يتحسن موقف التموين حالاً » . هكذا أخبر رومل (عرين الذئب) في عصر هذا اليوم ، وبالنظر لتجاربنا السابقة فاننا لم نكن نأمل حدوث ذلك .

عملية (سوبر تشارج) ـ مونتغومري :

وصلت المعركة الآن مرحلة حرجة بالنسبة لكلا الطرفين ، وأخذ التعب يظهر على القوات البريطانية أيضاً ، فأخذت هجماتها تقل شدة ، وكانت خسائرها بالدبابات كبيرة بفعل مدافع رومل المضادة للدبابات . ومع ذلك لم تنجح بتحقيق خرق حاسم . وهنا وضع مونتغومري خطة عمليات جديدة ، كان المقصود منها ضمان الخرق المطلوب في خلال أربعة أيام . ولا غرو في ذلك لأن موقفه ما زال جيداً جداً ، إذ ان عدد دباباته في ذلك الحين كان يبلغ ٨٠٠ دبابة صالحة للقتال ، اضافة الى أكداس لا تنضب من الذخائر . وأعاد مونتغومري تجميع قواته ، فسحب (جرذان الصحراء) وبضعة ألوية مشاة من الجبهة الجنوبية وأرسلها الى نقطة مجهوده الرئيسي في الشمال ، وكانت غايته من ذلك تثبيت رومل بهجمات صغيرة الى أن يحين الوقت المناسب للضربة القاضية ، ولذلك فان أول ما يجب عمله هو التخلص من النتوء الذي مسكه رومل في أقصى الشمال من أجل فتح الطريق الى سيدي عبد الرحمن .

وفي ٢٧ تشرين الأول أطلقت المدفعية البريطانية نيرانها المؤثرة مرة اخرى على المواضع الالمانية الايطالية . وقبل ذلك كان رومل قد حشد ما تبقى له من الاحتياط المتحرك خلف القاطع الشمالي ، وكان على هذه القوة أن تقوم بعد الظهر بهجوم معاكس بينما تعيد الفرقة (٩٠) الخفيفة احتلال مرتفع كيدني وتهاجم الفرقتان (١٥ و ٢١) البانزر مرتفع المطيرية . وفي تمام الساعة ١٤,٠٠ تحرك رومل بسيارته الى المكان الذي كانت تتجمع فيه طليعة القوة المهاجمة ، وفي هذه الآونة أغارت عشرون قاذفة بريطانية وقصفت وحدات الهجوم ثلاث مرات في مدى ربع ساعة فقط ، بينما كانت تلك الوحدات متجمعة هناك دون أيما ستر في الصحراء المفتوحة . وفي الساعة ١٥,٠٠ هاجمت قاذفاتنا المنقضة مواضع البريطانيين ، بينما صبت جميع

مدفعيتنا ـ ومنها المضادة للطائرات ـ نيرانها لفترة قصيرة وبرشقات شديدة على نقاط الهجوم المقترحة في القاطع الشمالي ، وبعدها زحفت وحداتنا المدرعة الى الامام ، وما لبث أن انصب عليها جحيم مروع من النيران البريطانية في الحال . لقد كان الدفاع قوياً بصورة غير اعتيادية ، وسرعان ما توقف هجومنا عن الحركة بفعل مدفعية العدو الثقيلة المضادة للدبابات ، علاوة على نيران دباباته ، فتكبدنا خسائر جسيمة واضطررنا الى التراجع . وفي الوقت نفسه توقف هجوم الفرقة (٩٠) الخفيفة تحت رشقات قوية من قذائف وقنابل البريطانيين ، وثبت لسوء الحظ أن التقرير الذي ورد من تلك الفرقة حول اعادة احتلالها لمرتفع كيدني كان غير صحيح . وفي عصر ذلك اليوم استوجب ارسال عناصر اخرى قوية من قواتنا المدرعة لتسد الثقوب في خطنا الامامي ، وانشغل الأثير بطلبات النجدة الموجه الى روما والى مقر هتلر ، ولكن لم يعد هناك أي أمل في تحسن موقف تموينا مهما تم عمله في هذا السبيل ، فقد كان واضحاً أن البريطانيين سيستمرون في دحرنا شيئاً فشيئاً طالما أننا عاجزون عن الحركة وسط ميدان المعركة . ومن الجدير بالذكر أن مونتغومري لم يكن قد ألقى في المعركة الا بجزء من قوته الهجومية فقط .

وفي خلال ما بعد ظهر يوم ٢٨ تشرين الأول ، هاجم البريطانيون جبهتنا الشمالية ثلاث مرات ، وفي كل مرة نجحت وحداتنا المدرعة في رد المهاجمين على أعقابهم الى الخط الذي انطلقوا منه ، ولكن دروعنا تكبدت في الوقت نفسه خسائر محزنة مرة اخرى ، وانهالت علينا القنابل البريطانية بدون توقف ، وبقي موقف تموينا يائساً . وفي ايطاليا تم تحشيد كل طراد ومدمرة متيسرة لأجل نقل العتاد والوقود اللذين كنا بأمس الحاجة اليهما عبر البحر الى افريقيا ، الا أن معظم تلك البواخر أفرغت شحناتها في ميناء بنغازي الذي يبعد حوالى ٦٠٠ ميل الى الخلف من جبهتنا ، وتعلمنا بالتجربة ان مواد التموين لن تتمكن من الوصول الى قطعاتنا قبل مرور بضعة أيام .

ومنذ منتصف يوم ٢٨ تشرين الأول شوهدت قوات مدرعة بريطانية قوية وهي تتجمع في منطقة مرتفع كيدني واعتقدنا ان مونتغومري كان يبتغي مرة اخرى تحقيق خرق حاسم ، فهيأنا لذلك اجراءات دفاعية مضادة بالدرجة التي تسمح بها قواتنا المنهكة . ولكن الهجوم لم يقع في عصر ذلك اليوم ولم تنصب سدود نيران المدفعية البريطانية القاتلة على المنطقة الواقعة الى الغرب من مرتفع كيدني الا في الساعة ٢١٠٠ وتلا ذلك رشقات نارية من مئات المدافع البريطانية على المنطقة الواقعة الى الشمال من المرتفع نفسه . وفي الساعة ٢٢٠٠ ابتدأت الهجمة البريطانية ، ولكننا جمعنا آخر مدافعنا ، ونجحنا في دحر الهجوم ، وفي الوقت الحاضر على الأقل ، وأخذت المعركة تتأرجح بين تقدم ورجوع باستثناء فترة عنيفة استمرت ست ساعات . . . ثم اجتاحنا العدو .

في هذه الأثناء كانت هيئة أركان الجيش قد انتقلت بعيداً الى الغرب . ولقد كتب رومل في مذكراته التي طبعت فيما بعد تحت عنوان « كريغ اوهن هاس » ما يلي : « في خلال هذه الليلة

بقينا ، أنا وعدد قليل من رجالي ، على الطريق الساحلي بالقرب من مقري الحربي القديم ، ومن هناك استطعت مشاهدة وميض الرشقات المستمرة وانفجارات القذائف في الظلام ، واستمعت الى هدير المعركة الصاخب . وكانت تشكيلات القاذفات البريطانية الليلية تظهر مرة تلو الأخرى لتلقى حمولتها المميتة فوق رؤوس قطعاتنا ، ولتحيل في الوقت نفسه منطقة المعركة بكاملها الى نهار مضيء بواسطة المشاعل الهابطة بالمظلات ، وليس بامكان أي شخص أن يدرك مقدار القلق الذي حط على كواهلنا في ذلك الوقت ، أما أنا فلم تذق عيناي طعم النوم في تلك الليلة الليلاء ، وبقيت أروح وأغدو وأنا افكر في نتيجة المعركة وفي القرار الذي يجب علي اتخاذه . فلقد بدا لي من المشكوك فيه أن نتمكن من الاستمرار فترة أطول في مقاومة الهجمات العنيفة التي نجابهها الآن ، والتي كنت اعتقد أن بامكان البريطانيين أن يزيدوها شدة . واقتنعت تماماً انه يجب علي ألا أنتظر خرقاً حاسماً في صفوفنا ، وان أستبقه بالانسحاب غرباً . وفي حالة التراجع يجب علينا أن ننتشل كل ما أمكن من مدافعنا ودباباتنا وأن نصطحبها معنا ، وعلينا ، مهما كانت الأحوال ، ألا ننتظر حتى يتم تدمير جبهة العلمين بكاملها . ولذلك قررت في صباح اليوم التالي أنه في حالة تعرضنا الى ضغط شديد من قبل مونتغومري ، سوف لن أنتظر نهاية المعركة ، بل سأتراجع الى موضع فوكه الواقعة على مسافة ٥٠ ميلاً تقريباً الى الغرب » .

وفي يوم ٢٩ تشرين الأول قرب الظهر استلمنا برقية مؤلمة : الناقلة لويزيانا التي أرسلت لتحل محل بروزربينا كانت قد أغرقت هي الأخرى أيضاً بواسطة الطوربيدات الجوية . وحتى الآن لم يكن قد وقع الهجوم البريطاني الرئيسي الذي كنا ننتظره ، وكان من الواضح لدى رومل ان البريطانيين كانوا يعيدون تجمعهم ، وأصبحت الجبهة الآن هادئة نسبياً . وفي القاطع الشمالي كان علينا فقط أن نواجه نيران المدفعية الثقيلة والهجمات الجوية . ففي هذا اليوم كان ثقل القوة الجوية الملكية الرئيسي موجهاً نحو الطريق الساحلي ، حيث دُمر الكثير من عرباتنا من قبل القاذفات المقاتلة البريطانية ، وأمر رومل أن يتم استطلاع موضع فوكه الذي فكر بالانسحاب اليه .

وفي هذه الآونة أدرك مونتغومري حقيقة أن الفرقة (٩٠) الخفيفة كانت قد جلبت الى الامام الى منطقة سيدي عبد الرحمن لتتصدى لهجماته هناك ، لذا بدل خطته في الحال ، ونقل نقطة مجهوده الرئيسي الى نقطة أبعد في الجنوب ضد الخط الممسوك بقوى ايطالية ضعيفة . ولم يعد لدينا أي احتياط للعمليات يمكن تيسره في الحال في هذه المنطقة .

أعطى مونتغومري للفرقة الاسترالية واجب الهجوم مرة اخرى في خلال ليلة ٣٠ ـ ٣١ تشرين أول ، وهدفها ساحل البحر . وكان على هذه الفرقة أن تمهد الطريق للاختراق باتجاه الغرب ، ثم ان هجوماً آخر في هذه المنطقة لا بد سيعزز مخاوف رومل في أن يكون المجهود البريطاني الرئيسي الآن في نهاية أقصى الشمال من الخط . ومع ذلك فان الغرض الرئيسي

لذلك الهجوم كان التأكد من انه قد احتفظ بالفرقة(٩٠)الخفيفة في منطقة سيدي عبد الرحمن . وأعطيت الفرقة النيوزيلاندية مهمة الهجوم باتجاه الغرب خلال ليلة ٣١ تشرين الأول / ١ تشرين الثاني لانجاز عملية الخرق ، وحالما يتم ذلك يندفع الفيلق العاشر بفرقه (١ ، ٧ ، ١٠) المدرعة من خلال الثغرة ويخرج الى الصحراء المفتوحة في الغرب خلف مواضعنا ليدمر الفيلق الافريقي ، حيث أن هذه الحركة (سوبر تشارج) وضعت نصب عينها هدفاً يتمثل في ابادة قواتنا المحاربة .

وفي ليلة ٣٠ ـ ٣١ تشرين الأول سُحبت الفرقة (٢١) بانزر من خط الجبهة ووضعت في الاحتياط لتكون جاهزة من جديد للعمليات المتحركة . ولقد تم هذا الانسحاب في الواقع عندما انصب أشد سد من نيران المدفعية على قاطعنا الشمالي ، وبعد أن استمرت رمايات التمهيد مدة ساعة ، باشر الاستراليون هجومهم من جهتين : الأول هجوم جبهوي لتثبيت قطعاتنا هناك والثانية من الجنوب ضد جناح مواضعنا الكائنة في أقصى الشمال . وفي الوقت نفسه هاجمت وحدات مدرعة بريطانيا باتجاه الشمال ودمرت بطارية ايطالية . وقبل حلول فجر يوم ٣١ تشرين الأول وصلت ثلاثون دبابة ثقيلة الى الطريق الساحلي ، ولم تتيسر لنا قوة فورية من أجل القيام بهجوم معاكس، سوى كتيبة الاستطلاع (٣٥) ، حيث ان الفرقة (٢١) بانزر كانت لا تزال منهمكة بعد عملية انسحابها من الجبهة ولم تكن قد أصبحت بعد جاهزة للعمل .

تحرك رومل بسيارته في الحال وتوجه الى سيدي عبد الرحمن ، وأنشأ هناك مقره الحربي شرقي الجامع . وفي هذه الأثناء كان العدو قد واصل اندفاعه استمرار حتى وصل الى الساحل . وهكذا تمكن من عزل النتوء الشمالي بكامله ، فصدر الأمر الى الجنرال رترفون توما للقيام بهجوم معاكس بالفرقة (٢١) بانزر والفرقة (٩٠) الخفيفة . وكان على الهجوم ان يبدأ بقصف جوي شديد من قبل طائراتنا (شتوكا) المنقضة ، وبنيران كثيفة من قذائف مدفعيتنا . وابتدأ هجومنا فعلاً في الساعة ١٢,٠٠ ، الا أنه فشل في التوصل الى أهدافه ، ومع ذلك فان قوات توما نجحت في اعادة الاتصال بالقطعات التي طوقت سابقاً داخل ما كان يدعى بالنتوء الشمالي وتم فيما بعد طرد العدو عبر خط سكة الحديد .

وفي مساء ١ تشرين الثاني استطلع رومل الأرض التي نشبت المعركة عليها ، فشاهد كوخ محطة السكة الحديدية وهو مؤشر من قبل البريطانيين بأعلام الصليب الأحمر ، وكان ثمة أحد عشر جسم دبابة مشتعلة حول الكوخ واستقر وراء الكوخ ما يقرب من ٤٠ عربة بريطانية مصفحة . وكان البريطانيون آنذاك يخلون جرحاهم العديدين الأمر الذي استدعى ايقاف اطلاق النار من مدافعنا . وفي خلال النهار أغارت تشكيلات من القاذفات البريطانية على جبهتنا الشمالية أربع وثلاثين مرة ، وكانت السماء تعج في الوقت نفسه بمئات المقاتلات البريطانية ، بينما انقضت اعداد لا حصر لها من القاذفات المقاتلة البريطانية على عربات تموينا المتحركة على

الطريق الساحلي . وكان مونتغومري آنذاك ما زال يحتفظ بثمانمائة دبابة ، في الوقت الذي لم نكن نملك فيه أكثر من (٩٠) دبابة ألمانية ، و (١٤٠) دبابة ايطالية صالحة للاشتراك في المعركة القادمة .

وفي عشية يوم ١ تشرين الثاني استلم رومل رسالة الراديو التالية من روما « طلب مني الدوتشي أن أعبر لك عن عميق تقديره للهجمات المعاكسة الموفقة التي قدتها بنفسك . وبالاضافة لذلك ، فان الدوتشي يرغب منك أن تعلم أنه واثق تماماً من أن المعركة الجارية الآن تحت قيادتك ستكلل بالنصر المبين في النهاية » .

اوغوكا فالليرو
ماريشال ايطاليا

لقد اصبح واضحاً في الحال ان المقر العام كان جاهلاً بحقيقة الموقف في شمال افريقيا ، كجهل القيادة العامة الايطالية . وفي هذه الآونة وصلت تقارير استطلاع موضع فوكه ، وظهر ان النهاية الجنوبية لذلك الموضع كانت محمية ازاء هجمات الدبابات بسبب شدة المنحدرات هناك ، وهكذا كان يمكننا، عند الضرورة ، أن نأمل بمسك ذلك الموضع حتى يبدأ انصباب نيران المدفعية البريطانية عليه ، وبهده الطريقة يمكننا الحصول على الوقت اللازم لجلب التعزيزات والعتاد.

«النصر او الموت» ـ ادولف هتلر :

لقد اتضح ان قرار مونتغومري بنقل الهجوم الرئيسي لحركة (سوبر تشارج) مسافة أبعد الى الجنوب كان قراراً مفيداً له . وابتدأ الهجوم في ليلة ١ ـ ٢ تشرين الثاني، وانصبت القذائف المنطلقة من مئات المدافع البريطانية مدة ثلاث ساعات على الخط الدفاعي الرئيسي لرومل، بينما اغارت موجة بعد اخرى من القاذفات الليلية البريطانية على قطعات المحور وطحنتها . وبعد ذلك هجم المشاة البريطانيون ، تصحبهم تشكيلات كبيرة من الدبابات، واخترقوا الجبهة . . وقام ما تبقى من الفيلق الافريقي بهجوم معاكس في الصباح المبكر ليوم ٢ تشرين الثاني، ونجح في سد الثغرة التي أحدثها العدو التي كان عرضها آنئذ ٢ $\frac{1}{2}$ ميل. وحدثت معركة دبابات على درجة كبيرة من العنف ، وسببت خسائر جسيمة للطرفين ، وراحت أسراب القوة الجوية الملكية تصب على قطعاتنا جحيماً من النار والفولاذ، اذ كانت ذخيرتهم تصل من معين لا ينضب، في الوقت الذي أصبح موقف تمويل رومل يائساً. ففي خلال ذلك اليوم أطلقت أسلحتنا ٤٥٠ طناً من الذخائر ولم نستلم عوضاً عن ذلك إلا ١٩٠ طنا فقط ، وسلم هذا المقدار من قبل مدمرة في طبرق التي تبعد مسافة ٣٠٠ ميل عن الجبهة .

بدأ مونتغومري الآن يحشد الدبابات ، التي احتفظ بها كاحتياط ، ضد النقطة التي تحقق فيها الخرق . لذا كانت إبادتنا أمراً وشيكاً ، وأصبح الفيلق الافريقي الآن مجرداً الا من خمس وثلاثين عربة مصفحة، لذلك اعتقد رومل ان اللحظة قد حانت لقطع التماس مع العدو والتملص، ولكنه في صباح ٣ تشرين الثاني كان قد تملكه شعور بالقنوط مبعثه احتمال عدم تمكن القيادة العامة الالمانية وكذلك الايطالية من استخلاص الاستنتاجات الضرورية من الموقف الحقيقي ،بالرغم من جميع تقاريرنا التي لا لبس فيها . لذلك أرسل مرافقه الملازم بيرندت الى «عرين الذئب» على بعد ٢٠٠٠ ميل ، في بروسيا الشرقية، حيث كان هتلر «يدير المعركة الحاسمة في شمال افريقيا» . . . اما توصيات رومل الى بيرندت فكانت كما يلي : «اشرح موقفنا بوضوح الى الفوهرر، وأعلمه اننا ربما قد فقدنا مسرح العمليات الافريقي ، واطلب منه حرية عمل كاملة لجيش البانزر» . وبعد ذلك تحرك رومل بسيارته شرقاً على طول الطريق الساحلي محدداً في ذلك الصباح ولكن بتردد . ويبدو أنه كان يعيد تجميع تشكيلاته بغية استثمار الخرق ، وظهر هذا التردد كأحسن فرصة مناسبة للقيام بالانسحاب الى موضع فوكا ، ولذلك أمر رومل الايطاليين بالانسحاب غرباً، فانطلق سيل متصل من العربات ، بينما ذهب المشاة الايطاليون سيراً على الاقدام ، وازدحم بهم الطريق الساحلي من جراء ذلك ، وسرعان ما أدرك البريطانيون ما كان يحدث ، فأرسلوا ما يزيد على ٢٠٠ قاذفة مقاتلة لتشتيت أرتالنا ، وقبل العشية رجع رومل الى مركز قيادته ، حيث سلمه ضابط إشارته برقية راديو محلولة الرموز ومضمونها كما يلي :

«الى الفيلد ماريشال رومل، انني والشعب الالماني نراقب المعركة الدفاعية البطولية الناشبة في مصر ، وبناء على الثقة المخلصة في قدرتك القيادية وبشجاعة القطعات الالمانية والايطالية تحت امرتك ، ليس هناك أي اعتبار آخر ، بالنسبة الى الموقف الذي تجد نفسك فيه الآن ، سوى الثبات بقوة وعدم التراجع خطوة واحدة ، وزج كل بندقية وكل رجل في المعركة . وسوف يتم نقل تعزيزات جوية مهمة الى رئيس أركان جيش الجنوب في خلال الايام القليلة القادمة . وفي الوقت نفسه ، فان الدوتشي وقيادته العامة سوف يستنفدان كل قوتهما لضمان امدادك بالوسائل اللازمة للمضي في المعركة ، وان العدو ، وبالرغم من قوته العددية ، سيصل هو ايضاً الى نهاية موارده ،وسوف لن تكون هذه هي المرة الاولى في التاريخ حيث تسيطر الارادة الاقوى على أفواج العدو الاكثر قوة . وليس باستطاعتك ان تحدد لقطعاتك طريقاً آخر غير ذلك الذي يقود الى النصر او الى الموت» .

التوقيع
ادولف هتلر

وبعد أن قرأنا هذا الامر شعرنا وكأننا مجرمون حكم عليهم بالموت ولكنهم منحوا مهلة ثمان واربعين ساعة ،لان الجيش الذي يجابه خصماً متفوقاً وهو معدوم الحركة وسط الصحراء ، كما طلب هتلر، سيتم تطويقه لا محالة من قبل العدو وسيباد بسرعة . ولقد كان واضحاً ان «عرين الذئب»، كان يفتقر الى صورة واضحة عما كان يحدث في افريقيا ، بالرغم من تقارير روملِ التي لا لبس فيها، وان احسن اشارة الى هذه الحقيقة هي المقدمة التي وصفها روملِ في مذكراته وهذا نصها : «ان الذي احتجناه هو المدافع والطائرات والوقود ، أما الذي لم نكن بحاجة اليه فهو الاوامر التي تطلب منا الثبات».

لقد شعر روملِ وكأنه تلقى صفعة على وجهه ، ولاول مرة في خلال الحملة الافريقية لم يعرف روملِ ماذا يعمل. ولكنه قرر، بعد صراع داخلي ، أن ينفذ أوامر هتلر ، وكتب في مذكراته يقول: «لقد أجبرت نفسي أخيراً على ان أتخذ هذا القرار، لأنني كنت أطلب من جنودي دائماً اطاعة غير مشروطة ، ولذلك رغبت في قبول هذا المبدأ تجاه نفسي، ولو كنت قد عرفت في حينه ما علمته فيما بعد لكان قراري مختلفاً عما اتخذت، اذ اننا اضطررنا ، في الاشهر التالية إلى التحايل على الاوامر التي كانت تردنا من هتلر والدوتشي لاجل انقاذ الجيش».

وعليه فقد الغيت فوراً الاوامر الخاصة بالحركة نحو الغرب والتي كانت ابتدأت فعلاً . وفي ذلك المساء أرسل روملِ رسولاً آخر الى المقر العام ليخبر هتلر بأن الابادة النهائية لجيش البانزر الالماني ـ الايطالي ، لابد انها ستتم خلال بضعة أيام ، اذا ما بقيت أوامر هتلر متصلبة.

وفي صباح ٤ تشرين الثاني ، تعاونت بقايا الفيلق الافريقي الالماني مع الفرقة (٩٠) الخفيفة لمسك خط جبهة رقيق على كلا جانبي التل الرملي المدعو تل العقاقير . وكان ذلك التل ، بالرغم من أن ارتفاعه لا يزيد على اثني عشر قدما ، مانعاً محكماً . والى الجنوب كان الفيلق الايطالي المدرع الذى نال منه التعب مثل ما نال من زميله الالماني . وفي فجر ذلك اليوم قدمت نفسي الى الجنرال توما ، قائد الفيلق الافريقي ، لانني كنت على وشك الذهاب الى المنطقة الواقعة جنوب الصنبعة حيث سأنشيء مركز القيادة الخلفي. ولاول مرة وجدت توما وهو يرتدي بدلة رسمية كاملة مع شعار الجنرالية وكافة الاوسمة والنياشين ، التي لم يكلف نفسه حتى الآن حملها وهـــو في الصحراء . وبعد أن تمت المقابلة قال لي : « بايرلين ، ان أمر هتلر مثل لا يجارى في الجنون »ولقد استطعت أن أرى توما وهو واجف القلب ، وقد تنبأ بما لا يسر ، وبقي معه مرافقه الملازم هارديغن الذى احتفظ عنده بجهاز استقبال لاسلكي . ولم يلبث الجنرال حتى ارتدى معطفه والتقط حقيبة صغيرة ، فعجبت ان كان الجنرال قد أزمع على الموت ، وبعدها غادرت تل العقاقير وتوجهت بسيارتي الى الخلف .

كانت الساعة تشير الى الثامنة عندما ابتدأ البريطانيون هجومهم ، بعد ساعة تقريبا من رمايات تمهيد المدفعية ، وقد وجهوا مجهودهم الرئيسي نحو تل العقاقير واستطاع الفيلق

الافريقي ، بعد أن ألقى بكل قواه ، أن يثبت امام هجمات شنتها مائتا دبابة بريطانية . وفي الساعة الحادية عشر ظهر الملازم هارديغن فى مركز قيادتي وقال : « أرسلني الجنرال فون توما الى الخلف مع جهاز اللاسلكي لأنه لم تعد له به حاجة ، ولقد دمرت جميع دباباتنا ومدافعنا المضادة للدبابات والمضادة للطائرات في تل العقاقير ، ولست أدري ماذا حدث للجنرال . » . . وفي الحال تسلقت داخل سيارة استطلاع مدرعة صغيرة وانطلقت بها باتجاه الشرق ، وفجأة وجدت نفسي وسط جحيم من القذائف الخارقة للدروع وهى تصفر حولي من جميع الجهات ، واستطعت أن أرى من خلال وهج الظهيرة عددا لا حصر له من شياطين سوداء هائلة الحجم ، وكانت تلك الشياطين عبارة عن دبابات مونتغومري ، الهوسار العاشر ، فقفزت في الحال من سيارتي المدرعة وركضت تحت شمس الظهيرة المحرقة بأسرع ما يمكن باتجاه تل العقاقير . . لقد كان ذلك التل عبارة عن مكان للموت وللدبابات المحترقة والمدافع المحطمة ، وبدون أيما روح حية ، ولكنني رأيت بعدئذ من الحفرة الرملية التي كنت مضطجعا فيها وعلى مسافة ٢٠٠ ياردة ، رجلا واقفا منتصب القامة بجانب دبابة تحترق ، وكان يبدو وكأنه ذو مناعة ضد النيران التي كانت تتقاطع حوله ! ولم يكن ذلك الرجل سوى الجنرال فون توما نفسه . ماذا أعمل ؟ وهذه الدبابات البريطانية من نوع شيرمان تقترب من تل العقاقير ثم تتوقف على شكل نصف دائرة واسعه . ومن المحتمل ان الجنرال سيعتبرني جباناً إذا لم أتقدم وأكون بجانبه . ولكن الركض من خلال ستار النيران الفاصل بيننا سيكون بلا شك موتا أكيدا . لقد فكرت مدة دقيقة أو دقيقتين ، ثم ابتدأت الدبابات البريطانية تتحرك الى الامام من جديد ، والآن ، انقطعت النيران عن تل العقاقير ، وهناك بقي الجنرال فون توما واقفا متصلبا لا يتحرك وكأنه عمود من الرخام وحقيبته ما زالت فى يده ، وتوجهت اليه مباشرة حاملة رشاش خفيفة (برن) ووزاءها قليلا كانت تتقدم دبابتان (شيرمان) . وهنا أخذ الجنود البريطانيون يلوحون للجنرال فون توما ، وفي الوقت نفسه اندفعت مائة وخمسون عربة قتال عبر تل العقاقير وكأنها الفيضان .

لم أتمالك نفسى من الركض باتجاه الغرب بأقصى سرعة ممكنة ، فوجدت سيارتي قد غابت.وبعد هنيهة صادفت سيارة أركان أخذتني الى مركز القيادة في الصنبعة ، وأمكنني مشاهدة غيوم هائلة من الغبار فى كلا الاتجاهين الجنوبي والجنوبي الشرقي من مركز القيادة ، حيث كانت الدبابات الايطالية التابعة للفيلق (٢٠) تقاتل في آخر معركة يائسة لها ضد ما يقرب من مائة دبابة بريطانية ثقيلة راحت تضرب جناح الفيلق الايمن المكشوف . وبعد مقاومة بطولية ، تمت ابادة الفيلق الايطالي . . وفيما بعد سلم ضابط إشارة الفيلق الافريقي الى روملِ رسالة محلولة الرموز كان قد التقطها رجالنا بواسطة التنصت وهذا نصها : « لقد أسرنا توا جنرالا يدعى رتر فون توما » .

أخذني الفيلد ماريشال جانبا وقال لي : « بايرلين . ان الذي حاولنا منعه بكل طاقتنا قد وقع الآن وتحطمت جبهتنا ، والعدو يندفع كالسيل في منطقتنا الخلفية ، ولم يبق بعد الآن أي

مجال لاطاعة أمر هتلر ، وعليه سننسحب الى موضع فوكه بغية انقاذ ما يمكن انقاذه حتى الآن ، ثم مضى قائلا : « عقيد بايرلين ، انني اضعك فى منصب قيادة الفيلق الافريقي ، اذ ليس هناك من يمكنني الوثوق به سواك ، واذا جدث فيما بعد ان أحالنا الفوهرر الى المحكمة العسكرية بتهمة عدم الاطاعة ، فيجب علينا أن نجيب عندئذ باستقامة عن قرارنا الذى اتخذناه هذا اليوم . . . قم بواجبك على أحسن ما يمكنك القيام به ، وجميع أوامرك ستتمتع بصلاحيتي ، كما يمكنك أن تقول ذلك الى الآمرين الاقدمين فى حالة ما اذا حصلت لك أية مشكلة معهم » . ولما انتهى من كلامه أجبته قائلا : « سأبذل كل ما في وسعي يا سيدى » . ثم استقل رومل عربة قيادته المدرعة وذهب لزيارة الوحدات الاخرى من جيشه المغلوب ، حتى يعطيها الاوامر بالتراجع .

بين نارين ـ النهاية :

أصدرت أمري بقطع الاشتباك حالما يحل الظلام ، لا شك أن القرار الذى توصل اليه رومل قد أنقذ على الاقل البقايا الواهية من قطعاتنا الآلية من التدمير . إلا أن هذا التأخير الذي استمر أربع وعشرين ساعة كان قد كلف الجيش خسارة كامل مشاته اضافة الى عدد كبير من الدبابات والنقالات والمدافع . وبنتيجة ذلك ، لم يعد الحيش قادرا على الصمود فى وجه مطاردة مونتغومري فى أي مكان ، كما لم يعد ممكنا تنظيم القطعات طالما ان التراجع السريع فقط هو الذي سينقذها من الهجمات الجوية البريطانية ، وان أي عربة لم تتمكن من الوصول الى الطريق الساحلي أو الهروب عبر الصحراء حالا ، كان مصيرها الضياع لان مونتغومري اندفع الى الامام بسرعة مدهشة ، وسحق كل ما صادفه فى طريقه .

وفى صباح اليوم التالي استلمنا رسالة لاسلكية من هتلر : « اوافق على انسحاب جيشك الى موضع فوكه » . الا أن ذلك الموضع كان قد اجتيح من قبل دبابات مونتغومري . أما نحن فقط مضينا في تراجعنا غربا على جبهة واسعة ، ولم ينجح مونتغومري باللحاق بثعلب الصحراء وجنوده ، حيث ان رومل كان أفضل بكثير من خصمه فيما يتعلق بالجرأة والمرونة فى الحركة .

وبانسحابنا تخلينا عن مكاسبنا القديمة فى الصحراء الليبية واحدة بعد الاخرى ، . . . أمكنة كلفتنا الكثير من الدماء . . . مرسى مطروح ، السلوم ، البردية ، وأخيرا طبرق ، تلك القلعة التى كانت بمثابة فردان الصحراء الغربية . . . كل تلك الامكنة أخليت الآن نهائيا وبسرعة ، وتسابقت الجيوش للمرة الاخيرة عبر برقة ، وهى مقاطعة تبادلتها الايدي اربع مرات فى ظرف سنتين .

وفى ٨ تشرين الثاني نزل فيلق الحملة الحليفة الامريكي بقيادة ايزنهاور فى المغرب والجزائر وكان هدفه تونس . وبافتتاح حركة تورش (المشعل) ، أصبح رومل بين نارين ، وكانت بداية النهاية .

٢ ـ من العلمين إلى ستالينغراد

بقلم : سيغفريد ويستفال

اظهرت القوات البريطانية في العلمين انها قد وصلت الى مستوى عال جدا فى العمل ؛ فلقد كانت مدربة تدريبا راقيا ومجهزة تجهيزا ممتازا . وفوق كل ذلك ، كانت مقتنعة بأن النصر سيكون حليفها في النهاية ، وتتمتع بجهاز تموين واسع يمكن الاعتماد عليه ، وتعلم ان افتقار العدو الى مثل هذا الجهاز أثر فيه تأثيرا جديا . وأخذت المساعدات الاضافية التي كانت تصل الى البريطانيين في العلمين من المصانع الامريكية تشعرنا بثقلها ، وما على المرء الا أن يتذكر القلاع الطائرة . ولكن يجب الاعتراف بأن البريطانيين ما كان بامكانهم الاستفادة من الفرصة التي سنحت لهم باخلاء قطعاتهم من دنكرك أحسن مما فعلوا حتى الآن ، إذ إن تلك القطعات كانت قد أصبحت كوادر للتشكيلات الجديدة القوية التي كانت تظهر الآن فى ساحة المعركة .

عندما ابتدأ رومل تراجعه كان مدركا تماما انه لن يعود في هذه المرة ، كما فعل فى كانون الثاني الماضي ، اذ ان نقصه المادي كان عظيما جدا ، وكان واضحاً تماما انه لم يعد هناك أي أمل فى تحسن موقف التموين . وبعد العلمين ، لم يصل الى المرافىء الليبية أى مزيد من قوافل التموين ، ما عدا بعض السفن الصغيرة التى كانت تبحر بصورة منفردة بين حين وآخر ، وتتملص من العيون اليقظة للاسطول والقوة الجوية البريطانيين . أما مواد التموين التي كانت تأتي عن طريق الجو فقد كانت طفيفة . لما كانت هذه الوسيلة للنقل تعتمد على حالة الجو ، فان التموين الجوي الذي لا يعتمد عليه اعتياديا ، لا يمكن ابدا أن يحل محل التموين البحري من الناحية الكمية .

واذا كانت هناك أي حاجة لدليل آخر على التردي الاساسي للموقف الالماني ، فان هذا الدليل يقدمه الخبر المتعلق بالانزالات الحليفة في كل من المغرب والجزائر في ٨ تشرين الثاني عام

١٩٤٢ ، تحت قيادة الجنرال ايزنهاور . فلقد أخذت القيادة العامة للقوات المسلحة الالمانية على حين غرة تماما ، والآن يستطيع ، حتى الطفل ، أن يرى كيف أصبح الجيش الالماني محصورا بين نارين ، وكانت هذه هي النهاية التي كان روميل يخشاها منذ أمد طويل ، ولو ان ما توقعه روميل كان عبارة عن انزال بريطاني واسع النطاق فى منطقة طرابلس أو منطقة بنغازي . إلا أن الذي حدث فعلا كان أكثر شؤما من ذلك ، حيث أصبحت قوات الولايات المتحدة الأمريكية مشتركة الآن في الحرب بصورة فعالة ومباشرة ضد المانيا ، بالرغم من جميع التصريحات العنجهية التي أطلقها هتلر ووزير دعايته غوبلز ، وغورنغ في ان ذلك لا يمكن أن يحدث مطلقا . والآن فقط ، بدأت فعلا معركة الحياة أو الموت .

لم يفاجأ أحد ما بانضمام فرنسيي شمالي افريقيا ، بعد دفاع قصير متقطع ، إلى الحلفاء ، إذ إن السياسة الالمانية القصيرة النظر والقاسية في معاملتها مع فرنسا في السنوات الماضية كانت قد مهدت السبيل الى ذلك . ولقد حدث كل شيء تماما كما تنبأ المتشائمون ، فقد اضطرت حوادث شمال أفريقيا هتلر للزحف الى داخل الجزء غير المحتل حتى الآن من فرنسا نفسها ، وهكذا أصبحت جميع فرنسا الآن تحت السيطرة الالمانية المباشرة ، وما تبقى من الجيش الفرنسي فى أوروبا كان بدون سلاح ، بينما انضم جيش المستعمرات إلى صفوف الحلفاء في شمال افريقيا . أما الاسطول الفرنسي في طولون فقد تجنب الوقوع بيد الالمان ، وذلك بلجوئه الى اغراق نفسه فى أعماق اليم .

من الغريب جدا ان الحلفاء لم يستولوا في الوقت نفسه على تونس . الامر الذي مكن رئيس أركان الجنوب ، الفيلد ماريشال كيسلرنغ الذي كان مقره في ايطاليا ، من ارسال ما تيسر فورا من القوات عبر البحر الى تونس . لقد كانت تلك القوات ضعيفة ، الا انها كانت كافية لاحتلال المدينة وتشكيل رأس جسر ، وأقنعت الحامية الفرنسية المتحصنة في القاعدة البحرية الحصينة بنزرت بالقاء سلاحها . وفيما بعد تم نقل قطعات ألمانية اخرى بلغت قوتها الكلية ما يعادل أربع فرق ، وأصبحت هذه الفرق فيما بعد جيش البانزر الخامس ؛ واحدى النتائج التي ترتبت على هذا الموقف الجديد هي ان جميع مواد التموين المتيسرة أخذت ترسل في الوقت الحاضر الى مسرح الحركات التونسي ، وبذلك أُهمل جيش روميل أكثر من ذي قبل ، حتى أصبح شديد العوز للوقود لدرجة ان هذا السبب وحده قد اضطره مرات متكررة الى إهمال فرص مواتية للقيام بهجمات معاكسة .

وبنهاية شهر تشرين الثاني كان روميل قد رجع القهقرى الى موضع العقيلة الكائن في منعطف (سرت) الكبير، والذي شن منه هجومه في آذار ١٩٤١ وكانون الثاني ١٩٤٢. وكان يتوقع أن ينال بضعة أيام هادئة فى هذا الموضع قبل أن يتمكن جيش مونتغومري من اللحاق به . ولذلك فقد طار خفية ليقابل هتلر ، اذ انه كان يأمل في إقناعه بأن اخلاء مسرح الحرب هذا

بات الآن أمراً ملحاً ، ولكن اقتراحاته رفضت بخشونة ، فلم يلبث أن عاد الى افريقيا مكسور القلب ، لان على قطعاته الالمانية أن تقاتل حتى النهاية المريرة .

بقي الموقف فى شمال افريقيا هادئا فى الوقت الحاضر ، حيث ان تقدم الحلفاء باتجاه الشرق كان بطيئا جدا ، وكان ذلك بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة ،ولم يكن هناك سوى قتال على نطاق ضيق على طول الحدود التونسية الجزائرية ، بل ان القوات الالمانية نجحت في كسب بعض الاراضي الى الغرب . وهكذا ثبت أنه ليس من الممكن تقوية رأس الجسر التونسي فحسب ، بل يمكن أيضاً انشاء جبهة رقيقة تعتبر خطاً متقدماً على طول الحدود التونسية الغربية ، وبهذا أمكن تذليل المعضلة الاصلية . وبحلول عيد الميلاد لسنة ١٩٤٢ ظهر الموقف مستقرا نوعا ما . ومع ذلك فان الاسلحة الثقيلة ، وبصورة خاصة قطع المدفعية والدبابات بالاضافة الى الذخائر ، بقيت ناقصة حتى النهاية .

لقد جعل الانزال فى شمال افريقيا حقيقة واحدة واضحة لا تقبل الشك ، وكانت هذه الحقيقة بكل نتائجها المرعبة هي : التفوق الجوي المطلق والذى يتمتع به الحلفاء الآن . ونادرة هي المرات التي نجحت فيها المقاتلات الالمانية، واحياناً الايطالية، في ابعاد اسراب القاذفات البريطانية عن أهدافها ، ومرة بعد اخرى هطل مطر مميت من القنابل فوق قطعاتنا البرية التي لم تستطع ايجاد ستر مناسب في هذه الصحراء المكشوفة الا نادراً . ولقد ادرك روميل سابقاً في العلمين الطبيعة الحاسمة لهذه « السجادات » من القنابل التي لا بد انها ستقرر نهاية الحرب ، ما لم تنشأ قوة مقاتلات حديثة قادرة على ايقاع خسائر جسيمة في قاذفات العدو . نعم لقد أصبحت «الايادى الافريقية القديمة » من الفيلق الافريقي معتادة على قصف كهذا . . . هذا صحيح ، وصحيح ايضا ما قاله الفيلد ماريشال كيسلرنغ عندما وصف قطعاتنا قائلا :

« انها أقل القطعات حساسية ضد الهجوم الجوي فى العالم » . الا أن هذا لا ينطبق على أغلبية القطعات الايطالية في افريقيا، والتي كانت تفتقر الى الخبرة القتالية . وماذا سيحدث عندما يأتي دور الدفاع عن شبه الجزيرة الايطالية نفسها ؟! حيث يجب أن يلقى الدور الاكبر في هذه المعركة الحتمية على عاتق الجيش الايطالي في ايطاليا نفسها . ذلك الجيش الذي لم يكن قد عرف رائحة البارود حتى الآن .

وفي البحر ايضا ، أصبح تفوق الحلفاء أكثر وضوحا . وسرعان ما انكشف ذلك خلال العمليات المتعلقة بالنقل الى تونس . وبالرغم من أن الممر كان قصيرا ، إلا أن هذه الميزة أُبطل مفعولها نوعا ما من جراء شدة الهجوم ، وازداد النقص فى حمولة الاطنان لاسطولنا التجاري بتزايد حوادث غرق سفننا يوميا ، وأصبحت الرحلة عبر مضائق صقلية أشبه ما تكون برحلة الى الآخرة بالنسبة إلى بحارتنا الشجعان من الالمان والايطاليين . وغاص الى الأعماق هناك رجال عديدون وكنوز لا تثمن . الا أن الحقيقة المذهلة حقا هي انزالات الحلفاء فى شمال افريقيا التي

تمت بدون أي تدخل تقريبا ، بالرغم من استنفادنا كل ما في طاقة قواتنا البحرية والجوية التى شقت طريقها لمهاجمة أهدافها بغض النظر عن الخسائر . صحيح ان سفنا كثيرة قد اغرقت من قبل قاذفاتنا المنقضة وغواصاتنا ، ولكن بالنظر الى الإنتاج الهائل الذي كان يأتي الآن من أحواض بناء السفن الامريكية ، أخذت هذه الخسائر غير القليلة تمر بدون أن تلاحظ تقريبا .

وفى خلال هذه الاسابيع ، وبينما كانت العيون الالمانية القلقة تشخص ببصرها صوب الجنوب ، ظهر بعيدا في الشرق موقف آخر على امتداد ضفاف الفولغا . ولقد أدى ذلك الموقف فيما بعد الى كارثة ذات أهمية حاسمة أكبر كثيراً من مأساة افريقيا . وفي الفصل القادم ، سيشرح الرجل الذي كان عندئذ رئيسا لهيئة أركان الجيش العامة ، والذي كافح بكل طاقته من أجل تلافي الكارثة المخيمة ، الحوادث المعروفة فى التاريخ باسم « معركة ستالينغراد » .

القسم الرابع
١ ـ ستالينغراد

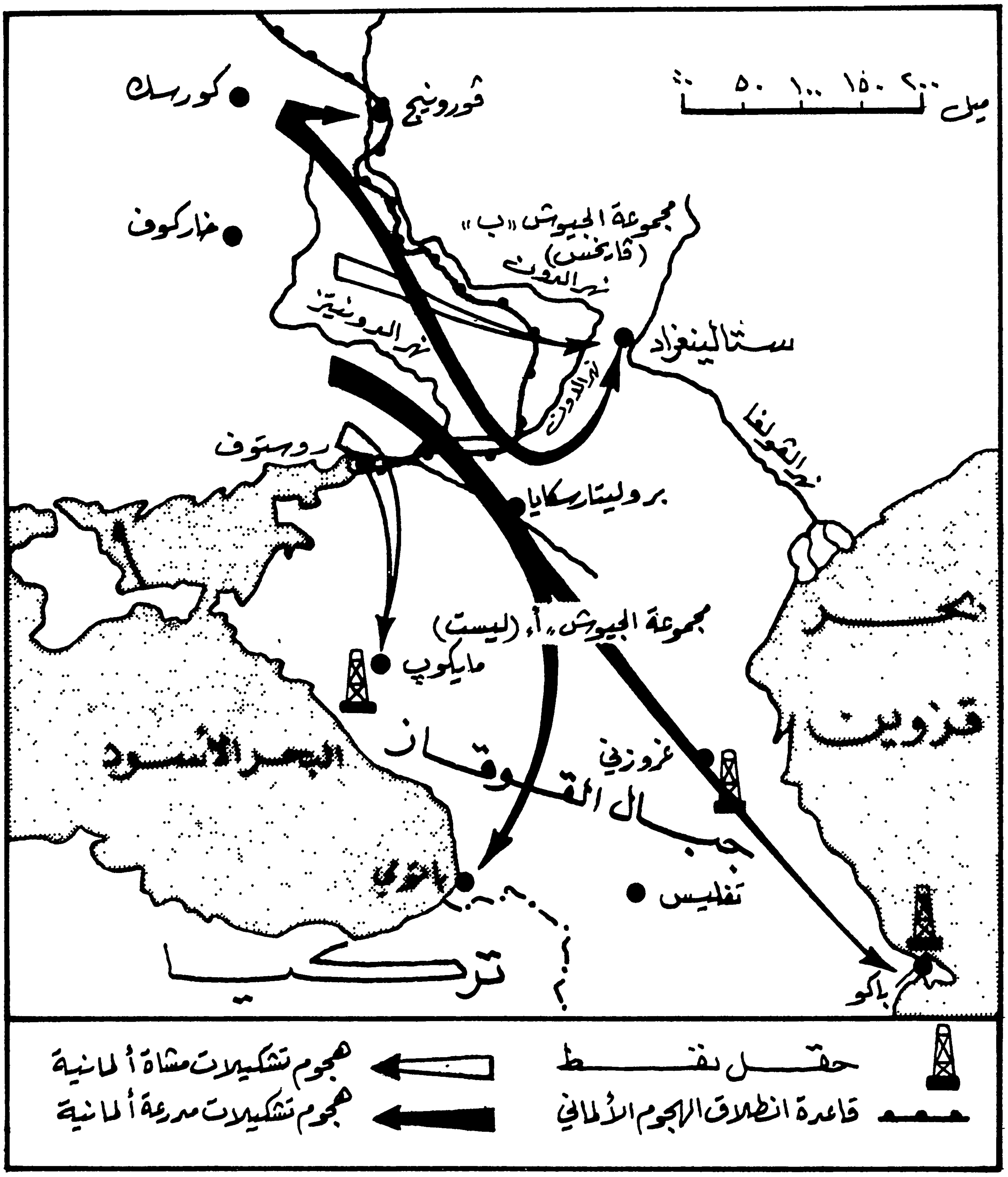
بقلم : الكولونيل جنرال كورت زيتزلر

كان كورت زيتزلر رئيساً لهيئة أركان الفيلق الثاني والعشرين منذ العام ١٩٤٠ حتى العام ١٩٤١ ، ثم أصبح رئيساً لهيئة أركان مجموعة الجيوش (د) في نيسان ١٩٤٢ ، وبعدئذ ، في السنة نفسها ، عُين رئيساً لهيئة الأركان العامة للجيش الالماني ، وبقي في هذا المنصب حتى شهر تموز ١٩٤٤ ، حيث استبدل بعد محاولة اغتيال هتلر . ويحمل الجنرال زيتزلر صليب الفرسان الحديدي .

نوايا هتلر :

كانت أهداف هتلر الرئيسية من الهجوم الصيفي لعام ١٩٤٢ ، هي الاستيلاء على ستالينغراد والقوقاز ، ولأول وهلة تبدو تلك الاهداف ذات اغراء كبير ، فإذا ما تمكن الجيش الالماني من قطع خط المواصلات السوفييتي الرئيسي بين الشمال والجنوب بعبور نهر الفولغا في منطقة ستالينغراد ، وإذا ما تم في الوقت نفسه اخضاع حقول النفط في القوقاز الى المجهود الحربي ، اذا ما تم ذاك وهذا ، يتغير الموقف في الشرق بكامله ، مما يؤدي الى التأثير على نتيجة الحرب في المستقبل تأثيراً عميقاً . هكذا بالتأكيد كان مجرى تفكير هتلر ، كما ان خططه الطموحة لن تنتهي عند هذا الحد ، حيث انه كان يهدف بعد ذلك الى ارسال رتل آلي سريع عبر القوقاز أو حوله ثم التوغل داخل الهند .

هذه الأفكار لا غبار عليها حتى الآن ، ولكن على كل حال هناك ثمة عوامل اخرى جديرة بالاهتمام ، فالأهداف العسكرية يجب أن تتناسب دائماً مع القوات والوسائل المتوافرة من أجل الوصول اليها ، أما من وجهة النظر العسكرية البحتة ، فلا يكفي مجرد الوصول الى هدف ما ،



خطة هتلر لاحتلال ستالينغراد وحقول النفط معاً

وانما ينبغي ايضاً ترصين ذلك الهدف بعد الحصول عليه . واذا لم ينجز ذلك ، فإن القوات المشتركة ستكون قد مددت نفسها أكثر مما ينبغي ، وبذلك ستحتوي العملية الهجومية داخل كيانها على جرثومة الفشل ، ان لم نقل الاندحار المحقق مهما كان الهدف مغرياً .

فالهدف الأول (ستالينغراد) كان يقع على بعد ٣٠٠ ميل تقريباً من خط الجبهة التي كانت قائمة في ربيع ١٩٤٢ ، أما القوقاز فكان أبعد من ذلك ، وعلى مسافة أكثر من ٣٥٠ ميلاً تقريباً ، ولم يكن هذان الهدفان متقاربين ، بل تفصلهما مسافة ٣٥٠ ميلاً أيضاً . ولذلك كان لا بد أن تنفصل كلتا الحركتين عن بعضهما ، وهنا يفرض السؤال التالي نفسه : ترى هل تتوافر لدينا القطعات الكافية للاستيلاء على هدفين بهذا التباعد وعلى هذه المسافة ؟ الجواب هو كلا . ثم هل من الممكن الحصول على قوات كهذه ؟ وضع هذا السؤال أمام هتلر من قبل مستشاريه العسكريين ، وأما الحل الذي تم الاتفاق عليه فقد تم اقتراحه ، كما يقال ، من قبل الجنرال يودل . ويتضمن هذا الحل طلب فرق جديدة من حلفاء المانيا ، وبذلك يتم انشاء قوة متكاملة على الجبهة الشرقية تتناسب وأهداف هتلر للحملة القادمة . وكان هذا القرار الانتحاري الأول لهذه السنة ، حيث ان كل جندي وآمر الماني ، من الذين قاتلوا في الشرق عام ١٩٤١ ، كان قد رأى جلياً ان القطعات التابعة لحلفاء المانيا لم تكن قادرة على تحمل شدة الحرب في ذلك المسرح القاسي . وزيادة على ذلك ، فإن القطعات غير الالمانية التي اشتركت في القتال عام ١٩٤١ كانت على العموم تتألف من مفارز صغيرة ونخبة من الوحدات التي كانت تقاتل اعتيادياً ضمن التشكيلات الالمانية ، أما في العام ١٩٤٢ ، فقد تقرر أن يجمع هؤلاء الجنود غير الالمان في فيالق بل وفي جيوش متجانسة تنتمي الى جنسية واحدة ، وتركت هذه الجيوش تقاتل في أماكن تبعد مسافات شاسعة عن أوطانها . ولا شك في أن تنظيمات كهذه ستؤدي بالضرورة الى تعريض جبهتنا الشرقية بكاملها الى الخطر .

لقد كان ذلك واضحاً ، إلا أن هتلر كان متسمماً بالأرقام ، ولم يشاهد سوى الزيادة الهائلة في عدد الفرق على خرائط أركانه . أما الجنرال هالدر ، الذي كان سلفي كرئيس لهيئة الاركان العامة ، فقد أدرك بالتأكيد المخاطر التي ستنجم عن هذه الخطة ، ونبه هتلر الى ذلك مراراً وباخلاص ، ولكن الدكتاتور وضع تحذيراته جانباً .

العمليات الأولى :

ابتدأ الهجوم في نهاية حزيران . وكانت الفرق الالمانية تشكل رأس الحربة للهجوم ، وخلفها كانت تتقدم قطعات حلفائنا . وكانت في اليسار مجموعة الجيوش (ب) تحت قيادة الفيلد ماريشال فون بوك ، الذي استبدل فيها بعد بالفيلد ماريشال (فون فيخس) . أما على اليمين فكانت مجموعة الجيوش (أ) بقيادة الفيلد ماريشال فون ليست . وانتقل مقر هتلر الأعلى والقيادة

العليا للجيش من بروسيا الشرقية ، واحتلا أماكنها الجديدة داخل فينيتسا وحواليها في منطقة أوكرانيا .

ابتدأت الحملة بسلسلة من الانتصارات . ففي تموز تم الاستيلاء على كراسنودار الواقعة على نهر كوبان وكذلك على فوروشيلوفسك القريبة من سفوح جبال القوقاز ، كما وقع عدد كبير من السوفييت في الأسر . وفي نهاية آب رفع العلم الالماني على قمة البروس ، وهي أعلى نقطة في القوقاز ، وفي الوقت نفسه وصلت دورياتنا المتقدمة الى نهر الفولغا بالقرب من ستالينغراد ، وظهر حينئذ ، كما لو أننا قد حصلنا تقريباً على أهدافنا الأولية . ولكن المظهر كان مخادعاً ، لأن الهجوم قد أوقف ، ولم يحصل أي تقدم أبعد من ذلك ، أما في ستالينغراد فقد أبدى السوفييت مقاومة مستميتة .

أزمة في القيادة العليا :

إن اولى نتائج توقف تقدمنا هي عزل الفيلد ماريشال فون ليست من قيادته ، وبقي مكانه شاغراً فترة من الزمن ، كانت مجموعة الجيوش (أ) في خلالها بقيادة نائب القائد . وفي أواخر أيلول عزل أيضا الكولونيل جنرال هالدر من مركزه كرئيس لهيئة الأركان العامة ، وكنت أنا في ذلك الوقت رئيسا لأركان مجموعة جيوش . وبدون ان يقال لي ماذا تقرر ، وجدت نفسي مدعوا فجأة للحضور الى المقر الأعلى ، فركبت الطائرة وتوجهت الى هناك ، وما كدت أصل حتى استقبلني هتلر ، كما هي عادته ، « بمنلوج » طويل استغرق بضع ساعات ، ولم يكن بامكاني مقاطعة خطبته التي عبر فيها عن عدم رضاه عن مجرى الحوادث في الجبهة الشرقية وبصورة خاصة توقف الهجوم . وكالعادة لم ينظر هتلر الى الأسباب الحقيقية لذلك ـ أي الاختيار الخاطىء للأهداف وحقيقة أن الوسائل المتوافرة كانت غير كافية لتحقيق الغايات المرجوة ـ وبدلا من ذلك اختار هتلر الطريق الذي يرتاح اليه ، ألا وهو القاء اللوم على القطعات وقادتها . ولقد أشار بحرارة ظاهرة الى ما وصفه بعدم كفاءة الفيلد ماريشال ليست والكولونيل جنرال هالدر.وفجأة توقف الفوهــرر وأنهى « منلوجه » بهذه الكلمات : « وعليه فقد قررت أن أعينك رئيسا لهيئة الأركان العامة للجيش ». هكذا كان أسلوبه الاعتيادي ، ففي أي وقت يرتكب خطأ ما يلقي التبعة واللوم على شخص آخر ، وبالتالي يطرده ويعين آخر محله . وهو لم يستخلص أبدا الاستنتاجات الصحيحة من خيبة خططه ، ولو فعل ذلك لكان بامكانه أن يقلل من تأثيرات أخطائه في المستقبل ، حيث ان الماضي لا يمكن طبعا اصلاحه .

باشرت واجباتي كرئيس لهيئة الأركان العامة . وفي الحال ، أصبحت عارفا بالجو الغريب للغاية الذي كان سائدا في المقر الأعلى بنتيجة توقف الهجوم في الشرق ، وبالنسبة الى ضابط قادم من هيئة أركان فعلية في الميدان ، فان ذلك الجو لم يكن غير طبيعي فحسب ، بل غير قابل للتصديق اطلاقا . فلقد كان ذلك الجو مزيجا من عدم الثقة والغضب ، ولم يكن لأي شخص

هنا أي ايمان بزملائه ، أما هتلر فلم يكن يثق بأحد .

وفقد ضباط عديدون اندفاعهم ورغبتهم في العمل لاعتقادهم بأنهم مهانون . ولم يكن ليست وهالدر هدفا لضغينة هتلر فحسب ، بل ان يودل أيضا كان يقف هو الآخر تحت غمامة . ولقد كان غضب هتلر موجها ضد جيوش الجبهة الشرقية بصورة عامة ، وضد مجموعة جيوش الجنوب بصورة خاصة . وكان يعيش حياة انطوائية تماما ليحتضن بيوض شكوكه ، ولم يعد يصافح أي جنرال ، كما لم يعد يتناول وجبات طعامه مع أعضاء مقره الشخصي وضباط أركانه ، ويفضل أن يأكل وحيداً . وعندما يحضر مؤتمرات الأركان كان يدخل أولا وينحني بتصلب ، ثم يستمع الى تقارير مستشاريه المختصرة بنفرة أكيدة . وبعد ذلك ينحني للمجتمعين انحناءة صغيرة متصلبة مرة أخرى ويغادر القاعة . . لقد كان ليست وهالدر بمثابة كبشي الفداء لهتلر لفشل الهجوم . أما قصة مهانة يودل المؤقتة فهي ، كما سمعتها في حينه ، أكثر تعقيدا نوعا ما .

لقد كان يودل رئيسا لهيئة أركان قيادة القوات المسلحة ، وهكذا كان أقرب مستشار عسكري الى هتلر ، لذلك أرسله هتلر الى القوقاز كمبعوث شخصي له ومهمته هي حث القادة والقطعات على استئناف الهجوم بغية عبور جبال القوقاز على الأقل ، لكن يودل اقتنع ، لدى وصوله الى هناك ، أن القطعات منهكة تماما ، وأن أي تقدم أبعد من ذلك الحد كان غير ممكن . . . ورجع يودل الى المقر الأعلى ، وعبر عن رأيه لهتلر ، ولكن رأيه استقبل ببرود ، وصاح به هتلر : « لقد كانت أوامري لك هي أن تدفع القادة والقطعات الى الأمام لا أن تقول لي ان ذلك مستحيل ». وعلناً شبه هتلر تقرير يودل عن الظروف في القوقاز بتقرير هينتش المشهور في الحرب العالمية الأولى (العقيد هينتش هو مبعوث القيادة الألمانية العليا في العام ١٩١٤ . وكان قد قدم تقريرا عن الجبهة الغربية بنصوص أدت الى التراجع ، وأُلقي عليه اللوم في اندحار الألمان في المارن). وكان يودل في الحقيقة في مذلة تامة . وطُرحت جديا مسألة استبداله من منصبه كرئيس لهيئة أركان قيادة القوات المسلحة ، وكان الذي سيخلفه في منصبه هو الجنرال باولس قائد الجيش السادس . وفي هذا الجو السائد في المقر الأعلى أصبح من المستحيل اجراء أي مناقشة موضوعية صريحة حول الموقف . ولم يكن من الممكن أن تترتب على هذه الحالة سوى نتيجة واحدة ، هي أن ادارة عملياتنا العسكرية ستضطر الى المعاناة كثيرا ، كما وأن العبء سيُحمل من قبل القطعات المقاتلة بصلابة في ميدان المعركة . . . تلك كانت انطباعاتي الأولى عندما تسلمت مهام منصبي الجديد كرئيس لهيئة الأركان العامة ، وهي انطباعات لا تدعو الى الاطمئنان .

الموقف في الجبهة الشرقية :

اذا كان الجو في المقر الأعلى مؤلما، فان الموقف في الجبهة الشرقية كان أبعد من أن يكون مريحا

إن مجموعتي الجيوش الشماليتين ، وهما مجموعة الجيوش الشمالية تحت قيادة الفيلد ماريشال فون كوخلر ، ومجموعة جيوش الوسط تحت قيادة الفيلد ماريشال فون كلوك ، لم تشتركا اشتراكا مباشرا في هجومنا الصيفي ، ولذلك كان قاطعاهما في الوقت الحاضر هادئين نسبيا ، الا أن التنبؤات بما يخبئه المستقبل لم تكن سعيدة ، وبصورة رئيسية ، لعدم وجود احتياط كاف في مناطقهما الخلفية . كما كان هناك عدد من الأخطار الشديدة على طول هذا القسم من الجبهة ، وبالأخص بحيرة لادوغا الواقعة شمال شرقي لينينغراد ، وجيب ديمنسك ، حيث أوشكت قوة ألمانية أن تُطوَّق هناك ، لولا بقاء مجاز ضيق عبر ذلك الجيب .

أما مجموعتا الجيوش اللتان اشتركتا في الهجوم الصيفي ، فكانت تتبلور أمامهما أزمتان : الأولى مرتبطة بالجناح الأيسر الطويل لمجموعة الجيوش (ب.) بقيادة الفيلد ماريشال فون ديك ، في الشمال الغربي من ستالينغراد ، حيث كان هذا الجناح ممسوكا بصورة تامة من قبل فرقة غير ألمانية ، أما الأزمة الثانية فقد أوجدتها الثغرة الكبيرة بين القوقاز وستالّينغراد ، حيث إن قطعاتنا الآلية ربما تستطيع ، واستطاعت فعلا ، أن تغطي هذه المنطقة السهوبية الشاسعة . إلا أنها لم تستطع أن تبني خطا .

كانت جيوشنا الشرقية في وضع سيء ،ولم يكن ذلك خطـأهـا ، فقد قاتلت بكل روعة، وكانت لا تزال تفعل ذلك ، وان أداءها لدورها ليبدو آكثر روعة عندما ندرك حقيقة أن تلك الجيوش قد مضى على اشتراكها في العمليات الفعلية مدة ثمانية عشر شهرا ، وبدون انقطاع في معظم الحالات ، ودائما تقريبا ضد عدو متفوق عدداً . وبنتيجة ذلك أصيبت معداتنا بخسائر جسيمة . أما القطعات نفسها فكانت مجهدة ومتعبة أكثر من طاقاتها ، ولم تستلم الوحدات تعويضات كافية ، لذا كانت قوتها بالرجال والأسلحة ناقصة . . هكذا كانت الظروف حينما طلب منها تأدية واجب يفوق طاقة الانسان الاعتيادي حتى في الظروف المثالية .

ذلك كان الموقف على طول الجبهة الشرقية في نهاية أيلول ١٩٤٢ . وكان هتلر طبعا مطلعا تماما على الموقف ، ولكنه تجاهل المصاعب الكبيرة التي كانت تواجه قطعاتنا ، فاستمر على اصراره في أن تبذل مجموعتا الجيوش المهاجمتان كل ما في وسعهما لمتابعة تقدمهما، بغض النظر عن الاعياء الذي طرأ على قوتيهما ، فلقد كان هتلر مصمما على اجتياح ما تبقى من ستالينغراد وحقول نفط القوقاز نفسها . وقرر منذ توقف الهجوم في جميع النقاط ، أن لا بد من اعادة الحركة اليه وذلك بواسطة هجمات على نطاق صغير . أما بخصوص ستالينغراد ، فقد أمر بأن تشن سلسلة من الهجمات بقطعات الصدام ، بغية الاستيلاء على المدينة ، مجموعة بعد أخرى أو حتى بناية بعد بناية . كما أمر بأن تشن في القوقاز هجمات تكتيكية متعاقبة الواحدة بعد الأخرى . والحقيقة أنه رغب في استمرار التعرض بصورة مصغرة ، ومهما كان الثمن .

وفي خلال الأسابيع القليلة الأولى من عملي رئيساً لهيئة الأركان العامة ، قمت بدراسة

شاملة للموقف في الجبهة الشرقية ولحالة قطعاتنا ، ولقوات العدوالمتوافرة.وبعد ذلك طلبت من هتلر أن يسمح لي بتقديم تمرير طويل مفصل وسري للغاية ، فوافق على طلبي .

تقريري عن الموقف :

ابتدأت تقريري بوصف الحالة في الجبهة الشرقية وصفا دقيقا مدعما بالأدلة الدامغة ، كما تشاهد من قبل العيون الألمانية . وأعقبت ذلك الوصف بوصف مشابه آخر يعتمد على عمل شعبة استخبارات قيادة الجيش العليا الدقيق للغاية والمدعو « الجيوش الأجنبية في الشرق ». أما الجزء الثاني من تقريري فقد تطرقت فيه الى الاستنتاجات التي ينبغي الوصول إليها من موقفنا وموقف السوفييت ، وتطرقت كذلك الى التطورات الناجمة والواجب توقعها خلال الأسابيع أو الأشهر القليلة القادمة . وأخيرا أنهيت تقريري بخمس مسائل أكيدة .

وضعت الجزء الأول من تقريري بكلمات قابلة للادراك بالنسبة لغير الخبير ، وكان مدعمة على نطاق واسع بالاحصاءات والصور والخرائط . وعلى سبيل المثال ، أعطيت أرقاما دقيقة عن الجنود الألمان وحلفائهم والأسلحة الثقيلة ، والمدافع ضد الدبابات ، وقطع المدفعية . . . الخ بالنسبة الى الميل الواحد في مختلف قطاعات الجبهة ، واختلاف هذه الأعداد مع ما يقابلها في القوات السوفييتية . وأظهرت بهذه الاحصائيات تفوق العدو العددي بطريقة مدهشة ومؤثرة للغاية ، وعززت هذه الصورة باحصائيات تتعلق باحتياطات السوفييت في الرجال والتجهيزات والأسلحة والذخيرة . وذكرت أرقام الانتاج الشهري لمصانع العدو في الذخيرة والدبابات ، والسيل المتصاعد من الامدادات الأمريكية التي كانت تصلهم . لقد كانت هذه المعلومات جوهرية ، فيما لو أراد أي شخص أن يكوّن صورة صحيحة عن قوته وقوة خصمه ، وهكذا يكون في مقدوره تقدير التطورات المحتملة في المستقبل القريب . وكرئيس لهيئة الأركان العامة ، كنت قد نجحت في جعل هذه الحقائق واضحة بما لا يقبل النقاش ، وكانت هذه لوحدها ، اذا ما أخذنا طبيعة هتلر في الاعتبار ، نصرا لا بأس به ، لأنه لم يقاطعني كما هي عادته ، عندما لم تعجبه الحقائق التي ذكرتها أو كانت،ولنستعمل تعبيره،«انهزامية». وهو يضع عادة نهاية لتقرير واقعي كهذا بأن يأمر المتكلم بالتوقف أو حتى ينفجر في وجهه غاضباً . وعلى كل حال ، فقد كان عنده ولع بالأرقام والاحصاءات ، ولذلك فان الأعداد الكبيرة من تلك الأرقام والاحصاءات التي أسندت بها تقريري ربما أثرت فيه ، كما فعلت ذلك مخططاتي السهلة الادراك . وبخلاف هذا الرأي ، هناك رأي آخر مفاده أن هتلر ربما لم يكن راغبا في اغضاب « الرجل الجديد » في مرحلة مبكرة جدا من علاقتنا .

على أية حال كنت مغتبطا لكوني ابتدأت عملي كرئيس لهيئة الأركان العامة باطلاع هتلر على الحقيقة المجردة بدون ثورية، وحتى الآن كان القاء التقرير على ما يرام . ولكن الآن جاء أصعب جزء من تقريري وهو المطالب أو المسائل الخمس التي صغتها كما يلي :

١ ـ بالنظر الى الهجوم الصيفي ، لم تعد المنطقة التي سيصار الى احتلالها في الشرق منسجمة مع حجم جيش الاحتلال . وبكلمة أخرى ، كان هناك عدد قليل جدا من الجنود لاحتلال أراض واسعة جدا . وما لم يتم تلافي ذلك ، فلا بد من حدوث كارثة .

٢ ـ كان أكثر القواطع خطرا في الجبهة الشرقية ، بدون شك ، هو ذلك الجناح الطويل الممسوك بقوات قليلة ، والممتد من ستالينغراد الى الحدود اليمنى لمجموعة جيوش الوسط . وزيادة على ذلك فان هذا القاطع كانت تشغله أضعف قواتنا وأقلها موثوقية ، وهي القطعات الرومانية والايطالية والهنغارية . وأحدث هذا الوضع خطرا كبيرا لا بد من ازالته .

٣ ـ كان مجرى الامدادات في الرجال والتجهيزات والأسلحة والذخيرة الحربية الى الجبهة الشرقية غير كاف اطلاقا . وفي كل شهر كانت الخسائر أكبر من التعويضات ، وان ذلك الوضع سينجم عنه ولا بد نتائج مؤسية .

٤ ـ كان السوفييت في العام ١٩٤٢ أحسن تدريبا وقيادة مما كانوا عليه في ١٩٤١ ولا بد من إدراك هذه الحقيقة وأخذها في الحسبان . ومن الضروري جدا أن نكون أكثر حذرا .

٥ ـ هذه الفقرة كانت نقطة مفصلة تخص ايجاد خدمات أحسن للقطعات ، وتدعو كذلك الى براعة أكثر في الاستفادة من السكك الحديد بغية تأمين مقدار أكبر من قابلية الحركة . كما توجد في هذه الفقرة قضايا أخرى ، وهي على الغالب مسائل فنية .

استمع هتلر ، ويا لدهشتي ، الى هذه الاستنتاجات والمطالب بدون أي مقاطعة ، وحقا ، كانت هذه المطالب تبدو وكأنها قد تركت بعض الأثر عنده . وعندما انتهيت نظر الي مبتسما وقال : « انك كثير التشاؤم . اننا هنا في الجبهة الشرقية كنا قد اجتزنا فترات أسوأ من هذه قبل أن تنضم إلينا ، ومع ذلك فقد عشنا ، وسوف نتغلب على الصعوبات الحالية أيضا ». أما بخصوص استخلاصاتي النهائية ، فقد بذل هتلر ما في وسعه للاقلال من قيمتها بأسلوب فريد . مثال على ذلك أنه قال : « طبعا ان الجنود الألمان في بعض النقاط يواجهون عددا أكبر من العدو ، ولكنهم أكثر تفوقا في النوعية ، وكذلك الحال بالنسبة إلى أسلحتنا . وفي المستقبل القريب سوف تكون عندنا أسلحة جديدة أكثر جودة من أسلحتنا الحالية ».

هكذا أبعد هتلر تقريري واعتبر المطالب المطروحة بحكم المنتهية . وكرئيس لهيئة الأركان العامة ، كنت آمل على الأقل ، أن جزءا مما قلته سيبقى عالقا في ذهنه وأنه سيتبصر ملحوظاتي ، وأن تقريري سيحمل في النهاية بعض الثمر . ولقد علمت أنه لأجل التوصل الى نقطة من النقاط مع هتلر ، كان من الضروري اجترار تلك النقطة مرة بعد أخرى ، وهكذا فعلت . ففي خلال الأسابيع التي تلت كنت أعيد عليه بصورة خاصة مطالبي الخمسة . . وفي هذه الآونة ، ماذا قد تم عمله حقا خلال الأسابيع التي بقيت لنا قبل أن يشن السوفييت هجومهم المقابل الكبير؟

الاستعدادات الألمانية :

لقد تركت نقاطي الخمس انطباعا لدى هتلر أكثر مما توقعت، أو أكثر مما اعترف هو به ، وعلى الأخص ، إنه أصبح عارفا الآن حقيقة الخطر الناجم من الجناح الطويل بين ستالينغراد ومجموعة جيوش الوسط . وكان ذلك برهانا على أنه كان في امكان مستشاريه أن يؤثروا فيه بخصوص نقطة ما ، على شرط أن تعاد عليه مرات كافية ، وأن لا يحيد فيها المستشار عن فكرته الأصلية. وباتباعي لهذه الأساليب نجحت في جعل هتلر مدركا للخطر الذي يهدد الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش (ب). وبمجرد أنه أصبح مدركا للخطر كان علينا اتباع واحد من ثلاثة طرق ممكنة لأجل الارتقاء الى مستوى الموقف : الطريق الأول ، وهو حل أساسي كبير الأثر ، ويدعو الى انسحاب جبهة ستالينغراد باتجاه الغرب ، وهكذا نقصر بل ونتخلص من الجناح المعرض للخطر ، ونحرر عددا كبيرا من الفرق التي يمكن عندئذ استخدامها في مكان آخر ، وبذلك ستكون عندنا جبهة قوية جديدة . وفي الوقت نفسه نكون قد أوجدنا احتياطا قويا بشكل كتلة للمناورة توضع في مؤخرتنا ؛ وأن أفضليةهذا الحل الذي هو بدون شك أحسن حل ممكن ، لا بد أن تكون واضحة لأي كان ، ولكنه كان يستلزم التخلي عن ستالينغراد ، أي التخلي عن النتيجة الرئيسية لهجومنا الصيفي ، أو بكلمة أخرى ، كان يعني تصحيحا متأخرا لأخطاء القيادة العامة الأولية عند وضعها لخطة الهجوم .

أثبت هذا الحل أنه غير مقبول اطلاقا لدى هتلر . وفي الواقع ، انه كان يفقد رباطة جأشه بمجرد التلميح الى هذا الاجراء أمامه ، لأنه مبدئيا ، وبدون أي اعتبار للظروف ، كان يرفض دائما مواجهة مسألة التخلي عن أية منطقة مهما كانت . وهذا المبدأ ، إن صحت تسميته كذلك ، كان قد عزز بقوة في حالة ستالينغراد بخطبته المشهورة التي ألقاها على الشعب الألماني في تشرين الأول من تلك السنة ، فقد قال في ذلك الحين : « أينما يحل الجندي الألماني . . فانه يبقى هناك »، ثم قال : « يمكنكم أن تستريحوا مطمئنين أنه لن يبعدنا أحد عن ستالينغراد ». لقد عززت هذه التبجحات عناده الفطري ، وأصبح الاحتفاظ بستالينغراد الآن مسألة تتعلق بكرامته الشخصية ، ولذلك لم يكن ليعدله عن رأيه أي شيء .

أما الطريقة الثانية لمعالجة الموقف ، فكانت في الواقع عبارة عن تعديل للطريقة الاولى ، وكانت تعني الاحتفاظ بمواطىء أقدامنا في ستالينغراد في الوقت الحاضر ، على أن تتخذ الاستعدادات الضرورية للانسحاب في وقت آخر في اللحظة الاخيرة قبل الهجوم المعاكس السوفييتي . كان ذلك حلا وسطا ، ولذلك فقد احتوى على كل السيئات التي يتضمنها عادة الحل الوسط ، ولكنه كان ، على الاقل ، حلا من نوع ما ، بالرغم من أنه احتوى على نقطة واحدة لا يمكن تحديدها وهي : هل سيسمح المناخ الروسي بانسحاب كهذا عندما تحين اللحظة الحرجة وجعل هذا السؤال الحل الثاني حلا خطرا . وعلى أية حال ، فقد رفض هتلر قبوله ، أو

الامر باتخاذ الخطط بموجبه ، ومع ذلك ، فان الانطباع الذي أظهره كان يدل على استحسانه له ، لسبب بسيط ، وهو ان ذلك الحل أعطاه فرصة للمماطلة ، لانه لم يكن يتخذ قرارا بعدم الموافقة اذا ما تمكن من ايجاد أي طريقة لتأخيره حتى اشعار آخر ، اذ انه كان معجبا بعادته المترددة هذه ، مشيراً اليها بسياسة « دع الموقف ينضج » .

أما الاسلوب الثالث للتصدي الى الازمة المخيمة ، فكان يستدعي سحب الجيوش غير الالمانية التي لا يعتمد عليها والتي تشغل الآن القطاع المهدد ، واحلال فرق المانية جيدة وحسنة التجهيز محلها مع دعمها باحتياط كبير . ولاجل تبني هذا الحل كانت القيادة العليا الالمانية تفتقر تماما الى الاحتياطات الضرورية في القطعات والتجهيزات ، كما أن إحلال الفرق الالمانية محل الهنغار والرومان والطليان ، كان يتطلب أخذ هذه الفرق الالمانية من قطاعات اخرى من الجبهة الشرقية ، مما يجعل نقلها الى جهة ما فيما بعد أمرا صعبا في أي وقت من الاوقات ، ولو ان هذه الصعوبة تعتبر أمرا شائعا بالنسبة الى رداءة المواصلات في روسيا . وهنّالك ايضا خطر حقيقي مؤداه ان الهجوم المعاكس السوفييتي المتوقع الآن سيضرب الجناح المهدد في نفس الوقت الذي يجري فيه ارسال النجدات اليه ، ولذلك أُبطل هذا الحل ايضا .

وهكذا لم يتم اختيار أي من الحلول الرئيسية الثلاثة للمشكلة . فقد أُبطل اثنان منهما بسبب عناد هتلر ، أما الثالث فقد أُبطل بسبب الظروف السائدة ، ولم يبق إلا ما يمكن أن يسمى بمشاريع ضئيلة . وهنا كانت هيئة الاركان العامة مدركة بصورة جيدة أن هذه المشاريع او الخطط الصغيرة لا يمكن أن تؤثر في الموقف تأثيرا جذريا ، والحق انها أدت إلى التساؤ ل فيما اذا كانت لها أية فائدة اطلاقا ، وعلى اي حال ، كان يتوجب علينا أن نعمل ما في وسعنا ، حتى ولو لربح وقت فقط ، إلى أن يهاجمنا العدو ، وبذلك يسهّل لنا في النهاية تنفيذ الحل الرئيسي الرقم(٢) . وعندما سيكون الخطر أمرا واقعيا ملموسا وليس كما هو الآن مجرد افتراض ، سيتبصر هتلر بالامر ، ويصدر أوامره باتخاذ هذا الحل الرئيسي .

ان بعضا من هذه المشاريع الضئيلة التي استخدمت الآن كانت كما يلي : شُكّل احتياط صغير خلف الجناح المهدد . وكان هذا الاحتياط يتألف من فيلق بانزر واحد يضم فرقتين مدرعتين احداهما المانية والاخرى رومانية . وكان هذا الفيلق ضعيفا جدا . وجرى تطعيم الفرق غير الالمانية بوحدات المانية صغيرة ، مثل الافواج ضد الدبابات ، وسحبت هذه الوحدات من احتياط القيادة العامة للجيش ، وكانت مهمتها اسناد الجبهة المهددة . وكنا نأمل اننا بواسطة هذا التكتيك الاسنادي سنعزز الفرق غير الالمانية ، وسنشجعها على المقاومة . فاذا ما اجتيحت الوحدات غير الالمانية ، تصمد وحدات الاسناد في محلها بثبات ، وبذلك تحدد توغل العدو أو اختراقه لجبهتنا . ومن ناحية أخرى ، ان ثبات « وحدات الاسناد » بهذه الطريقة سيوجد ظروفا أحسن لهجومنا المعاكس . لقد كانت هذه خطة حسنة التدبير ومع ذلك فان سوءتها كانت ظاهرة ، لانه لو أن القطعات الحليفة الواقعة بين وحدات الاسناد انهارت بسرعة

كبيرة أو انهيارا تاما ، واذا لم يتوافر لدينا في حينه قوات كافية للهجوم المقابل ، فعندئذ ستجد وحدات الاسناد نفسها في موقف يائس ، وبالتالي لا بد من اسقاطها من حسابنا على اعتبار انها خسارة كاملة .

وهكذا يتبين ان تكتيك الاسناد كان ذا قيمة مشكوك فيها جدا . وقد أُلحقت مجموعات ارتباط تضم ضباطاً من هيئة الاركان العامة الالمانية ووحدات اتصال الى هيئات الاركان العليا للتشكيلات غير الالمانية ، حيث ان هذه الهيئات الحليفة للاركان كانت تعوزها التجربة والانضباط المتوافران في المقرات الالمانية المشابهة ، بينما كانت سلاسل قيادتها وأساليب اتصالاتها بطيئة ومعقدة . وكان المؤمل ان مجموعات الارتباط الجديدة آنفة الذكر ستعوض عن ذلك النقص .

ولقد اجرينا ممارسة الخداع بواسطة اللاسلكي على نطاق واسع ، بغية إخفاء حقيقة عدم وجود قطعات المانية على طول الجناح المهدد ، وإعطاء العدو صورة كاذبة عن قوتنا في ذلك القطاع .

لم تكن هذه الا بعض الاجراءات المتخذة الآن ، والتي تطلبت الكثير من اعمال الاركان المعقدة ، واهتماما عظيما في التفاصيل ، وتحشيد قوى تنظيمية كبيرة . وكان الخبراء يدركون بصورة جيدة ان تلك التدابير غير كافية ، ولكن انجازها تم ، للسبب الذي سبق وأن حددته ، على أحسن وجه ممكن . ومع ذلك فان مجرد تنفيذ هذه التدابير شكل خطرا بذاته ، لانه ما أن يقتنع هتلر بأن جميع الاستعدادات الضرورية قد اتخذت حتى يصبح كثير الثقة ، ولذلك كان من الضروري أن يُجلب انتباهه الى ثقل الموقف مرة بعد اخرى ، وكذلك الى المسائل الخمسة التي ذكرتها آنفا مضافا اليها الحلين الصحيحين الوحيدين المتوافرين . وقد انجز كل ذلك بالرغم من ثورة هتلر الهائلة . فلقد كانت المسألة مسألة واجب .

أما بخصوص المسائل (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ،) التي أكملت بها تقريري ، والتي تطرقت اليها مرات متكررة ، فقد قبلها هتلر أخيرا ، وابتدأ يعمل بموجبها . ولسوء الحظ كان هتلر على العموم مكتفيا باجراءات انصاف الحلول التي غالبا ما كانت ترد متأخرة جدا . وأحد الاجراءات الممكنة ، والذي اتخذ ، كان يقتضي اقامة جهاز استطلاع ثابت مزود بوسائل الاتصال الضرورية لتغطية الجناح المهدد ، وكان هذا يشتمل على تنسيق وثيق للجهود بواسطة الشعب المناسبة في هيئة الاركان العامة للجيش ، وهيئة الاركان العامة للقوة الجوية ، ووحدات الاستخبارات ، مع مقر مجموعة الجيوش (ب) . ولقد شاركنا وساوسنا هذه كل من قائد مجموعة الجيوش ورئيس أركانه الموثوق ، وأوصلاها بدورهما الى هتلر بواسطة تقاريرهما عن الموقف وتقديراتها لنوايا العدو . وسرعان ما أكدت تدابيرنا الاستطلاعية المعقدة هذه الوساوس ، فلقد كان العدو يعزز قواته ببطء ولكن بثبات مستمر في جبهته المقابلة لجناحنا المهدد . وكان هذا الامر

لا يحتمل النقاش ، كما أن استجوابنا للاسرى والهاربين ابتدأ يكشف النقاب عن وجود أرقى الفرق السوفييتية في هذا القطاع ، ولا يمكن أن يُستخلص من كل هذا سوى استنتاج واحد ، وهو : ان هجوما على وشك الوقوع .

تزكية النوايا السوفييتية :

لقد ظهر الآن ان القيادة السوفييتية العليا قد سلكت نفس السبيل الفكري الذي سلكته هيئة الاركان الالمانية العامة ، حيث انهم قرروا افتتاح عملياتهم الشتوية بهجوم على الجناح الايسر لمجموعة الجيوش (ب) . وهي عملية يؤدي نجاحها الى تحقيق فوائد عظمى ، وتبين لنا انهم لم ينخدعوا بتدابير التضليل التي قمنا بها ، وانما كانوا يعرفون تماما ان هذا القطاع مشغول بقطعات غير المانية ، وأنها أقل من القوات الالمانية صلابة في الدفاع . ومع ذلك لم يكن لنا أي سبيل لمعرفة أي نقطة بالضبط سيختارونها لهجومهم على طول الجناح . هل ستكون تلك النقطة القطاع الروماني القريب من ستالينغراد أو القطاع الايطالي الذي يقع أبعد من ذلك الى الغرب ؟ ومن وجهة النظر التكتيكية الخالصة ، فان حركة ما ضد أقصى الغرب من الجناح ستكون أحسن اختيار ، الا أن ذلك سيكون قرارا جريئا للغاية ، وان القيادة العليا السوفييتية لم تكن راغبة في مجازفة كبيرة كهذه ، وأظهروا أنهم يفضلون خطة أكثر حذرا ، ولا تتطلب منهم التزاما كبيرا في الميدان .

وفي خلال النصف الاول من تشرين الثاني ـ في الوقت الذي عاد فيه مقر هتلر والقيادة العليا للجيش الى بروسيا الشرقية من فينتسا ـ أصبحت صورة الهجوم السوفييتي المقبل أكثر وضوحا ، وتبين أنهم سيهاجمون باتجاه الشمال الغربي من ستالينغراد ، وربما ضد القاطع الروماني ، أما ما تبقى مجهولا لدينا حتى ذلك الحين فهو التاريخ الذي سيشنون فيه هجومهم .

قبل الهجوم :

بالرغم من أن هتلر كان قد رفض مرارا وتكرارا قبول أي من الحلول الرئيسية ، فانه سمح بتنفيذ اسلوب المشاريع الصغيرة لتقويه الجبهة المهددة ، الا أنه لم يتخل حتى ذلك الحين عن خططه الهجومية للاستيلاء على ستالينغراد ، وأمر بكل عنف أن يستمر القتال من بيت الى بيت ، الامر الذي أدى الى وقوع خسائر جسيمة في الجيش السادس ، وفي الواقع ، لقد نقل جوا آخر ما توافر من احتياط القيادة العامة للجيش وارقى افواج هندسة الحملة الى ستالينغراد ، حيث كان عليها احتلال المنطقة السكنية بواسطة ما يدعى بـ (تكتيك العاصفة الجديد) . إلا أن هذه الافواج أبيدت عن آخرها ، وفي الوقت نفسه أصبح الخطر المتنامي في شمال غربي المدينة أكثر فأكثر وضوحا للعيان .

ألقى هتلر في اوائل تشرين الثاني خطبة سياسية قال فيها : « لقد رغبت في الوصول الى

الفولغا في نقطة تقع بالقرب من مدينة ما . ولقد كانت تلك المدينة تحمل اسم ستالين نفسه ، فرغبت في أخذ تلك المدينة . نحن لا ندعي ادعاءات مبالغ فيها ، ويمكنني أن أقول لكم الآن اننا قد استولينا على تلك المدينة ، ولم يبق الا القليل من أجزائها الصغيرة التي لم تقع في ايدينا حتى الآن . وربما يسأل الشعب الآن ، لماذا لا يتقدم الجيش بسرعة أكبر ؟ ولكنني لا أحب رؤ ية « فردان » ثانية ، انما أفضل الوصول الى أهدافي بواسطة حملات محدودة ، أما الوقت فلا أهمية له » .

كانت هذه خطبة غريبة تكلم فيها هتلر بصفتين ، الاولى كقائد أعلى والثانية كداعية حزبي . ولقد كان الخطر العظيم يتأتى عندما يعلن هتلر عن نواياه للأمة الألمانية وللعالم ، لأنه يرفض حينئذ ادخال أي تعديل على تلك النوايا ، لان تنفيذها يغدو عنده مسألة تتعلق بكرامته الشخصية . وكما هو معلوم جيدا ان الدكتاتوريين يصبحون حساسين للغاية إزاء كل مسألة تتعلق بكرامتهم الشخصية . وبالاضافة الى ذلك كان هتلر سياسيا وليس جنديا ، ويعتقد انه باعلانه عن نواياه بهذا الشكل ، سيحدد ، للمرة الاولى والاخيرة ، جميع الاهداف لقادته وقطعاته ، ويعزز بالتالي تصميمهم وقرارهم . ولقد آمن هتلر انه عندما يتكلم فانهم سيثبتون بعزم ، ولم يدرك كيف سيكون وقع كلماته في آذان قادته الاقدمين وضباطه الاعوان ، وجنوده الذين يقاتلون بمرارة ويموتون في ستالينغراد وحولها . ولم يفهم الاثر الذي ستتركه تلك الكلمات على هيئة أركان الجيش العامة وعلى رئيسها . ومن الجدير بالذكر انني لم أكن قد استشرت قبل أن تلقى تلك الخطبة ، وعلمت بمضمونها لأول مرة عندما سمعتها من المذياع . .

في خلال الاسابيع الاولى من تشرين الثاني ، قدمت مطالبي الاساسية الى هتلر مرة تلو اخرى . وأخذت الصورة المقدمة من استطلاعنا تتكامل يوما بعد آخر . لقد عملنا بوثوق مع القوة الجوية ، وهوجمت تحشدات القطعات السوفييتية ، ولم نستطع أن نعمل أكثر من ذلك ، ولم يبق لنا الا أمل واحد وهو : بالرغم من كل شيء ، ربما لا زال من الممكن اقناع هتلر بقبول الحل الرئيسي في الساعة الاخيرة . وكانت سياستي أن اتعبه بالاعادة المستمرة للحقائق . وفي هذه الاثناء كانت هيئة الأركان العامة بكاملها ، من أقدم رئيس شعبة الى أصغر ضابط برتبة نقيب ، تشاركني وساوسي كلها . وانتظرنا بقلق الهجوم السوفييتي الذي نعرف كلنا الآن انه أصبح وشيك الوقوع ، وفي حالة نجاحه فانه سيؤدي ، بطبيعة اتجاهه ، الى وضع جيش ستالينغراد بكامله في محنة يائسة . انه لأمر فظيع أن تتنبأ بوقوع كارثة دون أن يكون بمقدورك أن تمنع حدوثها ، وأن ترى العلاج الوحيد لها لا يوافق عليه ويهمل من قبل الرجل الوحيد ذي الصلاحية في العمل ، والرجل الوحيد في هذه القضية هو هتلر .

كان تقدير الموقف من قبل رئيس أركان مجموعة الجيوش (ب) ورئيس هيئة أركانه مماثلا تماما لتقديري ، فلقد تبنيا ايضا فكرة ان الحل الرئيسي وحده هو الذي بامكانه أن يدفع عنا الكارثة المخيمة ، ولكنهما أصبحا تعيسين ايضا بسبب عجزهما عن التأثير على مجرى الحوادث ،

وكل ما استطاعا القيام به لا يعدو عن جلب انتباه هتلر الى الحالة السائدة بواسطة تقاريرهما وتقديراتهما للموقف ، وركزا انتباههما على القاطع المهدد لعل ذلك يمكّنهما مـــن معرفة اللحظة الحرجة في أقرب ساعة ممكنة .

ومن الطبيعي ان محاولات قد اتخذت لتدمير أرتال العدو وتحشدات قطعاته بواسطة الهجوم الجوي وقصف المدفعية بعيدة المدى . ولكن ، كما يحدث دائما ، فان أقصى ما يمكن أن تطمح اليه هذه المحاولات هو تأجيل التاريخ المحدد للهجوم ، وليس ممكنا منع وقوع هجوم كهذا كليا ، إلا عندما يمتلك الطرف الآخر تفوقا جويا ساحقا ، وبامكانه أن يبقي سكك حديد العدو وطرقه ومناطق تجمعه عرضة لهجوم مستمر من قبل قوة جوية من الحجم المطلوب . . هكذا كان الموقف عندما انهال الشتاء الروسي علينا بكل أهواله ، وعندئذ عرفنا ان الهجوم سوف لن يتأخر كثيرا .

بداية الهجوم السوفييتي :

في وقت مبكر من صباح **١٩** تشرين الثاني **١٩٤٢** ، استلمت القيادة العليا للجيش الموجودة الآن في بروسيا الشرقية البرقية التالية : « قصف مدفعي ثقيل جدا لكافة الجبهة الرومانية شمال غرب ستالينغراد » . لقد رتب ضابط أركان وصول هذا النبأ الينا عن طريق مجموعة الجيوش (ب) بدون تأخير . وهكذا علمنا ان الهجوم قد ابتدأ ، وعلمنا ايضا أنه لا بد سيتطور كما قد تنبأنا وكما أخبرنا به هتلر غالبا ، ولم يبق الا أن نرى فيما اذا كنا قد قدرنا القوة السوفييتية بصورة صحيحة أم لا .

أرسلنا الى مجموعة الجيوش (ب) الجواب التالي : « يتهيأ فيلق البانزر (هـ) الى العمل حالا . الطلب قدم الى هتلر لاطلاقه من الاحتياط » .

كان هتلر قد طلب ألا يزج هذا الفيلق المستقل في القتال بدون الحصول على موافقته الشخصية اولا ، ولذلك ما أن سمعت بالسد الناري السوفييتي وافترضت ان الموقف سيتطور كما هو متوقع ، حتى طلبت اطلاق ذلك الفيلق ، واذا ما فشلت الاحداث في تعقيب المجرى المتوقع ، فإن هذا التدبير الاحتياطي لن يسبب أذى .

لم يكن هتلر ، على أي حال ، في بروسيا الشرقية في هذا الحين ، وانما كان مسافرا الى ميونيخ أو بيرختسغادن بقطار قيادته الخاص ، وبصحبته هيئة أركانة الخاصة التي كانت تضم الفيلد ماريشال كايتل والجنرال يودل . فاتصلت به تلفونيا ونقلت اليه الاخبار ، واقنعته بصعوبة كبيرة باطلاق الفيلق (هـ) من احتياط القيادة العامة للجيش واعطائه الى مجموعة الجيوش (ب) . وحتى في ذلك الوقت ، كان هتلر يفضل تأجيل هذا القرار ، وانتظار وصول تقارير اخرى من الجبهة ، وكالعادة فقد احتجت الى بذل جهود جبارة لاقناعه ان الوقت سيفوتنا ،

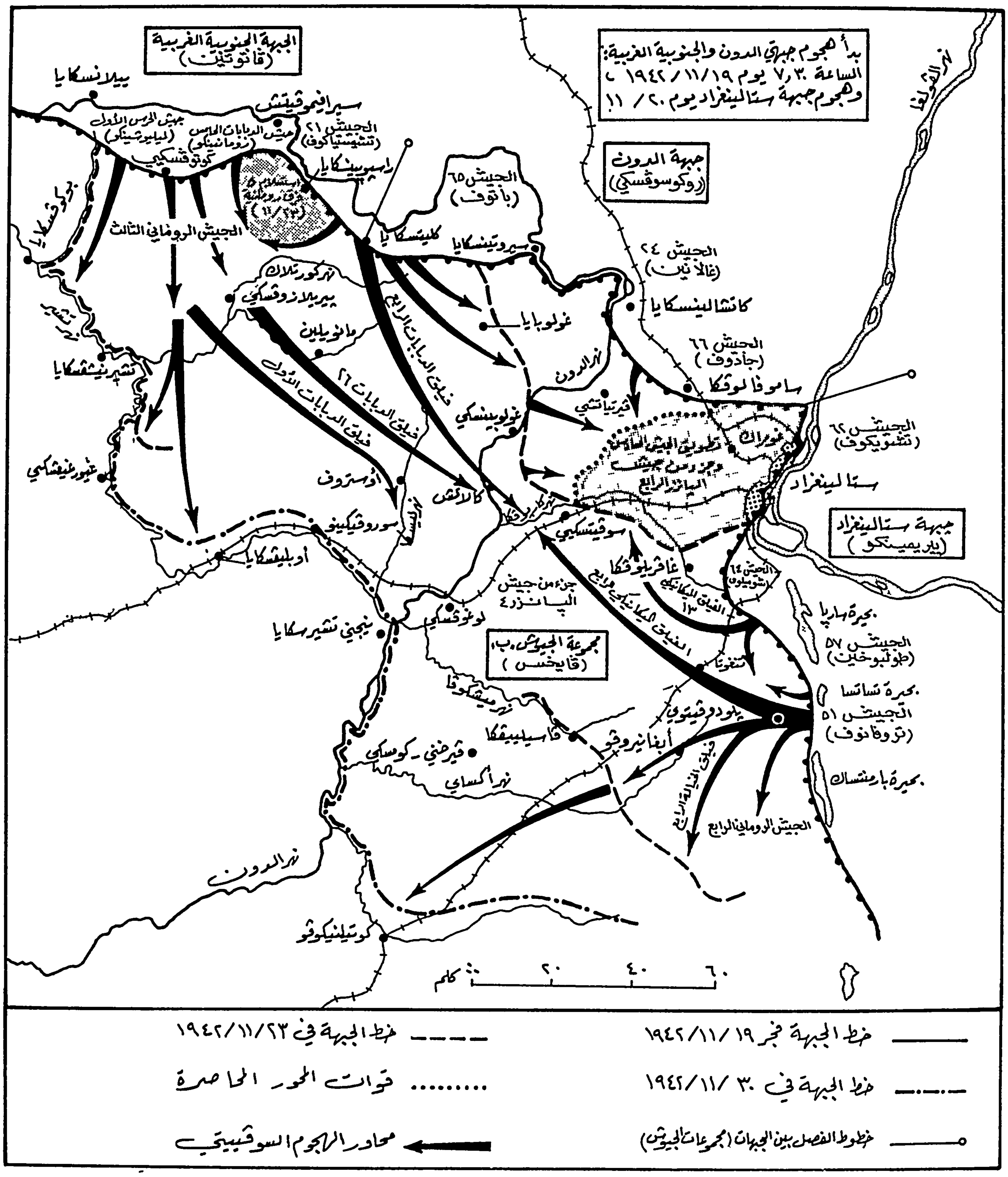
وسنكون عندئذ قد تأخرنا كثيرا . ولقد اعتبرت ان نجاحي في ضمان اطلاق فيلق البانزر بمثابة نصر شخصي ، وكانت مجموعة الجيوش (ب) مسرورة بذلك ايضا .

وفي هذه الاثناء كان القصف المدفعي السوفييتي للمواضع الرومانية شديدا للغاية حقا ، ومن ثم هاجم الجيش الاحمر تحت ستار من عاصفة ثلجية هبطت فيها الحرارة الى ٢٠ درجة مئوية تحت الصفر . وتقدمت كتلة كبيرة من الدبابات السوفييتية على الرومانيين . وكان المشاة يصحبونها اما راكبين فوقها أو يسيرون قريبين خلفها . لقد كان السوفييت يتمتعون بتفوق عددي هائل في كل مكان ، وفي الحال تقريبا أصبحت الجبهة الرومانية مشهدا للاضطراب والفوضى .

استلمت الآن مجموعة الجيوش (ب) سيلا من التقارير المتضاربة في أغلبها ، والتي مررت الى قيادةالجيش العليا ، ولقد أعطت تلك التقارير صورة عامة عن الرعب الذي انتشر في صفوف الرومانيين ، وعن ظهور الدبابات السوفييتية وهي متوغلة الى مسافات عميقة في مؤخرتنا . أما التقارير الاخرى فقد تفرغت الى وصف المقاومة البطولية وتدمير عدد من دبابات الجيش الاحمر ، واخيرا أصبح الموقف واضحا . . لقد اخترق السوفييت الجبهة الرومانية في نقطتين ، وبين هذين الخرقين ، وفي الجناح الايسر ، تابعت القطعات الرومانية ووحدات الاسناد الالمانية القتال بشجاعة بالغة ضد قوات معادية ساحقة التفوق . وما كادت مجموعة الجيوش تدرك ما كان يحدث ، حتى أرسل فيلق البانزر (هـ) للقيام بهجوم معاكس ضد الوحدات السوفييتية التي حققت توغلا أكبر .

لقد بقيت على اتصال دائم مع هتلر بواسطة الهاتف واطلعته على تطورات الموقف في الجبهة ، وأشرت عليه مرة تلو الاخرى ان الوقت قد حان الآن للقيام بالحل الرئيسي ، أي الانسحاب من ستالينغراد ، وإذا لم نعمل بهذا الحل ، فعلى الاقل أن نهيىء جميع الاستعدادات الضرورية لتنفيذ هذه الخطة في المستقبل القريب . ولكنني لم أتوصل بذلك الا الى إغضاب هتلر ، وكالعادة راح يتشبث بكل قشة من الامل ، وقال ان علينا أن ننتظر ونرى أي أثر سينجم من وراء زج فيلق البانزر (هـ) على مجرى المعركة . وعندما قلت له ان أعظم ما يمكن أن نتوقعه من هذا الفيلق هو انه سيبطىء التوغل السوفييتي ، الا أنه سوف لن يوقف تقدم العدو ، فما كان منه الا أن أبعد هذا التقدير بكل بساطة ، زاعما انه مفرط بالتشاؤم .

وفي هذه الاثناء استمر الموقف على التردي من سيء إلى اسوأ ، فلقد وسع السوفييت اختراقيهما ، وتوغلت دباباتهم عميقا داخل مؤخرتنا . أما فيلق البانزر (هـ) الذي كان يتهيأ للهجوم فقد هوجم هو نفسه من قبل الدروع السوفييتية الامامية ، وتعرقل فيلق البانزر ايضا بسبب حشود الرومانيين الفارين وبسبب الجو الفظيع ، فتبخرت بسرعة الآمال في هجوم معاكس ناجح ، بينما وجدت قواطع الجبهة الاصلية التي ما زالت ثابتة ، أنها غدت في حالة يصعب الخلاص منها وأخذت الازمة تزداد حراجة .



خطة الهجوم المضاد الذي قام به الجيش الأحمر (١٩/١١/١٩٤٢)
وتطويق الجيش السادس وجزء من الجيش الرابع

وكانت هذه الازمة ، من وجهة نظر مجموعة الجيوش (ب) ووجهة نظر القيادة العليا للجيش ، قابلة لان تصبح اسوأ من ذلك . لقد عرفنا ان فيلق البانزر (هـ) لن يكون قادراً على اعادة استقرار الموقف . ولا بد أنه سيقع بالضرورة داخل الارتباك العام . وبضياع هذا الفيلق ، سنفقد ولا شك تشكيلنا الاحتياطي الأول والأخير . أما في قيادة الجيش العليا فقد بدا المستقبل حالك السواد حقا .

لقد بذلت كل ما في وسعي لأشرح ذلك الى هتلر ، واقترحت مرة أخرى انسحاب الجيش السادس باعتبار أن ذلك هو الطريقة الوحيدة الممكنة لتفادي كارثة عامة . وكان على ذلك الجيش ان يستدير ويؤمن مؤخرته الجديدة بواسطة مفارز المؤخرة ، ثم يهاجم السوفييت الذين توغلوا عبر الجبهة الرومانية . وكان ممكنا حينذاك انشاء جبهة متينة أبعد من السابقة والى الغرب واننا بذلك الأجراء لا نكون قد أبعدنا التهديد عن الجيش السادس فحسب بل ربما أمكننا وضع الارتال السوفييتية التي اخترقت الجبهة في موقف صعب. وعلى الاقل كان بوسعنا ان نتوقع نجاحات موضعية من حركة كهذه.

وفي حالة عدم العمل بذلك الإجراء ، فإن الكارثة ستصبح أمراً محتوماً ، حيث سيعزل الجيش السادس ويتم تطويقه ، وتفتح ثغرة كبيرة في الجبهة الممسوكة من قبل مجموعة الجيوش (ب) ، ولم تكن هنالك قوات غير منهكة متيسرة لاعادة الاتصال بالجيش السادس ، أو لسد الثغرة ؛ ومع كل يوم يمر لا بد أن تتعاظم الصعوبة بخصوص تصحيح الموقف وتجنب الكارثة . . لقد نبذ هتلر هذا الحل الكبير الجريء ، وبقي متمسكاً بموقفه ، وبالرغم من جميع طلباتي بواسطة الهاتف ، وبالرغم من شروحي المتكررة حول الشكل الذي سيأخذه الموقف حتما . ومع ذلك فقد أمر قطار قيادته أن يستدير ويعود أدراجه من بافاريا الى مقره في بروسيا الشرقية .

خطة هتلر ويودل :

قبل وصول قطار القيادة الى راستنبرغ اتصل بي يودل هاتفياً ليحدثني في أمر لم أكن أتوقعه ، لانني حتى ذلك الوقت لم يكن لي ما أعمله معه سوى القليل ، حيث ان المسارح التي كانت هيئة أركانه معنية بها هي تلك التي لها علاقة بالجنوب والغرب . أما الجبهة الشرقية فكانت من مسؤولية القيادة العليا للجيش ، وكذلك من مسؤولية رئيس هيئة الاركان العامة للجيش. وبحضوري على الاقل ، كان يودل يحجم عن ابداء النصح لهتلر في المواضيع المتعلقة بالجبهة الشرقية ، ويحصر نشاطاته في الامور المعينة له ، وهذا يعني المسارح الاخرى (التي كانت تعرف باسم القيادة العامة لمسارح القوات المسلحة) ، والادارة العامة للحرب ، وامور سياسة الجيش . وظهر الآن أن يودل والفيلد ماريشال كايتل وجدا في غياب رئيس هيئة الأركان العامة للجيش عن قطار القيادة ظرفا مناسبا لتقديم النصح الى هتلر فيما يتعلق بالمعركة في الشرق .

ولعل هتلر نفسه طلب منهما ذلك ، وعلى أية حال ، فقد فعلا ذلك ، وفي الحال أصبح واضحا أي نوع من النصح قدماه له .

وعلى الهاتف قال لي يودل ان على قيادة الجيش العليا أن تفكر في امكانية جلب فرقة مدرعة واحدة من مجموعة الجيوش (أ) في القوقاز لتعمل كاحتياط خلف جبهة مجموعة الجيوش (ب) المهدَّدة . هكذا كان الحل الذي ارتؤي للازمة من قبل المسؤولين في قطار قيادة هتلر ، ولا نضيف على ذلك إلا القول ان نقل هذه الفرقة المدرعة المنفردة إلى المنطقة الحرجة سيأخذ ولا بد وقتا طويلا ، وفي هذه الحالة لا يمكن التكهن بطبيعة الموقف عندما ستصل تلك الفرقة أخيرا .

لم أستطع أن اتمالك نفسي من الدهشة ، وطلبت التكلم مع هتلر شخصيا . ومرة اخرى ، طلبت من هتلر أن يسمح لي بأن آمر بانسحاب الجيش السادس ، فأجابني بنبرة باردة كالثلج قائلا : « لقد وجدنا مشروعا آخر سيخبرك عنه يودل ، وسنقوم به غدا » . وكان هذا هو كل ما هنالك . وفيما بعد أُبلغت رسميا برغبة هتلر في رؤيتي عصر اليوم التالي لمناقشة الموقف ، فأجبت أن الأوان سيكون قد فات ، فقيل لي عندئذ انه ليس بامكاني أن أرى هتلر في أي وقت مبكر قبل ذلك الموعد ، طالما أنه سيكون تعبا بعد سفرته الطويلة . ومن الجدير بالذكر هنا ، ان ذلك التصرف من جانب هتلر جاء في الوقت الذي أصبحت فيه الجبهة كلها مشتعلة ، وكان المئات من الجنود الشجعان يتساقطون صرعى في كل ساعة تمر .

ولقد تجاهلت هذه التعليمات . وفي منتصف الليل ، حيث كان وصول قطاره متوقعاً ، كنت أنتظره في مقره العام وألححت على أن يراني حالاً ، بسبب ما للوقت الآن من اهمية حيوية ، وان التأخير حتى لبضع ساعات يمكن أن يعرض مصير المعركة التي يجب ان تقرر فوراً الى الخطر . وفي بادىء الامر استشاط هتلر ورفاق سفره غضباً عند رؤيتهم لي هناك في منتصف الليل ، بدلاً من الانتظار حتى عصر اليوم التالي ، ثم سُمح لي أخيراً بالمثول أمامه ، وكان هذا الاجتماع بارز الأهمية بالنسبة الى مجرى العمليات المستقبلية في منطقة ستالينغراد ، ومثالاً نموذجياً لأساليب هتلر . وسأتطرق الى ذلك الاجتماع ببعض التفصيل .

لقد جاء هتلر للقائي وهو مبسوط الذراعين وعلى وجهه ابتسامة عريضة ، وكان يشع ، بصورة متعمدة ، ثقة وأملاً ، ثم هزني مصافحاً وقال : « انني أشكرك ، لقد فعلت كل ما هو ممكن ، وأنا نفسي ما كان بمقدوري أن أفعل أكثر من ذلك لو كنت هنا » . ثم عندما راعيت أن يبقى تعبيري جاداً ، سمح هتلر لنغمة ما من الشفقة أن تزحف الى صوته ، ثم مضى قائلاً : « لا تدع الاسى يلم بك ، ويجب علينا ان نظهر صلابة النفس في الملمات ، وعلينا ان نتذكر فريدريك الكبير » .

لقد رغب ، بدون شك ، في تشجيعي . وربما كان يأمل في أن يتمكن من الهامي « بصلابة النفس » التي تكلم عنها ، حتى أتخلى عندئذ عن مجادلاتي « الانهزامية » الداعية الى

انسحاب الجيش السادس ، ولعله أراد إثارة اعجابي بثباته في وجه الملمات ، ومن ذلك يبدو ان هتلر قد فشل تماماً في أن يدرك ان تمثيلاً مسرحياً من هذا النوع في أوقات الخطر الشديد والازمة المحدقة ليس عديم الفائدة فحسب ، بل يمكن ان يكون له تأثير مغاير تماماً .

افتتحت المحادثة مع هتلر بوصف الموقف في شمال غرب ستالينغراد ، واشتمل وصفي على الظرف الحالي ، بناء على آخر التقارير الواردة من الجبهة ، وعلى التطور الذي لا بد من توقعه في المستقبل القريب . وقدمت له التقارير والتقديرات المستلمة من رئيس أركان مجموعة الجيوش (ب) الفيلد ماريشال فون فيخس ، وكذلك من رئيس هيئة أركانه الجنرال سودنسترن اللذان شاركاني آرائي ، وانتهيت بالقول ان الاحداث لو استمرت في متابعة مجراها الحالي ، فإن الجيش السادس سيطوق لا محالة ، وان يجب تفادي هذه الكارثة بأي ثمن ، ومتى تم تطويق الجيش السادس يغدو من المتعذر فك الحصار عنه أو الاستمرار في تموينه .

وعند هذه النقطة قاطعني هتلر ، وتعكر مزاجه ، ورجع الى الحل الذي وضعه بالاشتراك مع يودل ، والذي يدعو الى نقل فرقة البانزر المستقلة من القوقاز . لقد كنت أتوقع ذلك ، ويمكنني الآن أن أقدم تقويماً مفصلاً عن ظروف المواصلات ، بالاضافة الى التاريخ المخمن لوصول الفرقة ، وأقرب موعد ممكن لتوقع اشتراكها في القتال ، كل ذلك سيستغرق اسبوعين من الوقت على الاقل منذ الآن ، وخلال هذه الفترة من الزمن لا يمكن التكهن بالمصير الذي سيؤول اليه الموقف ، إلا أن شيئاً واحداً كان أكيداً ، وهو أن الموقف سيتردى ويصبح كارثة اذا ما جلسنا بدون أن نصنع شيئاً ما عملياً لمدة اسبوعين ، وحينئذ فإن فرقة واحدة ، دون قوتها الاعتيادية ، سوف تكون عديمة الفائدة تماماً وغير كافية اطلاقاً للسيطرة على مجرى الحوادث ، أضف إلى ذلك الشك الحاصل في امكانية ارسال هذه الفرقة الى الهجوم كوحدة متكاملة ، ومن المحتمل ، في ضوء الموقف ، ان أجزاءها المجمعة ستلقى في المعركة لقمة بعد أخرى عندما تصل وكيفما تصل . لقد بدا لي ان هذه البيانات ، وبصورة خاصة تخميناتي المفصلة المتعلقة بموعد وصول الفرقة ، قد تركت بعض الأثر لدى هتلر .

إلا أن هتلر لم يكن ليوافق على التخلي عن خطته . فلقد أطرق لحظة مفكراً ثم أردف قائلاً : « في هذه الحالة سوف نجلب فرقتين من القوقاز » فأجبته على ذلك بقولي : « ان هذا سوف لن يكون مجدياً ، لأن الوقت العصيب هو الآن ، وان فرقتين في هذا الوقت بالذات ربما تفعلان شيئاً مغايراً ، إلا أن من المستحيل جلبهما من القوقاز في الوقت المطلوب ، لأن المواصلات الحديدية في وضع لا يسمح بنقل فرقة ثانية ما لم تصبح الخطوط حرة . وبكلمة اخرى ، يعني ان الفرقة الثانية لا يمكن ان تنقل ما لم تكن الفرقة الأولى قد أُنزلت ، وحينئذ لن يكون بوسع الفرقتين المحافظة على الموقف أكثر من فرقة واحدة ، لأن الجيش السادس سيكون عندئذ قد تم تطويقه بالتأكيد » .

وللمرة الثانية فقد هتلر هدوءه وأخذ يقاطعني . ولكنني تابعت طرح حججي قائلاً « وعليه فليس هناك الا حل واحد ممكن . . عليك أن تأمر حالاً جيش ستالينغراد بالاستدارة على عقبيه والهجوم غرباً ، وسينقذ هذا الحل الجيش السادس من التطويق ، وسيوقع اضراراً كبيرة في الجيوش السوفييتية التي اخترقت الجبهة ، وسيمكّننا من استخدام الجيش السادس في بناء جبهة جديدة أبعد الى الغرب » .

وهنا فقد هتلر كل سيطرة على نفسه ، وضرب الطاولة بقبضته وصرخ : « لا لن أترك الفولغا ، لن أرجع عن الفولغا » . وكانت هذه نهاية الاجتماع الذي كنا نتوقع (أنا وهيئة الأركان العامة ومجموعة الجيوش (ب) والجيش السادس) منه الكثير . ولم نحصل على أي شيء إطلاقاً . إلا أن التجربة السابقة قد أظهرت لي أن عليّ كرئيس لهيئة الأركان العامة ألا أيأس ، وأن أتابع استخدام أية وسيلة وبكل الحاح ، لأنه ربما ما زال بالإمكان اقناع هتلر بتبديل رأيه حتى في هذه الساعة المتأخرة . والحقيقة انه حتى لو بدل رأيه فربما كان ذلك ايضاً بعد فوات الأوان ، فلقد كانت الرمال تنساب من بين الأصابع ، والموقف يزداد سوءاً من ساعة لأخرى . هكذا كانت الأحوال عندما دخلت مكتبي في صباح اليوم التالي ، حيث وجدت أخباراً سيئة تنتظرني هناك .

المستقبل يصبح مظلماً :

لقد تردى الموقف في الجبهة خلال الساعات القليلة الماضية كما تنبأنا تماماً ، ولكن بسرعة أكبر مما كنا نخشى . وتنامى القلق في هيئة أركاني وفي هيئات أركان مجموعة الجيوش (ب) والجيش السادس معاً ، إذ أصبح مقدار الكارثة المحيقة أكثر وضوحاً للجميع ، ومع ذلك ، لم يتمكن أي شخص في تلك المقرات من تغيير مجرى الحوادث ، ولم يكن في مقدور أحد أن يفعل ذلك سوى هتلر . الا أن هذا رفض الانصياع إلى نداء المنطق برفضه العمل .

وكما أسلفت ، فقد كان ممكناً اقناعه حتى في هذه اللحظة بتبديل رأيه ، وما زالت هناك امكانية في استماعه إلى كلمات رئيس الأركان العامة وكلمات قادته الاقدمين الموجودين في الميدان ، بدلاً من الاستماع الى كلمات مستشاريه المتملقين الذين لا يقولون له الا ما يعرفون انه يرغب في سماعه ، وما كان بوسعي سوى أن أسعى بكل طاقتي لمحاولة جعله يرى المنطق ، من أجل مصلحة أولئك الجنود الذين يقاتلون بيأس في الجبهة . ولم أكف عن محاولتي هذه بل مضيت فيها بكل عناد واصرار .

في ٢٠ تشرين الثاني شن السوفييت هجومهم الثاني جنوب ستالينغراد . وهنا أيضاً كانت ضربتهم موجهة نحو القطعات الرومانية . ومما لا شك فيه أنهم اختاروا هذا القاطع بصورة متعمدة . وكانت النتيجة أنهم اخترقوا الجبهة هنا أيضاً ، كما فعلوا في الشمال الغربي من المدينة ـ وهكذا كان جيش ستالينغراد مهدداً بالتطويق من كلا الجناحين ، وأصبح الموقف الآن

واضحاً ، فلن تمر بضع ساعات حتى يلتقي ذراعا الكماشة المعادية في مؤخرة ذلك الجيش . ولم يتمكن قائد مجموعة الجيوش ولا قائد الجيش من منع حدوث ذلك ، وكل ما كان في استطاعتهما عمله هو الأمر بتحويل خدماتهم الخلفية وقطعات التموين إلى وحدات قتال وإعدادها للعمل بأقصى سرعة . إلا أن قطعات كهذه من الصعب أن يتوقع منها مقاومة فرق الهجوم السوفييتية المختارة بنجاح أكبر مما فعلت قطعات القتال التي كان السوفييت قد اجتاحوها . وهكذا وُجدت تشكيلات صغيرة وضعيفة دبت فيها الفوضى ، علاوة على قلة أسلحتها وافتقارها الى التدريب الجيد. وواجهت هذه التشكيلات بغتة نخبة الجيش الأحمر التي كانت مدعومة بمزيد من الدروع والمدفعية . ولم تستطع قطعات الخدمات الخلفية هذه وقف الاختراق ، بالرغم من أنها قاتلت بشجاعة وأُبيدت حيث وقفت . . ولقد كان باستطاعتها ، وربما أنها استطاعت فعلاً ، تأخير التقدم السوفييتي ، إلا أنه لم يكن باستطاعتها ، ولم تستطع ، منع تطويق الجيش السادس . أما الهجوم المعاكس لفيلق البانزر (هـ) فلم يكن مشجعاً بدرجة كبيرة . ويبدو ان هتلر وصحبه قد علقوا الكثير من الآمال على هذا التشكيل ، الذي ظهر مؤثراً بدرجة كافية على الخرائط ، والذي كان يحتوي على أكثر من مائة دبابة. لقد كانت المظاهر خادعة ، وكان على هتلر ألا ينخدع بها طالما انه كان مطلعاً تمام الاطلاع على الحقائق . ولكنه رفض من جديد أن يواجه الحقيقة بخصوص هذا الفيلق مدعياً أن التقارير كانت « انهزامية » . وكان هذا الفيلق مؤلفاً من فرقتين هما : الفرقة المدرعة الرومانية الأولى والفرقة (٢٢) بانزر . ولم تكن الفرقة الرومانية قد شهدت عملية حربية حقيقية فعلية حتى الآن ، فضلاً عن انها كانت بكاملها مجهزة بدبابات مستولى عليها . أما الفرقة (٢٢) بانزر فقد كانت دون قوتها ، وأُعطب الكثير من عرباتها في خلال زحفها الى الجبهة ، وكانت الأحوال الجوية التي سيقاتل الفيلق فيها الآن شديدة القسوة اذ كان الجليد في كل مكان ، وهطل الثلج بدون انقطاع ، فتكونت منه تلال . ولم يكن هنالك الا سويعات قليلة من ضوء النهار خلال الأربع والعشرين ساعة . . هكذا كانت الظروف التي توقعوا فيها من فيلق البانزر (هـ) ان يوقف الدبابات السوفييتية التي كانت تندفع من خلال الثغرة الهائلة في خط جبهتنا ، والتي كانت تتسع عرضاً باطراد . وبالنسبة إلى اولئك الذين عرفوا حقيقة الموقف ، كان فيلق البانزر (هـ) قد حكم عليه بالفناء قبل أن يدخل المعركة .

لقد تأخر الهجوم المعاكس الذي قام به ، كما توقعنا ، بسبب كل من الجو والعدو . واخيراً ذهب الى القتال ، وفي الحال حقق بعض النجاحات ، إذ توقف السوفييت في نقاط مختلفة ، وتكبدوا خسائر كبيرة خصوصاً في الدبابات ، الا ان ذلك لم يؤد الى احداث تغيير جذري في الموقف ، ناهيك عن استعادة المبادرة كما اعتقد هتلر ، لأن واجباً هائلاً كهذا كان أكبر من امكانية فرقتين ضعيفتين ، وكان تنفيذه يتطلب قوة كبيرة مؤلفة من عدة فرق قوية تضم قطعات متمرسة ، ومجهزة بتجهيزات من الدرجة الأولى .

عندما علم هتلر بفشل الهجوم المعاكس لفيلق البانزر، انتابته ثورة شديدة لا حدود لها،

واستدار نحو كايتل الذي كان مسؤولاً عن اصول الانضباط داخل الجيش وصرخ فيه : « استدع قائد الفيلق في الحال ومزق كتّافيته[1] ، والق به في السجن ، لأن الفشل كله بسبب خطئه » .

هكذا كان الجو حول طاولة مؤتمر هتلر . وليس من الغريب ، في ضوء خلقه ، ان يرفض بكل غضب الاستماع الي عندما حاولت مرة اخرى ضمان موافقته على انسحاب الجيش السادس ، كما انه لم يلق بالاً لتقارير اركان قيادة مجموعة الجيوش (ب) والجيش السادس ، وهما التشكيلان اللذان حاول قائداهما ، وهما مدركان تمام الادراك لمسؤولياتهما الجسيمة ، ان يجلبا انتباهه الى ثقل الموقف .

لقد حددت هذه التقارير التطورات المستقبلية المحتملة في قطاع المعركة ، وطلبت انسحاب الجيش السادس ، الا أن غضب هتلر لم يؤد الا الى زيادة عناده . وافترضت بعد انقضاء بضع ساعات أن غضب هتلر قد تلاشى ، فطلبت مقابلة خاصة ، وأُجيب طلبي ، وكنت آمل من هذه المقابلة تحقيق نتيجتين ايجابيتين ، واعتقدت انني ان استطعت ان أطرح امام هتلر تقريراً واقعياً بارداً عن الموقف الحقيقي ، ووصلت الى النتائج المترتبة في المستقبل والواجب استخلاصها من سير الحوادث ، بدون ان أقاطع بملاحظات مرافقيه الشخصيين الهمسية ، فإنني قد اقنعه بتبديل رأيه ، كما كنت أود أن أبين له ان التهم المسندة الى قائد فيلق البانزر (هـ) ليس لها ما يبررها ، ويجب إغفالها بهدوء .

استقبلني هتلر بكل هدوء ، واستمع بانتباه الى ما قلته ، واعتبرت تلك المقابلة مزدوجة النجاح . وعندما حددت الموقف ومجرى الحوادث المحتمل في المستقبل ، وعد هتلر ، الذي احجم عن مقاطعتي ، أنه سيعيد النظر في قراره بعناية وبرود . ثم انتقلت الى قضية قائد الفيلق وقلت : « بالرغم من ان امور المحكمة العسكرية لا علاقة لها برئيس هيئة الاركان العامة ، فإنني أود أن أذكر شيئاً ما بخصوص الجنرال ، قائد فيلق البانزر (هـ) » . وهنا تقلصت أسارير هتلر في الحال . إلا انني مضيت قائلاً : « وانني اذ أرغب في ذلك ، انما بسبب ان هذه القضية هي مسألة تتعلق بالعمليات ايضاً ، حيث انها تؤثر على ادارة العمليات في الجبهة الشرقية ، وان من رأيي ، كرئيس للأركان العامة ، ان الجنرال الذي ارتكب اخطاء ذات نتائج وخيمة يجب ان يحاسب ، ولكن قبل ان يطلب منه تبرير افعاله السابقة ، لا بد من إثبات كونه مخطئاً فعلاً ، وهذا لا ينطبق على قضية الجنرال في هذه المسألة ، حيث ان التهم التي أُسندت اليه ترتكز على الافتراض الخالص » . ثم اقترحت تشكيل مجلس تحقيقي للبحث عن الحقائق في القضية، على

(١) الكتافية التي توضع عليها الرتبة والاشارة التي تُدل على مكانة الضباط ، وهذا الاجراء يدل على تجريد الضابط من رتبته . (**المترجم**)

أن يعين هتلر اعضاءه من الجنرالات الذين يعرفهم معرفة شخصية ، والذين يثق فيهم ثقة كاملة . فأطرق هتلر مفكراً بضع لحظات قبل أن يجيب ، ومن ثم قال : « حسناً سأفعل ذلك » .

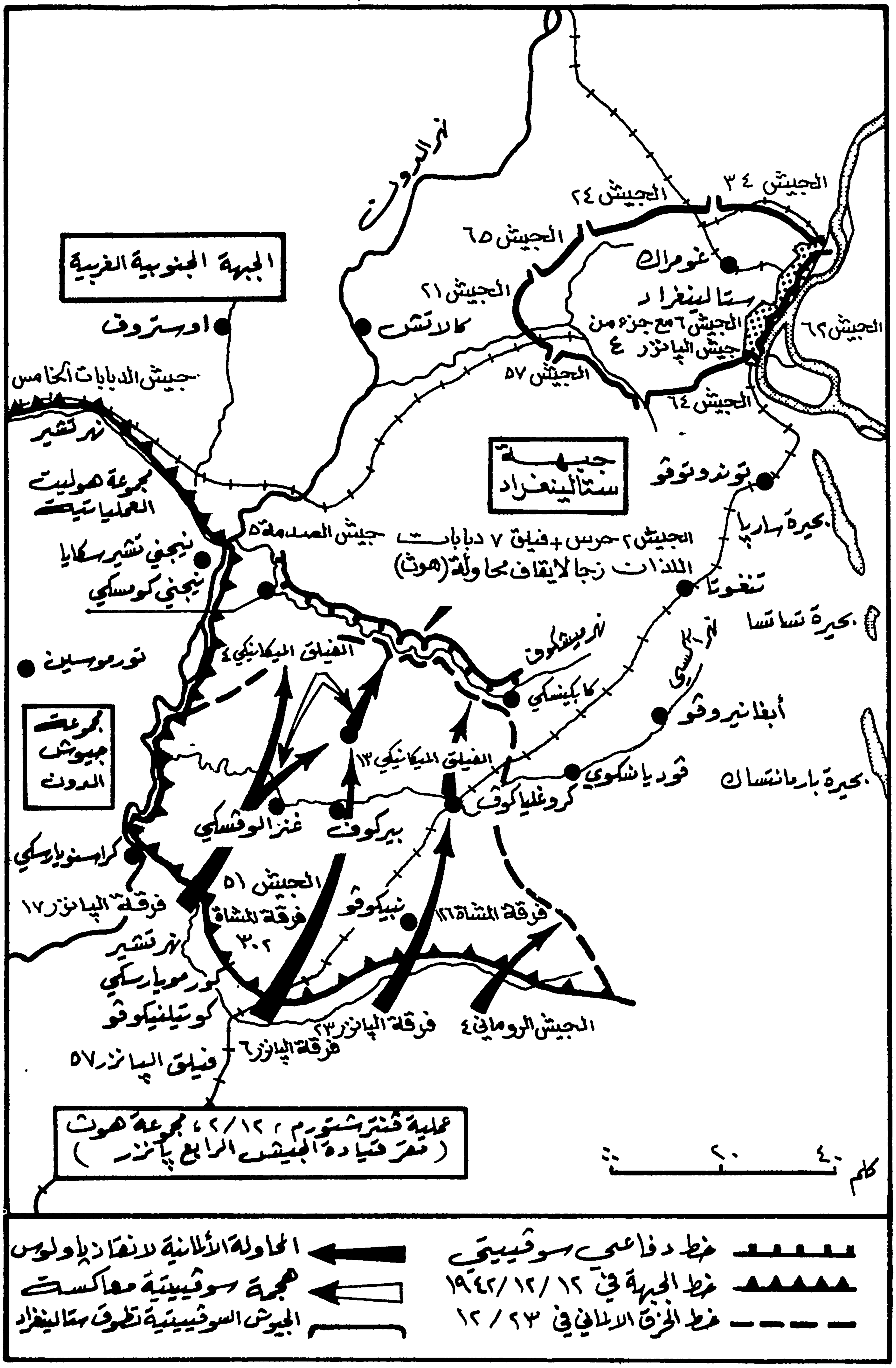
لقد ثبت ، لسوء الحظ ، ان النجاحين اللذين اعتقدت انني أصبتهما كانا قصيري الأجل . وعندما شاهدت هتلر بعد ذلك قال لي : « لقد درست الموقف ملياً ، وان استنتاجاتي بقيت على حالها ، ولن يسحب الجيش السادس » . ترى هل كان هذا هو قراره بالذات فعلاً أم من ايحاء الفيلد ماريشال كايتل والجنرال يودل ؟ لا يمكنني الاجابة على ذلك ، ولكن على أي حال ، لم يطلب للمرة الأخرى رأي رئيس الاركان العامة للجيش . أما فيما يخص قضية قائد الفيلق ، فإن هتلر نقض عهده بكل بساطة ، وجاء ذلك النقض بعد مناقشة مطولة مع كايتل ، وبذلك أبقى قراره الاصلي الذي أصدره في سورة الغضب من جراء الخيبة . وبعدها لم يُسمح لأي شخص كان ان يذكر اسم الجنرال أمام هتلر . أما الجنرال فقد أمضى بضعة اشهر في السجن ، خُفضت رتبته بعدها الى جندي بسيط . ولم يُشكل أي مجلس للتحقيق ، لأنه لو شُكل لكشف النقاب عن الشخص الاجدر باللوم حقاً بسبب فشل الهجوم المعاكس لفيلق البانزر (هـ). وفي أوائل كانون الأول وزع مرسوم موقع من قبل هتلر على الجنرالات الكبار ، وفي ذلك المرسوم أُدرجت الاخطاء المزعومة التي ارتكبت من قبل قائد الفيلق سيء الحظ .

ذراعا الكماشة السوفييتية يلتقيان :

أخذ الموقف في الجبهة يزداد من سيء إلى أسوأ في كل ساعة . وما كاد يحل اليوم الثالث من أيام هذه المعركة الشتائية الهائلة ،حتى أصبح تلاقي ذراعي الكماشة السوفييتية ، واحاطة الجيش السادس ، أمراً وشيكاً . وكان مقر ذلك الجيش يقع تماماً في المحل الذي يتوقع أن يتلاقى فيه ذراعا الكماشة ، الأمر الذي اضطر قائد الجيش الى أن يطلب من هتلر السماح له بنقل هيئة أركانه مسافة أبعد الى الغرب ، الا انه لم يحصل على موافقة الفوهرر .

كان البيان اليومي عن سير العمليات يعد من قبل قيادة الجيش العليا ، وكان يصحح اعتيادياً من قبل هتلر بالذات ، وفي اليوم الأول من المعركة قال البيان ببساطة : « لقد شن العدو هجوماً بقوات قوية من المشاة تسندها الدروع » . وفي اليوم الثالث أفاد البيان ما يلي : « لقد نجح السوفييت في اختراق جبهتنا الدفاعية جنوب غرب ستالينغراد وفي منحنى الدون الكبير ، وذلك بالقائهم كتلاً هائلة من الرجال والمعدات بصورة طائشة في المعركة » .

وفي مساء يوم ٢٢ تشرين الثاني استلمت رسالة لاسلكية من قائد الجيش السادس يخبر فيها قيادة الجيش العليا ان جيشه أصبح مطوقاً ، فأجاب هتلر عبر اللاسلكي ، وأمر بأن يشكل الجيش السادس قنفذاً دفاعياً ، وأن ينتقل القائد وهيئة أركانه الى ستالينغراد ، وهكذا تم تطويق ستالينغراد . وتابع السوفييت تقدمهم بدون توقف على طول ما تبقى من الجبهة الفعلية .



عملية تطويق الجيش السادس وجزء من جيش البانزر الرابع

يبدو ان القيادة العليا السوفييتية كانت قد استندت في خططها على الاعتبارات التالية : بناء عل جميع التجارب السابقة فإن الجيش السادس والوحدات الأخرى المطوقة معه في ستالينغراد وحولها ستؤمر بالصمود والقتال حيثما كانت ، وأنه لن يكون بمقدورها القيام بذلك فترة طويلة من الزمن ، وستقع بعدها في أيدي السوفييت بصورة تلقائية ، وعليه فإن الهدف الثاني للتعرض السوفييتي قد لا يكون القضاء على الجيب بل منع نجدته بقوات تأتي من الخارج ، وأن أحسن طريقة لضمان ذلك هي دفع الجبهة الالمانية أبعد ما يمكن الى الغرب ، بشكل يؤدي الى خلق أقصى ثغرة بين الجيش المطوق والقوات الالمانية الرئيسة ، وذلك في اقصر فترة ممكنة من الزمن .

كانت هذه الخطة واضحة وصحيحة معاً . وباشر السوفييت بوضعها موضع التطبيق ، فهوجمت مجموعة الجيوش (ب) بشدة وبدون هوادة ، ودُفعت مسافة أبعد فأبعد الى الغرب ، ولأجل ان يوسعوا نطاق انتصارهم ، هاجم السوفييت الايطاليين في خلال النصف الثاني من كانون الأول ، كما هاجموا الهنغاريين في كانون الثاني ، وأخيراً هاجموا الجيش الثاني الالماني الكائن على يسار الهنغاريين . وتابعوا اندفاعهم عميقاً الى الغرب . وهكذا تم كل شيء بالضبط كما تنبأت خلال مقابلتي الطويلة مع هتلر عندما عُينت لأول مرة رئيساً لهيئة الاركان العامة .

« حصن » ستالينغراد :

لقد ورد في أحد الأوامر الأولى التي أصدرها هتلر بعد ان انطبقت الكماشة السوفيتية ما يلي : « ستدعى قوات الجيش السادس المطوقة في ستالينغراد بقطعات حصن ستالينغراد » . وهكذا أصبحت القوات المطوَّقة حصناً بجرة قلم ، بالنسبة الى هتلر على الأقل ، وربما ان جزءاً من الشعب الالماني الحسن الظن قد خُدع بهذه الخدعة ، الا ان هيئات الأركان والقطعات والعدو ـ افتراضاً ـ فهموا المقصود « بقلاع » هتلر . ولقد كانت هذه الخدعة نموذجاً لاساليبه في شن حرب نفسية . واعتقد هتلر انه ، بلجوئه الى هذه التسمية « حصن » ، قد أصاب عدة عصافير بحجر واحد ، حيث ان العدو سينخدع باعتباره ستالينغراد منطقة محصنة ذات دفاعات قادرة على ايقاف الهجوم ، كما أن القطعات الالمانية في ستالينغراد ستتشجع في صمودها ، اعتقاداً منها أنها الآن داخل حصن باستطاعته أن يتحمل حصاراً طويل الأمد ، وأن ينقذهم من الخسائر الجسيمة . أماالسكان المدنيون فإنهم سيشوشون بالذكريات التاريخية لحصون دافعت ببطولة وتمكنت من فك الطوق فيما بعد ببطولة ايضاً . هكذا سينسى العالم حقائق الموقف التي كانت تتلخص في أن جيشاً المانياً قد أصبح مطوقاً بدون أي غرض ، بسبب لتخطيط غير موفق في أعلى المستويات ، لأن حصن ستالينغراد كان حصناً لفظياً فقط .

كان هتلر فرحاً بابتكاره هذا ، وكان عندما أخبرني به منبسط الاسارير فرحاً . ويبدو انه توقع مني استحساناً ، ولكنني قلت : « كانت القلعة في الأيام الخوالي عبارة عن نتاج لأعمال

تمهيدية طويلة ، وكانت تُموَّن ، بعد أن يتم بناء التحصينات ، بأكداس كبيرة من التجهيزات والعتاد والارزاق ، وبالاضافة إلى ذلك ، فإن الغرض من الحصن هو تثبيت قوات ضخمة من العدو بقوات أضعف نسبياً ، الا أن ذلك مخالف تماماً لحالة الجيش السادس . ولكن هتلر لم يكن يتحمل ، حتى في مسألة تافهة كما في مسألة التسمية هذه ، أي نقد ، لذلك لم تؤد ملاحظاتي إلا إلى إزعاجه وتشبثه برأيه . أما الجنرالات والجنود داخل الجيب ، فقد كانوا مستائين من هذه التسمية المتبجحة الفارغة التي فرضت عليهم ، ولذلك فإن التأثير المتوقع أصبح صفراً .

لقد كان التطويق ، في بادىء الأمر ، يبلغ حوالى خمسة وعشرين ميلاً عرضاً (أي طول المحور الممتد بين الشرق والغرب) وحوالى نصف المسافة السابقة عمقاً (أي المحور الممتد بين الشمال والجنوب) ، وكانت المنطقة سهوباً جرداء ، لا يشاهد فيها الا بعض الاشجار والشجيرات . واحتوت المنطقة المطوقة على عدد من القرى ، إضافة الى القسم الاعظم من ستالينغراد ، بالرغم من أن بعض أجزاء المدينة بقيت في أيدي السوفييت . وكانت الحدود الشرقية للمنطقة المطوقة تتمثل في الضفة اليمنى لنهر الفولغا ، أما الجزء الاعظم من الجبهة فكان حديث التكوين ـ بسبب الاختراق السوفييتي من الشمال والجنوب ـ وكان فضلاً عن ذلك غير محصن اطلاقاً ، لذلك كان على هذه التحصينات ان تبنى في ظروف صعبة للغاية ، وسط عواصف ثلجية هائلة هبطت فيها الحرارة كثيراً تحت الصفر . ولم يكن لمواد البناء وجود تقريباً ، وكان الاجهاد البدني للقادة وللقطعات على حد سواء كبيراً جداً ، وفي ظروف كهذه أُنشىء القنفذ .

لقد ضم الجيب القسم الأعظم من عشرين فرقة المانية وعناصر من فرقتين رومانيتين ، كما ضم أيضاً قطعات من المقر العام ، كالهندسة ، والمدفعية ، وكتائب مدفعية الميدان ، والرادار ، ووحدات من منظمة تودت[1] ، وأركان مقر فيلق الجيش الخامس ، ومقر جيش الجنرال باولس السادس . أما الوحدات المطوّقة التابعة لسلاح الطيران ، فكانت تضم فيلق مدفعية ضد الطائرات ، وضباط الأركان الارضيين . . وكانت أكداس العتاد والأرزاق ضئيلة ، وكانت القطعات المطوَّقة تفتقر بصورة خاصة الى الوقود للوحدات الآلية العديدة ، وكان واضحاً ان الأكداس الموجودة ستستهلك في القريب العاجل .

ليس من الممكن تحديد العدد المضبوط للقطعات المطوَّقة ، وتراوح الارقام المعطاة من ٢١٦٠٠٠ الى أكثر من ٣٠٠٠٠٠ بمقدار ما . ويرجع عدم الدقة هذا الى ان الرقم الأعلى مأخوذ من صحائف الأرزاق للجيش السادس والوحدات الملحقة به قبل بدء الهجوم السوفييتي . إلا ان عناصر صغيرة من

منظمة هندسية مدنية تعاونت مع الجيش الالماني للقيام بالانشاءات الدفاعية المعقدة . (**المترجم**)

الجيش السادس كانت قد افلتت من الطوق في بدء تكوينه ، بينما وقعت فيه وحدات تابعة الى جيوش اخرى . لقد كان الموقف في خلال الاسابيع القليلة الأولى شديد الاضطراب ، لدرجة اصبح معها من المستحيل تماماً اعطاء ارقام مضبوطة . وعلى اية حال فقد كان للقطعات المطوَّقة وقادتها واجبات تتطلب الانجاز ، وهي اكثر اهمية من عد الرؤوس وتقديم لوائح القوة العمومية . أما الوسائط الوحيدة للاتصالات بين الجيش المطوق والعالم الخارجي ، فكانت تنحصر في الطائرة والراديو . وفي بادىء الأمر ، كانت هناك ثلاث أو اربع أراضي هبوط ضمن الجيب ، وأُنشئت بعد الاحاطة مباشرة شبكة لاسلكي ـ هاتف خاصة ، واشتغلت هذه الشبكة بصورة جيدة في الايام الأولى ، وامكن بواسطتها ان يتحدث الجنرال باولس مع قائد مجموعة الجيوش .

هل يجب ان يشق الجيش السادس طريقه الى الخارج ؟

ما كان الجيش السادس يقع في الطوق حتى حاول كل من قائده وقائد مجموعة الجيوش الحصول على تخويل هتلر ليشق الجيش المطوَّق طريقه بالقوة الى خارج الطوق ، ويلتحق بالقوات الالمانية الرئيسية الموجودة في الغرب . لكن هتلر رفض حتى تلك اللحظة ، اعطاء اي تخويل بالانسحاب الذي بُنيت خططه على تقدير عسكري لتطورات المستقبل المحتملة ، والآن اصبحت تلك التطورات المخمنة واقعاً ملموساً ، وافترض فيخس وباولس وقادة فيالق الجيش السادس ان هتلر سيواجه الآن الحقائق ويعمل بموجبها ، وعليه وبدون انتظار لجوابه ، أُصدرت الأوامر الانذارية حتى يبدأ الجيش الحركة دون تأخير ، حالما يستلم التخويل .

لم يكن هناك ما يدل على قرب ورود التخويل من هتلر . وبذلت كل ما في وسعي ، يوماً بعد آخر ، لاقنع هتلر بوجوب السماح للجيش السادس بشق طريقه الى الخارج . وفي كل ليلة تقريباً كنت اتناقش مع الفوهرر حول هذا الموضوع . وكان النقاش يستمر غالباً عدة ساعات ، وكانت نغمة هذه المناقشات تتسم أحياناً بالواقعية والهدوء ، بينما كانت تتسم في أحيان اخرى بالمرارة وتتعالى فيها الاصوات ، لأنه عندما كان يصرخ في وجهي كنت أرد عليه صارخاً ايضاً ، حيث ان هذه كانت هي الطريقة الوخيدة الواجب اتباعها عندما يريد المرء ان يسمعه صوته حينما يكون في واحد من أمزجته المزعجة . وفي احدى المرات اعتقدت انني قد توصلت الى مبتغاي ، وبدا هتلر متهيئاً للتوقيع على التخويل الخاص بخروج الجيش السادس من الطوق ، فتنفس كل فرد الصعداء وصدرت التوصيات الاولية . ولكن عندما قُدم الأمر إلى هتلر للتوقيع ، راح يؤجل ذلك بصورة متكررة ، وأخبرني في النهاية انه بدل رأيه . وهكذا ذهب كل شيء عبثاً . واستوجب أن تبدأ من جديد تلك المناقشات التي لا نهاية لها والمجادلات والمخاصمات ، وكان من الممكن تصور مدى الإرهاق المعنوي الذي تعرض له الضباط الأقدمون المسؤولون في هذه الحال ، حيث كانت الاعصاب تميل إلى الانفجار . ولاجل إظهار طبيعة الجو في هذا الوقت ، فأنني سأتطرق الى وصف محادثتين هامتين مع هتلر ، واستطيع ان احصر في بعض النقاط النص

الاصلي للكلمات التي استعملها.

وقعت المحادثة الاولى بعد أن التقى ذراعا الكماشة السوفييتية، فطلبت حينئذ مقابلة خاصة وطويلة مع الدكتاتور ، فأُجبت على طلبي ،واستقبلني هتلر في ساعة متأخرة من الليل ، وتكلمنا حتى الصباح تقريباً.

ابتدأت المقابلة بشرح الموقف الى هتلر على حقيقته ، مستعملاً بذلك الخرائط ، ثم شرحت له التطورات المحتملة في المستقبل، وهنا قاطعني هتلر قائلاً: ان الموقف لن يتطور كما افترضت، بل سيتحول بصورة جذرية بهجوم فرقة البانزر القادمة من القوقاز ، وكذلك باستخدام الدبابة الثقيلة نوع «النمر» (تايغر).

لقد كانت هذه نظرية جديدة وفريدة في بابها ، حيث ان دبابات النمر الاولى كانت قد خرجت تواً من المصانع ، وكان هتلر يميل إلى اعتبار أي سلاح جديد كصانع للمعجزات ، لذلك اعتقد انه اذا ما أرسلت الدفعة الاولى من هذه الدبابات الثقيلة على شكل كتيبة ، فإنها ستنجح في كسر الطوق السوفييتي ، وكان على أحر من الجمر إلى تنفيذ خطته هذه التي بدت وكأنها قد سممته حقاً ، ولعله اعتقد فعلاً ان استخدام هذه الكتيبة بمفردها قادر على تحويل مجرى المعركة بكامله بين ليلة وضحاها.

لقد حاول هتلر ، بعيون مشعة وصوت عال، أن يلهمني حماسه الخاص. وكان يبدو عليه انه رغب في انتزاع موافقتي على خطته هذه ، فقلت له: «صحيح ان الطراز الاول من دبابات النمر قد أعطى انطباعاً مؤثراً، ويمكننا ان نتوقع من هذه الدبابة أشياء عظيمة . إلا أننا مع ذلك لا نعرف كيف ستجابه الشتاء الروسي كما انها لم تجرب حتى الآن في المعركة ، ومن المعلوم ان جميع الاسلحة الجديدة قد أظهرت قصوراً غير متوقع عندما استعملت لاول مرة في العمليات الفعلية ،وان التخلص من هذه النواقص يتطلب عملاً دائباً وطويلاً. لذا لا يمكننا آن نفترض ان دبابة النمر ستكون مرضية مائة بالمائة منذ البداية، علاوة على اننا لم نحصل على العدد الكافي منها . وان كتيبة واحدة قد تنجح على سبيل الافتراض في اختراق الخطوط السوفييتية وتحقيق الاتصال مع الجيش السادس ، إلا انها قد لا تستطيع ابقاء المجاز مفتوحاً ، وعليناأن نتذكر انه عندما توضع الدبابات الاولى موضع العمل ستبعد جبهتنا الرئيسية عن ستالينغراد بمسافة أكبر مما هي عليه الآن ، وستكون الحركة أكثر صعوبة، بسبب المسافات الكبيرة الواجب قطعها. الى هنا انتهى تعليقي بخصوص دبابات النمر ، لكنني مضيت في تقديري وانتهيت بهذه الكلمات: «طالما ان الحركات المقترحة لانقاذ الجيش السادس لا يمكنها ان تنجح ، لذلك من الضروري اصدار الاوامر الى ذلك الجيش ليقوم بقتال تراجعي على ان يتم ذلك في الحال، لأن آخر لحظة ممكنة قد حلت الآن .

وبينما كنت اتكلم كان هتلر يزداد غضباً وغالباً ما حاول جعلي اختصر القول، إلا أنني لم

أدعه يقاطعني، لأنني كنت أعلم أن هذه هي الفرصة الأخيرة، ولابد لي أن أقول ما أريد قوله . وعندما انتهيت أخيراً صاح بصوت عال : «سيبقى الجيش السادس حيث هو ، لأنه الحامية للحصن ، وواجب قطعات الحصن هو مقاومة الحصار، واذا ما دعت الضرورة فإن عليها الثبات طيلة الشتاء وسأخلصها من الطوق بواسطة هجوم ربيعي». كان هذا خيالاً محضاً، فأجبت قائلاً : «ليست ستالينغراد حصناً ، فضلاً عن انه ليست هناك أية طريقة لإمداد الجيش السادس بالمؤ ن».

استشاط هتلر غضباً أكثر من السابق ، وصرخ بأعلى صوته: «لقد قال ماريشال الرايخ (غورنغ) ان باستطاعته أن يمون الجيش السادس من الجو» . وهنا صرخت «هذا هراء».

قال هتلر : «لن أترك الفولغا».

فقلت بصوت عال : «حضرة الفوهرر، انه لمن الجرم أن يترك الجيش السادس في ستالينغراد، لأن ذلك يعنى الموت او الأسر لربع مليون من الرجال وسينعدم أي أمل في تخليصهم، و خسارة ذلك الجيش العظيم تعني ان العمود الفقري للجبهة الشرقية قد انكسر». هنا شحب لون هتلر ، إلا أنه لم ينبس ببنت شفة ، بل نظر الي نظرة جامدة وضغط الجرس الموضوع على مكتبه، وعندما ظهر ضابط حرسه الـ (SS) قال له : «استدع الفيلد ماريشال كايتل والجنرال يودل». ولم يتبادل بعد ذلك أية كلمة اخرى حتى وصل الضابطان ، وكان وصولهما قد تم في الحال تقريباً ، ومما لا شك فيه انهما كانا ينتظران في الغرفة المجاورة ،وان صح ذلك،فلا بد انهما قد سمعا أصواتنا الغاضبة عبر الجدران الخفيفة لغرفة الخرائط، وكان بامكانهما ان يحملا تصورات خاطئة حول طبيعة الخصام.

وأدى كايتل ويودل التحية بصورة رسمية، وبقي هتلر واقفاً ، وكانت هيئته رزينة أما لونه فما زال شاحباً ، ولكنه بدا هادئاً ظاهرياً على الاقل ، وما لبث أن قال: «علي ان اتخذ قراراً جدياً للغاية، وقبل ان أفعل ذلك فإنني ارغب في سماع رأيكما . هل يجب على أن أخلي ستالينغراد أم لا ؟ ما هو رأيكما؟». ثم ابتدأ ما يمكن وصفه بمجلس للحرب ، بطريقة لم يسبق أن اختارها هتلر من قبل ابداً . وقال كايتل وهو واقف بوضع الاستعداد وعيناه تشعان : «أيا فوهرري، لا تترك الفولغا !» أما يودل فقد تكلم بموضوعية وهدوء ، ووزن كلماته التي كانت كما يلي:

«أيا فوهرري ، انه قرار خطير جداً ذلك الذي ستتخذه الآن ، فاذا ما تراجعت عن الفولغا فان ذلك سيعني التخلي عن جزء كبير من المكاسب التي جنيناها بكلفة عالية من هجومنا الصيفي. هذا من ناحية، ومن الناحية الاخرى ، فاننا اذا لم نسحب الجيش السادس فان موقفه سيصبح خطيراً وقد يكتب النجاح للعمليات المقترحة لنجدته، وقد يكتب لها الفشل، وحتى نرى نتيجة هذه العمليات ، فان من رأيي ان نستمر في الثبات على طول الفولغا». وهنا قال لي هتلر: «جاء دورك ». لقد كان واضحاً انه كان يأمل في أن تكون كلمات القائدين الأخرين قد

جعلتني ابدل رأيي ، وبالرغم من أن هتلر كان يأخذ القرارات بنفسه، فانه كان شديد الولع في الحصول على الموافقة بشكل ما من مستشاريه الفنيين،فما كان مني إلا أن وقفت مستعداً ثم قلت بكل ما تتطلبه الرسميات : «سيدي الفوهرر ، لقد بقي رأيي على حاله دونما تبديل ، وانه لمن الجرم أن يُترك الجيش السادس حيث هو ، واننا لن نستطيع نجدته أو امداده بالتموين. وبكل بساطة سيضحى به ، ولكن بدون فائدة». لقد احتفظ هتلر بهدوئه وتمالك زمام أعصابه ظاهرياً ، الا انه كان يغلي غضباً في الداخل . وقال لي : «انك تلاحظ أيها الجنرال انني لست وحدي في رأيي ، انما يشاركني في هذا الرأي هذان الضابطان وكلاهما أقدم منك ، وعليه فانني سوف ابقى عند قراري الذي اتخذته». ثم حيا بانحناءة متصلبة وانصرفنا.

أما المحادثة الثانية التي سأشرحها بصورة مفصلة ، فقد حدثت في الليلة التالية .

لم أكن متهيئاً للتخلي عن كفاحي في سبيل انقاذ الجيش السادس ، بالرغم من رفض هتلر الاعمى لحججي. وبالتجربة ، عرفت أن علي ان اتطرق الى بحث المشكلة من زاوية اخرى . فقد كان قرار هتلر ، الذي بدا انه قرار غير قابل للنقض ، مستنداً إلى اعتبارات استراتيجية ، ولم يكن هناك مجال، في المستقبل القريب، لمحاولة فتح باب المناقشة على ذلك المستوى ، لانه سيرفض عندئذ الاستماع فوراً .الا أن ذلك الرفض لا يسري مفعوله على المسائل الادارية على أية حال، وكان تعليلي هو : ان كانت حججي قد فشلت في الاستراتيجية ، فقد تنجح في المجال الاداري ، ولربما أستطيع اقناعه بوجاهة تفكيري اذا ما تمكنت ان اريه بصورة مفصلة موقف التموين للجيش السادس ، وأن أثبت له ، استناداً إلى الحقائق الثابتة والارقام، انه لن يكون بوسعنا تموين ذلك الجيش عن طريق الجو، حيث ان هتلر كان يميل دائماً الى التأثر بالاحصائيات.

كانت دائرتي للعمليات، ومختلف ضباط الاركان الفنيين المعنيين ، وكذلك دائرة مدير إمداد الجيش على قناعة تامة بأن ستالينغراد لا يمكن الحفاظ عليها وان من المستحيل تموين جيش ستالينغراد من الجو . لذلك أصدرت أمري بأن تعدّ المعطيات الاساسية المادية التي استندت إليها تلك الاستنتاجات، وتوضع بشكل قوائم احصائية وقوائم اخرى ، على ان تصنف تلك القوائم بموجب أنواع مواد التموين . ولا استطيع الآن ان أستعيد من الذاكرة الارقام الحقيقية التي قدمت من مختلف ضباط الأركان المعنيين ، الا انني مع ذلك استطيع ان أتذكر مقادير مواد التموين المطلوبة بصورة اجمالية . واعتماداً على ذلك استطيع القول ان الجيش السادس كان يحتاج ، بالاضافة الى مواد التموين الموجودة ضمن الجيب ، الى نقل جوي يستطيع تسليم حوالى ٦٠٠ طن في اليوم الواحد، وان أدنى حد يمكن ان يكفي الجيش السادس لتأمين معيشته (في حالة التقشف الشديد، وبالاستفادة من بعض الاجراءات كذبح خيول الجيش وأكل لحمها) كان ٣٠٠ طن . وهذا الحد الأدنى يجب الحصول عليه يومياً ، بغض النظر عن العوامل الخارجية ،

كظروف الجو التي كان من المستبعد ان تكون ملائمة في هذا الفصل، وهذا يعني انه لاجل تموين الجيش السادس بالحد الادنى الذي لا يحتمل التقليص ،فلا بد من نقل ٥٠٠ طن على أقل تقدير، في كل يوم تسمح فيه الظروف الجوية للطائرات بالاقلاع عن قاعدة التموين والهبوط داخل المنطقة المطوّقة.

كانت هذه الحقائق موضوعة بوضوح في قوائم الارقام التي هيأها ضباط أركاني. وحالما أصبحت هذه القوائم جاهزة ، طلبت من جديد إجراء مقابلة خاصة مع هتلر، ومرة اخرى اختار هتلر لهذه المقابلة ساعة متأخرة من الليل . وعندما دخلت قاعة الاجتماع وجدت الجو بارداً بسبب جدالنا في اليوم السابق . ولقد نجحت ، على كل حال ، في اثارة اهتمامه في الارقام التي طرحتها أمامه، فسمح لي باكمال شروحي الضرورية لتفهم المعنى الكامل للنصوص الاحصائية. وأخيراً انتهيت من بياني بهذه الكلمات :« بعد اطلاعكم على الحقائق بصورة مفصلة، فان النهاية التي لا مفر منها هي :«انه من المستحيل تموين الجيش السادس من الجو». وهنا أصبح مزاج هتلر ثلجياً وقال: «لقد طمأنني ماريشال الرايخ ان ذلك ممكن».

فأعدت قولي ان ذلك غير ممكن فأجاب هتلر:
ـ حسناً جداً . انه سيقول لك ذلك بنفسه.
ثم استدعى القائد الاعلى لسلاح الطيران وسأله:
ـ غورنغ هل تستطيع تموين الجيش السادس من الجو ؟ فرفع غورنغ ذراعه الايمن وقال بثقة جدية .

«سيدي الفوهرر، إنني أطمئنك ان سلاح الطيران يستطيع القيام بذلك ». وهنا ألقى على هتلر نظرة منتصرة ـ ولكنني قلت بكل بساطة :

ـ ان سلاح الطيران لا يستطيع ذلك بالتأكيد.

فعبس غورنغ ثم قال:
ـ انك لست في موقف يؤهلك لاعطاء رأي ما عن هذا الموضوع. فاستدرت نحو هتلر وسألت:

ـ سيدي الفوهرر، هل لي ان أسأل ماريشال الرايخ سؤالاً؟
ـ أجل ، يمكنك . فقلت موجهاً كلامي الى غورنغ:
ـ حضرة ماريشال الرايخ ، هل تعلم ما هي الحمولة الواجب نقلها جواً كل يوم؟

وهنا أصيب غورنغ بالإحراج من هذا السؤال ، فقطب حاجبيه ثم قال:
ـ لست أعلم ، إلا ان ضباط أركاني يعملون. وعندئذ قلت :
ـ لو تسامحنا في حساب جميع الاكداس الموجودة حالياً مع الجيش السادس ، وتسامحنا

ايضاً بوضع حد أدنى للمواد المطلوبة، وكذلك باتخاذ جميع التدابير الفورية الممكنة ، فان الجيش السادس سيحتاج الى ٣٠٠ طن يومياً . ولكن ، لما كانت الايام لا تصلح كلها للطيران ، كما اطلعت على ذلك بنفسي في الجبهة في الشتاء الماضي ، فان هذا يعني انه يجب ان ينقل الى الجيش السادس ٥٠٠ طن في كل يوم صالح للطيران ، إذا أردنا الحفاظ على الحد الأدنى الذي لا يحتمل التقليص». فأجاب غورنغ :

- بامكاني ان أقوم بذلك . وهنا فقدت زمام نفسي وقلت:
- سيدي الفوهرر ! ان هذا كذب محض.

وكان لكلماتي هذه وقع غريب، وخيم علينا نحن الثلاثة في الحال سكون بارد كالثلج، وابيضّ وجه غورنغ من شدة الغضب وراح هتلر ينقل بصره من أحدنا إلى الآخر بحيرة واندهاش ظاهرين، واخيراً قال لي :

- لقد قدم لي ماريشال الرايخ تقريره ، الذي لا اختيار لي سوى الايمان به ، وعليه فانني سأبقى على قراري الاصلي . وهنا قلت :
- أود أن أطرح طلباً اخر . فأجاب هتلر. :
- وما هو ؟. فقلت :
- هل يمكنني أن اقدم إليكم تقريراً يومياً ادرج فيه بالضبط الحمولة بالاطنان للمواد المنقولة جواً الى الجيش السادس خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية»؟.

اعترض غورنغ على ذلك قائلاً: ان هذا لا يعنيني. الا ان هتلر تجاهل اعتراضه، ومنحت ترخيصاً بتقديم هذا التقرير اليومي، وبهذا انتهى المؤتمر.

ومرة اخرى ذهبت جهودي في ذلك المؤتمر هباء ، وكل ما حصلت عليه هو عداوة ماريشال الرايخ . ولابد لي من ان أشير هنا الى ان عدداً من ضباط اركان سلاح الطيران وقادته قد شاركوني رأيي منذ البداية، بل ان قسماً منهم عبر عن شكوكه كتابة . الا انهم لم يتمكنوا من اقناع رئيس اركانهم الذي تجاهل تقاريرهم بكل واسطة ، واتخذ ما يلزم لضمان عدم وصول تلك التقارير الى مكتب هتلر .

إبان انتظار هجوم مانشتاين:

وهكذا خابت جميع محاولاتي في سبيل انقاذ الجيش السادس ، الا أنني لم اكن قد فقدت الرجاء بعد . ففي المستقبل تطوران قد يقنعان هتلر بتبديل رأيه : وهما فشل الهجوم الرامي الى انقاذ الجيش المطوّق، وفشل القوة الجوية في تأمين تموين ذلك الجيش . أما الهجوم فان أحسن ما يرتجى منه هو جلب قواتنا الرئيسية مسافة أقرب نوعاً ما الى الجيش السادس، وهكذا تتوافر فرص أنسب للقيام بحركة خروج ناجحة ، وعندما تحل هذه اللحظة ويفشل الهجوم في تحقيق

اهدافه الاولية بالاتصال مع الجيش السادس، تتوافر العوامل التي يمكن ان تدفع هتلر الى التعقل في النهاية. اما بالنسبة الى النقل الجوي ، فانني أملت ان اخلصه من التخيلات الكاذبة التي زرعت في ذهنه من قبل غورنغ والآخرين ، وذلك بواسطة تقريري اليومي آنف الذكر.

ولكن قبل أن تتوافر الظروف التي قد تجعله يبدل رأيه ويقرر التخلي عن ستالينغراد، فلا بد أن يمر وقت ما . وكان هذا الوقت يعمل ضد الجيش السادس وكان من الواضح ان موقفه سيتردى بصورة جدية بعد عشرة او خمسة عشر يوما،اذ إن مواد التموين المطلوبة لحركة الخروج، وأخص بالذكر أكداس الوقود،كانت تتلاشى بسرعة. فضلاً عن ان الجبهة الرئيسية لمجموعة الجيوش (ب) كانت تُدفع باطراد نحو الغرب،الامر الذي أدى الى اتساع المسافة التي سيتحتم على الجيش السادس قطعها. وهنا كانت تكمن المشكلتان الرئيسيتان.

في هذه الآونة لم يكن هناك ما يُعمل سوى اجهاد كل عصب من اعصابنا لتقوية (او بالاحرى للتقليل من ضعف) الجيش السادس ، ولضمان شن هجوم الانقاذ في أحسن ظروف مناسبة وبأسرع ما يمكن.

لقد أمكن على الاقل اقناع هتلر باعادة تنظيم سلسلة القيادة على طول القاطع الجنوبي للجبهة الشرقية ، وانشاء مجموعة جيوش جديدة تحت اسم مجموعة جيوش الدون بين مجموعة الجيوش (أ) ومجموعة الجيوش (ب)،وعين الفيلد ماريشال فون مانشتاين رئيساً لاركان مجموعة جيوش الدون . وميزة هذا الترتيب هو أنه رفع بعض المسؤولية من عاتق مجموعة الجيوش (ب) التي كانت تشغل قاطعاً عريضاً جداً من الجبهة ، وكان باستطاعة مجموعة جيوش الدون أن تركز الآن كل جهودها على المعركة الوشيكة لانقاذ جيش ستالينغراد دون ان تنحرف عن هذا الهدف تحت ضغط التفكير في مشاكل اخرى . ففي يوم ٢٧ تشرين الثاني استلمت مجموعة جيوش الدون قيادة الجيش السادس وقيادة جيش البانزر الرابع الذي سيقوم بهجوم الانقاذ وكذلك قيادة الجيشين الرومانيين الثالث والرابع اللذين كانا قد دفعا نحو الغرب واللذين يمسكان الآن قاطع الجبهة الرئيسية المواجه لمدينة ستالينغراد.

كانت أوامر هتلر الى مجموعة جيوش الدون انعكاساً واضحاً لآرائه التي عبر لي عنها ، وهي الاحتفاظ بستالينغراد واستعادة الاتصال مع القوات الالمانية هناك بواسطة شن هجوم. وفي الحال أدرك مانشتاين ان الاوامر التي استلمها لا يمكن في الحقيقة تنفيذها ، وأعطى رأيه الخاص في تقرير واضح جداً ، وهو : ان على الجيش السادس ان يشق طريقه من داخل الطوق باتجاه الغرب، على أن توقت هذه الحركة مع هجمات مانشتاين الانقاذية، وتشكل فيما بعد جبهة جديدة على مسافة أبعد الى الغرب.

وهكذا أعاد مانشتاين بصورة منقحة الآراء التي سبق وأن عبرت عنها انا وقائد ومجموعة الجيوش (ب) ، الا ان هتلر بقي مصراً على قراره ، ولم يعط مانشتاين سلطات قيادة عمليات

الجيش السادس. ومن الناحية الاخرى ، حاول هتلر ان يغمس الحبة المرة بالسكر، وذلك بتعهده لمانشتاين بقوات اضافية لاسناد هجومه الانقاذي، على أن يسحب قسماً من تلك القوات من القوقاز والقسم الآخر من ساحة العمليات الغربية . الا أن هذه القوات ، رغم انها ستكون ذات فائدة لمانشتاين، ستصل بعد فوات الاوان ، لان العملية ستكون حينئذ على مقربة من نهايتها . وبالرغم من ان خطط مانشتاين كانت تتعارض مع ما كلف به ، فانه بذل كل ما في وسعه لتنفيذ الاوامر التي استلمها ، ويمكن القول، بدون اللجوء الى التفاصيل التي لا مكان لها هنا ، ان هيئة أركان مجموعة جيوش الدون قد عملت كل شيء لضمان شن الهجوم في أحسن الظروف وبأدنى حد من الابطاء، وكان مانشتاين يأمل ان يبدأ الهجوم فيما بين الثامن والعاشر من شهر كانون الاول.

في هذه الآونة كان النقل الجوي لمواد التموين الى ستالينغراد دون الحد الادنى ، وأعطت تقاريري اليومية الى هتلر الارقام التالية بالاطنان : ١١٠ أطنان، و ١٢٠ طناً . وفي بعض الاحيان ١٤٠ طناً ، ولم يتم تجاوز هذا الرقم الاخير الا نادراً جداً . وغالباً ما كان الرقم يهبط الى حد بعيد تحت الرقم الاول. اما الحد الادنى اليومي فلم يكن بالامكان مجاراته ، ناهيك عن الخمسمائة طن التي وعد بها ماريشال الرايخ. ولم تصل أية امدادات تموينية الى الجيش المحاصر في أيام عديدة، تماماً كما تنبأنا، ولم تؤمن احتياجات الجيش السادس الاساسية . ولا يعود هذا الخطأ الى الطيارين أو الى آمريهم المباشرين الذين بذلوا كل ما في وسعهم، وانما يعود الى غورنغ الذي حمل نفسه واجباً فوق طاقة القوة الجوية الالمانية. وفي المحادثات اليومية مع هتلر ، وعد غورنغ باجراء التحسينات ، وزعم ان النقل الجوي كان في بداية عمله فقط ، وفي خلال بضعة ايام سيكون كل شيء يعمل بشكل افضل، وانه سيكون بالتأكيد قادراً على الايفاء بتعهداته التي قدمها. وكان هتلر يقبل بهذه المعاذير ويكررها أمام الآخرين قائلاً : «لقد اعطاني ماريشال الرايخ كلمته ، وهو يهيىء تنظيماً أحسن ، يجلب طائرات أكثر . . . الخ».

لكن الموقف في الواقع كان يتردى ، ودفعت الجبهة الرئيسية باطراد الى الخلف . وكان هذا يعني ضرورة نقل المطارات التي كانت تنقل منها التموينات الى ستالينغراد ، وبذلك اتسعت المسافات أكثر فأكثر، وأصبح على الطائرات ان تطير عبر حزام من المناطق التي يسيطر عليها العدو، والتي كانت تزداد عرضاً في كل يوم يمر. وهكذا أسقط عدد أكثر فأكثر من طائراتنا، ولم يباغت هذا الوضع القيادة العامة لانه كان امراً لا مفر منه، وكان من الضروري أخذه في الحسبان عندما وضعت الخطط للنقل الجوي، وكنت قد أشرت ان ذلك لا بد وأن يحدث في مرحلة مبكرة جداً.

وأخيراً اكتملت الاستعدادات للهجوم الذي أريد به انقاذ جيش ستالينغراد ، وكان افتتاح ذلك الهجوم ينتظر بمزيد من القلق من قبل الجميع ، وبصورة خاصة من قبل قطعات الجيش السادس. وكانت كافة الوحدات القادمة من القوقاز في مواضعها تقريباً ، كما وصلت

بعض التقويات من المانيا . أما الضابط الذي أنيطت به المسؤولية فقد كان الجنرال هوث قائد جيش البانزر الرابع ، وكان في حوزته ثلاث فرق بانزر متكاملة القوة تقريباً ، اضافة الى قوة مشاة ضعيفة لستر أجنحته ، وقطعات معينة من المقر العام اشتملت على كتيبة دبابات النمر . الا ان قوة كهذه كانت أضعف جداً من أن تنجز الواجب الذي انيط بها وفوق كل شيء لم يكن بامكانها أن تنفتح بالعمق الضروري. أما الظروف التي شن الهجوم فيها فلم تكن مؤاتية، وكانت نقطة الوثوب بجوار كوتلنيكوف تبعد حوالى ٦٠ ميلاً عن ستالينغراد ، ولم يكن بوسع السوفييت الا ان يدركوا أن هذه هي أكثر النقاط ضعفاً . وفي الواقع ، كانت هي نقطة الضعف الحقيقية الوحيدة على طول الجبهة ، وعليه فان رد فعلهم سيكون بموجبها. وكان بامكان هوث أن يتوقع مجابهة مقاومة قوية مصممة ، كما أدرك كل من القادة والقطعات الاهمية الحاسمة لهذا الهجوم في انقاذ جيش ستالينغراد، وان عليهم ان يبذلوا كل ما في طاقاتهم لاجل النجاح ، وألا يحجموا عن أية تضحية مهما كانت.

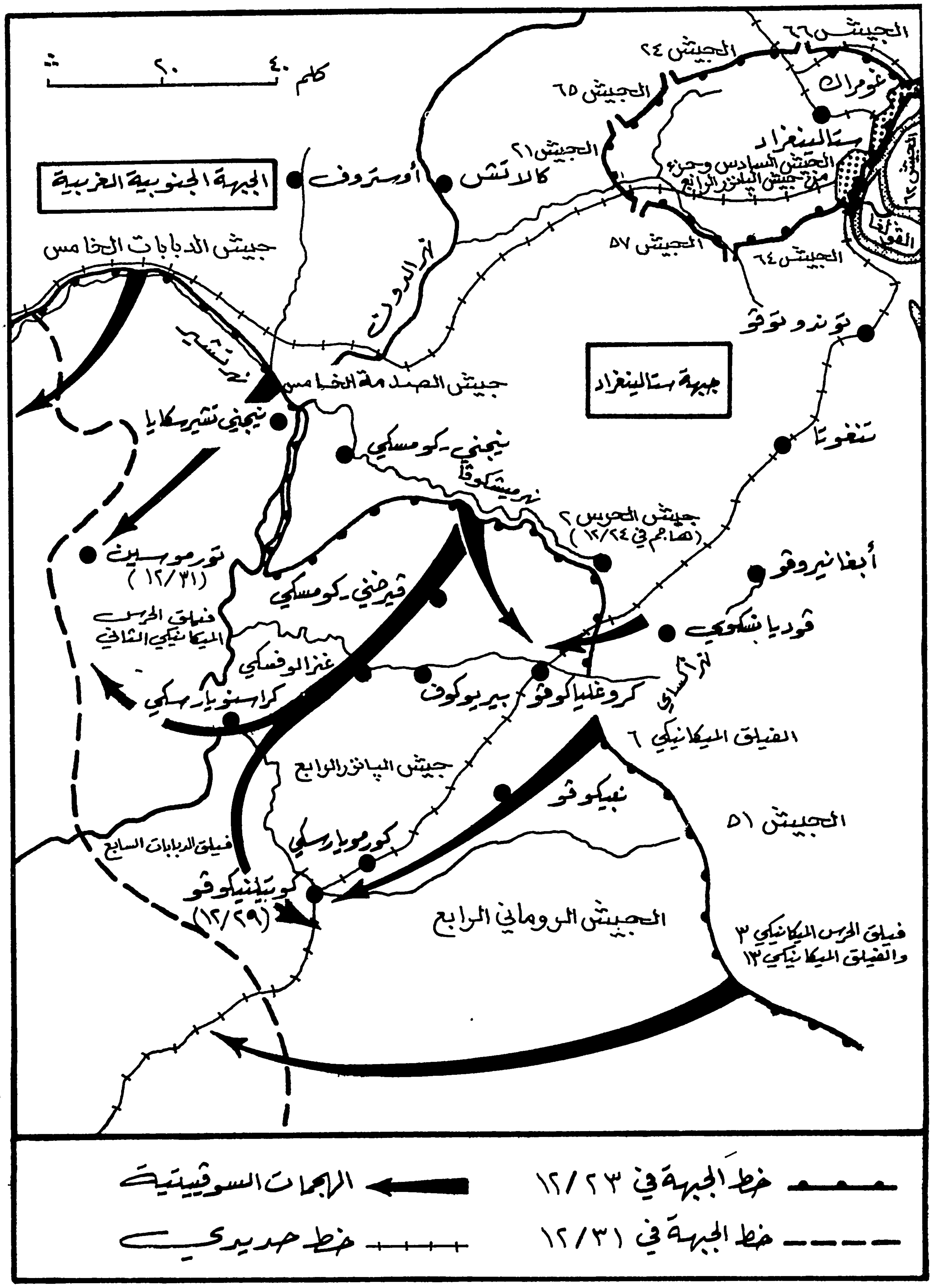
الهجوم لانقاذ الجيش السادس :

ابتدأ الهجوم في ١٢ كانون الاول، وانتظرنا جميعاً التقارير الاولى بفارغ الصبر ، وتم كل شيء بصورة جيدة في بادىء الامر ، إذ تقدم جيش البانزر الرابع باطراد، وبحلول ١٨ كانون الاول أصبحت قطعات هوث على مسافة أكثر من ٤٠ ميلاً بقليل عن المحيط الجنوبي للقلعة المزعومة ، وفي ١٩ منه تم الوصول الى خط نهر موسكوفا ، وفي ٢٠ منه تم عبور ذلك النهر، وفي ٢١ منه أصبحت ستالينغراد على بعد ثلاثين ميلاً فقط.

عند هذا الحد توقف الهجوم وتلاشى زخمه . أما القطعات التي كانت غير كافية عدداً، والتي أنهكها القتال فلم تستطع ان تنال تموينها الا بصعوبة بالغة.

ان الشجاعة والتصميم لا يعوضان لوحدهما عن نقاط الضعف هذه، فضلاً عن أن السوفييت كانوا قد حشدوا قوات ضخمة مقابل خط تقدم جيش البانزر الرابع ، وبالرغم من سيل الاوامر والتأكيدات من القيادة العامة، فان استئناف التقدم ، لم يعد ممكناً . ولاجل القيام بذلك كان علينا القاء قوات جديدة في المعركة ، بيد أننا لم نكن نمتلك هذه القوات . .

لقد انتظرت بقلق رد فعل هتلر ، الذي كان قبل الهجوم يعطي دائماً نفس الجواب عندما يطلب منه بالحاح تخويلاً بخروج الجيش السادس من الطوق : يجب ان ننتظر لنرى ماذا سيحققه هجوم جيش البانزر الرابع . وبعد النجاحات الاولية للايام القليلة الاولى ارتفعت معنويات هتلر، وادعى في حينه ان قراره كان صائباً تماماً ، وانه في هذا الوقت لن يحتمل بالتأكيد امكانية خروج يقوم بها الجيش السادس . ومن الجدير بالذكر ان جميع القادة في الميدان ، وانا بالذات ، كنا مستمرين في اعتقادنا ، حتى في خلال ايام الانتصارات الواضحة ، ان حركة الخروج من الطوق هي الوسيلة الوحيدة الممكنة لانقاذ الجيش السادس من الابادة المحتومة في النهاية.



صد محاولات انقاذ باولوس ومتابعة الهجوم السوفييتي المضاد

لقد استعاد هتلر ثقته تماماً ، بهذا النصر المؤقت ، ولم يعد يتحدث عن بلوغ ستالينغراد فحسب، بل عن الاحتفاظ بكامل خط نهر الفولغا ، وبدا عليه انه يؤمن بامكانية اعادة انشاء الجبهة كما كانت عليه قبل ان يشن السوفييت هجومهم الكبير. ولهذا صم اذنيه دون سماع جميع التقديرات الموضوعية للموقف ، ولم يستوعب ان هجوماً ضعيفاً جداً ازاء هدف شاسع جداً كان عرضة للانهيار ، إذا لم يسعف بقوات كبيرة ويؤمن تموينه بثبات . ولم يكن بالامكان اقناعه باصدار أمره لاتخاذ تحوطات الامن الاولية الواجب اتخاذها في حالة فشل الهجوم .

وعندما توقف الهجوم على مسافة ثلاثين ميلاً عن ستالينغراد ، ادرك جميع الخبراء في الحال ان تلك هي النهاية ، ما عدا هتلر ، فقد طلب منا أن ننتظر ونرى ، ثم قال: ان التقدم سيستأنف بكل تأكيد. ولم يكن هذا سوى هراء . ففي ٢٣ كانون الاول كان الهجوم قد ألغي نهائياً، وكانت هذه هي اللحظة الاخيرة التي ما زال انقاذ الجيش السادس فيها محتملاً.

الفرصة الاخيرة :

لقد بذلت والفيلد ماريشال فون مانشتاين كل ما في وسعنا مرة أخرى لاقناع هتلر . ولو أن الجيش السادس قد أُعطي الامر بالخروج لأمكنه خرق الطوق المضروب حوله بكل تأكيد ، حيث ان شجاعة اليأس كانت ستدفع الجنود للاستماتة . وهكذا كان يمكن تلافي الكارثة النهائية . الا أن أمر الخروج كان منوطا بهتلر الذي لم نستطع اقناعه بتوقيعه .

لقد قضيت معه بضع ساعات من كل ليلة تقريبا محاولا هدايته ، وكانت مشاهد هذه الجلسات عبارة عن تكرار للمشاهد التي سبق لي وصفها ، ولذلك فانني سأمتنع عن التطرق الى تفاصيلها المتعلقة بالمخاصمات والمشاحنات ، وما نتج عنها من مرارة متبادلة ، إلا انني أود أن أذكر حادثتين تبدوان لي نموذجيتين .

لقد اعتقدت في احدى هاتين المناسبتين انني قد تمكنت من زمام هتلر وقدته في طريق تفكيري لانه قال : « حسناً اذا . سوّد رسالة الى باولس واسأله فيها عن المسافة التي يستطيع الوصول اليها فيما لو أمر بالخروج » . فتنفست الصعداء ، وفي الحال وضعت مسودة الرسالة في حضور هتلر ، لئلا يبدل رأيه ، ثم قدمتها إليه للتوقيع ، فقرأها ، ثم التقط قلما وحشر فيها هذه الكلمات : « على شرط أن تتابع الاحتفاظ بخط الفولغا » . وبدلت هذه الكلمات بوضوح غرض العملية المقترحة وطبيعتها . وفي مثل هذه المناسبات كنت أجد نفسي على عتبة الجنون . وأرسلت الرسالة الى باولس ، على أية حال ، وجاء جوابه في الحال تقريبا . لقد نسيت الرقم الذي أعطاه بالضبط ، الا انني اعتقد انه كان عشرين أو خمسة وعشرين ميلا . ومهما كانت المسافة ، فهي على أية حال أقصر من تلك التي تفصله عن طلائع هوث . وفي المؤتمر الذي انعقد في اليوم التالي ، والذي حضرته مجموعة كبيرة من الضباط قال هتلر : « ليست هناك أية فائدة من وراء هذه الحركة » . فأجبت معارضا : « ولكن ، سيدي نستطيع الوصول اليها فيما لو

أمر بالخروج » ، فأجابني قائلا : « ان قطعاته تستطيع التقدم لمسافة عشرين أو خمسة وعشرين ميلا فقط ، وعليه فليست هناك أية فائدة من وراء هذه الحركة » . فأجبت معارضا : « ولكن ، سيدي الفوهرر ، انك حشرت شرط وجوب استمراره في الاحتفاظ بخط الفولغا » ، فشحب وجهه غضبا ولم يجب . وفي المساء التالي طلبت مقابلة خاصة ، وفيها توسلت اليه أن يسمح بحركة الخروج ، وأشرت الى أن هذه هي فرصتنا الاخيرة اطلاقا لانقاذ المائتي ألف رجل في جيش باولس . فقال هتلر : « هل تستطيع أن تضمن انهم سينجحون جميعا مع كل أسلحتهم ؟ » ، فأجبت : « لا أحد يستطيع ضمان ذلك ، ولكنني أستطيع أن أعدك انهم سيبادون جميعا وتضيع أسلحتهم ما لم يصدر الامر بالخروج حالا » . لكن هتلر لم يرضخ ، ولم يزحزحه عن موقفه وصفي للظروف داخل القلعة المزعومة ، ويأس أولئك الجنود الذين أنهكهم الجوع، وضياع ثقتهم في القيادة العامة ، والجرحى الذين يموتون لافتقارهم الى العناية اللازمة ، والالوف الذين تجمدوا حتى الموت . فلقد كان هتلر منيعا تجاه مجادلات من هذا النوع ، كمناعته تجاه المجادلات الاخرى التي سبق وذكرتها .

لقد كنت آمل ، طالما فشلت كلماتي في تحريكه ، أن اجعله يرى بأم عينيه ماذا كان يحدث في جيب ستالينغراد ، لذلك اقترحت عليه أن نطير معا الى مقر مجموعة جيوش الدون ، حتى يرى على الاقل ماهية الظروف في الجبهة ، فرفض هذا الاقتراح . ثم اقترحت أن تطير مجموعة مختارة من الضباط من ستالينغراد وتأتي الى مقره لتصف له الاحوال استنادا الى معلوماتهم المباشرة ، الا أنه رفض هذا الاقتراح ايضا . وفي الحقيقة لقد كان واضحا انه كان يفضل عدم معرفة ما كان يحدث داخل الجيب بالضبط . وعندئذ أخذت الامور بيدي ، وأرسلت الى مقر الجيش السادس رسالة طالبا فيها ارسال الجنرال هيوب بالطائرة ، وكان هيوب هذا جنرالا يكن له هتلر تقديرا عاليا بصورة خاصة ، ولذلك كانت هناك على الاقل فرصة في امكانية استماع هتلر الى ما سيقوله .

رأيت هيوب توا قبل استقباله من قبل هتلر ، وسألني فيما اذا كان عليه أن يخبر القائد العام بالحقيقة ، وظهر لي انه كان قد سمع بالشائعات الدائرة آنذاك ، والتي مفادها ان هتلر لا يمكن أن تقال له الحقائق . فأكدت له ان الحالة ليست كذلك ، وان من يخبره بالحقيقة يجازف في تحمل غضبه والتعرض للمهانة ، وهي مجازفة لم يستطع مواجهتها عدد من الاشخاص . ثم قلت لهيوب انه لم يسمح له بقول الحقيقة الى هتلر فحسب بل ان قولها يعتبر من صميم واجبه .

وعندما ذهب الجنرال هيوب لرؤية هتلر ، بادره الدكتاتور كعادته ، بمحاولة ربح زائره الى جانبه ، وقال له انه يعرف الظروف البالغة الصعوبة التي سادت داخل القلعة ، ومضى قائلا : انه مع ذلك قد اتخذ التدابير الضرورية ، وسوف يكون هناك تحسن في القريب العاجل ، وبقى هتلر يتكلم بعض الوقت محاولا بطريقته أن يشل أية حجة قد يطرحها هيوب ، وعندما سمح لهيوب أخيراً أن يتكلم ، أخذ هذا يصف الموقف بطريقة واقعية وواضحة

وجدية ، وليس من قبيل المبالغة القول انه كان يتوسل من أجل حياة الجيش في ستالينغراد . إلا أن هتلر بقي غير متأثر ، وعندما أدرك هيوب انه لم يكن لوصفه التصويري أي تأثير على هتلر ، اخذ يزداد حَرارة أكثر فأكثر . لقد كان هيوب رجلا صريح العبارة . وفي النهاية قال : « لقد فشل النقل الجوي ، ولا بد من القاء اللوم على شخص ما ، ويا سيدي الفوهرر لماذا لا تعدم أحد جنرالات سلاح الطيران ؟ فحتى الآن لم يُعدم الا جنرالات الجيش بسبب أخطائهم ، ولقد حان الوقت الذي يجب أن تعطي فيه القوة الجوية جرعة من الدواء نفسه » .

كانت هذه الملاحظة شديدة الوقع جدا على هتلر (وفيما بعد سمعته يلمح لغورنغ : لقد سألني لماذا لا أعدم جنرالا من سلاح الطيران ، ولعمري هذا هوالشيء الذي علي أن أفعله) وأنهى المحادثة بالتعليق التالي :

«لدي معلومات مضبوطة عن القلعة وعن مشاكلها ، وفي الواقع ، ليس هناك من يستطيع التوسل بقوة أكثر مما يفعل رئيس هيئة أركانى بالذات في سبيل ستالينغراد » . وهكذا لم تحقق زيارة هيوب أي شيء عدا عن اعادة التأكيدات الاعتيادية ،الفارغة. وكانت نتيجتها الوحيدة عبارة عن تشكيل هيئة أركان جوية خاصة تحت رئاسة الفيلد ماريشال ميلش للسيطرة وتوجيه عملية النقل الجوي الى ستالينغراد . ولكن هذا الاجراء لم يثمر الا تغييرا طفيفا ، حيث ان التدابير الجديدة لم تأت بعد فوات الأوان فحسب ، بل ان المهمة التي أُلقيت على عاتق القوة الجوية الالمانية في ابقاء جيش بكامله ممونا في فصل الشتاء كانت فوق طاقاتها ، كما أفاد بذلك الكثير من ضباط سلاح الطيران .

الموقف في أواخر كانون الأول :

هكذا اقترب عام ١٩٤٢ من نهايته، وأفاد البيان الحربي للقوات المسلحة ان هجمات قوية قد شنت من قبل قواتنا في منطقة ستالينغراد . والحقيقة ان الموقف قد تطور بصورة مستمرة في غير صالحنا ، حيث اصبحت مجموعة جيوش الدون غير قادرة على مقاومة الضغط السوفييتي ، وأجبرت جبهتها على التراجع الى الخلف . أما جيش البانزر الرابع فلم يتمكن من الاحتفاظ بالمواضع التي وصل اليها في ٢١ كانون الاول ، وتباعدت المسافة الفاصلة بين قواته الامامية والمراكز الخارجية للجيش السادس ، وأصبحت تزيد على ستين ميلا مرة اخرى . ومدد السوفييت هجومهم الشتوي بعيدا جدا الى الشمال الغربي ، وهاجموا الجيش الايطالي المندحر الذي شغل القاطع الواقع بين الرومانيين والهنغاريين ، وأصبح الهنغاريون الآن ايضا في خطر . وساعدت هذه التطورات كلها في تضخيم المعضلة اليائسة للجبهة الرئيسية في الجنوب .

لقد تردى الموقف في القلعة ايضا ، مع ان السوفييت لم يقوموا حتى الآن بأي هجمات رئيسية ضدها . فلقد كان النقل الجوي اليها غير كاف بالمرة ، وأصبح النقص أكثر حدة شيئا

فشيئا ، وأنقص معدل استحقاق القطعات من الارزاق مرة اخرى ، حتى أصبح غير كاف للبقاء على قيد الحياة لاي مدة من الزمن . ومع ذلك فان تقليصا آخر في الاستحقاق سيكون أمرا لا مفر منه في القريب العاجل . لقد كان فشل هجوم جيش البانزر الرابع قد ثبط معنويات كل من القادة والقطعات داخل الجيب ، وزاد في الطين بلة أنه قد أدخل في روعهم أن تحريرهم آت لا ريب فيه ، فخاب فألهم وأسقط في يدهم . أما الاحوال المؤلمة داخل الطوق فلا يمكن وصفها ، على الاقل من قبل شخص لم يكن هناك . ولم يبق من الذين كانوا هناك على قيد الحياة ليقول الحقيقة الا القليل من الاشخاص[1] .

لقد عنيت أن يبقى هتلر مطلعا تمام الاطلاع على مجريات الامور ، بحيث لا يغيب عنه شيء ولا يخفى أي تفصيل . ولكنه بدا غير متأثر اطلاقا بالمأساة المتراكمة ، فقد تمسك برأيه الاصلي ظاهريا ، مدعيا باستمرار ان قراره للاحتفاظ بستالينغراد كان الرأي الاصوب بالنسبة الى الظروف . أما الاسباب التي قدمها لتزكية نفسه فكانت : « إن الجيش السادس باحتفاظه بستالينغراد قد جمد تشكيلات سوفييتية ضخمة ، وهكذا منع العدو من القيام بعمليات على نطاق واسع في مكان آخر . ولهذا كان باستطاعتنا إيجاد جبهة جديدة مستقرة » . أما جوابي على هذه الحجج فكان كما يلي :

« اذا كان السوفييت يديرون عملياتهم بصورة صحيحة ـ وهنا لا بد لنا أن نفترض أنهم يفعلون ذلك ـ فانهم سيتركون الحد الادنى من فرقهم لتطويق جيش ستالينغراد ، ولن يهاجموا القلعة أبدا في المستقبل المباشر ، وانما هم سيمضون في الاندفاع غربا بالقسم الاعظم من قواتهم . وهكذا سيضطر جنودنا في ستالينغراد إلى قبول مصيرهم المحتوم حتى بدون القتال في معركة ، وسيقعون بكل بساطة في يد العدو كفاكهة ناضجة » .

ستثبت الأحداث ان تلك التنبؤات كانت صحيحة . لكن هتلر فضل المضي في تشجيع القطعات المطوَّقة حتى بعد أن فشل هجوم جيش البانزر الرابع . فلقد أرسل إليها رسالة بمناسبة عيد السنة الجديدة قال فيها : « أعدكم بأن كل شيء سيتم عمله في سبيل إنقاذكم » . كتبت هذه الرسالة من قبل هتلر شخصيا ، وحملها لي مساعده الاول لنقلها الى الجيش السادس ، لكنني رفضت ذلك لانني لم أكن راغبا في ارسال رسالة كان من الواضح انها غير صحيحة . فقال لي المساعد الاول ان هتلر قد أمر بصورة خاصة أن ترسل هذه الرسالة ، وانهسينقل اليه امتناعي عن ارسالها ، إلا أنني رفضت الرضوخ ، وأخيرا أرسلت الرسالة الى ستالينغراد من خلال

---

(١) للاطلاع على مآسي معركة ستالينغراد ننصح القارىء بقراءة كتاب (ستالينغراد أعظم معركة على وجه الارض) Stalingrad the Greatest Battle On Earth.

(المترجم)

سلسلة اخرى . ومن الجدير بالذكر ، ان هتلر لم يحاسبني على ذلك ، ولم يتطرق الى ذكر هذه الحادثة .

اعتبارا من منتصف كانون الأول بدأت تتجمع عناصر كارثة ثانية مشابهة لكارثة ستالينغراد ، طالما انها كانت وثيقة الارتباط بستالينغراد ، وسوف أتطرق اليها باختصار : لقد كانت تتعلق بالمصير النهائي للقوات الالمانية في القوقاز ، فمنذ وقت طويل ، كان هجومنا الصيفي قد توقف تماما في نهاية أقصى الجنوب من جبهتنا الشرقية ، واستمرت الهجمات المحلية بعض الوقت ، لكن القيادة الالمانية اضطرت أخيرا الى الدفاع في كل مكان من هذا القاطع . والآن أخذ نجاح الهجوم السوفييتي الشتوي في غرب ستالينغراد وجنوبها يهدد كافة موضع القوقاز . وفي وقت مبكر من كانون الأول ، كنت قد جلبت انتباه هتلر الى الخطر المتعاظم هنا ، لكنه رفض استخلاص الاستنتاجات الواضحة من الموقف المتطور ، حيث ان التقدم السوفييتي لمسافة أبعد غرب ستالينغراد في كانون الاول ، وفشل جيش البانزر الرابع وطرده في النهاية ، قد زادا بدرجة كبيرة حدّة الخطر الذي هدد مجموعة الجيوش (أ) في القوقاز .

لم يكن المرء بحاجة الا الى القاء نظرة عجلى على الخارطة ، ليرى ان السوفييت سيصلون قريبا ، إذا ما تابعوا تقدمهم ، الى منطقة روستوف ، وان استيلاءهم على روستوف سيجعل مجموعة الجيوش (أ) بكاملها معرضة الى خطر التطويق الوشيك . وعليه كان من الواجب أن تتخذ تدابير الاحتياط المناسبة ، ولذلك اتفقت مع قيادة مجموعة الجيوش (أ) على تهيئة خطة مفصلة جدا للانسحاب النهائي لجيشيها السابع عشر والبانزر الاول . وتم الاتفاق بدون علم هتلر ، اذ انه لو عرف بذلك لدفعت رأسي ثمنا . لقد كان غرضي هو ضمان تنفيذ عملية الانسحاب فورا عندما يُعطى الامر بالانسحاب . وبالرغم من أن عوامل عديدة كانت محاطة بالشك في ذلك الوقت ، فإن عاملا واحدا لم يكن كذلك ، ألا وهو ان هتلر لو أراد أن يأمر بانسحاب مجموعة الجيوش (أ) ، فانه لن يصدر ذلك الامر الا في آخر لحظة ممكنة ، وعندئذ سيكون لكل دقيقة وزنها ، وأقل تأخير في خلال وضع خطط الانسحاب ، قد يحدد مصير مجموعة جيوش القوقاز .

حالما فشلت محاولة انقاذ ستالينغراد ، قمت بمحاولة ثانية للحصول على تخويل هتلر في اخلاء القوقاز ، الا انه رفض الاستماع حينئذ ، كما فعل الشيء نفسه عندما تطرقت الى هذه المسألة الملحة في مناسبات عديدة اخرى خلال الايام القليلة التالية . وأخيرا ، وقرب نهاية كانون الاول ، ظهر انه سيرضخ ، وكنت معه لوحدي ، فوصفت له الموقف في الجنوب ، ثم أنهيت حديثي بهذه الكلمات : « ما لم تأمر الآن بانسحاب من القوقاز ، فاننا سنواجه قريبا ستالينغراد ثانية » .

لقد أثر قولي هذا في هتلر ، كما يبدو ، واعتقدت انه كان على وشك التردد ، وأدركت أن

علي استغلال هذه اللحظة استغلالا تاما ، ففعلت ذلك واستحصلت منه على موافقة مكرهة ، حيث قال أخيرا : « حسنا جدا . اذهب وأصدر الاوامر » . فغادرت الغرفة حالا ، ولكنني لم أذهب بعيدا ، بل خابرت من صالون هتلر الخاص ، وأعطيت الامر بالانسحاب ، مضافا اليه شرط أن يحرر الى القطعات فورا ، وأن يبدأ في الحال . ولقد دفعني الى ذلك حدسي ، وسرعان ما بررت الحوادث ذلك السبب : فلقد رجعت بالسيارة الى مقري ، واستغرق ذلك أقل من نصف ساعة ، وهناك وجدت ضباط أركاني في انتظاري ، فقد وردت رسالة هاتفية فورية ، وطلب مني فيها أن أتصل بهتلر هاتفياً في الحال ، فالتقطت الهاتف وأنا على علم بما وراء الاكمة ، وطلبت ايصالي بهتلر ، فجاء صوته وهو يقول :

« لا تفعل أي شيء في الوقت الحاضر بخصوص الانسحاب من القوقاز ، وسنناقش الموضوع غدا من جديد » .

كانت هذه طبعا تعني الحلقة الاولى من سلسلة طويلة من التأجيلات ، حتى يفوت الاوان مرة اخرى . ولذلك قلت له : « سيدي الفوهرر ، لقد فات الأوان ، لأنني أرسلت الأمر من مقرك ، ولقد وصل الى قطعات الجبهة وابتدأ الانسحاب . فاذا ما أُلغي الامر الآن ، فسيكون الاضطراب فظيعاً ، ولا بد أن أطلب منك تجنب ذلك » . فقال هتلر بعد تردد : « حسنا جدا ، اذا سنترك الموضوع عند هذا الحد » . وهكذا نجحت في انقاذ جيش البانزر الاول والجيش السابع عشر من المصير الذي أحاق بالجيش السادس ، وستثبت الحوادث القادمة ان هذه كانت في الواقع آخر لحظة ممكنة لاجراء انسحاب ناجح من القوقاز ، لذلك لم تذهب جهودي ، هنا على الاقل ، عبثا .

السوفييت يطلبون استسلام ستالينغراد :

لو طلب مني أن أذكر التاريخ الذي حدد بداية النهاية لجيش الجنرال باولس السادس ، فسأقول انه في ٨ كانون الثاني سنة ١٩٤٣ . ففي هذا التاريخ أرسل السوفييت رسولاً الى داخل « القلعة » ، وطلبوا بصورة رسمية استسلامها . ومن وجهة نظر اخرى ، فان مصير الجيش السادس كان قد حدد حالما تم تطويقه ومنع من القيام بحركة خروج من الطوق . وهذه الحقيقة يعرفها كل من كان في موقف يؤهله للحكم على الحقائق ، ما عدا هتلر الذي أعماه عناده . ومن الناحية الاخرى فان الشعب الالماني لم يُسمح له بالاطلاع على حقيقة الموقف ، وأخفت القيادة العليا عنه المصير المحتوم للجيش السادس ، حتى قبل حلول النهاية بقليل ، ولسوف أتطرق الى ذكر المزيد عن هذه المسألة فيما بعد .

ابتدأ السوفييت مهاجمة محيط « القلعة » خلال الايام الاولى من كانون الثاني . ويحتمل ان القيادة العليا السوفييتية اعتقدت ان مجموعة جيوش الدون قد دُفعت مسافة كافية الى الوراء ،

وأن بالامكان الآن التفرغ للقضاء على جيب ستالينغراد ، بدون أي تدخل من قوات المانية اخرى . أما لماذا قرر السوفييت شن هجومهم على القلعة في ذلك الوقت ، بدلا من انتظار الجيب لينهار من تلقاء نفسه وبدون أن يتكبدوا أية خسائر من جانبهم ، فهذا أمر لا يعرفه سوى الجنرالات السوفييت أنفسهم . ويحتمل انهم كانوا متأثرين باعتبارات ثلاثة : الاعتبار الاول هو ان عملياتهم المقبلة ستتعرقل بصورة خطرة اذا لم تتم لهم السيطرة على مركز المواصلات المهم الذي تشكله ستالينغراد . أما ثاني الاعتبارات فهو انهم ربما أدركوا ان الانسحاب الطوعي من القوقاز قد قضى على امكانية عزل وتطويق مجموعة الجيوش (أ) ، وثالثا وأخيرا لا بد ان استخباراتهم قد أعلمتهم بأن المخزون من مواد التموين داخل القلعة قد استهلك تقريبا ، وأن النهاية أصبحت قريبة . ان هذا الاعتبار الاخير يبدو أكثر التفسيرات احتمالا ، وعلى أية حال ، فان القيادة السوفييتية قررت ان الوقت قد حان لابادة الجيش السادس ، ولكنهم قبل أن يشنوا هجوما عاما شاملا حاولوا الحصول على استسلام ذلك الجيش بدون مزيد من سفك الدماء .

في ٨ كانون الثاني دخل رسلهم الى « القلعة » ، حاملين معهم طلب الاستسلام الموجه الى الجنرال باولس والموقع من قبل الجنرال الروسي القائد لجبهة الدون . وكان طلب الاستسلام عبارة عن بيان مطول وصف فيه رئيس الاركان الروسي الموقف اليائس للجيش السادس المطوق ووعد : اذا ما استسلم الجنود فستضمن لهم الحياة والطمأنينة والعودة الى المانيا أو الى أي بلد آخر جاءوا منه حالما تنتهي الحرب . وانتهى البيان بتهديد الجيش السادس بالابادة اذا لم يستسلم الآن ، وأشار انه في حالة رفض هذا العرض ، فان قائد الجيش السادس سيتحمل مسؤولية أحداث المستقبل . وحدد البيان وقتا للاجابة هو : الساعة ١٠,٠٠ من ٩ كانون الثاني ، ١٩٤٣ .

اتصل باولس بهتلر في الحال وطلب منحه حرية العمل ، فرفض هذا الطلب فورا وباقتضاب . وانه لمن الصعب معرفة كيف كانت حالة هتلر الذهنية في ذلك الوقت ولكنني سأحاول شرحها كما رأيتها .

لقد كان ، كالعادة ، شديد القناعة وبدا في الظاهر واثقا ، لا بل متأكدا من أن معركة ستالينغراد ستنتهي بصورة مرضية . أما أفكاره الحقيقية فقد أبقاها لنفسه ، ولم يتمكن من حدس مشاعره الحقيقية سوى أولئك الذين عرفوه عن كثب وكانوا بصحبته على الدوام يلاحظونه في أمزجته المختلفة . لانه كان يفضح نفسه في مناسبات قليلة بافلات بعض العبارات غير الحذرة . ومع ذلك ، ففي رسالة رأس السنة التي أرسلها الى جيش ستالينغراد ، وعدهم انهم سيغاثون وسيحررون من أيدي العدو . أما بقية القوات المسلحة وكذا الشعب الالماني ، فقد قيل لهم مرة تلو اخرى ان تشبث جيش ستالينغراد وشجاعته كانا ضروريين لابقاء الجبهات الاخرى سليمة ، وان الحالة ما زالت كذلك . لقد قال لرجال الجيش السادس ان دفاعهم الباسل ، سيتوج بالنصر ، ولقد استمر على وجهة النظر هذه عند كلامه معي أو مع الفيلد

ماريشال مانشتاين ، قائد مجموعة جيوش الدون ، ومع ذلك ، فمن المحتمل انه قد اعترف الى الجنرال يودل ، وهو أخلص خلصائه العسكريين ، انه لم يعد يؤمن بإمكانية انقاذ الجيش السادس ، حيث ان الجنرال يودل قال عند محاكمته في نورمبرغ : « انني لاشعر بعطف عظيم على الشاهد ، الجنرال باولس ، لانه لم يكن بامكانه معرفة ان هتلر كان قد اعتبر جيشه في حكم المفقود منذ اللحظة التي ابتدأت فيها عواصف الشتاء الاولى بالهبوب على ستالينغراد » .

من المحتمل ان دواعي الدعاية الصاخبة هذه للاحتفاظ بستالينغراد لم تمثل خلاصة تفكير هتلر ، وزيادة على ذلك فانه كان أسير ايمانه العنيد أنه : حيثما يطأ الجندي الالماني أرضا فانه يبقى هناك . . . لقد قال المرة تلو الاخرى : « انني لست مغادرا الفولغا » . و « عندما يكون القتال ضد السوفييت فلا يمكن أن يكون هناك تفكير في الاستسلام » . وبالاضافة لذلك ، فانه عمل منذ البداية بصورة مباشرة ضد نصيحة قادة مجموعة الجيوش وضد نصيحتي : وهو الآن لا يعترف بأنه قد اقترف خطأ ، وكانت هذه بالتأكيد القاعدة الحقيقية لسلوكه الحالي ، ولكنه كان ، بطبيعة الحال ، أكثر ذكاء من أن يكشف ذلك لجنوده أو للشعب الالماني ، واستفاد من ثوب الدعاية الفضفاض ليستخف بالنتائج ويجردها من معانيها .

قد يكون هتلر أخفى مشاعره الحقيقية عن كل فرد ، حتى أولئك الذين كانوا أقرب الناس اليه . ترى هل شعر بتبكيت الضمير ؟ وهل أدرك مدى الكارثة التي كان مسؤولا عنها ؟ هل أشفق على أرواح مئات الالوف من الجنود الذين حكم عليهم، اعتباطا، بالموت أو الاسر !؟ . . هل عانى من آلام تقريع الذات ؟. انني اعتقد ان الجواب عن هذه الاسئلة لا بد أن يكون بالنفي ، لانه افتقد ذلك النوع من الإحساس الذي يمكّن الانسان من مشاركة الآخرين آلامهم ، هذا بالرغم من تكراره ، الى حد الإزعاج ، انه حارب في الخنادق إبان الحرب العالمية الاولى ، الامر الذي يتيح له أن يشعر بشعور الجنود في الجبهة في الحرب العالمية الثانية دون أن يشفق عليهم . لقد تطرق بتكرار الى الحديث عن « الليالي بدون نوم » التي قال انه أمضاها . ان ملاحظات من هذا القبيل كانت نموذجا لرغبته غير البريئة في التأثير على الجنود ، وهذا الخلق يفسر لماذا رفض بقساوة الآن الطلبات التي قدمت من قبل قائد مجموعة الجيوش ومن قبلي بالذات ، والداعية الى اعطاء حرية العمل الى باولس. لقد كان جوابه الوحيد على طلباتنا التي أعدنا تقديمها جوابا خشنا وقاطعا « كلا » . وبناء على معرفتنا لتفكيره العنيد ، فقد حاولنا أن نغمس الحبة بالسكر ، ولم نطلب منه أن يأمر بنفسه ، لان ذلك كان سيكون أكثر مما يحتمل . وكل ما طلب منه هو منح باولس حرية العمل بما يراه مناسبا ، وباستطاعة باولس بعدئذ أن يستسلم بناء على مسؤوليته الشخصية . ولكننا لم نتمكن حتى من انتزاع هذا الامتياز من الدكتاتور . وهكذا انقضى الوقت المحدد الذي عينه السوفييت ، ورفض عرضهم لقبول الاستسلام بدون سفك المزيد من الدماء ، وكانت النتائج المظلمة لهذا الرفض عميقة وطويلة الاجل .

الهجوم السوفييتي :

فتحت المدفعية السوفييتية في وقت مبكر من صباح ١٠ كانون الثاني سدودها النارية التي مهدت للهجوم على « القلعة » . وبعد ساعتين ابتدأ مشاتهم الهجوم على الاجنحة الثلاثة : الشمالي والغربي والجنوبي . وكانت هذه هي اللحظة التي كانت تخشاها القطعات منذ زمن بعيد ، وهي في حالتها الراهنة الناجمة عن قلة ذخائرها . وحدث قتال حاد طيلة ذلك اليوم كان الدفاع فيه بطوليا ، وخسر السوفييت عدة دبابات، كما أوقع جنودنا خسائر جسيمة في أرواح القطعات المهاجمة . وفي الوقت نفسه كانت خسائرنا شديدة ايضا . وفي مساء هذا اليوم الاول ، أفاد الجيش السادس بواسطة اللاسلكي ان السوفييت قد توغلوا في الشمال والغرب والجنوب ، وأنه لم يتمكن من سدّ الثغرات التي أحدثها السوفييت في توغلهم ، الامر الذي استوجب ترك أقسام كبيرة من الجبهة الدفاعية ، بتخويل من قيادة الجيش السادس اوبدون تخويل . وأخذ الجيب بالانكماش بصورة مطردة ، واستمر هذا الانكماش عبر الايام القليلة القادمة ، وضاقت المنطقة التي ما زالت بيد الالمان أكثر فأكثر ، بينما ازدادت معاناة القطعات تبعاً لذلك .

وما كاد يحل يوم ١٦ كانون الثاني ، حتى اصبح الجيب لا يزيد عن خمسة عشر ميلاً طولاً في أبعد نقطة ، وحوالى تسعة أميال عمقاً في أعرض محور ، أي انه أصبح الآن يعادل حوالى نصف طوله ونصف عرضه السابقين قبل ابتداء الهجوم السوفييتي . ولعل أعظم خسائرنا خطراً هي ضياع مطار بيتومنك الذي كانت « القلعة » تتمون عن طريقه سابقاً .

لقد خمد الآن تفاؤل هتلر المزعوم ، وكشف البيان الحربي للقيادة العليا الالمانية ، بأمر منه ، وللمرة الأولى ، عن الموقف الخطير الآخذ في التطور . فقد أشار البيان الحربي ليوم ١٠ كانون الثاني الى عمليات محلية فقط من قبل دوريات القتال ، في حين قدم بيان يوم ١٦ كانون الثاني وصفاً « للمعركة الدفاعية ضد القوات المعادية الهاجمة من جميع الجهات » . ومع هذا فقد بقي هتلر رافضاً منح باولس حرية العمل التي طالب بها قائد مجموعة الجيوش مراراً وتكراراً ، والتي كنت قد طالبت بها في المحادثات التي أجريتها مع الدكتاتور . ولقد كان رده على ذلك عبارة عن اعادة مملة لما أصبح عنده نظرية مفضلة . اذ كان يقول دائماً : « كل يوم يصمد فيه الجيش السادس،عبارة عن عون رائع الى بقية الجبهة الشرقية.ان الجيش السادس يشغل الآن قوات سوفييتية كبيرة ويوقع بها خسائر جسيمة » .

ولكن المأساة في ستالينغراد كانت تقترب من نهايتها ، وبالنسبة الى الجندي العادي الذي كان يقاتل هناك ، فإن كل يوم يمر كان يجلب اليه جرعة جديدة من الجوع ، والحاجة ، والتقشف ؛ والصعوبات من كل نوع : برودة قاسية ، شعور بالوحدة ، ضياع الأمل ، خشية من الموت جوعاً أو برداً ، وخوف من الاصابة بجرح حيث الجرح قاتل في هذه الظروف . لقد كان كل واحد من أولئك الرجال ، بناء على مزاجه ، شجاعاً ، أو يائساً ، أو غير مبال . ولكن

لا أهمية لمشاعره طالما انه لا خيار له سوى متابعة القتال دونما راحة وبدون توقف . وهو يعرف ان الظروف المروعة التي عاشها لا يمكنها إلا أن تزداد فظاعة ، ان بقي على قيد الحياة . . لقد كانت الحياة داخل الجيب كابوساً لا نهاية له .

كانت الأحوال بالنسبة الى الضباط من ذوي الرتب الصغيرة والمتوسطة لا تختلف في شيء عن أحوال الجنود ، بل لعلها أسوأ منها بسبب مسؤ ولياتهم عن أرواح الاشخاص العاملين تحت قيادتهم ، وعدم مقدرتهم على مساعدتهم ، ومعرفتهم بانعدام أي أمل في محاولة تنفيذ الأوامر التي استلموها بقطعات جائعة وذخيرة غير كافية . كل هذا كان مقروناً بنهاية متوقعة ومستخلصة منذ زمن بعيد .

أما الأحوال بالنسبة الى القادة الاقدمين وضباط أركانهم ، فكانت في بعض الاوقات أحسن نوعاً ما ، ظاهرياً . وفي مقابل ذلك كان عليهم أن يتحملوا ضغط مسؤ ولية اعظم ، ولم يكن بامكانهم تشجيع أية تصورات كاذبة تتعلق بالمسألة كلها . ولقّد أدركوا حالاً ، أو بعد حين ، بناء على مزاج كل منهم ورتبته ، سخافة الأوامر التي استلموها من هتلر والطبيعة الخادعة للوعود التي وعدهم بها . وكانت النهاية المرة التي راح ينتظرها أولئك الضباط والجنود تستند إلى يقين حسابي ، ولذلك سبّب لهم كل أمر استلموه صراعاً عاطفياً : هل يجب أن ينفذوه أم لا ؟ وكان عليهم أن يمرروا أوامر اعتبروها هم أنفسهم أوامر خاطئة . وفوق هذا كله ، كان عليهم أن يتظاهروا بالثقة والشجاعة أمام مرؤ وسيهم .

انقطع التموين عن القطعات المحاربة بصورة تامة تقريباً ، وافتقد الجنود الغذاء والعتاد والوقود والتجهيزات باختلاف انواعها ، وكان الشيء الذي يُفقد يضيع نهائياً ، وليس في الامكان تعويضه بغيره أبداً . وأصبح النقصان في كل شيء يزداد حدة مع كل يوم يمر ، وأطلقت عدة بطاريات من المدفعية آخر قذائفها ، ولما انتهت من ذلك دمرت مدافعها ، وأضرم السائقون النار في آلياتهم عندما فرغت خزاناتها من الوقود . وهكذا ذابت تشكيلات بكاملها من الوجود ، واستهلكت النيران الجيش السادس ، حتى أصبح كل ما تبقى منه مجموعة من الحطام .

لم يكن للجرحى أي مأوى أو أسرة أو دواء ، واختفى كل شيء حتى الضمادات . أما الاطباء والجراحون فلم يكن بوسعهم القيام بأي عمل ، بعد أن فقدوا كل ما يشتغلون به . واستمرت هذه الحالة أياماً طوالاً ، وكانت تنتقل من سيء الى أسوأ ، ولم يبق الآن سوى سؤ ال واحد : الى متى يمكن ان تستمر المعركة ؟

تمكن السوفييت بين ١٦ و٢٤ كانون الثاني من شق الجيب الى شقين . وكان الاتصال بين الشقين يتم بواسطة اللاسلكي فقط ، وخسرنا آخر قطعة أرض صالحة لهبوط الطائرات الاضطراري . وفي ٢٣ كانون الثاني أو ٢٤ كانون الثاني أقلعت آخر طائرة من الجيب متجهة

نحو الغرب . ومنذ ذلك الحين انعزلت بقايا الجيش السادس عن العالم الخارجي كلياً ، ولم يكن من الصعب التصور ماذا كان يعني ذلك بالنسبة إلى القطعات المطوقة . لقد ضاع الآن كل رجاء ، وكان الجو السائد آنذاك يتسم بطابع صارم من اليأس . وفي تلك الفترة كانت مواد التموين تلقى على شقي الجيب من الجو ، وكانت قليلة في مجموعها ، ومع ذلك فقد سقط الكثير منها على خطوط العدو . وفي بعض الاحيان كان من غير الممكن ايجاد المواد المسقطة في المساحات الصغيرة التي لا زالت بيد الالمان ، وذلك لضياعها تحت أكوام الثلج العميقة .

وفي ٢٤ كانون الثاني أرسل السوفييت رسلهم مرة اخرى . وكانوا يأملون ان يستسلم الالمان فوراً . وقرر باولس ان يطلب من هتلر مرة أخرى السماح له بالاستسلام ، وفعل ذلك في نفس هذا اليوم بواسطة اللاسلكي ، وشرح بكل صراحة لماذا لا يمكن الدفاع عن الموضع الآن ، وقال ان القيادة المركزية لم تعد ممكنة ، حيث ان الجبهة قد تقطعت أوصالها وانتشرت علامات الانحلال في كل مكان . أما القطعات فقد افتقدت الطعام والعتاد ولا يتيسر للجرحى أي دواء أو ضماد . وانتهى باولس الى القول ان متابعة المقاومة أمر غير معقول ، طالما ان الانهيار التام للقوات التي تحت امرته بات أمراً لا مرد له . وأخيراً طلب من هتلر أن يسمح له بالاستسلام فوراً لانقاذ الأرواح المتبقية على الأقل .

لقد دعم الفيلد ماريشال (فون مانشتاين) هذا الطلب ، وكذلك فعلت أنا ، هو بالكتابة وأنا بالقول . وكانت محاولتنا المزدوجة هذه عبارة عن تكرار للطلب الذي كنا نقدمه طيلة الاسبوعين الماضيين .

بقي هتلر متصلباً ، ولم أستطع كما لم يستطع قائد مجموعة الجيوش زحزحته عن موقفه بوصة واحدة . ولم تؤثر فيه أبداً الحقائق المظلمة التي أوردها باولس في تقريره . . . الارقام التي ذكرها عن الموتى والجرحى . . . حالة تموين الطعام والعتاد . . . كل هذه لم تؤثر فيه اطلاقاً . ولم يؤثر فيه حتى الوصف الدرامي من قبل شاهد عيان للجحيم الذي كان مندلعاً بالقرب من ستالينغراد . . . ذلك الجحيم الذي كان يزداد قسوة في كل يوم . لقد بقي هتلر بارداً ازاء كل ذلك ، ولم يستطع أي شيء اقناعه أو جعله يغير وجهة نظره . وبكل بساطة ردد قوله المأثور : « كل يوم يصمد فيه الجيش السادس يسدي فوائد جمة الى بقية الجبهة الشرقية » .

أرسل هتلر جوابه بخصوص طلب الجنرال باولس بدون أي تأخير ، ومنع بذلك الجواب أي استسلام ، وأمر الجيش السادس بمتابعة القتال الى آخر طلقة وآخر جندي ، ولذلك رفض باولس العرض السوفييتي الثاني لايقاف اطلاق النار واعلان الاستسلام .

وبعد ذلك بقليل ، أرسل هتلر رسالة ثانية الى الجيش السادس استخدم فيها بسخاء تعابير منمقة تتعلق بـ « الدفاع البطولي » و « انقاذ العالم الغربي » . وهكذا انتهى كل شيء . أما خارج الجيب فقد استمرت الحرب من أجل الحياة أو الموت .

النهاية :

وسع السوفييت جبهة هجومهم الشتوي الى الشمال والى الغرب من الجيب ، وهوجم الجيش الهنغاري الكائن الى الجنوب من الايطاليين وتم دحره . ولاقى الجيش الالماني الثاني الكائن الى الشمال منه المصير نفسه . وبقي الموقف حرجاً في الجنوب ، ولم يبق لنا سوى شعاع واحد من الأمل بخصوص انسحاب قواتنا من القوقاز في الوقت الملائم . وأنجزت هذه الحركة بنجاح كامل بالرغم من البدء بها في آخر لحظة ممكنة . وتبرر كلياً قرار الامر بالتراجع . أما الفرق التي تحررت من جراء ذلك التراجع فقد أصبحت متيسرة للعمل في مكان آخر . وفي هذه الآونة لم يكن مقر هتلر العام قلقاً بخصوص الحوادث في الجبهة الشرقية فحسب ، بل انه كان مغتماً للاخبار غير السارة القادمة من شمال افريقيا ، فقد استولى البريطانيون على طرابلس ، وغدا جيش روميل أمام خطر جدي .

في هذا الوقت ألقى ماريشال الرايخ (غورنغ) عدة خطب تكلم فيها عن المعركة البطولية الناشبة جوار الفولغا ، ولم يبد عليه انه قد أدرك مدى مسؤوليته عن مأساة ستالينغراد ، ناهيك عن مسؤولية هتلر . وظهر وكأنه قد نسي وعده الرسمي في تموين الجيش السادس من الجو . وها هو الآن قد انتقل الى الاحتفال بعيد ميلاده بطريقته الاعتيادية وسط الابهة والتبذير ، وجاء هذا الاحتفال في الوقت الذي خفضنا فيه ، أنا وضباط أركاني ، استحقاقنا اليومي من الأرزاق الى المستوى الذي كان يصرف الى قطعات باولس . لقد فعلت ذلك كتعبير بسيط عن رفقة السلاح .

وفي جو من التوتر والرعب ، أصبح الشعب الالماني الآن عارفاً بحقيقة الكارثة المتعاظمة في الشرق ، وراح بيان القيادة العليا يحضر اذهانهم بعناية فائقة لتقبّل الاخبار السيئة القادمة وحاولت أجهزة الدعاية الرسمية اخفاء مدى الكارثة وطبيعتها ، وراء وصف للمعركة البطولية التي يخوضها الجيش السادس .

أما في الجيب ، فقد كانت النهاية المظلمة تقترب من نهايتها بسرعة وبدون رحمة . ورفض أحد قادة الفرق اطاعة أوامر رؤسائه ، وقام باستسلام منفرد الى السوفييت بغية انقاذ حفنة الرجال الباقين تحت إمرته ، وهربت احدى الوحدات الرومانية بكامل عددها والتحقت بالعدو مع أسلحتها وكافة تجهيزاتها . أما الضباط الأقدمون الذين لم يعد بامكانهم تحمل الاجهاد ، فقد وضعوا نهاية لحياتهم اما بالانتحار أو بالوقوف في الصف الامامي من الجبهة واطلاق النار على السوفييت المتقدمين حتى تضع احدى الطلقات السوفييتية نهاية لمحنتهم . وطلب بعض الضباط الصغار والجنود ان يسمح لهم آمروهم بالقيام بمحاولة اختراق الخطوط السوفييتية في الطوق والوصول الى الجبهة الالمانية الرئيسية ، فسمح لكثير منهم بالانطلاق في هذه الرحلة الخطيرة . وفي آذار وصل أحد العرفاء إلى الخطوط الالمانية بعد أسابيع من المشاق التي لا تصدق ، إلا أنه لم

يعش طويلاً بسبب الجوع والآلام التي كان قد عاناها في خلال رحلته . ومات داخل الجيب رجال عديدون من جراء الجوع والبرد .

أخذ شقا الجيب في الضمور بصورة مطردة ، ثم قُطع أحد الشقين الى قسمين آخرين ، وهكذا تحول الجيب الى ثلاث مجموعات من القطعات الالمانية المحاصرة . المجموعة الأولى وتقع في الشمال تحت أمرة الفيلق الحادي عشر ، والمجموعة الثانية في الوسط تحت أمرة فيلق البانزر الأول ، والمجموعة الثالثة في الجنوب تحت قيادة الجنرال باولس نفسه . وبطبيعة الحال فإن هذا الوضع الجديد جعل الدفاع أكثر صعوبة من ذي قبل ، وسهّل في الوقت نفسه مهمة السوفييت الهاجمين ، وعجّل في حلول النهاية . وأخبر باولس بكل هذا الذي جرى بتقرير له في ٢٨ كانون الثاني ، وأضاف قائلاً ان مقر الجيش السادس يتوقع حدوث الانهيار النهائي في الأول من شباط .

لقد رفض هتلر وبصورة عمياء حتى في هذا الوقت ، الاستماع الى الفيلد ماريشال مانشتاين أو الاستماع إلي عندما طلبنا منه من جديد أن يمنح الجنرال باولس حرية العمل ، وأرسل بدلاً عن ذلك رسالة لاسلكية طويلة الى الجيش السادس ، مليئة بالتعابير الرنانة تتعلق بـ « الصراع البطولي » و « دخول صفحات التاريخ » . وأمر هتلر بسيل من الأوسمة والترقيات الى الجنود المتجمدين والجائعين والقتلى . وكان يأمل من ذلك حث الرجال على الاستمرار في القتال . ورقي الجنرال باولس الى رتبة فيلد ماريشال ، وكان هذا هو مجمل المساهمة التي قدمها هتلر في الساعات الختامية من معركة ستالينغراد . وأعطي الشعب الالماني تلميحات مفادها ان النهاية تقترب . وتطرقت القيادة العليا في بيان لها في ٢٧ كانون الثاني الى « تلك العناصر من الجيش السادس ، التي ما زال في مقدورها أن تقاتل » . وبطبيعة الحال فإن تعابير كهذه يمكن ادراك معناها حتى من قبل المدنيين الذين يجهلون اللغة العسكرية تماماً . أما أرباب الدعاية الرسمية فقد تابعوا ، بناء على أوامر مستلمة ، التأكيد على الصور البطولية للمعركة السائرة نحو الخسارة . وحاز ماريشال الرايخ قصب السبق في هذا الباب ، فلقد أرسل رسائل خاصة إلى الجيش السادس بواسطة اللاسلكي ، وامتلأت صدور الجنود مرارة عليه بسبب معرفتهم حقيقة دوره المشؤوم في مأساتهم الهائلة ، فقد تكلم في خطبة له في ٣٠ كانون الثاني عن « أعظم وأكثر المعارك بطولية في جميع صفحات تاريخ العنصر الالماني » ، وقارن جنود ستالينغراد بأولئك الابطال اليونانيين الذين قاتلوا حتى آخر جندي في ثرموبيلاي . ترى هل خطر بباله انه بهذه المقارنة انما كان يشطب على رجال الجيش السادس كما لو كانوا قد ماتوا ؟ لقد سمع كلماته عدد كبير من الجنود داخل جيب ستالينغراد ، واستخلصوا هذه النتيجة ، كما عرفوا أن الرجل الذي أطلق تلك الكلمات ، كان نفس الرجل الذي قال ، بصفته القائد الأعلى للقوة الجوية الالمانية : ان الجيش السادس يمكن أن يمون من الجو ، وأقسم أنه سيبر بوعده .

أخذت الأيام الأخيرة تسير وفق المجرى الذي سبق وتنبأ به الفيلد ماريشال باولس في

تقريره يوم ٢٨ كانون الثاني . وفي ٣١ كانون الثاني أرسل الفيلد ماريشال رسالة عن طريق الراديو الى القيادة العليا أفاد فيها ان الانهيار النهائي يمكن توقعه خلال الأربعة والعشرين ساعة القادمة . وفي ذلك اليوم استسلم الجيب الأوسط ، ووقع الاحياء من الضباط والجنود أسرى ، ثم استسلم الجيب الشمالي في وقت مبكر من يوم ٢ شباط ، وفي حوالى المساء من اليوم نفسه استسلم الجيب الجنوبي ، وأذاع كل من الجيوب الثلاثة النهاية المقتربة بواسطة اللاسلكي . وفي كل مرة انتهت الرسالة الوداعية اللاسلكية بجملة : « عاشت المانيا » .

الخاتمة :

لقد أدى جنود الجيش السادس واجبهم حتى النهاية ، بالرغم من الأوامر الخرقاء التي استلموها ، بل وبالرغم من حِقيقة ان عدداً منهم، إن لم نقل غالبيتهم ، كان يعرف مدى سخف تلك الأوامر ، وكانت معركتهم فظيعة حقاً . ومع أنهم كانوا ضعفاء من شدة الجوع وانصاف متجمدين من البرد ، وبالرغم من انعدام الرجاء عندهم ، فلا ذخيرة ولا غذاء ولا وقود عندهم تقريباً ، ومع كل هذا تمكنوا من خلق صعوبات جمة للقادة السوفييت ولقطعاتهم ، وكبدوا العدو خسائر جسيمة للغاية . لقد ثبتوا ضد قوات متفوقة عليهم بالسلاح والتجهيزات واستمروا بثباتهم منذ ١٠ كانون الثاني حتى ٢ شباط ، وهذا يعني أكثر من ثلاثة أسابيع كاملة . ان هذه المأثرة لوحدها ذات دلالة كافية . وعندما يتذكر المرء الظروف الجسيمة والنفسية والمناخية التي قاتلوا فيها ، لا يسعه إلا أن يثمّن مأثرتهم ضعفي أو ثلاثة أضعاف قيمتها الحقيقية . ان الكلمات لا تكفي لوصف التضحية والاخلاص اللذين أظهرهما أولئك الرجال . وفي السنوات القادمة ، وعندما تتلاشى العواطف الحزبية لهذه الايام ، سوف تذكر هذه الحقيقة ، وسيقدم التاريخ كل الثناء الى أولئك الجنود الذين لم يفكروا إلا بواجبهم ، والذين ساروا به واحتضنوه حتى النهاية .

لا يجب أن يتأثر حكمنا على أولئك الرجال بحقيقة أن تلك المعركة كانت بلا جدوى أساساً ، وحقيقة ان العالم قد صب لعنته على الرجل الذي أعطى الأمر بالرغم من جميع اعتراضات مستشاريه العسكريين الاقدمين . ولنر الآن كيف كان رد فعله بعد الكارثة .

عندما علم ان كل شيء قد انتهى ، اجتاحته نوبة حادة ، فهاج وماج وصب جام غضبه على الماريشال الذي رقي حديثاً والذي فضل الاستسلام على الموت ، وقال انه لم يكن يتوقع ذلك ، ولو فعل لما رفع الجنرال باولس الى رتبة فيلد ماريشال . كان هذا رد فعله الوحيد ، أو على الاقل ، كان هذا هو رد الفعل الذي كشف عنه امام الضباط الموجودين حوله .

وما عدا ذلك فإنه لم يظهر أية علامة تنم عن أسفه لعناده السابق ، كما انه لم يشعر بأية حاجة لتأنيب نفسه لما قد حدث ، بل بقي بنفس الحجج التي طرحها كخط رسمي للدعاية : لقد كان من الضروري أن يضحي الجيش السادس بنفسه ، حتى يكون بالإمكان بناء

جبهة جديدة ، وان المناخ السيء ، أو بمعنى آخر ، ظروفاً خارجة عن سيطرته ، قد أوقفت القوة الجوية عن المضي في تموين الجيش السادس . . لقد كان يتمتع بذاكرة فريدة ، ومع ذلك فقد راق له أن ينسى انني أنا بالذات كنت قد حذرته من احتمال العمل في ظروف جوية سيئة ، استناداً إلى تجاربي الخاصة في الجبهة خلال الشتاء السابق .

لم يعترف هتلر أبداً انه الشخص الذي يستحق اللوم، أو انه ارتكب خطأ في تقدير الموقف . وعندما تستمع اليه ، فهو دائماً وابداً على حق . وإذا ما فشلت خططه ، فذلك يعود دائماً إلى عامل لم يكن في الحسبان أو لا يمكن التكهن به ، أو يقع خارج نطاق سيطرته ، أو يعود الى عدم كفاءة أولئك الذين نفذوا الأوامر التي وقعها بنفسه .

لقد بدا غير متأثر اطلاقاً بمأساة ستالينغراد الدموية ، ولا بالآلام القاسية لمئات الالوف من جنوده ، أو التعاسة التي حطت على عوائلهم المجهولة . ولقد نفض عن نفسه ، كما يبدو ، كل غبار الكارثة ، وراح يهيىء باندفاع وحماسة خططاً جديدة للمستقبل ، وقال : « سنبعث الجيش السادس الى الحياة من جديد ! » هذا هو حله . ولكن حتى لو أمكن اطلاق اسم « الجيش السادس» على وحدات جديدة، فان الجيش السادس لا يمكن بالطبع أن يخلق من جديد أبداً. لقد مات الجيش السادس في ستالينغراد ، ومات معه جزء كبير من الثقة التي كان الجيش الالماني قد وضعها في قائده العام، حتى ذلك الوقت ، ولاجل أن أكون اكثر دقة أقول إن هتلر قتل الجيش السادس بعناده.

قلت لهتلر في تشرين الثاني ، اننا اذا ما خسرنا ربع مليون جندي في ستالينغراد فسينكسر عندئذ العمود الفقري للجبهة الشرقية بكاملها. ولقد ثبتت صحة قولي ، حيث ان ستالينغراد كانت نقطة التحول للحرب كلها .

كانت هذه راحة باردة حقاً بالنسبة للمأساة التي حدثت . فلقد كافحت طيلة أشهر بكاملها حتى أجعل هتلر يرى الأمور بوضوح ، ويصل الى القرار الصحيح ، لكنني فشلت ، وعليه فإنني استخلصت نتائج معينة بشأن منصبي كرئيس لهيئة الأركان العامة ، فذهبت الى هتلر وطلبت اعفائي ، فانفعل بشدة وأجاب بخشونة : « ليس من حق الجنرال أن يتخلى عن منصبه » .

٢ ـ بين الحوادث

بقلم : سيغفريد ويستفال

هزت كارثة ستالينغراد الشعب الالماني والقوات المسلحة من الاعماق . ويمكن القول انها أرعبتهم ، حيث لم يحدث أبداً في تاريخ ألمانيا ان لقيت قوة عسكرية بهذا الحجم ذلك المصير المخيف . الا أن طبيعة الحرب الحديثة المتمثلة في الصراع المر من يوم الى آخر ، لم تدع مجالاً واسعاً للتأمل فيما مضى ، ومع ذلك فإن التشكك في مقدرة قادتنا السياسيين والعسكريين أخذ يفصح عنه علناً .

لقد كان العام ١٩٤٣ ، الذي ابتدأ بهذه المأساة الكبيرة ، يضم بين جوانحه مفاجئات مميتة . نعم ، لقد أمكن اعادة الاستقرار الى الجبهة الشرقية رغم خسارة جيش ايطالي وآخر هنغاري وثالث روماني بالاضافة الى الجيش السادس ، وأمكن تلافي خرق سوفييتي على نطاق استراتيجي حاسم ، كما أمكن حتى اعادة الاستيلاء على خاركوف في آذار ١٩٤٣ ، وذلك باعداد وتنفيذ خطة عملية أريبة من قبل الفيلد ماريشال مانشتاين . إلا أن الثغرة التي فتحت بين صفوف الجيش الالماني عندما أبيدت عشرون فرقة من الجيش السادس وكلها تقريباً تشكيلات من الدرجة الأولى ، كانت غير قابلة للرأب ، حتى لو أن جميع الفرق التي ضاعت في ستالينغراد أعيد تشكيلها من جديد .

ما كاد الاستقرار المتأرجح يعود الى الجبهة الشرقية ، حتى ابتدأت الدراما في الجنوب بالاقتراب من نهايتها . في كانون الثاني أخلى رومل طرابلس واضطر الى الانسحاب نحو خط ماريت على طول الحدود الليبية ـ التونسية . وهكذا خسرت ايطاليا كامل امبراطوريتها المستعمرة التي كانت مبعث تفاخرها الشديد . وشن ثعلب الصحراء هجومه الأخير في شباط متوخياً بذلك هدفاً محدوداً ، فتحرك بسرعة عبر القسم الجنوبي من تونس ، وضرب القوات الامريكية التي

فاجأها أثناء تقدمها من شرق الجزائر ، وأفلح في تأخيرها ، ولكنه أُجبر فيما بعد ـ تحت ضغط شديد من الجيش الثامن البريطاني ـ على اخلاء موضع ماريت والانسحاب شمالاً . وفي هذا الوقت اتحد جيش روميل مع جيش أرنيم في تونس الوسطى وشكلا معاً جيش افريقيا الجديد . ولكن سرعان ما صدر الأمر الى روميل بالتخلي عن قيادته ، لأن هتلر لم يكن راغباً في رؤ ية فيلد ماريشال الماني آخر يقع في الأسر بعد باولس . وبعد مزيد من القتال المرير نجحت القوات البريطانية والامريكية المشتركة تحت قيادة الجنرال الكساندر في ايقاع الضربة المميتة الأخيرة بالجيوش الالمانية ـ الايطالية في افريقيا ، في شهر أيار عام ١٩٤٣ . وفي منتصف أيار استسلمت قوات المحور وأصبحت كلها بأيدي الحلفاء ، وفتحت مضائق صقليا من جديد أمام سفن الحلفاء الماخرة بين جبل طارق والسويس .

لقد وقع نبأ الانهيار في تونس ، الذي تسبب في أسر أكثر من ١٥٠٠٠٠ جندي الماني وايطالي وقع الصاعقة على الرأي العام الايطالي ، وتأرجحت حكومة موسوليني ، وأوشكت ايطاليا ، التي لم تتعرض حتى ذلك الحين إلا للقصف الجوي ، أن تصبح ساحة حرب . وتوجهت سبع فرق المانية الى شبه الجزيرة الايطالية في مطلع الصيف لدعم حليفنا. وبالرغم من أن الضرورة العسكرية لهذه الفرق كانت واضحة لدى الايطاليين ، فان موسوليني لم يقبل هذا الاسناد الا مكرهاً لأسباب سياسية داخلية . ومن الجدير بالذكر أن غياب تلك الفرق السبع قد ترك فراغاً مؤلماً في الجبهة الشرقية .

وفي هذا الوقت تقريباً تحول مجرى الحرب في البحر الذي كان حتى ذلك الحين في صالحنا ، تحولاً حاسماً ، وذلك بظهور الرادار ، وارتفعت خسائرنا في الغواصات ارتفاعاً ينذر بالخطر ، وانخفض معدل غرق بواخر الحلفاء بسرعة موازية لتزايد خسائرنا . وارتفعت باطراد نسبة الهجوم الجوي على مصانعنا ومواصلاتنا وبصورة خاصة على المدن الالمانية ، وكان ذلك الارتفاع يتمثل في ثقل الغارات واستمراريتها . ومن جراء ذلك كانت الخسائر في السكان المدنيين عالية ، وأدى الهجوم الجوي على ميناء هامبورغ لوحده ، في ٢٦ تموز ١٩٤٣ إلى مقتل ٥٥ ألف مدني . واسقطت مقاتلاتنا ومدافعنا المضادة العديد من قاصفات العدو ، إلا أنها لم تكن كافية لايقاف التيار .

أما في الشرق ، فقد اعتبرت القيادة العليا للجيش ان من الضروري ضمان فترة من الهدوء ، حتى يمكن اعادة تنظيم فرق المشاة والبانزر التي خاضت امتحاناً عسيراً . واعتقد هتلر ، من الناحية الأخرى ، أن هذا الوقت لا يسمح بالتوقف ، وكان مصمما بعد الاندحارين في ستالينغراد وتونس أن يحقق انتصارات جديدة ، ولذلك قرر أن يشن هجوماً ضد النتوء السوفييتي الكبير الذي اندفع الى الامام مسافة ستين ميلاً تقريباً غرب كورسك . وكان من المقرر أن تعزل القوات السوفييتية داخل ذلك النتوء بحركة كماشة تقوم بها مجموعة جيوش الوسط ومجموعة جيوش الجنوب .

ابتدأت حركة « سيتادل » (القلعة) في ٥ تموز ١٩٤٣ بهجوم شنته مجموعة جيوش الوسط في منطقة أوريل ، وهجوم آخر شنته مجموعة جيوش الجنوب بالغرب من بلغورود . واشترك في هذا الهجوم ، اجمالاً ، تسع عشرة فرقة بانزر وست عشرة فرقة مشاة. وسرعان ما اصطدم الذراع الشمالي للكماشة بمنظومة دفاعات سوفييتية متسلسلة في العمق ، وفشلت محاولات وحدات المشاة والهندسة في فتح طريق لمرور الدبابات ، بعد أن تكبدت هي نفسها خسائر فادحة في الأرواح والمعدات . وكان الذراع الجنوبي أكثر نجاحاً في بادىء الأمر ، ولكن في منتصف تموز أُلغيت العملية بكاملها .

لقد كانت خسائر الدبابات في « كماشة بلغورود » مقلقة بصورة خاصة ، ولم تستعد القوات المدرعة الالمانية قوتها من جراء الجروح الدامية التي عانتها في تلك الواقعة . ولقد نعت الماريشال السوفييتي كونييف هذه المعركة « بأغنية البجع لفرق البانزر الالمانية »[1] .

في هذا الوقت تقريباً كشف النقاب عن خطط الحلفاء الاستراتيجية في مسرح البحر الأبيض المتوسط . وهبط مظليو الحلفاء فوق الجزء الجنوبي من صقليا في خلال ليلة ٩ ـ ١٠ تموز ، وابتدأ غزو أوروبا من الجنوب ، وتبع هذه الطليعة من المظليين اسطول مكون من ٥٠٠ سفينة مختلفة من بواخر حربية وسفن انزال وناقلات جنود . وتبين أن القسم الأعظم من فرق الجيش السادس الايطالي غير قادرة على الثبات ضد هذا الهجوم الأنكلو ـ امريكي . وعلى الأخص ازاء القصف الجوي الهائل وازاء قذائف المدفعية البحرية الثقيلة ، كما ان الفرقتين الالمانيتين اللتين تمركزتا في صقليا لم تتمكنا عندما ابتدأ الغزو من دحر الانزال لوحدهما ، ومما زاد الطين بلة ان احدى هاتين الفرقتين كانت قد وضعت في الجزء الغربي من الجزيرة ، حيث لم يكن هناك قتال في مرحلة ابتداء الانزال ، وتم تحريك فرقة المانية ثالثة عبر مضائق مسينا الى سهل كاتانيا ، وأُلقيت فرقة المانية رابعة بالمظلات ، وجُمعت هذه الفرق الالمانية الأربع وتشكل منها فيلق واحد . الا أن الأوان كان قد فات للتأثير جدياً في مجرى الحوادث . لقد قاتل ذلك الفيلق قتالاً شديداً في منطقة مونتي إيتنا ، ولكنه دعي أخيراً الى الانسحاب نحو شبه الجزيرة الايطالية . وفي ١٧ آب عاد الفيلق الى ايطاليا بكامل أسلحته وتجهيزاته .

لم يكن نظام موسوليني قادراً على تحمل هذا البرهان الجديد عن عدم أهليته لادارة الحرب . وفي جلسة صاخبة للمجلس الفاشستي الأعلى في ٢٥ تموز ، وجد الزعيم الفاشستي نفسه مهجوراً حتى من أتباعه ، وتم اعتقاله بموجب أوامر الملك ، وانهارت الفاشية بين ليلة وضحاها وكأنها بيت من الورق . وشكل الماريشال بادوليو ، الذي جعل منه موسوليني في عام

---

(١) جاء في الاساطير انها اغنية تغنيها البجع عند دنو أجلها ، وعلى هذا فانها عمل فني ينجزه الفنان قبل وفاته أو عند نهاية عهد فني . (المترجم)

١٩٤١ كبشاً للفداء على أثر الكارثتين الالبانية والافريقية ، حكومة جديدة . وفي الحال أدرك هتلر أن الهدف الأول الذي تسعى اليه حكومة بادوليو هو الاسراع في طلب الصلح . وبناء على ذلك انطلق الى العمل بسرعة كبيرة . ففي ٢٦ تموز ابتدأ فيلق الماني جديد مؤلف من ثمان فرق بقيادة الفيلد ماريشال رومل بالحركة الى ايطاليا قادماً من فرنسا ومارأ عبر التيرول وكارينثيا . وكانت المهمة الملقاة على عاتقه منع ضياع إيطاليا إذا ما دعت الحاجة . وهكذا أصبح في ايطاليا قائدان عامان المانيان : الأول هو رومل في الشمال ، والآخر هو كيسلرنغ في الجنوب . ولقد أثر هذا الوضع الجديد على مستقبل العمليات في شبه الجزيرة .

بالرغم من احتجاجات الايطاليين وزعمهم أنهم ينوون متابعة القتال حتى النصر النهائي ، فقد انقضى شهر آب في جو مفعم بالتوتر الشديد . وتجابه الالمان والايطاليون وبنادقهم في أيديهم وعدم الثقة في قلوبهم . ولم تكد تمضي بضع ساعات على القسم الذي أقسمه وزير البحرية الايطالي على الاخلاص غير المشروط لكيسلرنغ وللتحالف الالماني حتى أعلنت الإذاعة الايطالية نبأ الاستسلام ، وأبحر الاسطول الايطالي الى مالطا ليستسلم هناك . ونزل في الوقت ذاته جيش الولايات المتحدة الخامس في خليج ساليرنو ، واصطدم هناك بفرقة بانزر المانية . وفي هذا الوقت كانت ترابط فرقتان المانيتان في منطقة روما ، احداهما في أبوليا ، بينما أسرعت الفرق الالمانية الأخرى في جنوب ايطاليا الى ساحة المعركة ، ولكنها أوقفت بسبب العديد من الجسور المخربة وبسبب النقص المزمن في الوقود ، ولهذا لم تستطع التدخل في المرحلة الأولى للمعركة ، وهكذا نجح أيضاً هذا الانزال الحليف . وعلى أي حال ، كان باستطاعة كيسلرنغ أن يتنفس الصعداء طالما لم يحدث انزال في منطقة روما ، ولو حدث ذلك ، لغدت جميع الفرق الالمانية في جنوب ايطاليا في وضع خطر من جراء انعزالها . وفي أبوليا ، نجحت الفرقة الالمانية التي أنيط بها واجب إعاقة قوات الجيش السادس البريطاني التي نزلت على سواحل خليج تارانتو في تنفيذ مهمتها ، وتمكنت من الالتحاق ثانية بالقسم الأعظم من الجيش الالماني . وهكذا تبين في النهاية ان ما حدث كان أحسن بكثير مما كان متوقعاً . وعلاوة على ذلك ، فقد نجحنا في إخلاء جميع قطعاتنا التي كانت ترابط في سردينيا وكورسيكا مع أسلحتها وتجهيزاتها .

لقد كانت نية هتلر الأصلية هي انسحاب فرق كيسلرنغ بأقصى سرعة مستطاعة داخل الآبينين لتشكل هناك خطاً دفاعياً عاماً بالاشتراك مع قطعات رومل تحت قيادة الأخير ، وعلى كل حال ، فان الكارثة التي كان يخشى وقوعها لم تقع الآن ، وبدا له أن من المفيد أن يدافع عن المنطقة الكائنة جنوب روما على امتداد أضيق جبهة ، حيث ان مسكها يتطلب من القطعات نسبة أقل مما تدعو الحاجة اليه في شمال العاصمة الايطالية ، ولهذا عُين كيسلرنغ لقيادة جميع قواتنا في ساحة الحركات الايطالية ، واستُدعي رومل لتسلم واجبات جديدة في الغرب .

لقد نجح فيلق كيسلرنغ في مسك الجبهة الايطالية الضيقة طيلة موسم الشتاء . ولكن في ٢١ كانون الثاني ١٩٤٤ تبلورت أزمة حادة عندما أُنزلت القوات الامريكية في الضوء الأول

بالقرب من أنزيو الى الجنوب من روما . فقد كان هذا الغزو مفاجأة تامة ، طالما كان الاستطلاع الجوي الالماني غير قادر لأسابيع ثلاثة على تقديم أي تقرير عن فعاليات العدو في مؤخرة الجيوش الحليفة وفي مرافئها . ولكننا كنا مع ذلك مستعدين نظرياً لمواجهة إنزال كهذا ، كما أن أولى القطعات التي أُنزلت الى البر لم تستغل الضعف الآني للقطعات الالمانية في أنزيو ، ولذا كان بمقدورنا سحب وحدات من الجبهة وجلب فرق من شمال ايطاليا وجنوب فرنسا والمانيا والبلقان . ووصلت هذه الفرق بعد مسيرات اجبارية في الوقت المطلوب ، واحتوت رأس الجسر الأمريكي . ولو قام الحلفاء بانزالهم في ليفورنو بدلاً من جنوب روما لسحب كل الخط الالماني شمال العاصمة الايطالية .

جرت في خلال شهر شباط محاولتان المانيتان على نطاق واسع ، من أجل إلقاء العدو في البحر ، ولكنهما فشلتا لسببين : أولهما أن منطقة مستنقعات بنتين السابقة لم تتمكن من تحمل ثقل الدبابات ، والثاني هو تدخل هتلر الشخصي في المعركة ، وأمره المباشر بارسال جميع الفرق المهاجمة سوية . وفي خلال الهجوم الأول ، وصلت قطعات احدى الفرق الالمانية الى نقطة قريبة جداً من السواحل ، حتى ان القائد الامريكي قرر إصدار أوامره الى رجاله بمغادرة السواحل واعادة الاركاب في الوقت الذي ألغى فيه الالمان هجومهم ، وهم يجهلون تلك الحقيقة . ولقد تحطمت بصورة عامة شبكة سكك الحديد الايطالية ، ولم يعد بالامكان جلب العتاد المطلوب لمتابعة الهجوم ضمن وقت معقول .

أما في الشرق ، فقد كانت الجبهة الممسوكة من قبل مائتي فرقة من جميع الأنواع تحت قيادة المانية لا تزال بعيدة داخل اعماق الاتحاد السوفييتي في أواخر صيف ١٩٤٣ . وكانت تمتد من خليج فنلندا ، مارة بالتخوم الخارجية لمدينة لينينغراد ، الى نقطة تقع غرب أوريل ، ثم تتجه نحو خاركوف ، ومن هناك الى الساحل الشرقي لبحر آزوف . وكان يشغل هذه الجبهة حوالى أربعة ملايين جندي الماني وحليف ، يواجههم في الطرف المقابل خمسة ملايين ونصف مليون جندي سوفييتي ، بينما كان مليون وربع مليون جندي الماني آخرين يرابطون في ساحات اخرى ثانوية ، ومعظمهم في البلقان ، حيث تطلب ازدياد نشاطات الانصار هناك وجود جيش احتلال أكبر بكثير . أما ما تبقى منها فقد كان مجموعات صغيرة ترابط في النرويج والدانيمارك وكريت .

ابتدأ السوفييت في آب سلسلة من الهجمات التي أدت في شتاء ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ ، الى استعادة جميع منطقة أوكرانيا . وهكذا استفاق السوفييت نهائياً من الأزمة التي أحاقت بهم في عام ١٩٤١ ، ولقد مضى وقت طويل منذ حطمت فعاليات « الجنود السياسيين » للرايخ الثالث كالـ (سيخرهيتسداينت) ، والـ (غستابو) الآمال الأولى للمواطنين السوفييت والتي مفادها ان الالمان سيحررونهم من الحكم السوفييتي . أما الآن فلا خيار لهم سوى الالتصاق بحكومتهم . وهكذا ضاعت فرصة ثمينة . لقد كانت الانتصارات السوفييتية الكبرى مدينة بلا شك الى عناد هتلر وجموحه غير الواقعيين ، ورفضه مواجهة التضحية المؤقتة بأرض غير حيوية ، وبذلك سهل

لهم مهمتهم ، بل جعلها في بعض الأحيان ممكنة التحقيق . فلقد أُمرت القطعات بالتمسك بأرض لا قيمة لها اطلاقاً ، وتكبدت من جراء ذلك خسائر كبيرة ، الأمر الذي جعلها تتلهف على الدوام الى التعويضات فلا تحصل عليها ، وبقيت الفرق في أماكنها ولم تسحب للراحة أبداً ، وكانت وهي تقاتل عدواً يتفوق عليها بنسبة ثمانية الى واحد ، تتضاءل تدريجياً . لقد وضعت تلك الفرق داخل فرن بدون أي غرض ، لذا فإن الجيش الالماني ، الذي أجبر على القتال في سبيل كل ياردة من التربة السوفييتية ، ضد عدو كان يحقق باطراد تفوقاً ملحوظاً في الأسلحة والتجهيزات بفضل النجدة التي حققتها المعونة الامريكية ، اضطر أخيراً إلى التراجع بصورة لا مرد له فيها . وفي شباط عام ١٩٤٤ ضاعت المنابع المهمة للمواد الخام كحوض الدونيتز وأراضي التربة السوداء في أوكرانيا ، وأصبحت الجبهة تمتد من منطقة لينينغراد الى نقطة تقع غرب سمولنسك ، ثم تستمر عبر الجزء الغربي من مستنقعات البريبيت، ثم جنوب كييف وعلى امتداد الدنيبر باتجاه أوديسا . وهكذا أصبح الجيش الالماني الآن من جديد على الحدود البولونية ـ الروسية القديمة ، وعلى مقربة من جبال الكربات . . لقد كلفتنا هذه المعارك الشتوية أرواح الكثير من خيرة رجالنا المقاتلين ، ولم تكن هذه الخسائر التي لا يمكن تعويضها ، والتي عانيناها بصورة خاصة في عمليات التطويق العديدة التي نفذها العدو ضدنا ، هي نهاية المآسي . ففي ربيع عام ١٩٤٥ قطع الطريق على الجيش السابع عشر الذي لم يقم بإخلاء قطعاته في الوقت المناسب من (القرم) . . لقد تكلم بعض الرجال ، ولهم كل الحق ، عن معراج الماني في أوكرانيا .

هكذا كان الموقف غير الملائم في الجبهة الشرقية ، عندما وقع في ١١ أيار ١٩٤٤ الهجوم الانكلو ـ امريكي الواسع النطاق الذي طال انتظارنا له ضد مجموعة الجيوش في ايطاليا ، ولم يكن بمستطاع مجموعة جيوش كيسلرنغ هذه أن تأمل في الحفاظ وقتاً أطول على الخط الواقع في الجبال وحول رأس الجسر في أنزيو جنوب روما . وأمر كيسلرنغ قطعاته بالجلاء عن روما بدون قتال لأسباب انسانية تتعلق بمكانة هذه المدينة من الوجهتين التاريخية والدينية . ودخل الأمريكيون المدينة الخالدة في ٦ حزيران ، وفي هذه الأثناء كانت الفرق الالمانية في موقف خطر للغاية بالنظر الى البطء في اصدار الأمر اليها بالانسحاب ، ولم ينقذها سوى تردد مطاردة الحلفاء لها . وفي اليوم الذي دخل فيه الأمريكيون روما ، أصدر أيزنهاور الأمر الذي افتتح غزو فرنسا ، وهي العملية الرئيسية للحلفاء الغربيين ضد المانيا .

القسم الخامس

١ ـ فرنسا، ١٩٤٤ .

بقلم : اللفتنانت جنرال بودو زمرمان

استُدعي بودو زمرمان ، الذي كان قد تقاعد من الجيش الالماني عام ١٩٢٠ ، الى العمل في هيئة الأركان الالمانية العامة في عام ١٩٣٩ ، واشتغل كضابط أول لرئيس عمليات القائد العام في الغرب ، من العام ١٩٤٠ الى العام ١٩٤٢ ، وكضابط أول لرئيس عمليات مجموعة الجيوش (د) منذ ذلك الحين حتى استسلام المانيا . وقد رقي الى رتبة لفتنانت جنرال في نيسان ١٩٤٤ .

توطئة :

إنني أتذكر بوضوح إحدى صبائح شهر آذار في العام ١٩٤٣ في (سان جيرمان أن لاي) حيث يقع مقر القائد العام للجبهة الغربية خارج باريس مباشرة ، وكان مكتب رونشتت عبارة عن فيلا صغيرة ، وكنت أنا الضابط الأول لرئيس عملياته ، وهو منصب يقرب اجمالاً من منصب نائب رئيس فرع العمليات في الجيش البريطاني ، ويشغل عادة من قبل مقدم أو عقيد كما أنه يقرب منصب المكتب الثالث في الجيش الأمريكي . . . لقد كان يوماً رائعاً من أيام الربيع . وعندما دخلت مكتب الفيلد مارشال ألفيته كعهدي به من الأناقة والشباب . لقد حافظ رونشتت دائماً على مظهره المتأنق ، وكأنه قلم حبر جديد ! ، مهما كانت الظروف . ولكن مزاجه في هذا الصباح كان يتسم بكآبة عميقة ، وأفصحت كلماته الأولى لي عن السبب ، حيث قال : « لقد سقطت ستالينغراد ، فماذا الآن ؟ » .

كان رونشتت مدركاً دوماً ، كسلفه في الغرب ، الفيلد ماريشال (فون فيتسليبن) ان المعركة النهائية ضد البريطانيين والامريكيين في فرنسا يمكن أن تقرر نتيجتها في الجبهة الشرقية ،

حتى قبل أن تطأ الجيوش الانكلو ـ أمريكية أرض القارة الأوروبية ، حيث ان الرجال والمدافع والدبابات التي ستدعو الحاجة اليهم لدرء الغزو المحتمل ، كانوا وما زالوا يستهلكون في المجزرة الناشبة في النهاية الأخرى من القارة الأوروبية . لقد كان ذلك صحيحاً في العام ١٩٤٢ ، وسيكون أكثر صحة في العام ١٩٤٣ ، وهو العام الذي حققت فيه القوتان الجويتان البريطانية والامريكية تفوقاً جوياً على اسطول سبيرل الجوي الثالث . وهي حالة يجب أن يعزى اللوم فيها ، جزئياً على الأقل ، الى كسل غورنغ وعدم كفاءته .

لقد أحدثت المعارك الشديدة في افريقيا ، وفيما بعد ، في صقليا استنزافاً ثانوياً ، لا يخلو من مغزى ، للمنابع الالمانية التي قد تأثرت بالثقل المتعاظم لتعرض القاصفات المعادية .

وهكذا كانت الظروف الخارجية التي حاول فيها رونشتت تنظيم الدفاع في فرنسا والأراضي المنخفضة ضد الهجوم المقبل مختصرة للغاية في ذلك الحين .

كان الجيش الغربي منتشراً على قوس كبير . وكانت أغلب قواته موضوعة على أو بالقرب من الساحل ، وامتد القوس من هولندا على طول سواحل القنال الانكليزي وخليج بسكاي حتى جبال البيرينيه ، ثم استمر على امتداد سواحل البحر الأبيض المتوسط حتى طولون . وشغل قسم من الجيش الرابع الايطالي ، الذي كان أيضاً تحت قيادة رونشتت ، مواضع دفاعية تمتد بين طولون والحدود الايطالية . وحُشدت قطعات المانية عديدة تضم وحدات من جيش الميدان اضافة الى وحدات من البحرية والقوة الجوية في القلاع المزعومة التي تضمنت جزراً مكشوفة وقواعد محصنة . وعلى سبيل المثال ، كان في جزر القنال وحدها حوالى ٣٠ ـ ٤٠ ألف رجل منظمين في فرقة مشاة واحدة مطعمة ، ولواء ضد الطائرات ، وبطاريات عديدة من المدافع الساحلية الثقيلة وعمال هندسة واشغال تابعين الى منظمة (تودت) . كل هذا الحجم الضخم من القطعات مسك هذا الموضع المنعزل الذي بلغت فيه مشاكل التموين حداً اضطر معه هتلر الى اصدار أوامره المباشرة بتكديس مواد سنة كاملة ، ولذلك لم يكن في وسع رونشتت أن يفكر في اخلاء هذه المنطقة أو أي منطقة اخرى من جبهته الواسعة .

كان طول الجبهة أكثر من ستمائة ميل إذا ما قيس امتدادها بخط مستقيم ، وأكثر من هذا الرقم اذا ما قيست بامتداد خط سواحل اليابسة والجزر . ولا يمكن بالطبع اشغال خط واسع كهذا بالقوات المتوافرة . ولم تكن لدينا في الواقع فرق كافية في الغرب في خلال عام ١٩٤٢ لتجابه غزوا على نطاق واسع في أية نقطة .

بالاضافة الى القطعات التي امتدت على طول الساحل كانت هناك وحدات غير هامة من الرجال الأكبر سناً في المناطق الخلفية تحت قيادة القادة العسكريين في كل من فرنسا وبلجيكا . ولا يمكن اعتبار هذه الوحدات كاحتياط ، وفي الواقع لم يكن لدينا في هذا الوقت أي احتياط مرن قوي وآلي في الغرب . وكلما ابتدأ العمل في بناء احتياط كهذا في خلال العام ١٩٤٣ ،

كانت الوحدات تسحب في النهاية لتقاتل في روسيا أو ايطاليا ، وبالأخص في روسيا . وليس من قبيل المبالغة القول ان قوة الجيش الغربي في الرجال الاصحاء والمهمات كانت تمتص منه باطراد ، وترسل الى الجبهة الشرقية . وكنتيجة لذلك كانت الترتيبات التنظيمية والتكتيكية في الغرب لا تعدو كونها عملاً ترقيعياً . وهكذا أصبح القادة والقطعات والتجهيزات من الدرجة الثانية ، وتألف الجيش الغربي اعتباراً من العام ١٩٤٣ من رجال مسنين مسلحين بأسلحة قديمة . ولم يكن أي منهم أهلاً ، حتى من الناحية البدنية لمتطلبات معركة الانزال الشديدة القادمة .

خدعة جدار الاطلسي :

أصدر هتلر أمره لبناء التحصينات على طول الساحل ، مع التركيز الشديد على طول القنال الانكليزي في العام ١٩٤٢ ، بغية اخفاء الضعف الحقيقي للدفاعات الالمانية الغربية ، فظهرت الى الوجود منشآت اسمنتية هائلة ، ولكن بطبيعة الحال كان يستحيل اكمال هذه التحصينات القوية في كل مكان ، فكيف الحال بتسليح هذا « الجدار الاطلسي » ؟! أما ساحل البحر الأبيض المتوسط الفرنسي ، الذي احتله الالمان في تشرين الثاني عام ١٩٤٢ ، فلم يكن محصناً . وبناء على قلة مواد الإمداد ، أخذت غالبية الاسلحة ، حتى الالغام والاسلاك الشائكة من الجدار الغربي القديم الذي كان قائماً على طول الحدود الفرنسية الالمانية .

كان نقل الفرق المتعبة ، والضامرة في الغالب ، من الجبهة الشرقية للاستراحة والاستجمام في الغرب سياسة ثابتة للقيادة العامة . وكانت هذه الفرق تعاد الى روسيا ثانية حالما يعاد تنظيمها وتجهيزها . وهكذا كان نظام معركتنا ، الذي ضم باستمرار عدداً كبيراً من الفرق التي لم تكن في الواقع إلا هياكل ، نظاماً مضللاً تماماً . وبقي النضوح في قطعات القتال مستمراً ، ولعل أول دليل على ذلك هو وصول الروس .

بموجب أمر من القيادة العامة للقوات المسلحة ، تم نقل عشرين فوجاً من أحسن الافواج تجهيزاً من الغرب الى الجبهة الشرقية مع أسلحتهم الثقيلة ، ووُعد رونشتت في المقابل بستين فوجاً من المتطوعين الشرقيين ، وأغلبهم أسرى حرب سابقين من السوفييت سيئي التدريب ورديئي التجهيز . ترى أي فائدة يمكن ان تسديها هذه القطعات ازاء الثقل الهائل لمهارة العدو الفنية ؟ وأي سبب دعا إلى الاعتقاد ان هؤلاء المتطوعين سيقاتلون ، أو حتى يتظاهرون بالقتال ، ضد حلفائهم الغربيين ؟ انه ولا شك جنون محض .

لقد حاول رونشتت ، في خلال ربيع عام ١٩٤٣ ، أن يمثل امام هتلر ليخبره عن الموقف الحقيقي القائم آنذاك في الغرب . ولكن المحاولة كانت مجرد ضياع وقت ، إذ دامت المقابلة التي تمت في أوبرسالزبيرغ مدة ثلاث ساعات طوال ، وتألفت من خطاب استغرق ساعتين ، عرض

فيه هتلر وجهات نظره عن الجبهة الشرقية ، وتلا ذلك ساعة شاي ثالثة مُنعت فيها مناقشة المسائل الرسمية ، وكان من السهل تصور غضب رونشتت وهو يتململ في مقعده. وكل ما كان باستطاعته عمله هو أن يطلق ، فيما بعد ، بعض التعليقات اللاذعة على قائده العام ، وأن يأمر باعداد تقرير مفصل عن موضوع الدفاعات الساحلية في الغرب لارساله الى القيادة العامة للقوات المسلحة .

ازداد في هذه السنة (كمّاً ونوعاً) عمل القوة الجوية البريطانية والقوة الجوية الامريكية ، مما كان له تأثير سيء على الادارة الالمانية ، والصناعة ، ومنشآت السكك الحديد ، وخطوط سكك الحديد نفسها . وازدادت بنتيجة ذلك صعوبة بناء الدفاعات على طول القنال الانكليزي ، ومما زاد الطين بلة الارتباك الاداري الفريد في نوعه ، والذي أدى الى نقل الألوف من عمال الانشاء من بناء الدفاعات الى بناء مواقع إطلاق القنابل الطائرة «V-1» و «V-2» . وتم ذلك الاجراء بدون علم رونشتت وكان غضبه عظيماً بالتأكيد عندما اكتشف ان العمال كانوا قد سُرقوا من خلف ظهره .

لقد صدر في أواخر صيف ١٩٤٣ أمر جوهري أطلق عليه اسم « توصيات الفوهرر رقم ٥١ » . وأفاد هذا الأمر بأن الساحة الغربية ستكون منطقة الدفاع الحاسمة وأن القنال الانكليزي سيكون نقطة المجهود الاساسي لدفاع المانيا ، اعتباراً من الآن . واسناداً لهذه السياسة ، فقد تقرر ارسال الجزء الاكبر من انتاج الاسلحة الثقيلة الجديدة مع الذخائر الضرورية والمعدات الى رونشتت . ولم يكتف هتلر بهذه التوصيات الاستراتيجية المعقولة فحسب ، بل أضاف اليها توصيات تتعلق بالعمليات الى قائده العام في الغرب . لقد طرحت « توصيات الفوهرر رقم ٥١ » الشعار الداعي الى وجوب عدم السماح للعدو بالحصول على موطىء قدم على الساحل ، وانما يجب القاءه في البحر حالاً . وفي الواقع ، يجب الاحتفاظ بالساحل مهما كانت الظروف ، ومنع القيام بأي انسحاب .

كان جواب رونشتت على تلك التوصيات التي وصلت الى القيادة العامة للقوات المسلحة في الخريف ، هو التقرير المفصل الذي أمر باعداده إثر مقابلته الفاشلة مع هتلر في وقت مبكر من تلك السنة . وكان وقع ذلك التقرير على المقر العام كوقع القنبلة .

لقد بين تقرير رونشتت ان غالبية الجنود الالمان في الغرب هم من المسنين ، وكانت نسبة الضباط من ذوي الاطراف الاصطناعية عالية نسبياً . وكان قوام أحد الافواج رجال يعانون من الربو ، وشكلت فيما بعد الفرقة (٧٠) من رجال ذوي معد مريضة وكانوا يحتاجون الى تغذية خاصة (حاربت هذه الفرقة بشجاعة في جزيرة والشيرن ، بالرغم من أن العديد من أفرادها كانوا يشكون من ألم حاد مستمر) . أما فيما يخص قابلية التنقل ، فقد كانت غالبية الوحدات في الغرب غير مرنة بدرجة كافية ، أو غير مرنة اطلاقاً ، ولذلك لم يكن لها سوى أهمية محدودة فقط

من الوجهة القتالية . وكان هناك افتقار شديد الى الاسلحة الثقيلة والى الدبابات بصورة خاصة . لقد استبعدت المآسي المتكررة في الشرق كل امكانية في توقع ورود التعزيزات التي تضمنتها « توصيات الفوهرر رقم ٥١ » ، إلا أن ورود بضع فرق من المظليين والبانزر شكل استثناء لهذه الصورة المحزنة ، وأمكن اعتبارها ملائمة نظرياً للعمليات .

لم تكن هذه هي النهاية ، إذ لم يكن في الغرب أي احتياط استراتيجي . مع أن احتياطاً كهذا كان يفترض فيه أن يتدخل بسرعة وبصورة مؤثرة في نقطة المجهود الاساسي حالما يبدأ الغزو . وكانت القوة الجوية على درجة من الضعف تجعلها غير قادرة على ايقاف عمليات القوة الجوية الملكية والقوة الجوية الامريكية . أما البحرية فكانت تتألف من بعض الزوارق وزوج من الاساطيل الصغيرة لزوارق الطوربيد . في حين لم تتمكن الغواصات من العمل بصورة جيدة في مياه القنال نظراً لضحالته .

لقد ترك هذا التقرير أثراً عظيماً لدى هتلر ، وأُرسلت الينا من جّديد وعود بالتعزيزات . إلا أن التعزيزات نفسها لم تصل على أية حال ، إلا بأعداد صغيرة ، أو لم تصل أبداً ، نظراً لأن المآسي المتعاقبة استوجبت نقلها الى الشرق . أما بخصوص القوة الجوية ، فقد وعد هتلر بأن أسراباً قوية من القاصفات سترسل الى فرنسا حالما يبدأ الغزو ، وكان على هتلر أن يدرك أن هذا الاجراء سيكون متأخراً وبعد فوات الأوان . ولعله أدرك ذلك ، أو لعل هذه « الأوامر » لم تكن الا مثالاً آخر على قدرته الخاصة على خداع النفس .

هكذا انقضت سنة ١٩٤٣ في فرنسا ، بينما كانت القوات البريطانية والامريكية في الجانب الآخر من القنال تبنى للغزو الهائل الذي سيقرر بلا شك نتيجة الحرب التي توقعها رونشتت لربيع العام القادم . ولم يكن لدى القائد العام في الغرب أي تخيلات واهمة حول العنف الذي ستضرب فيه الضربة القادمة ، والامتياز الفني الهائل الذي ستُدعم به ، فقد أظهر الانزالان الحليفان في صقليا وساليرنو ، محدودية الفائدة التي جنتها شجاعة وتضحية رجال كيسلرنغ ضد مدفعية العدو البحرية وضد سيادته الجوية . وكان بإمكاننا أن نتوقع جيداً أن ما حدث آنذاك سيبدو تافهاً عد مقارنته بما يهيأ لنا الآن .

رونشتت في سان جيرمان :

إنني أتذكر جيداً حادثتين بارزتين تتعلقان بالقائد العام في الغرب في خلال اشهر الانتظار هذه : عندما ارتفعت حرارة الهجمات الجوية الحليفة ، أخذ القلق على سلامة الفيلد ماريشال الشخصية يساور نفوس ضباط أركانه بازدياد ، مع انه لم يهتم بتلك الغارات . وبينما كان غائباً عن مقره في احدى المرات ، بني له على عجل ملجأ ضد الغارات الجوية في حديقة داره في سان جيرمان ، وتم تمويهه واخفائه بعناية فائقة ، ولكن عندما شاهده « السيد الكبير »أعلن بصورة قاطعة انه ليس هناك قوة تستطيع اقناعه « بأن يضع قدماً داخل الملجأ » . ولكن عندما أغارت

قاذفات الحلفاء في احدى الأمسيات ، أسقطت مشاعل كاشفة فوق سان جيرمان ، وبدا من المحتمل ان رشقة من القنابل ستأتي بعدها . لذلك أمرت ابن رونشتت (الذي كان يعمل مرافقاً لأبيه) أن يأخذ الفيلد ماريشال الى الملجأ ، وأخيراً نجح رونشتت الإبن ، بعد معارضة شديدة من أبيه في تنفيذ ذلك الأمر . ولقد حدث فعلاً أن ضربت القاذفات محلة مجاورة، وكنت آنذاك مشغولاً على الهاتف لدرجة انني نسيت كل شيء عن القائد العام . وبعد مضي ساعة من الزمن رن جرس الهاتف عندي ، وكان الماريشال على الخط . وبكل بساطة سألني بطريقته الاعتيادية المهذبة : « زمرمان . هل استطيع ان أخرج الآن من فضلك » ؟

أما الحادثة الثانية فكانت عن الغارة ايضاً ، وقد سردها هو نفسه مبتسماً في مطعم ضباطنا : لقد كان من عادته أن يتمشى كل يوم عبر شوارع سان جيرمان لوحده مسلحاً بعصا يتوكأ عليها ، وفجأة ارتفع صوت صافرات الانذار . وكالعادة لم يأبه الفيلد ماريشال بالغارة ولم تأبه بها ايضاً ربة بيت فرنسية كانت تحمل سلة مشترياتها على ذراعها ، فتساءل رونشتت وهو يمر بالسيدة ، « ألست خائفة ايتها السيدة من القنابل ؟ » فأجابت السيدة المسنة : « ولم الخوف أيها الماريشال ؟ انهم لن يقصفوا سان جيرمان لأنها ليست لها أهمية عسكرية ، حيث لا يحدث هنا أي شيء أبداً »!.

رومل :

قرب نهاية العام ١٩٤٣ أوعز هتلر الى رومل مهمة تفتيش الدفاعات الساحلية في الغرب ، اعتباراً من دنكرك حتى الحدود الاسبانية ، ولم تعط الى رومل قطعات سوى هيئة أركانه العالية الكفاءة . وتوقعت القيادة العامة مساعدة قيمة من قابلية ابداع رومل وخبرته واطلاعه الفني الواسع ، وعلاوة على ذلك فقد كان مؤملاً ان وجوده في الغرب سيكون مفيداً كسلاح من أسلحة الدعاية .

لا زلت أتذكر مؤتمر رومل الأول مع رونشتت في باريس قبيل عيد الميلاد . فقد شرح رونشتت الموقف بصورة مختصرة وبتشكك ، فتكلم عن النوعية الرديئة للقطعات ، والضعف الخطير للقوة الجوية ، كما تكلم عن الانعدام الكلي تقريباً للسفن الحربية ، مؤكداً بصورة خاصة على النقص الاساسي لمنظومتنا الدفاعية ، وهذا يعني الافتقار الى احتياط مركزي قوي . وأنهى رونشتت حديثه بهذه الكلمات : « كل شيء يبدو لي حالك السواد » .

وبعد ذلك تناول الماريشالان عشاءهما سوية ، وكان حاضراً في العشاء بضعة ضباط أقدمين كنت أنا أحدهم . وتوقعنا آنذاك أن يفتتح احد الماريشالين الحديث ، ولكن لم يظهر على أي منهما ميل لأن يفعل ذلك . وكانا ، كما يبدو ، مستغرقين في افكارهما، التي لا يمكن ان تكون بعد مناقشتهما السابقة الا ذات طابع جدي : لقد كانت تلك المأدبة غريبة صامتة لا يمكن ان تنسى أبداً من قبل أي شخص حضرها .

لقد تقرر في القيادة العامة للقوات المسلحة ابان الشتاء أن يعطى روميل قيادة في الغرب ، وكانت فكرة هتلر الأولى هي أن على روميل أن يقود قوة آلية كبيرة بغية القيام بهجوم معاكس ودحر القوات الغازية في أقرب فرصة . ولذلك فقد أُعطي ، بموافقة رونشتت ، قيادة مجموعة الجيوش (ب) التي سترت جبهة الغزو ، وتضمنت قيادته الفرق الكائنة في هولندا والجيش الخامس عشر على طول القنال الانكليزي ، والجيش السابع في نورماندي وبريتانيا . وعندما انتهى روميل من تفتيشه أدرك أن قاطع القنال فقط كان يتمتع بقسط من القوة الدفاعية . وكان روميل الآن في موقف يتطلب عملاً أكثر من مجرد تقديم الوصايا ، لذلك انطلق للعمل بكل طاقته العظمى التي عرفت عنه .

استمرت عملية تقوية الدفاعات بنطاق واسع طيلة فصل الربيع. ابتدع روميل بدعتين اولاهما هي انشاء ما سمي تفكهاً (خوازيق روميل)[1] والتي تضمنت شتل اعداد كبيرة من الاعمدة القصيرة والاوتاد في مناطق اعتبرت سابقاً انها ملائمة لهبوط الزلاقات . أما البدعة الثانية فهي زرع السواحل بموانع وألغام تحت سطح الماء . . لقد أصبحت هذه الاستعدادات المحمومة معلومة ، بطبيعة الحال ، لدى الحلفاء عن طريق استطلاعهم الجوي ، وحقاً فقد اضطرتهم موانع تحت الماء الى تحوير خطتهم والقيام بالانزال وقت الجزر بدلاً من وقت المد . وكان يؤمل ان اضطرارهم الى تأجيل موعد غزوهم سيسبب لهم قلقاً عظيماً حتى ولو لمدة شهرين ، لأن الحصول على الوقت أصبح الآن هدفاً لكل من رونشتت وروميل .

وانطلاقاً من هذه الغاية ، جرت محاولات لتضليل الحلفاء ببعثرة هيئات الأركان عبر فرنسا ، وهي متنكرة بهيئة مقرات لفرق وفيالق مدرعة . ولكن لم يكن لهيئات الأركان الكاذبة هذه أمل كبير في إرباك العدو لزمن طويل ، حيث كان هناك العديد جداً من العملاء الفرنسيين والبريطانيين في فرنسا بحجة العمل لشهر أو شهرين .

وعلى كل حال ، فقد كان لطاقة روميل واندفاعه تأثير منعش للغاية على القطعات ، فارتفعت معنوياتها نتيجة ذلك بالتأكيد ، بالرغم من أنه أتعبها كثيراً جداً لدرجة أخذت معها علائم الاعياء تبدأ بالظهور مع قدوم الصيف .

الدفاع الساحلي في نورماندي :

كان قاطع القنال ـ بين مصبي السين وشيلدت ـ قد اعتبر دائماً أكثر نقاط الهجوم احتمالاً ، حيث انه يشكل الجزء الساحلي الأكثر قرباً الى انكلترا . ولقد عززت هذه الفرضية في « توصيات الفوهرر رقم ٥١ » ، ولذلك أعطيت الاسبقية في تحشيد القطعات وبناء الدفاعات

---

(١) نبات الهليون : وهو نبات يتكون من سيقان حادة الرؤوس اشبه بالخوازيق. (المترجم)

الى ذلك القاطع . أما الاهمال النسبي لقاطع نورماندي فقد أصبح أكثر فأكثر وضوحاً ، وقد لوحظ ذلك من قبل هيئة تفتيشية كانت قد زارت الغرب نيابة عن القيادة العامة للقوات المسلحة في كانون الثاني ١٩٤٤ .

كانت دفاعات نورماندي تشغل بما هو دون حاجتها من القطعات عموماً ، ذلك لأن القواطع المخصصة للفرق الساحلية كانت شديدة الاتساع ، وأكثر من كان يستحق اللوم في ذلك هي البحرية ، حيث أن الاستخبارات البحرية أعلنت أن الساحل الممتد بين السين وشبه جزيرة كوتنتان غير ملائم لانزال قطعات كبيرة .

لقد كان من الواضح ان القسم الجنوبي من شبه جزيرة كوتنتان لا يصلح اطلاقاً لأن يكون منطقة هجوم ، بينما اعتقد أن القسم الشرقي من كوتنتان مستور كفاية من قبل قلعة شيربور القوية . وبقي هذا الافتراض التقليدي الأخير سائداً حتى أثبت الانزال الحقيقي عدم صوابه ، علاوة على أنه أدى الى تقدير تفاؤ لي للمنطقة التي يمكن أن تشرف عليها القلعة ، حيث كانت جبهة اليابسة أطول مما يجب بخمسة وعشرين ميلاً ، وثبت عندما آن الاوان ان القلعة لا يمكن الدفاع عنها من قبل حاميتها .

ابتدأت الادلة المشيرة الى ان نورماندي ستكون مسرحاً للانزال القادم تتراكم اعتباراً من شهر نيسان . ولكن الأدلة لم تكن على اية حال حاسمة ابداً ،وبقي قاطع القنال يشكل منطقة الدفاع الرئيسية . ولم يكن بمقدورنا سحب القطعات من هناك لتدافع عن نورماندي ، إلا أن هتلر الذي أحس بالأخطار المحدقة بنورماندي، أمر أن ترابط فرقة الانزال الجوي الواحدة والتسعين ،وكتيبة المظليين السادسة في المنطقة التي كان تهديدها أكثر احتمالاً من قبل قطعات المظليين والقطعات المنقولة بالطائرات الشراعية . ومن الجدير بالذكر ، انه بالرغم من الاسمين اللذين كانت تحملهما الفرقة والكتيبة المذكورتين ، فقد كانت مهمتهما القتال كمشاة اعتياديين .

الموقف الجوي في الغرب :

كشف تعاظم ثقل الهجمات الجوية ليلاً ونهاراً الاهمية النسبية لسلاح الطيران ، وكانت منشآت شبكتي سكك الحديد الفرنسية والبلجيكية ، علاوة على منشآت سلاح الطيران ذاتها ، أهدافاً رئيسية لتلك الغارات ، وأصبح تنقل القطعات بواسطة القطارات أكثر فأكثر صعوبة ، حتى اضطررنا أخيراً الى نقل التعزيزات الى الساحل بواسطة الطرق كلياً تقريباً . وعندما دمرت جسور نهري السين واللوار بصورة متعاقبة ، أصبح التنقل حتى على الطرق شاقاً وبطيئاً جداً . وفي هذه الآونة كانت قواعدنا الجوية قد أقصيت بعيداً عن السواحل الى منطقة باريس ، وكانت الغارات الجوية من السعة والشمول بحيث انها لم تسمح لنا بتخمين النقطة التي سيتم فيها الانزال .

وكان استطلاعنا الجوي فوق جنوب انكلترا وجنوبها الشرقي منقطعاً وبأوقات متباعدة جداً ، الأمر الذي جعل من الصعب عليه تنويرنا بمجريات الأمور . وبقيت القيادة الالمانية العامة ، في الواقع ، في ظلام دامس فيما يتعلق بمنطقة هدف المستقبل التي يمكن ان تكون في أي مكان على طول امتداد القنال الانكليزي أو في نورماندي . وكان أعظم ما تمتع به الحلفاء من امتياز ، هو أن علينا أن نكون مستعدين لصد الهجوم في أية نقطة تقريباً على طول امتداد هذا الساحل ، نظراً لافتقارنا الى أية صورة استخبارات واضحة المعالم ، بيد أن ذلك الهجوم ، عند وقوعه ، سيكون في قاطع صغير نسبياً ومصحوباً بقوة فنية مركزة وبواسطة أحسن القوات تجهيزاً وتدريباً في حوزة العدو . وأدت هذه الحقيقة الى انذارات متكررة ، وخصوصاً في خلال الليالي التي كانت فيها ظروف المد والجزر والاحوال الجوية صالحة للانزال .

استراتيجية هتلر الغربية :

لا مجال للشك في أن كامل فكرة هتلر نحو استراتيجية المانيا في الغرب كانت تستند منذ ١٩٤٢ على اعتبار واحد ، هو أن المعركة في الشرق لن تنتهي بسرعة ، وان تطوراتها ستنعكس على الغرب بتزايد مستمر .

كانت المعركة في الشرق تتطور آنذاك في غير صالحنا ، ومع هذا لم نعلق على ذلك كبير اهمية ، لأننا كنا نمتلك آنذاك منطقة من الأرض الروسيه تكفي لجعل أي تهديد مباشر لالمانيا ذاتها خطراً بعيداً .

أما في الغرب ، فقد كانت المسافات بين القنال ومنطقة الرور قصيرة لدرجة يجعل أي انزال كبير ناجح عند القنال يؤدي الى اقتراب قطعات العدو المتقدمة من أكبر مناطق المانيا الصناعية . ولهذا كان الخطر الكامن في الغرب ، من وجهة نظر الفسحة الفاصلة ، أعظم من الخطر الكامن في الشرق . ومن هنا جاءت فكرة هتلر التي تنص على وجوب دحر العدو فوق السواحل والقائه في البحر حالاً . ومن هنا ايضاً ظهرت فكرة بناء جدار الاطلسي ، وبتعاقب مرور أشهر عام ١٩٤٤ تعززت هذه الفكرة لاعتبار واحد بسيط : لم يكن في الغرب من القوات الآلية اللازمة للقتال في معركة مناورة الا القليل ، وذلك من جراء الخسائر الجسيمة في الشرق . وعليه لم يكن هناك أي خيار سوى الالتصاق بفكرة هتلر الداعية الى الدفاع الخطي المتصلب . لقد كان هذا هو السبب الأول ، أو القرار الانتحاري ، الذي عزز اندحارنا في الغرب .

معلوماتنا عن العدو :

لقد اعتقدنا في مطلع ربيع ١٩٤٤ ان ما يقرب من خمس وسبعين فرقة قد تجمعت في

بريطانيا، واعتبرت خمس وستون منها ، بضمنها ست فرق منقولة، وملائمة للاستعمال في الغزو. واعتقدنا أيضاً ان تلك الفرق كانت تتألف من عشرين أو خمس وعشرين فرقة امريكية ، واربعين أو خمس واربعين فرقة بريطانية . وأخذت تدريبات الحلفاء على الانزال تتزايد اعتباراً من نيسان ١٩٤٤، وعلى طول سواحل انكلترا. ومنذ شهر آذار من العام نفسه، كانت تعود الى بريطانيا من البحر الابيض المتوسط تشكيلات عالية النوعية ، وتتضمن : فرقتي المشاة الامريكيتين الاولى والتاسعة، والفرق البريطانية الواحدة والخمسين (هاي لاند) والاولى المنقولة جواً ، والفرقتين المدرعتين الاولى والسابعة، مضافاً الى كل ما تقدم لواء هندسة ميدان امريكي خاص .

وقدرت وسائط النقل البحري المتوافرة في المرافىء البريطانية بما يكفي لنقل عشرين فرقة دفعة واحدة عبر القنال . وبالاضافة الى ذلك فقد اعتقد ان خمس واربعين فرقة اخرى مدربة وجاهزة للقتال ، موجودة في الولايات المتحدة ، وبالامكان نقلها بالسفن مباشرة الى منطقة الغزو ، وانزالها الى البر حالما يتم تشكيل رأس جسر.

أما في الجو فقد توقعنا ان تفوق العدو علينا سيكون بنسبة خمسين الى واحد ، في حين لم يكن لقواتنا البحرية وجود فعلي ـ كما أسلفنا.ولذلك كان كل ما يستطيع رونشتت تحشيده ازاء هذه القوة الهائلة الرابضة في انتظار توجيه ضربتها في أي مكان على طول الساحل الفرنسي، هو منظومة دفاعية ثابتة واحدة ، تتألف من قطعات برية بدون اسناد جوي.

نظام المعركة الالماني ، نورماندي، ٥ حزيران ١٩٤٤:

كانت هنالك ثلاث فرق تمسك رقعة الساحل النورماندي. وكانت هذه الفرق ، حسب تسلسلها من الشرق الى الغرب، هي فرق المشاة ٧١٦، و ٣٥٢، و ٧٠٩ ، وكانت الفرقة الاخيرة مسؤولة ايضاً في الدفاع عن شيربور؛ ووضع احد ألوية فرقة المشاة ٢٤٣ في شمال غرب نورماندي ، أما لواءاها الآخران فقد وضعا ، بالاشتراك مع فرقة الانزال الجوي ٩١ ، وفوج المظليين ٦ ، بالقرب من قاعدة شبه جزيرة كوتنتان كدفاع ضد الانزالات الجوية.

لم يعتبر الساحل الغربي لشبه الجزيرة منطقة خطرة، بسبب من تركيبه والمد العالي جداً الشائع فيه ، ولذلك فقد تمت حراسته بلواء واحد (اللواء ٣٠ السيار)و جله من راكبي الدراجات الهوائية. وبموجب طلب من القائد العام للغرب ، نقل حاكم فرنسا العسكري فوج الحماية ١٠٥٧، الى نورماندي . . كانت هذه الوحدة رديئة التجهيز ولم يكن لديها سوى القليل من الاسلحة الثقيلة. . لقد شغلت الفرق الثلاث الكائنة في المنطقة التي شهدت الهجوم ، قواطع بلغ معدل عرضها خمسة وعشرين ميلاً . وكان في هذه القواطع عدد محدود نسبياً من النقاط المحصنة القوية.

كان الاحتياط الفوري الوحيدالمتيسر لرومل بصفته قائداً لمجموعة الجيوش(ب) هو فرقة البانزر الـ ٢١ في المنطقة الكائنة شرقي نهر أورن،وكانت كتلة هذه الفرقة متجمعة في منطقة كايين ، مع ان جزءاً من مشاتها الآليين كانوا قد نقلوا الى مكان اقرب الى الساحل كتدبير أمني .

المد والجزر وحالة الجو :

لا حاجة للقول ان المد والجزر وحالة الجو والريح كانت جميعها مبعثاً لحيرة دائمة لنا وللبحرية على طول الساحل بأكمله ، وأجبرتنا هذه الحيرة على تطبيق الاسلوب التالي في العمل كاجراء احترازي : عندما كانت حالة الجو وظروف المد والجزر والرياح تبدو مشجعة على الهجوم في الساعات المبكرة في اية نقطة ، فان القطعة المرابطة في تلك النقطة تُنذر للوقوف على أهبة الاستعداد لدرء ذلك الهجوم ، وبلغ مجمل عدد الانذارات التي وقفت فيها القطعات على أهبة الاستعداد في نقطة أو أخرى رقماً أشبه بالارقام الفلكية. وأضافت هذه الانذارات اجهاداً آخر الى اجهاد القطعات التي قامت قبل ذلك بالتدريب وبناء الدفاعات تحت ضغط عالٍ ، ولهذا بلغ اجهادها حداً عالياً وربما كان فوق طاقاتها.

وفي خلال ليلة ٤ ـ ٥ حزيران ، اعتبرت حالة الجو غير ملائمة للانزال في ساحل نورماندي . وشارك خبراء البحرية في هذا الرأي ايضاً ، ولذلك أمر قائد الجيش السابع ، وهو الكولونيل جنرال دولمان (الذي توفي بالسكتة القلبية خلال معركة نورماندي) أمر بتخفيف مؤقت لشروط «الانذار» ، واستدعى ضباطه الاقدمين الى بلدة رين في ٥ حزيران للقيام بتمرين على الخريطة.

وفي ذلك اليوم، ٥ حزيران ، كانت سرعة الريح في شرقي نورماندي بقوة ٥، والاتجاه شرق ـ جنوب ـ شرق ، أما قوة البحر فكانت بين ٤ و ٥ ، وأُجبرت زارعات الالغام البحرية الالمانية، التي كانت تحاول الانطلاق للقيام بعمليات زرع الالغام ، على الرجوع الى المرفأ عندما هدد ذلك الجو العاصف باغراقها وهي تنوء بحمولتها الثقيلة، وكان القمر في تلك الليلة بدراً.

وهكذا بالرغم من حقيقة ان الجزر في شرقي نورماندي كان يتوقع حدوثه بين الساعة ٠٥,٠٠ والساعة ٠٦,٠٠ من صباح يوم ٦، فلم يكن يبدو هناك أي احتمال بهجوم مباشر تجاه هذا القاطع من الساحل.

اولى بوادر الغزو :

في حوالى الساعة ٢١,١٥ من مساء ٥ حزيران ، كنت في مطعم ضباطنا في سان جيرمان عندما جاء ضابط الاستخبارات الاول للقيادة العامة في الغرب يبحث عني ، وكان في حالة انفعال شديد لان رجاله كانوا قد فكوا تواً رموز رسالة لاسلكية بريطانية. فلقد كان من عادة الحلفاء ألاتصال بعملائهم العديدين في الغرب بواسطة اللاسلكي ونجح خبراؤنا في الغالب في

فك رموز هذه البرقيات التي تبدو بريئة لاول وهلة . أما هذه الرسالة الاخيرة فقد كانت، على كل حال، من نوع مختلف تماماً، حيث انها أمرت بتحشيد كافة قوات حركة المقاومة الفرنسية في الليلة القادمة . ولم يكن لهذا سوى معنى واحد: هو أن الغزو على وشك ان يبتدىء .

لا حاجة للقول اننا كنا قد اتخذنا كافة الترتيبات المفصلة التي وضعت موضع التنفيذ في الحال وبصورة تلقائية. وتم إخبار رونشتت ورئيس أركانه وكذلك مقر روملر، وكان هذا الاخير نفسه في طريق عودته الى مقره من أوبرسالزبورغ،حيث كان قد قابل هتلر .وأرسلت الاوامر الى جميع القطعات للانذار العام، بالرغم من أن الكثير من ضباط الجيش السابع لم يكن من الممكن الوصول اليهم شخصياً، طالما انهم كانوا في طريق عودتهم بسياراتهم من بلدة رين الى وحداتهم. اما المقر العام فقد أُخبر بمضمون الرسالة المحلولة والتدابير التي اتخذت . . كل ذلك قد تم بسرعة كبيرة ، وفيما بعد، لم يحدث أي شيء أكثر من ذلك لفترة من الزمن. ومرت الساعات بطيئة مثقلة ، وتجاوز الليل منتصفه ، ثم دقت الساعة معلنة الواحدة، وللآن لم تصل رسائل اخرى الى سان جيرمان . وفي حوالى الساعة الثانية بعد منتصف الليل كنا أقرب الى الاعتقاد بأن ذلك كان مجرد انذار كاذب آخر ، عندما اتصلت بنا مجموعة الجيوش (ب) هاتفياً وأخبرتنا بحدوث إنزالات مظلية في نورماندي بعد منتصف الليل بقليل.

كان أولئك المظليون مسندين بقطعات الهابطين بالطائرات الشراعية ، وأصبح واضحاً في الحال تقريباً ان هناك ثلاثة انزالات تأخذ مجراها على نطاق واسع:اثنان منها على شبه جزيرة كوتنتان والثالث شرقي نهر أورن، وأخبرنا مجموعة الجيوش (ب) ان التدابير الضرورية المضادة تتخذ الآن وان هناك قتالاً شديداً . ومن الجدير بالذكر، انه بسبب عدم معرفة مجموعة الجيوش (ب) للانزال وقت حدوثه ، فان قائد فرقة الانزال الجوي ٩١ الذي كان عائداً من رين دون ان يعلم بوجود خطر ما ، انطلق بسيارته متوجهاً رأساً ، وهو لا يدري ، الى احدى مناطق الانزال فقتل في الحال. وفي اثناء الليل أمكن معرفة هوية القطعات الهابطة وكانت : الفرقتان ٨٢ و ١٠١ الامريكيتان والفرقة السادسة البريطانية ، وكلها من الفرق المنقولة جواً .

رد الفعل الاول لرونشتت :

بالرغم من أنه لم يكن من الممكن تماماً القول فيما اذا كان في نية الحلفاء ان يهاجموا في مكان آخر أم لا ، فقد كان من الواضح انهم يجب ان يسندوا فرقهم الهابطة بانزالات بحرية على الفور تقريباً، طالما ان أثمن فرقهم المظلية والمنقولة بالطائرات الشراعية ستمزق اذا لم يتم ذلك.

وبناء على ذلك أمكننا توقع حدوث الانزالات البحرية في الضوء الاول وان نحزر ايضاً، في ضوء مناطق هبوط الفرق المنقولة جواً، احتمال وقوع الحملة بين نهر اورن وسان فاست لاهوغ. ولم يكن بالامكان في هذه المرحلة معرفة ما اذا كان ذلك هو الانزال الرئيسي ، وعلى كل حال، كان من رأي رونشتت انه لو نجح الحلفاء في إنشاء رأس جسر ثابت ، فانهم سيجعلونه

نقطة لمجهودهم الاساسي، وعليه ، كان من الضروري دحر قطعاتهم الغازية طالما أن هنالك متسع من الوقت.

كان في الغرب فرقتا بانزر تحت قيادة المقر العام من الوجهة الفنية وليس تحت قيادة القائد العام في الغرب وكان يطلق عليهما رسمياً اسم احتياط القيادة الالمانية العليا .وكانت هاتان الفرقتان هما : فرقة البانزر ١٢ (اس. اس. هتلر يوغند) في غرب فرنسا ، وفرقة البانزر (ليهر) المتينة المرابطة جنوب غرب باريس . وبدون انتظار موافقة القيادة الالمانية العليا ، وضع رونشتت هاتين الفرقتين تحت قيادة مجموعة الجيوش (ب) وأمرهما بالزحف نحو كايين ، واستحدث ايضاً المقر الذي دعي، فيلق بانزر الغرب،تحت قيادة الجنرال (جاير فون شويبنبرغ)، ولقد أريد بهيئة الاركان هذه ان تقاتل في المعركة المدرعة ، التي كان من المؤمل ان تطرد القوات البريطانية والاميركية من القارة حال انزالها.

بيد أن هذه الخطة التي قصدّ منها إشراك وحداتنا المدرعة،في ضربة واحدة قوية لم تتم ، حيث ان هاتين الفرقتين المدرعتين تأخرتا على الطرق من جراء القصف الجوي بالدرجة الاولى، وعندما وصلتا أخيراً الى ميدان المعركة ، اضطررنا الى اشراكهما في المعركة لقمة بعد اخرى. لقد كان تدخل القيادة العليا للقوات المسلحة أحد العواملْ التي ساهمت في فشل خطة رونشتت.

الساعات الاولى :

في حوالى الساعة ٠٦,٠٠ من صباح ٦ حزيران ، استلم القائد العام في الغرب رسالتين مهمتين : الاولى من الجبهة ومفادها ان قوات كبيرة من الحلفاء كانت تحاول الانزال تحت ستار كثيف من نيران المدفعية والقوة الجوية،وذلك بين مصبي نهري أورن وڤير ، وكذلك على مسافة أبعد الى الشمال فوق قاعدة كوتنتان . أما الرسالة الثانية التي جاءت بعد بضعْ دقائق من ورود الاولى فكانت صادرة من مقر هتلر العام . وكان ما ورد في تلك الرسالة تعنيفاً، شديد اللهجة لرونشتت بسبب أوامره التي أصدرها الى فرقتي البانزر، اللتين كان يجب عدم تحريكهما، دون موافقة مسبقة من القيادة العليا للقوات المسلحة. «حتى الآن لا يستطيع المرء أن يقول بالتأكيد أين سيقع الغزو الرئيسي ، وبالاضافة لذلك فان هتلر لم يقرر بعد». . هذا بعض ما جاء في الرسالة آنفة الذكر،وبالرغم من اصرار رونشتت على ان الانزال الحاصل كان في ذروة تقدمه ، فقد بقيت القيادة العليا للقوات المسلحة متصلبة في موقفها ، ولذلك تم إيقاف فرقتي البانزر.

وفي صباح وبعد ظهر ذلك اليوم ، اتصلنا أنا ورئيس هيئة الاركان ، الجنرال بلومنتريت ، ورونشتت نفسه هاتفياً مع القيادة العليا للقوات المسلحة عدة مرات ، لكي نعرف ماذا قرر هتلر بخصوص هاتين الفرقتين. والظاهر ان هتلر كان نائماً ولم يجرؤ أحد على ايقاظه . واخيراً عندما انعقد مؤتمر هتلر الاعتيادي فيما بين الساعة الثالثة والرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم ، قرر هتلر السماح باستخدام الفرقتين. وفي الحال أُمرت الفرقتان باستئناف تقدمهما من

حيث توقفنا سابقاً، ولكن الموافقة جاءت بعد فوات الأوان . ففي خلال الصباح وحتى الساعة ١١,٠٠ غطى نورماندي ضباب سديمي كان بامكانه ان يؤمن للفرقتين بعض الحماية من الهجمات الجوية ، وأن يسمح لهما بالحركة السريعة. ثم تبدد الضباب بعد الظهر، وأصبحت جميع المنطقة التي يجب ان تزحف عبرها الفرقتان تحت رحمة قوات الحلفاء الجوية التي تحوم بالحاح منقطع النظير فوق المنطقة. ولم تكن أية حركة فوق الطرق ممكنة في خلال النهار، بسبب هذه المظلة الجوية التي امتدت من نورماندي الى منطقة باريس.

لقد كان واضحاً في مساء ٦ حزيران ان العدو ، باستفادته التامة من تفوقه المادي، قد نجح في تنفيذ انزالات صغيرة ـ مستغلاً حالة الجزر على حساب موانع تحت الماء التي ابتدعها رومل ـ.شمال كايين في منطقة بايو وفي جوار مصب نهر ڤير ، كما كانت هناك حملات اخرى تأخذ مجراها على مسافة ابعد الى الشمال، في منطقة (سانت مير إيغليز) الا ان هذه الحملات لم تكن قد حصلت بعد على موطىء قدم ثابت فوق الساحل.

كانت معركتنا ضد القوات المنقولة جواً والتي انزلت داخل شبه جزيرة كوتنتان تبدو انها تتطور بصورة مرضية: وأخص بالذكر ان عناصر من الفرقة ٨٢ الامريكية المنقولة جواً كانت، قد وقعت تحت رحمة الهجمات المركزة من قبل احتياطنا وأصبحت في ضيق شديد. وابرزت الخسائر الجسيمة التي تكبدها الطرفان دليلاً واضحاً على عنف القتال الناشب هناك ، وانكشف فيما بعد ان الرياح القوية كانت قد حملت أجزاء من الفرقة ٨٢ المنقولة جواً أبعد ما ينبغي الى اليابسة وبذلك عزلتهم عن القسم الاعظم من فرقتهم التي رست في مكان أقرب الى الساحل الشرقي.

أما الفرقة السادسة البريطانية المنقولة جواً والتي نزلت شرقي نهر اورن، فقد بقيت ساكنة نسبياً ، وكان على احتياط رومل المتحرك (فرقة البانزر ٢١) أن يهاجم هنا في الحال على مسؤوليته الخاصة ، ولكنه بدلاً من ذلك راح ينتظر الاوامر ، وعندما أرسلت الفرقة أخيراً ، في الصباح، ظهر للجيش السابع ان استخدامها لتطهير رأس الجسر ، شمال كايين، ثم الاستفادة منها في اغاثة نقاطنا القوية المطوقة في تلك المنطقة ، يحظى بأهمية أكبر من مهاجمة الفرقة السادسة البريطانية المنقولة جواً. وتطلب هذا الاجراء عبور نهر أورن، الذي استغرق وقتاً بطبيعة الحال. وبعد المساء ، هاجمت فرقة البانزر ٢١ رأس الجسر ووصلت طليعتها الامامية الى الساحل، وأمكنها انقاذ بعض نقاطنا القوية، ولكن في هذه اللحظة أنزلت قوات مظلية بريطانية جديدة مباشرة خلف الفرقة الهاجمة ، .فما كان من الفرقة الا ان استدارت حول نفسها وانسحبت . وبهذه المناسبة بودي ان أذكر انني لا أرى أية فائدة في انتقاد قائد الفرقة للقرار الذي اتخذه ، حيث انه كان في منطقة الحادثة، ولم يكن في وسعه سوى أن ينفذ ما أملاه عليه تفكيره في تلك اللحظة. ولقد أحسن صنعاً.

كانت الخلاصة النهائية لقتال ذلك اليوم كما يلي: نجح العدو في تشكيل رؤوس جسوره

الاولية ، وبدأ العمل على تقويتها بسرعة واطراد. وفي الواقع ان العدو كان قد نجح في اختراق طوق دفاعاتنا الساحلية . وفي عرض البحر ربضت (ارمادا) هائلة كان ينطلق منها سيل لا ينقطع من زوارق الانزال السريعة، التي كانت تقذف بحمولتها من الرجال والدبابات والمدافع فوق الساحل. اما قطعاتنا المدافعة فقد جمدت في أماكنها بالقذائف والقنابل المتساقطة عليها ، حتى انها لم تستطع الا نادراً تتبع ما كان يحدث . وبقيت المعركة ضد الفرقتين الامريكيتين المنقولتين جواً غير واضحة المعالم ، فقد كانت الفرقتان تتقدمان وهما تقاتلان بشدة ضد مؤخرة قوات الألمان الساحلية الى الشمال من نهر ڤير ، وإذا ما نجحتا في الوصول الى السواحل ، فان الهجوم سينجح عندئذ هنا ايضاً وسوف يكون بالإمكان ارسال التعزيزات إليهما على شكل سيل لا ينقطع.

الغزو يتأكد:

أمرت القيادة العامة للقوات المسلحة ، المرة تلو الاخرى وبلجاجة ملحة، بوجوب دفع الجيوش الغازية الى البحر. ولكننا لم نخبر عمن سيقوم بعملية الالقاء هذه، فلقد كانت قذائف مدفعية العدو البحرية ذات تأثير مدمر، وكان مداها أكبر بكثير مما كنا نتوقع. ومنعت سيادة العدو الجوية اي حركة واسعة النطاق في ضوء النهار، ولذلك ستصبح جميع طرق تموينا القادمة نحو نورماندي، والكائنة فيها خراباً في خلال بضعة ايام . وفي الحال بلغت الصعوبة حداً كبيراً، حتى في تموين قواتنا التي اشتبكت بشدة مع العدو . وفي الوقت نفسه كانت الهجمات الجوية الواسعة على جسور نهر السين الاسفل وعلى شبكة سكك الحديد الداخلية حول باريس ، قد جعلت من المستحيل إمرار القطعات والمعدات عبر العاصمة، ومن الصعب جداً نقلها عبر النهر.

وفي الايام القليلة القادمة، نجح الحلفاء ، بعد قتال مستمر شديد، في توسيع رؤوس جسورهم خطوة بعد اخرى ، واتصلت رؤوس الجسور الواقعة بين نهري أورن و ڤير ، حتى اصبح الآن جميع هذا الجزء من الساحل في أيدي الحلفاء. وكان الامريكيون ايضاً يحرزون تقدماً في منطقة كارنتان والى الشمال الغربي منها.

لقد عرفنا الآن هوية مجموعتي جيوش معاديتين مشتركتين في الانزال،وهما مجموعة الجيوش ٢١ البريطانية في الشرق ومجموعة الجيوش ٢١ الاميركية في الغرب. أما الهجمات المعاكسة المدرعة التي أمرت بها القيادة العامة بالحاح مستمر فلم تؤد الى نتيجة ما : إذ إنها أوقفت في أماكنها في مرحلة مبكرة من الهجوم، أو لم يكن بالامكان شنها مطلقاً . والسبب هو ان القوات المخصصة للهجوم المعاكس قد بدلت وجهتها نحو أزمة او اخرى من تلك التي كانت تتطور دائماً في أماكن مختلفة.

وبعد مرور ثلاثة او أربعة ايام على هذه الحال، تلاشى كل شك في ان الأنزالات الواسعة

التي استهدف منها تقرير نتيجة الحرب قد نجحت في مهمتها. ولم يبق لنا الآن سبيل نسلكه سوى محاولة حصر قوات الحلفاء داخل نورماندي، وبذلك نمنعها من الاختراق والتوغل الى قلب فرنسا، حيث سيكون في مقدورها عندئذ توسيع نطاق عملياتها بحيث تشمل منطقة شاسعة.

فلقد كان من الواضح لدينا ان هدف الحلفاء لابد أن يكون باريس، لأن التاريخ قد أثبت ان من ينال باريس ينال فرنسا.

من المستحيل ان نصف هنا كافة تطورات معركة نورماندي بصورة مفصلة. ويكفي القول ان استراتيجية العدو أصبحت واضحة في الحال. وهي ان يتم التقدم من منطقة كارنتان مبدئياً، ثم يتطور ذلك التقدم الى حركة كماشة، وفي النهاية ستقطع تلك الكماشة كافة شبه جزيرة كوتنتان، وتؤدي الى الاستيلاء النهائي على قلعة شربور. وعندما أصبح نجاح هذه الحركة أكثر فأكثر أحتمالاً، اتفق رونشتت وروميل على ان الوقت قد حان ليقرر هتلر شخصياً ماذا يجب ان نعمل، وكيف سنتابع القتال في الغرب. وبكلمة اخرى ماذا ستكون «استراتيجيتنا». فلقد كان واضحاً للفيلد ماريشال انه لم يعد هناك أمل في تغيير الموقف السائد بتدابير محدودة، وان السبيل الوحيد المفتوح امامنا هو إغلاق نورماندي على طول خط ملائم وعلى مسافة كافية خلف الجبهة الحالية، وعلى طول خط كهذا سيكون بالإمكان من جديد ايجاد موضع دفاعي قوي، وسيمكننا هذا الموضع من سحب احتياطاتنا الآلية من القتال بشكل يجعلها متيسرة لذلك النوع من العمليات الذي هيئت له، وفي الاخير قبلت طلبات الماريشالين الملحة لمقابلة هتلر.

مؤتمر مارغيفال:

وصل هتلر الى مركز قيادته القديم في مارغيفال، بين سواسون، ولاوون في ظروف كتمان شديد، وكان المركز مخفياً بعناية فائقة. وهناك التقى بالمارشالين ورئيسي أركانهما، واحدثت تقاريرهما الاولى عن الموقف صدى أكيداً لدى هتلر، ووعد بأن يقدم في الحال التوصيات الضرورية التي طلباها للمرحلة القادمة من المعركة. ولكن مزاجه تبدل عندما انتقل الحديث عن النتائج التي ستترتب على انزال الحلفاء الناجح. وهنا أفصح روميل عن فكرته بقوة متميزة، وطلب ان تستخلص القرارات السياسية من الموقف العسكري في الغرب. فانتاب هتلر الغضب، وفسر نصيحة روميل تفسيراً خاطئاً، وأمره بأن يهتم بالأمور العسكرية فقط، أما السياسة فلها من يعنى بها، وتبين ان فحوى ملحوظات هتلر كان يعني انه ليس بمقدور أحد ان يتصافى معه.

وبينما كان المؤتمر يأخذ مجراه، وردت رسالة لتعلن عن سلسلة جديدة من الازمات التي كانت تتبلور في المنطقة الكائنة جنوب شربور، وأفادت الرسالة ان قوات امريكية مدرعة كانت قد انطلقت من رأس جسرها في كارنتان وتوغلت باتجاه الشمال الغربي بحركة تطويق واسعة، وانها تهدد الآن شربور نفسها. فأعلن هتلر عن نيته في زيارة ذلك القطاع شخصياً في صباح اليوم التالي.

لم يقم هتلر بتلك الزيارة، وفيما بعد، في ذلك اليوم نفسه انحرفت احدى القنابل الطائرة (V1) التي كانت قد اطلقت نحو لندن ، واستدارت حول نفسها ، وانفجرت على مقربة من مركز قيادة هتلر، فانطلقت جميع قوى الامن في تحقيق محموم عن الحادث ، وفي الحال استقل هتلر طائرته عائداً الى برختسغادن تصحبه حماية قوية من المقاتلات.

أما التعليمات الجديدة التي نتجت عن المؤتمر فكانت عبارة عن كونها اعادة جديدة للتعليمات القديمة الداعية الى وجوب الدفاع عن شربور وعن كل ياردة مربعة من التربة النورماندية حتى آخر طلقة وآخر جندي . وكان هذا بطبيعة الحال أمراً مستحيلاً ، فقد كانت الجبهة البرية لقلعة شربور ممتدة الى مسافة أكثر بكثير مما يمكن مسكه ببقايا الفرقة ٧٠٩ ،وبتلك العناصر التابعة للفرقة ٧٧ التي أجبرت على اللجوء اليها ، فسقطت شربور في ٢٦ حزيران. وهكذا انتهت المرحلة الاولى من معركة نورماندي.

تبدلات في القيادة الالمانية:

في أواخر حزيران ، أرسل روмل الى هتلر تقريراً جدياً آخر عن الموقف. ووافق رونشتت على ذلك التقرير كما وافق عليه الجنرال فريهر جايرفون شوينبرغ الذي أفصح عن آرائه الخاصة بالسحق الاحمق لفرقة البانزر في رأس جسر كان، والذي طالب باعادة النظر في التعبئة الالمانية . . طلب الماريشالان اجراء مقابلة اخرى مع هتلر، وتمت هذه المقابلة في برختسغادن في أواخر الشهر.

وتم استقبال الماريشالين بطريقة تنقصها المجاملة بصورة جلية . فلقد تركا ينتظران بضع ساعات ، وعندما تم استقبالهما أخيرا من قبل هتلر بادرهما هذا الاخير بخطاب مطول يتعلق بالاثر المتوقع من « أسلحة المعجزة » الجديدة ، وغادر الماريشالان الاجتماع بمزاج سيء للغاية حقا ، وعندما رجع رونشتت الى مقره اتصل بكايتل هاتفياً وقال له انه يرى ان من الاحسن لهم أن يجدوا شخصا أصغر منه سنا ليتابع المعركة . ومن الجدير بالذكر ان كايتل نفسه كان حسنا جدا ، وعندما سأله كايتل ماذا يعتقد ان عليهم عمله ، أجابه رونشتت بصوت جهوري وواضح ، « انهوا الحرب أيها الحمقى ! » . أعفي رونشتت من منصبه ، كما تنبأ بذلك وتمناه ، وأبعد أيضا الجنرال جايرفون شوينبرغ . وفي ٣ تموز وصل الماريشال فون كلوغ الى سان جيرمان . وكان كلوغ قد أمضى الاسبوع الفائت في برختسغادن بصحبة هتلر الذي لقنه أراءه . وليس من العجب ان كلوغ ، بالرغم لما قيل له في القيادة العامة ، كان يعتقد ان رونشتت ورومل متشائمان اكثر من اللازم ، وانه من الممكن إيجاد الوسائل للقتال ولربح المعركة بالطريقة التي يرغب فيها هتلر .

على كل حال ، لم يمض وقت طويل حتى أدرك كلوغ الطبيعة الحقيقية للموقف . وفي الحال أطلعته زيارته المتكررة للجبهة على التفاوت الكبير بين التجهيزات المزرية للقطعات

الالمانية والوسائل الضخمة التي يملكها العدو.. كما شاهد بأم عينيه التأثير المروع لسيادة العدو الجوية . وبعد أيام قلائل لم يكن في وسعه سوى الاعتراف بأن روميل وروندشتت كانا مصيبين في تقديرهما للموقف .

وفي تلك الاثناء استمر القتال في نورماندي بشراسة لا هوادة فيها . وكان كل يوم يشهد تقدماً أبعد من جانب الحلفاء ، الذين أصبح غرضهم الآن إنشاء جبهة مستقيمة تمتد باتجاه الجنوب عبر نورماندي .

في ١٥ تموز قدم روميل إلى كلوغ تلخيصا واضحا لآرائه الخاصة حول الموقف ، ووافق كلوغ بدوره على التشاور مع جميع القادة الكبار في الجبهة لمعرفة آرائهم .

كان روميل نفسه يزور الجبهة كل يوم . وفي ١٧ تموز وبينما كان عائدا الى مقره هوجمت سيارته من قبل طائرة مقاتلة على ارتفاع منخفض ، فقتل سائقه ، ونقل هو نفسه فاقد الوعي الى مستشفى قرب باريس ، وتبين بنتيجة الفحص ان جمجمته قد شجت بعنف . وهكذا ، وفي هذه المرحلة القلقة من الحملة وجدت مجموعة الجيوش (ب) نفسها بدون قائد . وكان حل هتلر لمشكلة ايجاد خلف لروميل عجيبا حقا ، اذ انه أمر كلوغ أن يستلم قيادة مجموعة الجيوش (ب) بالإضافة الى واجباته كقائد عام للغرب ، ولهذا انتقل كلوغ الى مقر روميل في (لاروش غويون) ، وصدر الامر الى هيئة أركان القائد العام لتتخذ قرارات في جميع المسائل التابعة لمسؤولياته كقائد عام ، بدون الرجوع مسبقا الى مجموعة الجيوش (ب) ، الامر الذي نتجت عنه حالة شديدة التعقيد ، طالما ان آراء كلوغ ، بصفته قائد مجموعة الجيوش (ب) كانت تتضارب في الغالب مع آرائه هو بصفته ايضا القائد العام لكافة مسرح العمليات . لقد كان المستوى الاعلى لقيادة القوات المسلحة الالمانية تركيبا غريبا ، أما موقف القيادة الحالي في الغرب فكان واحدا من أوضح غرائبها .

٢٠ تموز في الغرب :

لم يكن لمحاولة قتل هتلر أي تأثير على سير القتال في نورماندي ، لذلك سأتطرق الى الحادثة باختصار : كان الفيلد ماريشال فون كلوغ مترددا لوقت ما فيما اذا كان عليه أن يصدق التقارير الواردة من القيادة العامة للقوات المسلحة في بروسيا الشرقية القائلة ان هتلر حي ، أو عليه أن يقبل بتلك القادمة من برلين والتي تؤكد نقيض ذلك ثم العمل بموجبها . وأخيرا أفضى بشكوكه شخصيا الى جنرال في القيادة العامة للقوات المسلحة ، فأكد له هذا ان هتلر لم يقتل . في هذه الاثناء كان الحاكم العسكري لفرنسا الجنرال هنريخ فون شتولبناغل قد رضخ لاوامر المتآمرين واعتقل رجال الـ (اس اس) الغستابو البارزين في باريس ، وحالما علم كلوغ بفشل محاولة الاغتيال أوعز الى شتولبناغل باطلاق سراح سجنائه ، واقترح عليه أن يختفي . ولكن هذا لم يأخذ بنصيحة كلوغ ، وحاول بدلا من ذلك أن ينتحر ! الا أنه لم يفلح في ذلك ، واصيب

بالعمى فقط . وبينما هو بين اليقظة والاغماء تلفظ اسم روميل عدة مرات ، ويبدو ان ذكر اسم روميل بهذه الصورة هو أول ما أعطى الدليل للغستابو على أن لروميل ضلعاً في المؤامرة ، وفيما بعد أعدم شتولبناغل وأجبر روميل ، كما هو معروف ، على تناول السم ، ولكن كما أسلفت لم يكن لاي من هذه الحوادث أدنى تأثير على القطعات المحاربة في نورماندي .

قوة الحلفاء في نورماندي :

كنا قد كونا خلال حزيران صورة واضحة جدا عن قوة الحلفاء في نورماندي . فقد كان الجيش البريطاني الثاني يواجه النصف الايمن من جبهتنا ، وكان هذا الجيش يتألف من أربعة فيالق تضم ثماني أو تسع فرق مشاة وفرقة واحدة منقولة جوا ، وواحدة أو اثنتين من الفرق المدرعة بالاضافة الى خمسة أو ستة ألوية مدرعة . أما النصف الايسر من الجبهة فكان يواجهه الجيش الامريكي الاول ، وهو يتألف أيضاً من أربعة فيالق تضم تسع فرق مشاة وفرقتين منقولتين جوا وأخريين مدرعتين بالاضافة الى بضع ألوية مدرعة . وأمكن التعرف على هذه الوحدات كلها في القتال .

بالاضافة الى اسمي الجنرالين آيزنهاور ومونتغومري ، أخذنا نسمع ، اعتبارا من تموز ، الشيء الكثير عن الجنرال باتون الذي ظهر انه يقود جيشا جديدا على جبهة الغزو ، عرفت هويته فيما بعد باعتباره الجيش الامريكي الثالث . ولقد أبلغ عن هذا الجنرال انه قائد خبير بالقطعات المدرعة ، علاوة على كونه مقداماً لا يبالي بالخطر ، ولذلك لقبناه بـ « غودريان الامريكي » .

كانت منطقة (كان) تشكل نقطة المجهود الاساسي للعدو حتى منتصف تموز ، ولكن في حوالي ذلك الوقت، اتضح ان تلك النقطة نقلت الى قطاع سان لو . وكان هناك ما يشير الى ان الامريكيين يهيئون هجوماً رئيسا هنا مستهدفين من ورائه تحقيق اختراق .

شن الهجوم طبقاً لتوقعاتنا تماماً . وفي ٢٧ تموز اخترق الامريكيون الجبهة جنوب سان لو . وكان الجيش الثالث الامريكي يعمل الآن الى الجنوب من الجيش الامريكي الاول ، ونجح في شق طريقه أسفل الساحل الجنوبي لنورماندي باتجاه أفرانش .

قبل ذلك الحدث بوقت قصير ، كان كلوغ قد مرر الى هتلر تقرير روميل الواضح الذي سبقت الاشارة اليه ، وأرفق بالتقرير الملحوظات التالية العائدة اليه بالذات : « وصلت هنا بنية ثابتة لتنفيذ أوامرك في الدفاع والثبات مهما كان الثمن ، ولكن عندما يدرك المرء ان الثمن الواجب دفعه يتمثل في الابادة المطردة ، رغم بطئها ، لقطعاتنا . وانني لأفكر بصورة خاصة بفرقة « هتلر يوغند » التي يستحق سلوكها أعلى ثناء ـ وعندما يرى المرء ايضا ان مجرى التموين من كل نوع تقريبا ، وكذلك التعزيزات غير كاف تماما ، في الوقت الذي لم تكن فيه مدفعيتنا

الميدانية ومدافع مقاومة الدبابات والذخيرة قادرة على القتال في معركة من هذا النوع كما أمرت بذلك ، الأمر الذي لا يترك لنا أي سلاح دفاعي حقيقي سوى معنويات جنودنا الشجعان ـ فعندئذ لا يسع المرء الا أن يكون عرضة لاشد الوساوس حول ما يخبئه المستقبل القريب لهذه الجبهة . وانني لأستطيع القول ان الجبهة محتفظ بها حتى الآن بالرغم من الخسائر اليومية في الارض ، والفضل كل الفضل يعود لشجاعة قطعاتنا الرائعة والى صلابة ضباطنا ، وأخص بالذكر الصغار منهم . ومهما يكن من أمر ، وبالرغم من جميع جهودنا المتوقدة حرارة ، فان اللحظة التي ستنهار فيها هذه الجبهة الممتحنة بطريقة مؤلمة آتية لا ريب فيها . وبمجرد أن يتوغل العدو داخل الاراضي المكشوفة يصبح من المتعذر السيطرة على عمليات منسقة ، نظرا لافتقار قواتنا الى قابليةالحركة . وانني ، بصفتي القائد المسؤول في هذه الجبهة ، اعتبر انه من واجبي لفت نظرك ، يا سيدي الفوهرر ، الى النتائج التي ستترتب على ذلك » .

« لقد كانت كلماتي الختامية التي ذكرتها في مؤتمر القادة جنوب (كان) هي : اننا سنصمد بقوة ، واذا لم تصل أية مساعدة في الوقت المناسب لتحسين موقفنا جذريا ، فاننا سنموت عندئذ ميتة مشرفة في ساحة المعركة » .

ان ذلك المقطع النهائي لم يقدم ، لسوء الحظ ، أي حل تكتيكي ، ناهيك عن الحل الاستراتيجي للمشكلة الماثلة بخصوص الاجراء الذي سيتخذ عندما ستنهار في النهاية الجبهة التي كانت تزداد وهنا باطراد ، ويندفع سيل العدو خارج نورماندي ، وينتشر في حقول فرنسا الواسعة . لقد سبق أن تلافينا في ١٨ تموز اختراقا من قبل القوات البريطانية في منطقة (كان) بعد أن أجهدنا كل عصب من أعصابنا وكل عضلة من أجسامنا . ومن الجدير بالذكر ان ذلك الهجوم الذي شنه البريطانيون كان قوامه كتلة هائلة من الدبابات ضد فرقة منفردة ، هي فرقة ميدان سلاح الطيران ١٦ التي انصب عليها قبل بدء الهجوم ألف طن من القنابل .

هكذا كان الموقف عندما هاجم الامريكيون باتجاه سان لو في ٢٧ تموز ، وأصبح الخطر الذي يهدد أفرانش واضحا . وفي ٣١ تموز سقطت افرانش . وبسقوطها استولى العدو على جسر بونتوبولت سليما دونما تخريب ، وأصبح الباب المؤدي الى وسط فرنسا مفتوحا على مصراعيه .

الاصابات الالمانية :

منذ بداية الغزو حتى ٢٥ حزيران ، كانت خسائرنا كما يلي :

٨٩٧ ضابطاً منهم ٦ جنرالات ، و٦٣ آمر فوج) .
٤٠٢١٧ ضابط صف وجندياً.
١٩٥٦ متطوعاً من الشرق .
المجموع ٤٣٠٧٠

وبعد مضي ثلاثة أسابيع ، أي في منتصف تموز ، ارتفع مجموع اصاباتنا الى ٩٧٠٠٠ ، بينما وصلنا في ذلك التاريخ ٦٠٠٠ بديل ، و ١٧ دبابة جديدة لتحل محل الـ ٢٢٥ دبابة مدمرة .

وفي ٧ آب بلغت خسائر مجموعة الجيوش (ب) ما يلي :

٣٢١٩ ضابطاً (من بينهم ١٤ جنرالاً و ٢٠١ آمر فوج) .
١٤١٠٤٠ ضابط صف وجندياً.
٣٨١٠ متطوعين من الشرق .
المجموع ١٤٨٠٦٩

وفي ١٤ آب ، أي بعد اسبوع واحد ارتفع ذلك العدد إلى ١٥٨٩٣٠

جيب فاليز :

وبطبيعة الحال لقد أدركت القيادة العامة فورا الخطر الكبير الناجم عن استيلاء الامريكيين على افرانش ، وانهال على هيئة أركان القائد العام في الغرب وعلى مجموعة الجيوش (ب) سيل من الاوامر الفورية والنداءات الهاتفية « لن يسمح للعدو بالاختراق والخروج الى الاراضي المكشوفة . على كل فرد أن يثبت في مكانه حتى النهاية » . وبعد ذلك بقليل وصلت الرسالة التالية :

« تدعو أوامر الفوهرر الى أن تسحب جميع قوات البانزر المتوافرة وتوضع تحت قيادة الجنرال إبرباخ ، وستقوم بهجوم معاكس لاستعادة أفرانش » .

كانت الصعوبات التي صاحبت عملية التحضير لهذا الهجوم المعاكس جمة للغاية ، الا أن الهجوم شن أخيرا خلال ليلة ٧ ـ ٨ آب وحقق نجاحا أوليا ، الا أنه أوقف مع طلوع الضوء الاول بسبب تدخل قوة الحلفاء الجوية . وكانت هذه هي المرة الاولى في التاريخ ، حيث يتوقف هجوم كبير بسبب القصف الجوي فقط .

أخذت ثغرة افرانش تزداد الآن اتساعا بصورة مطردة . ومن خلالها كانت تندفع دبابات جيش الجنرال باتون الثالث ، فرقة تلو الاخرى ، داخل الاراضي المكشوفة بين نهري السين واللوار . وكان هدفها الرئيسي لومان ، أما هدفها الثانوي فهو احاطة القوات الالمانية الضعيفة والمبعثرة في بريتانيا بعد قطع خط انسحابها باتجاه الجنوب عبر اللوار .

لقد أصبح جناح الجيش السابع الالماني معلقا الآن في الهواء ، ولم يعد بامكان التعزيزات غير الكافية التأثير على مجرى الحوادث . ومنذ سقوط لومان في ١٠ آب ، أخذ الجيش الامريكي الاول يلتف حول الجيش السابع من الجنوب ، بينما قام الجيش الثالث بحركة التفاف واسعة لتطويقه من الشرق . الا أن حركة الاحاطة الامريكية كانت قد صممت على نطاق أوسع من

هذا ، فقد وجهت قواتهم الرئيسية الآن نحو شارتر ، بينما اندفعت منهم قوات ثانوية قوية نحو المنعطفات المركزية لنهر السين جنوب باريس ، وكان الهدف لهذه العمليات واضحا للعيان ، وهو ليس أقل من قطع مواصلات الالمان غرب باريس ، ثم تطويق كافة جيشي البانزر السابع والخامس جنوب السين الاسفل .

سبب لنا القتال الشديد الذي دار بين ١٠ و ٢٠ آب خسائر عالية جدا في الرجال والمعدات ، ولم يكن لهذه الخسائر أي أمل في تعويض قريب ، الامر الذي أدى الى تهديم مطرد للجيش السابع . وفي خلال هذه المعركة ظهر الجيش الكندي الاول وهو يعمل في يسار الجيش البريطاني الثاني .

وهكذا ظهر الى الوجود الجيب المشهور باسم « جيب فاليز » . الا أن جيش البانزر الخامس استطاع ، بفضل قابليته على الحركة ، التملص من هذا الجيب سليما نوعا ما ، ولكنه كان مهددا باحاطة أوسع في منطقة شارتر ـ درو . وكمثال على الانهيار الذي ساد خلف جبهتنا يمكن الاشارة الى ان أول جندي دخل شارتر كان مراسلا حربياً يركب وحده سيارة جيب . وأُخذ هذا المراسل بطبيعة الحال أسيرا من قبل الالمان وأبدى غضبه بكلمات لها دلالتها قائلاً ، إن الدبابات الامريكية لم تصل حتى الآن كما وُعد بذلك .

نهاية الفيلد ماريشال فون كلوغ :

في حوالى منتصف شهر آب قرر الفيلد ماريشال فون كلوغ زيارة الجيش السابع الذي لم يكن قد طُوّق تماماً حتى الآن في جيب فاليز ، وربما كان حافز قراره هذا شعوره بمسؤوليته الجسيمة كقائد عام أو لعله كان مجرد رغبة منه في ضرب مثل أعلى في التضحية . ومهما كان السبب ، فقد قاد سيارته بصحبة مرافقه الخاص وعربة لاسلكي فقط الى داخل جيب فاليز لغرض زيارة مقر الجيش السابع ومقر فيلق بانزر إبرباخ .

عبثا حاولت هيئة أركان القائد العام في الغرب طيلة ذلك اليوم أن تتصل بكلوغ عن طريق اللاسلكي وكانت تحدوها حاجة ملحة للحصول على قرار منه حول مسألة مهمة للغاية : فلقد وصل الامريكيون الى شارتر وعليه فهل نتخذ ما نستطيعه من الترتيبات للدفاع عن باريس أو ان هناك ستراتيجية جديدة ستتخذ في النهاية ؟ ثم ماذا عن مكاننا بالذات ؟ اذ ان سان جيرمان أصبحت قريبة بدرجة غير مريحة من المعركة ، بالنسبة الى هيئة أركان قائد ساحة عمليات . ومع هذا فانه لم يكن يُسمح لاية هيئة أعلى بتبديل مقرها دون الحصول أولا على موافقة هتلر .

وفي ذلك المساء ، وبعد أن عجز الجيش السابع وفيلق البانزر عن اعطائنا أية معلومات عن كلوغ ، لم يكن في وسعنا سوى ابلاغ القيادة العامة للقوات المسلحة عن فقدانه .

لا يمكن الآن معرفة ماذا حدث بالضبط لكلوغ خلال الساعات التي غاب فيها داخل جيب فاليز ، طالما ليس هناك من بين الاحياء شاهد يعتمد عليه . ولكن قيل فيما بعد ان منظومة تنصت القيادة العامة للقوات المسلحة كانت قد التقطت رسالة لاسلكية موجهة من كلوغ الى باتون تتعلق بامكانية اعلان الهدنة . وفي وسط هذا العرض لم يكن هناك أي شيء أكيد سوى ان عربة اللاسلكي التي رافقت كلوغ كانت قد دمرت بفعل قنبلة ، وانه هو نفسه وصل أخيرا. ماشيا على قدميه الى مقر إبرباخ في أصيل ذلك المساء . وحالما أخبرت القيادة العامة للقوات المسلحة بعودة ظهوره هناك أرسل هتلر أمرا خشن العبارة جدا : « الآن وقد عثر على الفيلد ماريشال فون كلوغ من جديد ، عليه أن ينتقل فورا من جيب فاليز الى مركز قيادة جيش البانزر الخامس ، حيث يستأنف السيطرة على المعركة الجارية » . لم يصل هذا الامر الى كلوغ في وقته ، حيث انه كان في طريق عودته الى مقره الخاص في لاروش غيون .

كانت هذه الحادثة الغريبة هي النهاية حقا لقيادة كلوغ في الغرب . ففي ١٦ آب عقد كلوغ مؤتمرا في سان جيرمان مع قادة القوة الجوية والبحرية وآمر القوات المسلحة في باريس . وفي هذا المؤتمر منع كلوغ القتال داخل المدينة ، وأمر بعدم تدمير المنشآت الحيوية كالماء والغاز والكهرباء ، وطلب إخلاء النساء الالمانيات والجرحى بأقصى سرعة ، وحدد القتال على طرق الاقتراب الى باريس وبصورة خاصة المقتربات الرئيسية منها . ولأجل أن يضمن كلوغ تنفيذ أوامره تلك ، وضع آمر حامية باريس تحت قيادته الشخصية المباشرة .

ترى هل عرف كلوغ ان مصيره قد تقرر ؟ . . لقد لوحظ انه قال « وداعا » لكل ضابط شخصيا ، وكان يبدو عليه شيء من الكآبة وهو يفعل ذلك ، ثم عاد الى لاروش غيون التي وصلها الفيلد ماريشال موديل ليلة ١٧ آب حاملا معه أمرا يحل بموجبه مكان كلوغ كقائد عام للغرب وكقائد لمجموعة الجيوش (ب) . وجلب معه ايضا رسالة قصيرة من هتلر الى كلوغ وفي هذه الرسالة قال هتلر ان كلوغ قد أتعب نفسه كثيرا في خلال أسابيع المعركة ، ولهذا السبب قرر هتلر نقله الى احتياط الجيش لفترة « نقاهة » .

تلقى كلوغ أمر طرده بهدوء تام . وفي تلك الليلة كتب الى هتلر رسالة توسل اليه فيها أن ينهي المعركة غير المتعادلة في الغرب ـ وفي وقت مبكر من يوم ١٨ آب ودع ضباط أركانه وانطلق بالسيارة الى المانيا . وفي ميتز أمر السائق بالوقوف وهناك تناول السم ونقل الى مستشفى ميتز جثة هامدة .

أمرت القيادة العامة باجراء فحص فوري ، وأبرقت نتيجةهذا الفحص الى هيئة أركان القائد العام في الغرب . التي كانت قد انتقلت في هذه الاثناء الى فيرزي بالقرب من رينس ـ في الرسالة المقتضبة التالية بتوقيع يودل : « اكتشف وجود سيانيد البوتاسيوم بصورة أكيدة » .

التملص من جيب فاليز : عبور السين الاسفل :

لم يكن الفيلد ماريشال موديل ، قد شهد الحرب حتى الآن إلا على الجبهة الشرقية . لذا فإنه لم يفهم حالا كامل خطورة الموقف في فرنسا ، وكان يأمل بامكانية اصلاحه ، الا أنه سرعان ما أدرك الاثر الذي لا يمكن تصوره والناجم عن سيادة العدو الجوية ، والدمار الهائل في المناطق الخلفية ، واستحالة التنقل على أي طريق عام في ضوء النهار بدون التعرض لخطر عظيم . وفي الواقع أدرك موديل المعنى الكامل للغزو .

قرر موديل أن يسحب جميع القوات التي يمكنه سحبهاالى ما وراء السين الاسفل ، وذلك بغض النظر عن جميع الاعتبارات الاخرى . وكان هذا القرار يعني محاولةاخيرة لتخليص ما يمكن انقاذه من القطعات حتى الآن من جيب فاليز الذي لم يغلق بعد تماما ، حتى لو استدعى ذلك تخليهم عن أسلحتهم الثقيلة . وفي هذا الوقت كان الجيب يحتوي على هيئات أركان التشكيلات التالية : الجيش السابع ، فيلق بانزر إبرباخ ، مقرات أربعة فيالق مضافا اليها بقايا حوالىثلاث عشرةفرقة . وبالرغم من أن مدفعية العدو كانت تغطي الطرق المتبقية للتملص من الجيب ، فقد نجح الخروج المسند بالدروع خلال ليلة ٢١ ـ ٢٢ آب . وكانت قطعات الجيش السابع التي أفلحت في الخلاص هي اول القوات التي عبرت نهر السين الاسفل بالأطواف ، ثم نقلت الى مناطق الاستراحة في الشمال حيث سيتم اعدادها للقتال من جديد. أما المعركة الناشبة على امتداد السين بين باريس وروان ، فقد تركت الآن كليا تقريبا على عاتق جيش البانزر الخامس .

غزو جنوب فرنسا :

بينما كان القتال الشديد مستمرا في جيب فاليز وحواليه ، وقع الغزو المنتظر لجنوب فرنسا في هذه اللحظة الحرجة جدا بالنسبة إلى القيادة الالمانية .

لقد أخبرنا استطلاعنا الجوي الضعيف المرابط في الرڤييرا لفترة من الزمن ، ان تجمعا للسفن يجري في مرافىء تونس والجزائر . وفي ١٣ و ١٤ آب شوهدت تحشدات كبيرة من سفن النقل وهي تتحرك شمالا على شكل قوافل . وفي ظهر ١٤ آب كانت تلك القوافل تمر غرب كورسيكا ، ولذلك كان وصولها الى شواطىء البحر الابيض المتوسط الفرنسية متوقعا في ١٥ منه . ولعل من الغريب حقا ان شائعات كثيرة كانت قد انتشرت بين الاهالي الفرنسيين مفادها ان الحلفاء سينزلون في ١٥ آب « يوم نابوليون » . أما نحن فقد افترضنا ان هدفهم سيكون وادي الرون . وفي هذا الوقت كانت قيادتنا العليا في الجنوب تتمثل في مجموعة الجيوش (ج) . وفي صباح ١٥ آب استلمت هيئة اركان القائد العام في الغرب رسالة من مجموعة الجيوش (ج) : « وقعت انزالات جوية الى الشرق من وادي الرون قرب دراغينيان ، وكانت القوات المنقولة

جوا تهاجم دفاعاتنا الساحلية في كان وبين سان تروبيز ـ سان رافائيل » . وهنا انقطع الخط ولما تنته الرسالة ، ولم نفلح في اعادة الاتصال مع مجموعة الجيوش (ج) حتى مساء ١٥ آب .وعلى كل حال ، فقد استطعنا في حوالى ظهر ذلك اليوم تدبير حلقة وصل هاتفية مؤقتة مع الجيش التاسع عشر ، وهو الجيش الذي تعرض للهجوم فعلا ، وأخبرنا ذلك الجيش أنه فقد الاتصال مع الفيلق ٦٧ في دراغينيان ، كما أخبرنا انه يعتقد بأن مقر ذلك الفيلق قد اجتيح من قبل المظليين . وبعد قليل من الفشل في بادىء الامر ، كان الانزال البحري المدعوم بقصف جوي وبحري شديد ، قد نجح في خليجي سان تروبيز وسان رافائيل . ولم يعرف حتى ذلك الحين أي شيء عن القوة الغازية سوى انها تتألف من الامريكيين وقطعات فرنسية حرة .

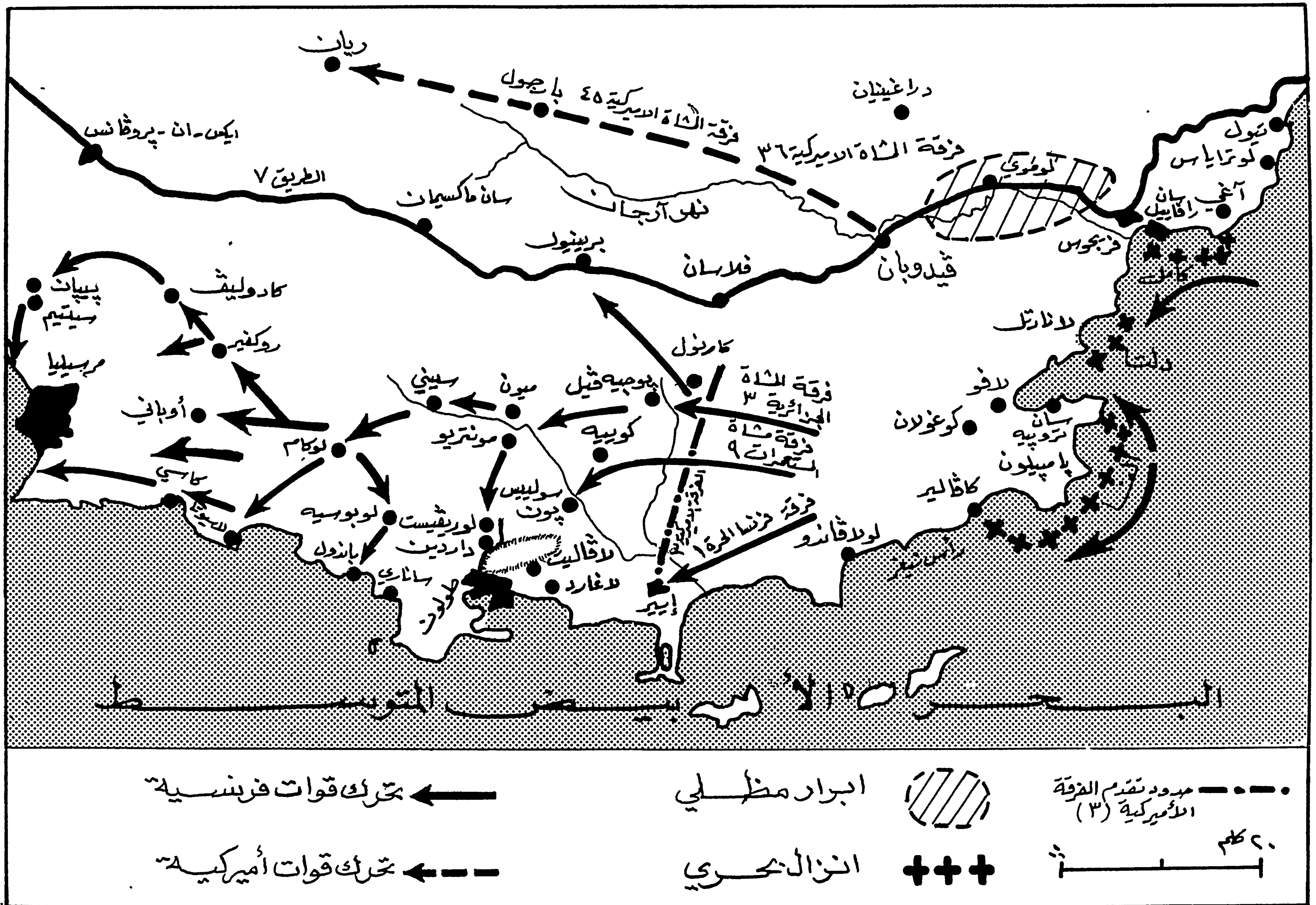
لم يكن لدى الجنرال بلاسكوفيتز ، قائد مجموعة الجيوش (ج) في هذا الوقت سوى فرقة احتياط متحرك واحدة ، هي فرقة البانزر الـ ١١ الممتازة . وبمجرد أن أصبح الانزال أمرا وشيك الوقوع ، نقلت هذه الفرقة من وادي الغارون الى منطقة نيم Nemes في قاطع الجيش التاسع عشر . ولم تكن عملية الانتقال هذه سهلة ، لأن جميع الجسور عبر نهر الرون كانت قد خربت من جراء القصف الجوي . ولقد أصبحت الفرقة آنفة الذكر الآن على الضفة الشرقية من النهر حيث زودت بلاسكوفيتز بالحماية الوحيدة لجناحه ضد حركة تطويق يقوم بها العدو من خلال الجبال .

استمرت اتصالاتنا مع مجموعة الجيوش (ج) ضعيفة للغاية ، ولكننا علمنا ، بعد مضي يومين ، ان جزءا من القوة الغازية كان يستدير غربا باتجاه طولون ، بينما كان الجزء الآخر يحاول الاندفاع شمالا عبر الجبال على خط موازٍ لوادي الرون .

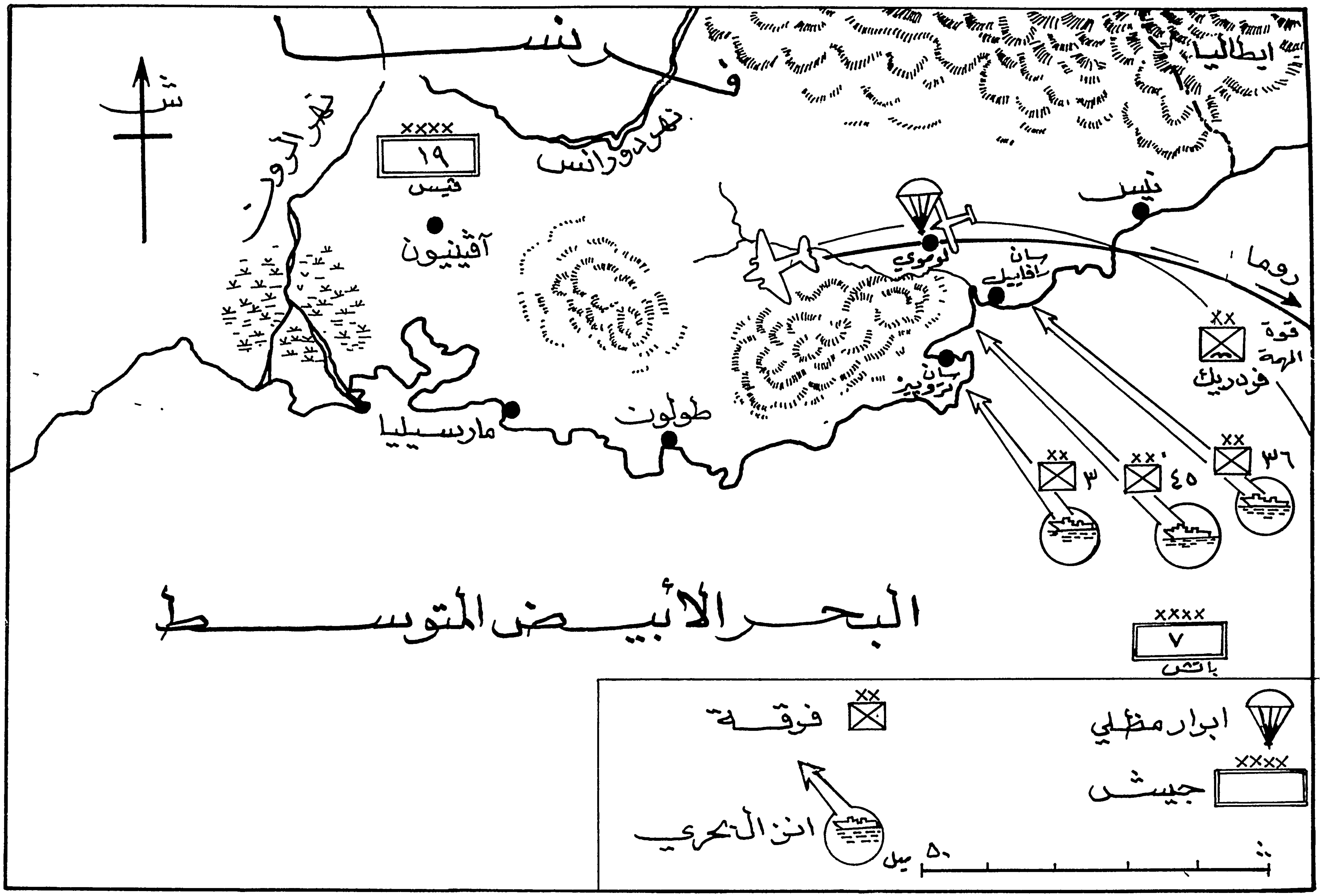
لقد جاء رد الفعل الاول لهتلر على شكل ايعاز بارسال مزيد من التعزيز الى « قلعة » طولون المزعومة ومارسيليا ، وما كان هذا الا مثالاً آخر على افتتانه بفكرة الدفاع الصلب في وقت كنا فيه بأمس الحاجة الى درجة عالية من المرونة في عملياتنا .

كان موقف الجيش التاسع عشر يائساً بوضوح . فلقد افترض فيه أن يمسك ـ بفيالقه الثلاثة التي فى احدها والتي تضم سبع فرق ـ ساحل البحر الأبيض المتوسط الفرنسي الطويل . وكانت مجموعة الجيوش (ج) مسؤولة ايضاً عن ساحل بسكاي مع الجيش الأول الذي كان أكثر ضعفاً من الجيش التاسع عشر . وبناء على هذا الوضع المستحيل ، حاولت هيئة أركان القائد العام في الغرب ، متابعة محاولاتها السابقة من أجل اقناع القيادة العامة بوجوب اخلاء جنوب فرنسا فوراً ، حيث ان نوايا العدو كانت واضحة تماماً . إذ انه رسم خطته على أساس التقدم الى اعلى وادي الرون ، وبذلك يقطع الطريق على جيشنا التاسع عشر ويطوقه بينما سيترك قوات اخرى كافية للتفرغ الى قلعتي طولون ومرسيليا .

لقد مسحت هاتان القلعتان سريعاً بهجمات شنت على جبهتيهما الممتدتين بعيداً جداً على



تحرير طولون ومارسيليا، عملية دراغون (١٩٤٤)



الابرار المظلي والانزال البحري، عملية دراغون (١٩٤٤)

اليابسة . وسهّل مهمة العدو هذه ان القلعتين آنفتي الذكر كانتا أقل ارتفاعاً من الأراضي الكائنة في مؤخرتيهما .

وفي ١٧ آب وافق هتلر اخيراً على اخلاء جنوب فرنسا جزئياً .وحتى في هذا الوقت لم يكن هتلر مستعداً الا لانصاف الحلول ، وعلى كل حال ، فقد أُمرت مجموعة الجيوش (ج) بانشاء موضع متوسط يمتد من مارسيليا الى اللوار ، حيث تتصل هناك مع مجموعة الجيوش (ب) . وكان هذا الامر غير عملي بالمرة ، طالما ان ارتال الحلفاء المتقدمة شمالاً كالسيل كانت قد أصبحت آنذاك وراء ذلك الخط المقترح . وبعد اصرار عنيد من قبل هيئة أركان القائد العام في الغرب ، انصاع هتلر اخيراً لتغيير امره آنف الذكر بالشكل التالي: على مجموعة الجيوش(ج)أن تشغل الآن خطاً يمتد من هضبة لانغر حتى الحدود السويسرية . أما « القلاع » الكائنة على ساحل بسكاي فسوف لن تخلى على أية حال وانما قد طلب في الواقع تقويتها . وهكذا غادرت بقايا مجموعة الجيوش (ج) واتجهت نحو ديجون واللوار مشياً على الاقدام وبدون تموين . وانه لمن الرائع حقاً أن تنجح غالبية مجموعة الجيوش في الوصول الى اهدافها بعد ذلك الزحف الطويل ، ولم يفقد منها في الطريق سوى رتل واحد .

كانت حركة الكماشة الجديدة في الجنوب تشكل تهديداً لكل الجبهة الالمانية في الغرب ، منذ أن بدا من المحتمل أن تُعزل مجموعة الجيوش (ج) في خلال قتالها التراجعي في أعلى وادي الرون ، الأمر الذي سيعني ابقاء الجناح الايسر لمجموعة الجيوش (ب) متأرجحاً . والأمر الذي يبدو أقرب الى المعجزة ، حتى في هذا اليوم ، هو نجاح الجيش التاسع عشر في زحفه الطويل على امتداد الرون ، بالرغم من هجمات العدو العنيفة .

وأخيراً ، في ١ أيلول ، اتصلت مجموعة الجيوش (ج) هاتفياً من ديجون بهيئة أركان القائد العام في الغرب ، الذي غدا الآن في أرغون الكائنة في الاردين ، وأفاد بأن الانسحاب قد أكمل .

لقد استبقت ، بوصفي لحركات مجموعة الجيوش (ج) ، الحوادث على جبهة مجموعة الجيوش (ب) . ففي هذه الجبهة كان الجيش السابع قد أكمل أخيراً وبصعوبة بالغة انسحابه عبر السين الاسفل ، وذلك في ٢٥ آب . ثم زحف بعدئذ باتجاه الشمال ، وأصبحت الضفة الشمالية لنهر السين بين باريس وروان ممسوكة الآن من قبل جيش البانزر الخامس .

سقوط باريس :

في مكان بعيد في الغرب ، تقدمت قطعات مدرعة امريكية تتبعها دبابات فرنسية باتجاه الشمال الشرقي عبر رامبوييه واخترقت حلقة الدفاعات الالمانية جنوب باريس . وفي ١٤ آب كانت قد توغلت داخل المدينة نفسها حتى نهر السين . أما في جنوب باريس وعلى امتداد

العطفات المركزية لنهر السين ، فقد أنيطت بهيئة أركان الجيش الالماني الأول (الذي كان قد سحب من ساحل بسكاي) قيادة القطعات القليلة المتيسرة في محاولة لإغلاق الثغرة بين باريس واللوار . الا أن ذلك كان مستحيلاً ، إذ أن الفرق المدرعة الامريكية سرعان ما أنشأت رأس جسر عبر السين ، واندفعت نحو الشرق والشمال الشرقي ، مستهدفة كما يبدو المارن ورانس Reins .

أصدر الفيلد ماريشال موديل أمره بانسحاب جيش البانزر الخامس عبر السين الاسفل ، مع تعليمات بأخذ واجب الدفاع عن الضفة الشمالية من قبل ذلك الجيش ، وبعد جهود جبارة وتضحيات كبيرة في المعدات نتيجة الهجمات الجوية المستمرة ، أنجز ذلك العبور ايضاً ضد كل ما كان متوقعاً ، وكانت فرقة البانزر ١١٦ هي آخر من عبر من التشكيلات المدرعة في منطقة روان . ولقد كان المشهد المتمثل على طول ضفاف السين مرعباً ، فقد أشرت مئات من العجلات المحطمة والدبابات المحترقة معالم الطريق الذي سلكته آخر القطعات الالمانية . وعلى كل حال ، فقد أمكن بالكاد انشاء خط دفاعي رقيق على امتداد الضفة الشّمالية ، وذلك بالقاء كل ما تيسر من القطعات في المعركة ، ومن بينها وحدات ضد الطائرات .

ما زال في حوزة جيش البانزر الخامس الآن ثمانون أو مائة دبابة ،وكان يقابلها كتلة من فرق العدو التي كانت تعاد دائماً الى كامل قوتها سواء في الرجال أو التجهيزات بعد كل خسارة تصيبها في أثناء القتال . بينما كانت القوة الجوية المعادية تسيطر كلياً على جميع ساحات القتال المتعاقبة .

كان الامريكيون قد نجحوا في إنشاء رأس جسر على النهر الى الشرق من لاروش غيون وأخذوا يعملون على توسيعه بهمة ، الأمر الذي سيهدد ، في حالة سقوط باريس ، كافة موضع السين حتماً. ولقد اضطر موديل نفسه فعلاً إلى اخلاء مقره في لاروش غيون بسرعة كبيرة لتجنب الوقوع في الفخ .

لقد ضاعت باريس نفسها الى الأبد ، وبامكان هتلر أن يأمر بهجمات معاكسة لاعادة الاستيلاء على المدينة . ولكن بماذا ؟! وحتى انه أمر في النهاية بتدمير باريس بهجوم جوي وباستخدام مدافع الهاون الضخمة ، إلا أن هذه التعليمات لم تحظ بأي قسط من التنفيذ أكثر مما حظي به امره الحازم بنسف الجسور الكائنة في مركز المدينة . ولقد أدى الى ابطال مفعول هذه الأوامر وشبيهاتها الفكر الصائب لكل من الجنرال شبيدل رئيس هيئة أركان مجموعة الجيوش (ب) ، والجنرال بلومنتريت الذي كان مع القائد العام في الغرب .

لقد أصبحت باريس منذ الآن فصاعداً النقطة البؤرية التي انصبت عليها عمليات الحلفاء .

الموقف الجديد :

لم يبق من الجيوش الالمانية سالماً حتى الآن سوى جيش الجنرال فون زانغن الخامس عشر ، الذي شغل دفاعات القنال الانكليزي ، والذي كانت وجهته باتجاه البحر. وكان هذا الجيش ازاء خطر التطويق من الخلف ، وقذفه عن دفاعاته لقمة سائغة بعد اخرى من قبل العدو المتقدم .

أما الجيش السابع فقد دحر تماماً وما كان بإمكانه سوى تقديم بضع مجموعات قتال بصعوبة . وكان جيش البانزر الخامس يقاتل على جانبي نهر الواز ، وكان هذا الجيش ، بعد أن شكل مجموعات قتال متحركة يحاول تأخير تقدم العدو عبر نهر السين ومن بعد عبر نهري المارن والايسن . ولقد قاتلت هذه المجموعات بشكل رائع حتى نجح العدو في تدميرها ، وساهمت في تخليص الجيش الخامس عشر من تحصيناته قطعة بعد أخرى ، ثم سحبه باتجاه الشمال على طول الساحل .

وكان الموقف شرقي باريس مدلهما جداً ، وكانت القوات الضعيفة المتوافرة لجيشنا الأول تخرق باستمرار من قبل الدروع الامريكية . وظهرت ثغرات خطيرة في رانس ولاوون ثم في شالون سورمارن . ولو أرسل الامريكيون قوة مدرعة قوية جنوباً عبر هضبة لانغر لكانت النتيجة تدمير قطعات مجموعة الجيوش (ج) التي كانت تتراجع على طول وادي الرون ، ولكن العدو ، ويا للدهشة ، لم يفعل ذلك .

انعدام وجود مواضع دفاعية مهيأة :

سيعجب القارىء باستمرار لماذا لم يكن هناك أي موضع دفاعي مهيأ قد تدعو الضرورة لسحب الجيش اليه . لقد مضى على وجود جيشنا في فرنسا والبلدان المنخفضة (هولندا وبلجيكا) مدة أربع سنوات ، وأي قائد متبصر يضع نصب عينيه اتخاذ الاستعدادات الضرورية ضد امكانية الفشل في معركة من المعارك ، لا بد وأن يتدبر دائماً خطاً دفاعياً بديلاً جاهزاً للاحتلال في مؤخرته .

الجواب على ذلك هو أن مثل هذا التفكير كان يعتبر خطيئة كبرى في نظر هتلر . ولم يكن يسمح لأحد حتى بمجرد التفكير في امكانية حدوث انسحاب ، ولقد شعر هتلر ان إعداد خط دفاعي في مؤخرة قطاع المعركة قد يشجع أفكاراً كهذه .

نعم ، لقد نوقشت نظرياً امكانية بناء خط دفاعي يمتد من السوم ويستمر على طول الخط المار في منطقتي المارن والساوون حتى الحدود السويسرية بجوار بونتارلييه . إلا أن خطاً كهذا لم يتم انشاؤه ، وليست هنالك الآن أية قوات متيسرة سواء كان ذلك لأجل بنائه او لاشغاله . لقد فات الاوان الآن ، إذ ان ذلك الخط الدفاعي النظري كان قد اجتيح من قبل العدو في قطاع المارن .

التوصيات الأخيرة :

لقد جُمّد موديل منذ زمن طويل ، ولم يعد له أي تأثير باعتباره القائد العام في الغرب . وبناء على تطورات القتال فقد اضطر ، كما اضطرت هيئة أركان مجموعة الجيوش (ب) ، إلى تغيير مقريهما في كل يوم تقريباً ، من أجل تجنب الوقوع في قبضة العـدو ، كما انه لم يتمكن من ممارسة أية سيطرة عملية على القرارات المتخذة من قبل قائد وهيئة أركان مجموعة الجيوش (ج) ، التي كانت قد انتشرت في منطقة ديجون منذ ١ أيلول .

وأخذت التقارير التي أرسلها الى هتلر ، والطلبات التي قدمها الى المقر العام ، تزداد حدة ، لأنها كانت مستندة إلى تجارب مجموعة الجيوش (ب) ، كمـا انـه لم يأخذ جانب الحذر في كلماته ، ويبدو أنه كان قادراً على مخاطبة هتلر بكلمات لم يكن ليسمح بها لأي قائد كبير آخر .

وفي نهاية آب تقريباً ، أرسل موديل الى هتلر رسالة مطبوعة باللاسلكي ، أوضح فيها أن الموضع لا يمكن المحافظة عليه ، وانه يرى ، بالنظر لخسائر جسيمة اخرى تكبدها حديثاً جيش البانزر الخامس ، ان هنالك سبيلاً واحداً فقط لاعادة انشاء خط الجبهة واعادة تنظيم ذلك الجيش : وكان هذا السبيل في رأيه هو الانسحاب الى الجدار الغربي ، ذلك الجدار الذي كان عبارة عن دفاعات الحدود الالمانية لفترة ما قبل الحرب ، والمعروف في الخارج باسم خط سيغفريد . وعلى القارىء أن يعرف ان أي ذكر للجدار الغربي حتى ذلك الوقت كان ممنوعاً اطلاقاً . ولم يجرؤ أحد حتى ذلك الحين على تقديم اقتراح كهذا الى هتلر . إلا أن رسالة موديل آنفة الذكر قد حلت العقدة . فلقد أصدر هتلر توصياته الآن بوجوب قيام الجيوش الغربية بدفاع تراجعي بغية الانسحاب الى المنطقة الكائنة مباشرة امام الجدار الغربي ، ثم الى الموضع الغربي المزعوم الذي كان يتاخم حدود الالزاس واللورين .

قد تنجح هذه المناورة في سدّ الثغرة بين الجناح الأيسر للجيش الالماني الأول ووحدات مجموعة الجيوش (ب) التي ما زالت تنسحب باتجاه الشمال . الا أن الأمر الذي كان غير واضح هو كيف سيعيد الجيش الخامس عشر الاتصال ببقية الجبهة ؟

كانت بقايا جيش البانزر الخامس والجيش السابع قد دفعت الى الخلف باتجاه الشرق عبر نهر الموز . وكان الجيش الأول في لكسمبورغ وعلى طول نهر الموزيل . وفي ٣ أيلول سقطت بروكسل ، وفي الرابع منه دخلت القطعات البريطانية انتويرب ، ولو انها فشلت في تمديد قبضتها على المدينة أو في تطهير المقتربات المؤدية الى المرفأ . لذا كان الجيش الخامس عشر قادراً على التملص سالماً عبر مصب الشيلدت والجزر . ولقد أفلح في التملص ، وأخذ مواضع جديدة خلف قناة البرت ونهر الموز ، ولو ان طريق الانسحاب المقبل من تلك المواضع كان مقطوعاً .

عودة رونشتت :

لم تكن الجبهة بكاملها ممزقة وواهنة فحسب ، بل ان معنويات القطعات ايضاً كانت تعاني الكثير من عوامل الانحطاط إبان التراجع الشاق الطويل . وكانت هناك حاجة ماسة الى يد قوية لتسيطر على الدفة وتعيد الى الجبهة وحدتها بأقصى سرعة . . تلك الجبهة التي أصبحت تضم الآن الموانع المائية الهولندية والجدار الغربي والموضع الغربي المجاور . وعندما اقترح الجنرال بلومنتريت ، في النصف الثاني من شهر آب ، استدعاء رونشتت من جديد ، كان يعلم حق العلم ان اقتراحه هذا يعكس رغبات القطعات المقاتلة ، فاستُدعي رونشتت من تقاعده للمرة الثالثة ، ووصل الى مقر القائد العام في الغرب الكائن آنذاك في اهرنبرغ ازاء كوبلنز في ٥ أيلول . وكان بصحبته رئيس هيئة أركانه الجديد الجنرال سيغفريد ويستفال . أما نحن ، ضباط الأركان جميعاً ، فقد كنا فرحين لرؤيته عائداً من جديد .

حالة الجدار الغربي :

لعل فرقنا الضامرة ـ التي انكمشت قواها الآن الى حوالى ١٠٠٠ ـ ١٥٠٠ رجل للواء الواحد ـ اعتقدت انها ستجد في الجدار الغربي سنداً متيناً . وان صح هذا الاعتقاد فإنها ، كانت على خطأ عظيم . فلقد كان الجدار الغربي خلال السنوات القليلة الماضية قد نُهب كلياً وبطريقة منهجية لصالح جدار الاطلسي . وفي آب ١٩٤٤ كان في حالة من الضعف يرثى لها . ولم تتخذ القيادة العامة الخطوات الضرورية لجعله صالحاً للدفاع من جديد الا في ذلك الحين . بيد أن هذه المهمة لم تُعط الى القادة الذين كانوا على رأس الجيوش الغربية ، وإنما أعطاها هتلر الى هملر . وحاول هذا الاخير ، معتمداً على المتطوعين الشعبيين بناء المنشآت الدفاعية التي تبين انها لا تستجيب فنياً أو تكتيكياً لمتطلبات الحرب الحديثة ، وانها لم تسفر الا عن بعثرة الرجال وضياع جهودهم وعملهم . وأخيراً أُهمل هذا الاسلوب في السيطرة بناء على اصرار رونشتت ، وأُنشئت قيادة جديدة سُميت بالقيادة العليا للتحصينات ، وراحت هذه القيادة تسلح الجدار الغربي بطريقة منهجية وضمن حدود الامكانات . وبالنظر لعدم توافر قطعات مدربة آنذاك على حرب الحصون ، لذلك تقرر أن تدار تلك المنشآت الدفاعية في حالات كثيرة من قبل وحدات تابعة لجيش التدريب .

كان رونشتت مؤمناً ان الحلفاء قادرون آنذاك على اختراق الجدار الغربي عندما يشاؤون . ولقد تأكد ذلك عندما اخترقت فرقة مدرعة امريكية شمال نهر الموزيل وباتجاه بتبرغ ، ولم يتم ايقافها فيما بعد إلا بصعوبة بالغة . الا أن عمليات الحلفاء ، ويا لدهشتنا ، توقفت تماماً في شمال الجدار الغربي : ويبدو ان السبب في هذا التوقف كان يعود لمشاكل التموين والامداد .

قوة العدو في أيلول ١٩٤٤ :

قدرنا قوات العدو التي كانت تواجه الالمان في الغرب بثلاث وخمسين فرقة ، بينما كانت خمس فرق أخرى مشتبكة في القتال ضد « القلاع » المتروكة وراءنا في بريتاني وعلى ساحل القنال الانكليزي. وبالاضافة الى ذلك ، فقد عرفنا ان في بريطانيا أربعاً وثلاثين فرقة جاهزة للعمليات ، من بينها عدة فرق منقولة جواً .

أما الألمان فقد كان لديهم (نظرياً) نفس العدد تقريبا من الفرق في الجبهة الغربية . إلا أن قوة القتال لكل من هذه الفرق لم تكن لتزيد الا نادراً عن ثلث قوة فرقة من فرق الحلفاء . وكانت قوتنا في الدبابات متدنية بصورة خاصة . وفي الحقيقة ، اننا لو حسبنا ميزان القوى استناداً الى قابلية القتال لفرقنا لوجدنا أن لدينا ما يعادل سبعاً وعشرين فرقة تواجهها ثلاث وخمسون فرقة معادية .

جنون القلعة :

بناء على أمر هتلر الصريح ، كانت عدة معارك مستعرة بدون هدف بين العدو و« القلاع » الكائنة على طول القنال الانكليزي وسواحل الأطلسي ، وكانت تلك « القلاع » تقاد من قبل ضباط مختارين ، كانوا قد أقسموا يميناً خاصا. ومن الصعب القول من أين جاء هتلر ببدعة القلعة هذه . ولعله اعتقد أن « القلاع » ستجمد قسما من قطعات العدو ، الأمر الذي سينقص عدد رجالها عندما ستدخل القتال في المعركة الأخيرة داخل ألمانيا ذاتها . الا أن الأمر الذي فات هتلر ، هو أن حاميات القلاع ستصبح عديمة النفع بالنسبة لادارتنا للحرب ، حالما تفقد اتصالها بالقوات الألمانية الرئيسية .

ان أكثر الأمثلة حدة على هذه السياسة الحمقاء ، هو ما نتج عن جزر القنال حيث تجمدت فرقة بأكملها دون أي عمل ، الأمر الذي جعل فيتسليبن يصف الزام هذه الفرقة بالدفاع عن جزر القنال « بجنون الجزيرة »، إذ إن العدو اكتفى بوضع تلك القلاع تحت المراقبة ـ باستثناء برست التي كان الحلفاء بأمس الحاجة اليها بسبب تسهيلات مينائها ـ طالما أن القلاع ، لا تتمكن من التأثير على سير الحملة ككل . بيد أن الأثر السلبي للقلاع انعكس علينا ، لأنها كلفتنا ما بين ١٦٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠٠ رجل مع أسلحتهم وتجهيزاتهم الثمينة .

ومثال آخر على غرابة أطوار هتلر وانحرافه عن الصواب ، هو عادته في تعيين « قادة معركة » في كل أزمة أو في كل محل يتعرض للتهديد . وكان الضباط المعينون في تلك المراكز يجابهون عادة بمهمة مستحيلة التنفيذ . وكانت « وحدات الطوارىء » الموضوعة تحت أمرتهم تتألف من رجال مسحوبين من كل نوع من وحدات الخدمات الخلفية ، كالكتبة والسائقين وأمناء المستودعات . . . الخ ولا يمكن أن يتوقع من مثل هذه التشكيلات ، حتى ولو كانت لها

أحسن ارادة في العالم ، أن تقاتل بنجاح ضد الدبابات . وكانت النتيجة الوحيدة التي جنيناها من جراء ذلك هي تبذير في الرجال لا مبرر له .

أيسن وأنتويرب وأرنيم :

في نهاية الأسبوع الأول من أيلول كانت الجبهة الغربية هادئة نوعا ما ، عدا وجود ضغط شديد في منطقة الأيسن التي هاجمها الأمريكيون بعنف . وتمكنوا في ٩ أيلول من شق طريقهم داخل بضعة مواضع أمامية في الجدار الغربي ذاته ، وكانت هذه هي فاتحة المعارك الثلاث من أجل الأيسن ، والتي استمرت طيلة الخريف والشتاء القادمين .

كان العدو يستهدف من وراء الاستيلاء على المدينة فتح الطريق للتقدم نحو الرون . وفي هذه الآونة كان العدو كثير الإنشغال بتطهير المقتربات نحو أنتويرب التي كان بأمس الحاجة اليها كميناء لتموينه . وكانت القوات الألمانية في ذلك الوقت محتفظة بالجزر الساترة لمصب نهر شيلدت ، واستوجب الدفاع عن كل جزيرة من تلك الجزر عبر معارك مريرة ، وتطورت تلك المعارك أخيرا الى معركة من أجل والشيرن . وفي النهاية دمرت أرصفة والشيرن وتحطمت سدود قنواتها بواسطة هجوم جوي عنيف . وفي ٨ تشرين الثاني سقطت أجزاؤها التي لم تبتلعها المياه بعد في أيدي الحلفاء . ولا شك أن حرمان العدو طوال هذه المدة من الاستفادة من أنتويرب كقاعدة ، قد أثر على ادارته لمجرى الحرب آنذاك .

لقد صاحب هجوم الأمريكيين على الأيسن انزال واسع النطاق لقوات الحلفاء المنقولة جوا ضد الراين الأسفل في ١٧ أيلول . وتم إنزال الموجة الأولى وراء خطوطنا في يوم مشمس جميل من أيام الخريف . الا أن بعض القطعات أسقطت فوق الضفة البعيدة . وتطور في الحال قتال شديد ، وأظهر الفيلد ماريشال موديل طاقة عظمى في زج جميع القطعات التي أمكنه جمعها سوية ضد فرقة المظليين البريطانية الأولى شمال النهر في أرنيم . وقاتلت هذه الفرقة بشجاعة بالغة ، إلا أن مبادرة موديل كانت قد توجت بالنجاح في نهاية الشهر ، وامحت الفرقة البريطانية من الوجود .

بعد الانزالات الجوية مباشرة ، اشتركت قوات كبيرة من الجيش الكندي الأول في الهجوم البري ، وبالرغم من نجاحها في الاستيلاء على مساحة ما من الأرض ، إلا أنها لم تنجح في انجاز غرضها الرئيسي المتمثل في تأمين رأس جسر عبر الراين الأسفل .

وكان الانجاز الايجابي الوحيد للعدو خلال خريف ١٩٤٤ استيلاءه على جسر نيميغن الذي بقي في حوزته . وعلى أية حال ، فان هذه العمليات كشفت النقاب عن استراتيجية العدو المستقبلية . وكان من الواضح أن نقطة مجهوده الأساسي ستكون في المنطقة الكائنة بين منحنى الراين الأسفل وايسن مع الرون والسهل الشمالي لألمانيا كهدف أولي . أما هدفه النهائي فهو برلين .

الخلاصة :

في أحد أحاديثه الخاصة ، قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية ، أفاد هتلر أنه لا يخشى في الوجود الا شخصين : تشرشل ، وستالين ، حيث انه لم يكن قد سمع آنذاك باسم آيزنهاور ولو أنه سمع به لأضافه الى قائمة أعدائه المهلكين .

إن مما يثير الاعجاب ، قيام بلد ديمقراطي بمنح القائد آيزنهاور كامل صلاحيات القيادة على قوة مسلحة تتألف من الأسلحة الثلاث (الجوية والبحرية والبرية)، بينما كانت الحالة عندنا مختلفة كل الاختلاف . فلقد كنا نعيش في ظل حكم دكتاتوري ربما اعتبرت فيه وحدة القيادة أمراً مسلماً به ، الا أن كل سلاح كان يقاتل معركته الخاصة ، ولم ينجح ، رونشتت أو رومل في تبديل هذا الوضع وتكوين قيادة موحدة ، وأغلب الظن أنه لو حاول هذان القائدان ذلك لتكللت محاولتهما بالنجاح . وكانت النتيجة هي أن الجيش الألماني قاتل بيد واحدة ضد جميع القوات المسلحة للحلفاء . ولما كانت تلك القوات متفوقة على جيشنا في كل المجالات ، فان الانحدار النهائي كان أمرا لا مرد له . ومما زاد الانحدار تأكيدا ، اصرار هتلر على الدفاع الثابت تماما ، وعلى الاحتفاظ بكل ياردة مربعة من الأرض حتى آخر طلقة وآخر جندي .

لقد تكبدنا ٥٠٠٠٠٠ ـ ٦٠٠٠٠٠ اصابة ، من ضمنها حاميات « القلاع »، وخسرنا فـرنسا وبلجيكا كاملهما ، بينما أجبر خط الدفاع عن ألمانيا على التراجع حتى الحدود الألمانية ذاتها .

وفي خلال آب ١٩٤٤، كنا نتساءل باستغراب لماذا لم تندفع قيادة العدو فورا الى الأمام باتجاه الشرق عبر الموزيل في منطقة ميّز ، ولماذا لم تحاول قطع الطريق عـلى مجموعة الجيوش (ج) عند تراجعها شمالا . ولكن التطورات المقبلة أوضحت ، على أية حال ، استراتيجية آيزنهاور . فلقد كانت أهدافه هي : الرور والسهل الشمالي لألمانيا وبرلين . أما الأهداف الأولية التي ستمهد للأهداف الكبرى تلك ، فكانت تتضمن الاستيلاء على أيسن وعلى منحنى الراين الأسفل . وتظهر نظرة إلى الخريطة استقامة الخط الذي يوصل نورماندي ببرلين مارا في أيسن والرور . ولو نجحت استراتيجية آيزنهاور في خريف ١٩٤٤ لما كانت هنالك حاجة للقتال من أجل الجدار الغربي ولا من أجل الراين الأوسط والأعلى لأن كلاً منهما كان سيسقط تلقائيا .

لقد أعطانا قرار الحلفاء بالتوقف أمام الجدار الغربي والموضع الغربي فرصة للتنفس . تلك الفرصة التي استغليناها استغلالا كاملا وراحت القيادة العامة الألمانية تبذل الآن كل ما في وسعها لتجعل الجبهة الغربية قوية مرة أخرى . وبالرغم من القتال الناشب في أيسن ، فقد أُرسلت التعزيزات على عجل الى الجبهة كلها ، وزُودت فرق البانزر من جديد بالدبابات ، ودُعمت المدفعية ، ومارس رونشتت ، بمعونة رئيس هيئة أركان قدير ، سيطرة حازمة على التشكيلات العاملة تحت امرته . وبفضل رونشتت ورئيس أركانه ، أُعيد تنظيم الجيوش

وأصبحت آلة صالحة للقتال من جديد . وسُحبت مجموعة الجيوش (ج) ببطء من منطقة (شالون ـ سور ـ سون) وأمنت الاتصال والتعاون مع الجيش الأول الكائن إلى يمينها ، ومسكت قاطع الموزيل الأعلى الى الحدود السويسرية ، ونجحنا رغم كل ما كان متوقعا في اعادة تكوين جبهة ثابتة وموحدة .

عندما أطل الشتاء كانت الجيوش موزعة على الترتيب التالي : مجموعة الجيوش البريطانية ٢١ ووجهتها شمالا من الساحل حتى نهر الموز ، ومجموعة الجيوش الأميركية ١٢ ووجهتها شرقا من نهر الموز حتى الألزاس ، وعلى يمين هذه المجموعة تمتد مجموعة الجيوش السادسة (الأميريكية ـ الفرنسية) حتى الحدود السويسرية .

وكان جيش أمريكي جديد ، وهو التاسع ، يتحشد شرقي باريس ، حيث أنشأ آيزنهاور مقره . وهكذا انتهت معركة فرنسا ، أما معركة ألمانيا فكانت على وشك الابتداء .

٢ ـ النهاية تقترب

بقلم : سيغفريد ويستفال

بينما كان هجوم الحلفاء يحرز تقدماً سريع الخطى في الغرب، كانت القوات الالمانية في ايطاليا قد نجحت في احباط محاولة العدو لتحقيق اختراق واسع النطاق. ولقد كان هذا الانجاز جديراً بالاعتبار لأن قطعات كيسلرنغ لم تكن مهددة من الامام فحسب ، بل من الخلف ايضاً ، بعد هجمات متكررة شنها جيش الجنرال كلارك الامريكي الخامس في منطقة فلورنس في شهر آب ، والجيش الثامن البريطاني على طول ساحل الادرياتيكي في شهر أيلول .

وبقيت الجبهة الالمانية بعد تلك الهجمات مستقرة نوعاً ما حتى ربيع ١٩٤٥، وكانت الجبهة إذ ذاك تمتد من نقطة ما قرب لاسبيزيا ، وتستمر الى بحر ترينيان ، ومن ثم تستأنف امتدادها الى جنوب مودينا وبالونيا . وهكذا كانت تغلق الطرق المارة عبر الاتروسكا والآبينين ، ثم تستمر الى بحيرة كوماكيو والى الادرياتيكي . لقد استوجب ضياع جنوب فرنسا ، كنتيجة للانزالات الأمريكية الفرنسية في آب ، إنشاء جبهة ثانوية لغلق الممرات خلال جبال الألب على طول الحدود الفرنسية ـ الايطالية ، وكلفت بهذه المهمة قطعات « جمهورية الفاشست الجديدة » والوحدات الالمانية ، ومن مجموعها تشكل جيش ليغوريا تحت قيادة الماريشال رودولفو غرازياني ، غازي أثيوبيا وآخر وزير حرب لموسوليني . وأدت الخسائر الجسيمة في الأشهر القادمة على الجبهتين الغربية والشرقية ، الى تجريد مجموعة جيوش ايطاليا من عدة فرق ممتازة ، الأمر الذي أدى الى اضعافها كثيراً .

لقد شهدت الحرب العالمية الثانية ، اضافة الى المعارك الجوية ، تطوراً جديداً في فن الحرب ، يتمثل في فعاليات الأنصار التي كانت على نطاق يفوق الى حد بعيد ما كان له علاقة حتى ذلك الحين بحرب العصابات ، وبصورة خاصة ما برز في البقاع الشرقية والبلقان . وغالباً

ما أبقت تشكيلات الأنصار الكبيرة الجيش الألماني منشغلاً لسنين بكاملها . وفي بعض الأحيان ، في أصقاع روسيا الشاسعة ، سيطر الأنصار على مناطق بكاملها ، وبناء على ما ورد في اتفاقية لاهاي فان الانصار لم يعتبروا كمقاتلين ، وكان اسلوبهم الاعتيادي في الحركات يقتصر في الغالب على نصب الكمائن . وكانت طرق التموين الحديدية والاعتيادية تقطع بدون تحذير ، وأصبحت تدابير الأمن الخاصة ضرورية ، وطلب من الجنود أن يردوا بمنتهى الشدة لقمع هجمات اولئك المدنيين ، رجالاً أو نساء ، من ذوي المظهر البريء ، وهذا ما يوضح لماذا كانت قطعاتنا تبالغ في دفاعها ضد الأنصار الذين كانت أساليبهم شديدة القسوة . وفي يوغسلافيا ، استطاعت أجزاء كبيرة من الجيش اليوغسلافي التملص واللجوء الى الجبال ، وبذلك تجنبت الوقوع في الأسر ، وقدمت كوادر فرق وألوية جيش الأنصار الذي تشكل فيما بعد ، والذي كان يمون بانتظام بالمواد الحربية من قبل الحلفاء . ولعل أحسن ما يبرز الأهمية العسكرية لحرب الأنصار ، هو ان هذه القوات غير النظامية في يوغسلافيا واليونان لوحدهما ، تمكنت من تثبيت عدة جيوش ايطالية ومجموعة جيوش المانية تضم عشـرين فرقة تقريباً ، ونجحت في زيادة الجهود التي بذلتها قواتنا من أجل ابقاء خطوط مواصلاتها الحيوية مفتوحة . أما في ايطاليا فقد ابتدأت فعاليات الأنصار على نطاق محدود جداً في خلال شتاء ١٩٤٣ - ١٩٤٤ ، ولكنها ازدادت سعة في ربيع ١٩٤٤ ، وبلغت قمة نشاطها خلال تراجع الالمان عندما أصبحت تلك الفعاليات خطراً جدياً يهدد جنودنا . وكان معظم قيادات الأنصار الايطاليين والفرنسيين من الشيوعيين ، واعتمدت قوات المقاومة الشعبية في بلجيكا واسكندنافيا على المقاومة السلبية عموماً حتى غاية خريف ١٩٤٤ ، وعندئذ فقط ابتدأت تلك القوات أيضاً تصبح فعالة .

تكبدت الجيوش الالمانية في الجبهة الشرقية في خلال صيف وخريف ١٩٤٤ أعظم الكوارث في تاريخها . تلك الكوارث التي فاقت نتائجها مأساة ستالينغراد . ففي ٢٢ حزيران ابتدأ الهجوم السوفييتي على مجموعة جيوش الوسط ، وحشد السوفييت لهذا الهجوم كميات هائلة من الأسلحة والأعتدة . وبالرغم من تحذيرات هيئة الأركان العامة ، فان القاطع المشغول بمجموعة جيوش الوسط كان قد أضعف بدرجة خطيرة لصالح مجموعة الجيوش العاملة في جنوبه والموجودة حيث توقع هتلر أن يأتي الهجوم الأول . وبالتالي اخترق العدو مجموعة جيوش الوسط في نقاط عديدة . ولما كان هتلر قد منع بكل شدة إجراء أي دفاع مرن ، لذلك كانت النتيجة ابادة مجموعة جيوش الوسط ولم يتخلص من الموت أو الأسر السوفييتي الا بقايا مبعثرة من مجموع ثلاثين فرقة . وانه لمن المدهش حقاً أن يكون ممكناً مرة أخرى انشاء جبهة جديدة بالرغم من هذه الخسارة المخيفة في الأرواح ، إلا أن هذه الجبهة كانت الآن محرومة من العمق .

وفي أقصى الشمال أيضاً دقت ساعة الكوارث مرة اخرى . ففي ٩ حزيران شن السوفييت هجوماً واسعاً ضد جيش لابلاند الفنو - جرماني الشجاع . وسرعان ما أدرك رئيس

الحكومة الفنلندية الماريشال مانرهيم أن السبيل الوحيد أمامه هو الانسحاب من الحرب ، فطلب السلم لانقاذ شعبه . أما في دويلات البلطيق ، فقد قُطع الطريق على مجموعة جيوش الشمال وتم عزلها ، كنتيجة لدمار مجموعة جيوش الوسط . ومن جديد منع عناد هتلر اتخاذ حل معقول ، فقد أصر على أن يبقى جيشان معزولان في كورلاند ، بل انه رفض أن يتم انسحاب وحدات منفردة عن طريق البحر . ليس هذا كل ما حصل ، ففي منتصف تموز هاجم السوفييت مجموعة جيوش شمال أوكرانيا ، وتوغلوا الى لغوف وارجعوا الالمان الى جبال الكربات ونهر الفستولا . ولم يتوقفوا عند هذا الحد ، بل انهم نجحوا حتى في تأمين رأس جسر لهم عبر ذلك النهر في بارانوفكا التي سيشنون منها هجومهم الكبير في كانون الثاني ١٩٤٥ .

لقد بدا في خلال هذا الصيف من عام ١٩٤٤ كما لو أن سلسلة الكوارث لن تنتهي أبداً . ففي الأول من آب انتفض البولونيون في عاصمتهم وارسو ضد الاحتلال الالماني ، ولم تقمع هذه الانتفاضة الا بعد جهد جهيد ، ويعود الفضل معظمه الى امتناع السوفييت عن تقديم العون الذي عول عليه البولونيون . واستسلمت رومانيا فجأة في ٢٤ آب : وأخذت هذه الحركة الالمان على حين غرة وأدت الى فقدان أجزاء كبيرة من مجموعة جيوش جنوب أوكرانيا ، وتلتها بلغاريا ورومانيا . أما هنغاريا التي كانت القطعات الالمانية قد احتلتها في آذار الماضي ، لأجل منع أي تطور من هذا القبيل ، فقد أصبحت عرضة لتهديد مباشر . وفي أواسط شهر تشرين الأول كان السوفييت يقتربون من كوشيتسا في سلوفاكيا ، عاصمة الكربات ـ أوكرانيا ، كما كانوا على أبواب زيغيد وسهل ناغي فاراد في سهول هنغاريا ، أي على بعد ستين ميلاً فقط عن بودابست . وفي الوقت نفسه ثار السلوفاك ضد الألمان .

وفي الشمال ايضاً مضى السوفييت من نجاح إلى آخر . ودخل الجيش الأحمر في نهاية آب بروسيا الشرقية ، وعرف الرأي العام لأول مرة القسوة التي مارسها الجنود السوفييت ضد المدنيين . وفي مقر هتلر قرب راستنبرغ ، كانت أصوات المدافع تسمع بوضوح ، حيث ان الجبهة غدت قريبة جداً .

وبسبب الموقف العام في تشرين الأول ، أصبح من الضروري أن يبدأ اخلاء البلقان ، حيث ان عدم سحب الفرق المرابطة هناك سيؤدي إلى إسقاطها من الحساب . وأفلحت القطعات الالمانية بعد مسيرات صعبة طويلة عبر جبال لا وجود فيها للطرق الا ما ندر ، وتحت هجمات الأنصار المتواصلة وضربات قوات الحلفاء الجوية فيما بعد، أفلحت تلك القطعات القادمة من بيلوبونيز والبانيا ويوغسلافيا في اعادة الاتصال أخيراً مع جيوشنا الشرقية ، واضطررنا الى أن نترك وراءنا كلا من حاميتي كريت ورودس بسبب عدم توافر السفن اللازمة لنقلها .

كانت المانيا تمضي الآن قدماً نحو الهاوية . وادراكاً لهذه الحقيقة ، حاولت جماعة من

الرجال المسؤولين الذين لا يتطرق الشك الى دوافعهم النبيلة ، رجال ينتمون الى كل طبقة ومهنة وحزب ، القيام بانقلاب طال أمد التحضير له . ووقف على رأس هذه الجماعة ضباط مشهورون من ذوي الرتب العالية ، فلقد آن الأوان آنذاك لوضع نهاية لتلك الكوارث التي جلبتها جرائم هتلر على الشعب الالماني والشعوب الأوروبية ، وأدركوا أن هذه النهاية يجب أن يضعها الالمان أنفسهم في المانيا . الا أن محاولة اغتيال هتلر في ٢٠ تموز باءت بالفشل ، وانتقم هتلر لنفسه انتقاماً مخيفاً ، وبصورة خاصة من أولئك الضباط الذين اشتركوا في المحاولة . وقُدم مئات من الرجال الذين كان لهم دور فيها أو ممن كانوا على علم بسيط بها ، الى محاكمة صورية ، ثم سلموا الى الجلادين . أجل لقد أعدموا وأصبح الجيش الآن عديم القوة تماماً ، واستلم هملر قيادة جيش التعويض ، وبذلك أصبحت في يديه سلطة كاملة داخل المانيا . وأُعيد تشكيل عدد ضخم من فرق الجيش وأطلق عليها « فرق قاذفي الرمانات الشعبيين » . وكانت هذه الفرق تابعة أيضاً الى هنريخ هملر . وبلغ عهد الارهاب في المانيا آنذاك ذروته .

لأجل تقدير الحالة النفسية السائدة آنذاك ، لا بد من معرفة أن غالبية الالمان ، سواء كانوا في المانيا أو في الجبهة ، لم يكونوا قد عرفوا بعد الجانب الإجرامي في شخصية هتلر . وبالرغم من عطفهم العميق على ضحايا ٢٠ تموز ، فان غالبية الشعب الالماني كانت لا تزال تعتبر أن من واجبها قبول مصيرها المحتوم بسكون ، وأن تمضي في العمل والمعاناة لتموت من أجل المجهود الحربي ، إذ لم يكن لديها أي سبيل آخر تسلكه . ان هذا وحده يشرح لماذا تابعت سكك الحديد العمل بصورة اعتيادية تقريباً حتى شتاء ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ ، رغم غارات الحلفاء الجوية التي لم تنقطع ، بينما وصل انتاج الأسلحة الالمانية ذروته خلال خريف عام ١٩٤٤ . ومنذ ذلك الحين ابتدأ هبوط الانتاج بصورة بطيئة في أول الأمر . وبعد خسارة منطقة سيليسيا العليا الصناعية ، ازداد تسارع ذلك الهبوط .

لم يكن الجيش يقدم التضحيات وحده، بل ان كلا من القوة الجوية والبحرية ضربت المثل نفسه وهي تقاتل في معركة يائسة ضد قوة تتفوق عليها الى حد بعيد . فلقد خسر سلاح الطيران خيرة طواقمه في الشرق . وكانت القوة الجوية ، وهي تحاول على الاقل الحصول على مهلة للقطعات الارضية ، قد أجهدت طياريها باستمرار وبذل طواقمها كل ما في وسعهم . ولَقد ضُحي بأثمن الارواح، ومن ضمنها أرواح المدربين ، في محاولات تموين ستالينغراد والجيوب المطوَّقة الأخرى من الجو . وفي البحر الأبيض المتوسط أيضا ، تمت التضحية بالنخبة الممتازة من سلاح الطيران دون مبالاة . وكان هنالك عامل آخر ذو أثر حاسم على مجرى الحرب الجوية ، وهو عدم استخلاص الدروس الفنية الصحيحة من اندحار القوة الجوية الألمانية في معركة بريطانيا الجوية . فلقد كانت الحاجة تدعو آنذاك الى المباشرة بانتاج طائرات مقاتلة من صنف ممتاز ، لتكون رداً مناسباً على هجوم الحلفاء الجوي القادم . ولكن بدلا من ذلك استمرت التجارب سنينا بكاملها . والنتيجة هي أن طائرة

مسر شميت ـ ١٠٩ القديمة كانت لا تزال خلال شتاء ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ تشكل العمود الفقري لقوة المقاتلات الألمانية ، وأكثر اللوم في ذلك الخطأ ، الذي كلف غاليا في الأرواح ، يجب أن يعزى الى ماريشال الرايخ غورنغ ، الذي أثبت أنه غير أهل اطلاقا لانجاز واجباتـه كقائد عام للقوة الجوية الألمانية . على أية حال ، لا بد أن يضاف الى ذلك أن عمل غورنغ نفسه كان معرقلا بسبب تدخل هتلر المستمر في شؤون دائرته .

وقاتلت البحرية أيضا ببطولة . الا أن النجاحات التي حققتها حتى الآن لقاء التضحيات الكبيرة كانت ضئيلة جدا. وجاءت الغواصات السريعة الحديثة والمزودة بجهاز سنركل متأخرة جدا ، وبلغت اصابات سلاح الغواصات ٦٧٣ غواصة مع ملاحيها البالغ مجموعهم ٣٠ ٠٠٠ رجل . وخسر الأسطول الألماني ، الذي جوبه بمهام تتجاوز وسائله ، ٢٦٠٠ سفينة من مختلف الأنواع في خلال مجرى الحرب .

لقد أعطيت الجيوش الألمانية الغربية ، بعد ضياع فرنسا وبلجيكا وأجزاء كبيرة من هولندا ، مهلة قصيرة وصلت في خلالها الى الحدود الألمانية، اذ ان الحلفاء لم يتابعوا ضغطهم بالحاح . وهكذا أصبح ممكناً في النهاية ذلك الذي بدا غير محتمل للغاية ، وأُنشئت جبهة دفاعية جديدة استندت بصورة أساسية على الجدار الغربي القديم الذي أعيد تسليحه بصورة محمومة بالأسلحة المتيسرة . وشهدت أشهر أيلول ، وتشرين الأول ، وتشرين الثاني انسحابات أخرى في الغرب ، وكانت آخن أول مدينة ألمانية كبيرة تسقط في أيدي العدو . لقد استولى الأمر يكيون على هذه العاصمة الامبراطورية القديمة التي كانت يوما ما مهد الامبراطور شارلمان ، وضاعت أيضا اللورين والقسم الأعظم من الألزاس مع قلعتي ميتز وستراسبورغ ، ولكن الجبهة صمدت بالرغم من جميع محاولات الأمريكيين لاختراقها ، وعلى الأخص في منطقة آخن .

في هذه الآونة ، وفي ظروف من التكتم الشديد ، كانت تعد حركة أُريد بها ليس مباغتة العدو فحسب بل الشعب الألماني أيضا ، تلك هي عملية الآردين الثانية[1]، التي كانت آخر هجوم كبير تشنه مجموعة جيوش ألمانية في الحرب العالمية الثانية ، وسيرد وصفه في الفصل التالي من قبل الرجل الذي قاد الجيش الذي كان بمثابة رأس السهم لذلك الهجوم ، والذي تقدم تقريبا الى دينانت الواقعة على نهر الموز !!

(١) يطلق على هذه العملية اسم الآردين الثانية ،! تمييزاً لها عن عملية الآردين الأولى ، التي افتتح بها الألمان هجومهم على فرنسا في العام ١٩٤٠. (المترجم)

القسم السادس
١ - الآردين

بقلم : الجنرال هاسوفون مانتوفل

كان هاسو ايكارد فون مانتوفل عضواً في هيئة أركان مفتشي قطعات البانزر قبل نشوب الحرب ، وتمت ترقيته الى رتبة عقيد في تشرين الثاني ١٩٤٠ . وفي العام ١٩٤٣ قاد احدى الفرق في تونس ، وفي نهاية تلك السنة استلم قيادة فرقة البانزر السابعة ، وبعد ذلك بقليل ، أي في شابط ١٩٤٤ رقي مرة أخرى الى رتبة لواء وعين قائدا لفرقة غروس دوتشلاند . وفي العام ١٩٤٤ عين قائدا لجيش البانزر الخامس ثم عين في آذار ١٩٤٥ قائدا لجيش البانزر الثالث في شرقي بروسيا .

يحمل الجنرال فون مانتوفل وشاح ورقة السنديان مع سيوف وماس مضافة الى صليب الفرسان من الصليب الحديدي .

المؤتمر السري :

« أيها السادة ، قبل أن أفتتح المؤتمر لا بد لي أن أطلب منكم قراءة هذا البيان والتوقيع عليه بأسمائكم الكاملة ».

كان ذلك في ٣ تشرين الثاني ، ١٩٤٤، وكنت أعتقد أن المؤتمر سيكون مجرد اجتماع (روتيني) لقادة الجيوش الثلاثة التي كانت تمسك بالقاطع الشمالي للجبهة الغربية ، تحت قيادة مجموعة جيوش الفيلد ماريشال موديل (ب). وانعقد المؤتمر في مقر موديل ، وقد حضره أيضا ، بالاضافة الى قادة الجيوش ، رئيس هيئة أركان قيادة القوات المسلحة الجنرال يودل . الا أن نظرة عجلى واحدة على البيان الذي كان يمرر على الحاضرين ، أظهرت بسرعة أن هذا الاجتماع سيكون غير عادي ، وكان على كل واحد من الضباط الحاضرين أن يتعهد بالسكوت

التام فيما يتعلق بالمعلومات التي ابتغى يودل الإفضاء بها أمامنا . وإذا ما انتهك أحدنا حرمة ذلك التعهد ، فعليه أن يعلم أن عقاب جريرته سيكون الموت الزؤام .

لقد حضرت باستمرار مؤتمرات سرية برئاسة هتلر في برخستغادن أو في « عرين الذئب »، سواء كان ذلك قبل ٢٠ تموز ١٩٤٤ أو بعده . الا أن هذه كانت هي المرة الأولى التي رأيت فيها بيانا كهذا الذي وقعته الآن ، ولقد كان من الواضح أن هنالك شيئاً غير عادي بالمرة .

لقد كانت الكلمة التي ألقاها يودل على مسامع المجموعة الصغيرة من الضباط الأقدمين غريبة حقاً . أما رونشتت وموديل ، فلقد أحيطا علما قبل ذلك المؤتمر بأيام قلائل ، وذلك عبر هيئتي أركانيهما . ولشد ما كانت دهشتي وأنا أستمع الى يودل وهو يتكلم ، فقد كان جيش البانزر الخامس مشتبكا طيلة الأسابيع القليلة الماضية في معارك دفاعية حرجة وشديدة للغاية في منطقة هاينسبرغ - آخن الى الجنوب من رويرموند . وسقطت آخن في ٢١ تشرين الأول، وكان المفروض أن الأمريكيين سيستغلون نجاحهم بحيث يمكننا توقع هجمات شديدة أخرى تشن ضد جبهة جيش البانزر الخامس .

ومع كل هذا فان رئيس هيئة أركان قيادة القوات المسلحة راح الآن يطرح مسودة خطة ، مرفقة مع الخرائط والمخططات ، لهجوم دفاعي يشن ضد الحلفاء الغربيين من قاطع مجموعة الجيوش (ب) : لقد بدا على يودل أنه متعب جدا . وسرعان ما أصبح واضحا أنه كان في حالة ذهنية غارقة في اطار من عدم الرضى . وكان شعوره بالضيق وهو يقوم بمهمة ايصال هذه الخطة إلينا واضحا في تصريحه المتكرر . ذلك أن كل شيء قيل الآن هو نتيجة لقرار لا رجعة فيه من جانب الفوهرر .

كان هتلر قد أدرك أخيرا ، خلال شهر آب الماضي ، أن جيوشنا الغربية قد دحرت ، وأن كل ما في وسعنا أن نأمله في قتال أكثر أمام الجدار الغربي هو الحصول على الوقت . وقرر فيما بعد أن مجرى العمليات يجب أن ينظم بطريقة تكفل جعل انسحابنا النهائي الى الجدار الغربي بمثابة تمهيد لهجوم معاكس . وحتى ابان أحرج الفترات التي لازمت المعارك في فرنسا والبلدان المنخفضة ، أمر هتلر بصورة متكررة شن هجمات معاكسة موضعية ومحدودة بغية انتزاع المبادأة من يد العدو . ولكننا وجدنا في أيلول أن تلك الهجمات المعاكسة الصغيرة التي كانت تشن باستمرار لم تهيء الظروف اللازمة التي تسمح بشن هجوم معاكس واسع النطاق ، وأننا في الواقع لم نفلح في أية نقطة من النقاط على طول الجبهة الغربية في استعادة المبادأة من العدو ، وكل ما أمكننا عمله بالقوات المحدودة التي في حوزتنا ، لا يعدو سد الثغرات التي ظهرت في خطوطنا الممسوكة بعمق قليل . ولذلك تقرر جلب تشكيلات جديدة ، ومن ثم ، بعد اختراق مواضع العدو ، تقذف قوات البانزر وتحول المعركة الدفاعية الثابتة الى معركة متحركة من جديد

في أرض مفتوحة ، من أجل تحقيق نقطة تحول حاسمة في مسرح العمليات هذا ، وفي الواقع ، في مجرى الحرب كلها . ومن الجدير بالذكر أننا لم نخبر بذلك الا آنذاك .

أمر هتلر باجراء تقدير لقوة العدو، وللقوات الالمانية في الرجال والمواد المتيسرة لارسالها الى الجبهة الغربية. واستناداً إلى الارقام، قرر هتلر امكانية تغيير مجرى الاحداث ، وأن ما ثبتت استحالته امام الجدار الغربي اريد تحقيقه عن طريق هجوم يشن من الجدار الغربي ذاته. ومضى يودل الى القول ان الهجوم الذي كان قد أمر هتلر به سيشن على ذلك القاطع الذي «سيكون الاختراق فيه بالقوات المتيسرة ضماناً أكيداً . ونظراً الى ضعف قوات العدو الموجودة في الاردين، قررت القيادة العامة ان قاطع مونشو ـ إخترناخ ، هو أكثر القواطع ملاءمة لهذا التعرض . . لقد تكبد العدو خسائر كبيرة في معاركه الهجومية، و احتياطاته موضوعة عموماً وراء الجبهة مباشرة، كما ان موقف تموينه مصاب بالاجهاد،وجبهته رقيقة، وهو لا يتوقع من الالمان ان يهاجموا في أي مكان خصوصاً في هذا القاطع، وعليه يمكننا ان نعول على تحقيق اختراق سريع باستغلالنا لعنصر المباغتة استغلالا كاملاً، في ظروف جوية لا تسمح للعدو باستخدام طائراته.وسيسمح هذا بعمليات متحركة تقوم بها قواتنا المدرعة التي ستستولي بسرعة كبيرة على رؤوس الجسور على نهر الموزبين لييج ونامور. ومن ثم نتجاوز بروكسل الى الشرق ونندفع بدون مقاومة الى انتويرب» .

لقد افتُرض انه بمجرد أن تكون قواتنا المدرعة عبر الموز، فانها ستقطع المواصلات الخلفية وخطوط تموين الجيش الامريكي الاول، التي اعتُقد انها كانت تسير مع وادي الموز. وحالما تصل دباباتنا منطقة بروكسل ـ انتويرب، ستكون خطوط مواصلات وتموين مجموعة الجيوش الواحدة والعشرين البريطانية مهددة بالمثل، وسيؤدي الاستيلاء على انتويرب الى قطعها.

لم يكن العدو حتى ذلك الحين قادراً على أن يستغل استغلالا كاملاً امكانيات هذا المرفأ الكبير ذي الحيوية البالغة بالنسبة الى حركاته المقبلة في القارة الاوروبية،إلا ان العدو سيفعل ذلك في وقت قريب جداً ، ويمكن التوقع عندئذ انه سيجلب عن طريق ذلك المرفأ الثقل الاعظم من قواته في الرجال والمواد ليضغط به علينا . وعليه فإن استيلاء الجيش الالماني على انتويرب سيخلق موقفاً نستطيع أن نهاجم فيه قوات الجيش الامريكي الاول ومجموعة الجيوش الواحدة والعشرين البريطانية ، وهما الآن معزولان عن منابع تموينهما من جميع الجهات.وسيؤدي هذا الهجوم الى اندحار خمس وعشرين الى ثلاثين فرقة من فرق الحلفاء : وسيؤدي النجاح في هذا الهجوم الى تدمير (أو الاستيلاء على) كميات هائلة من مواد العدو الحربية من جميع الانواع ، والمكدسة في تلك المنطقة من أجل العمليات الاعتيادية ، وعلى الاخص لهجوم العدو المقبل ضد الجدار الغربي.

وبعد أن انتهى يودل من توضيح غرض العملية العسكرية ، انتقل الى تبيان المنافع

الاخرى التي توقع هتلر جنيها من نجاح تلك العملية. أما خطط الحلفاء فستفقد تناسقها لوقت طويل، وسيتحتم على الحلفاء اجراء اعادة فحص اساسي لسياستهم، وسيؤدي التأخير الناجم عن اعادة الفحص/الى تأجيل اتخاذ الاجراء المعاكس الضروري. ولقد ضخم لي هتلر نفسه ملحوظات يودل هذه في حديث أجريته معه في ٢ كانون الاول. فلقد قال لي في ذلك الحديث انه كان عارفاً بوجود تفاوت بين هدف انتويرب البعيد والقوات التي ستستولي على ذلك الهدف. ولكن «مهما يكن من أمر، فقد آن الاوان لتعليق كل شيء على ضربة حظ واحدة، حيث ان المانيا بحاجة الى فرصة تستعيد فيها انفاسها». واعتقد هتلر ان النجاح، حتى لو كان جزئياً، سيؤخر خطط الحلفاء مدة تتراوح بين ثمانية الى عشرة أسابيع، وهي مدة كافية لاعطاء المانيا المهلة التي تحتاجها، وان الاستقرار الوقتي في الجبهة الغربية سيمكّن القيادة العامة من تحريك قوات من هناك الى القاطع المركزي المهدد من الجبهة الشرقية. ولقد اعتقد هتلر ان عملية ناجحة هنا سيكون لها تأثير عظيم ليس على معنويات الالمان فحسب، بل على الرأي العام في الاقطار المتحالفة وداخل قواتها المسلحة أيضاً. ثم مضى هتلر الى القول: «انني مصمم على تنفيذ العملية بغض النظر عن المخاطر، وحتى لو ان هجمات الحلفاء الوشيكة الوقوع على أي من جانبي ميتز وباتجاه الرور ستؤدي إلى خسارة كبرى في الارض وفي المواضع المحصنة، فانني مع ذلك مصمم على المضي قدماً في هذا الهجوم».

يكشف هذا التصريح العناد المطلق الذي تشبث به هتلر من أجل مشروعه هذا. فلقد كان مستعداً للتضحية في سبيل هذا المشروع حتى بما كان يعتبر حتى آنذاك مبدأه الذي يستنيربه، وهو: لا يجب أن يسلم للعدو ياردة واحدة من الارض.

لنعد الآن الى مؤتمر ٣ تشرين الثاني. لقد راح يودل يشرح باسهاب القوات التي اعتقد هتلر انها ستكون كافية لتنفيذ خطته. وكان بعضها يتألف من القوات التي كانت مشغولة أو التي اشغلت حديثاً في جبهتنا على ان يتم سحبها الى الخلف ثم اراحتها واعادة تجهيزها. اما البعض الآخر فيتألف من تشكيلات في دور الانشاء داخل المانيا. ولكن هذه القوات الجديدة لا يمكن توافرها الا اذا قام هتلر باجراء تغيير جذري في ادارتنا العامة للحرب، الامر الذي رفض عمله مرات متكررة، فلقد كان يتردد في اجراء أي تبدلات استراتيجية أو في اصدار التعليمات الضرورية الى الجهات التي لم تكن معنية بصورة مباشرة بالنسبة لهجومه المقبل. وافتقر هتلر الى ثبات الغرض اللازم لسحب القوات من الطيران والبحرية، ومن جيش التعويضات المخصص لعمليات المستقبل في الساحات الاخرى، حتى لو أن هذه العمليات لا يمكن ان تقع اذا ما فشل الهجوم المعد في الغرب. بسبب هذا الرفض لم يتمكن الدكتاتور من اصدار الاوامر الخاصة بتحشيد الجهود اللازمة لايجاد قوة متينة كافية لتحطيم جبهة العدو.

حدد يودل واجبات الجيوش التي ستساهم في الهجوم كما يلي:

* جيش البانزر (إس. إس) السادس ، تحت قيادة الجنرال سيب ديتريش، وواجبه مسك معابر الموز على كلا جانبي ليبج ، بالاضافة الى المعابر الواقعة على فرعه (فيسر). وكان عليه ان ينشىء جبهة دفاعية قوية في التحصينات الشرقية لقلعة ليبج، ومن ثم يعبر قناة البرت فيما بين ماسترخـــت وانتويرب، واخيراً عليه ان يتقدم الى داخل المنطقة الكائنة شمال انتويرب.

* جيش البانزر الخامس ، تحت قيادتي ، وواجبه عبور نهر الموز فيما بين آمي (الواقعة غرب ليبج) وقلعة نامور، وتغطية مؤخرة جيش البانزر (إس .إس) السادس ضد اي هجوم تشنه احتياطات العدو القادمة من الغرب على طول خط انتويرب ـ بروكسل ـ نامور ـ دينانت.

* الجيش السابع ، تحت قيادة الجنرال براندنبرغر، وكان مسؤولاً عن اسناد جناحي الحركة الجنوبي والجنوبي الغربي . أما هدفه فكان نهر الموز وفرعه جدول سيمون. وكان عليه ان يحقق الاتصال مع جبهة الموزيل شرقي لكسمبروغ وأن يكسب الوقت عن طريق التخريبات، بهدف إنشاء خط دفاعي قوي بعيد في الخلف.

* اضافة لكل ما تقدم ، فقد أُحطنا علما بأن نية القيادة العامة هى أن توجه هجوما مماثلا بمجموعة الجيوش(هـ) الى الشمال مع مجموعة الجيوش (ب) فى الاردين ، وسيشن هذا الهجوم فى قاطع فيلق البانزر (إس . إس) الثاني عشر ، بين سيتارد وغيلنكرخن ، والهدف منه ضرب جناح قوات العدو القوية التى قد تتحرك ضد ميمنة جيش البانزر (إس . إس) السادس .

أما القوى فستكون كما يلي :

* جيش البانزر (إس . إس) السادس : أربع فرق بانزر (إس . إس) وخمس فرق مشاة .

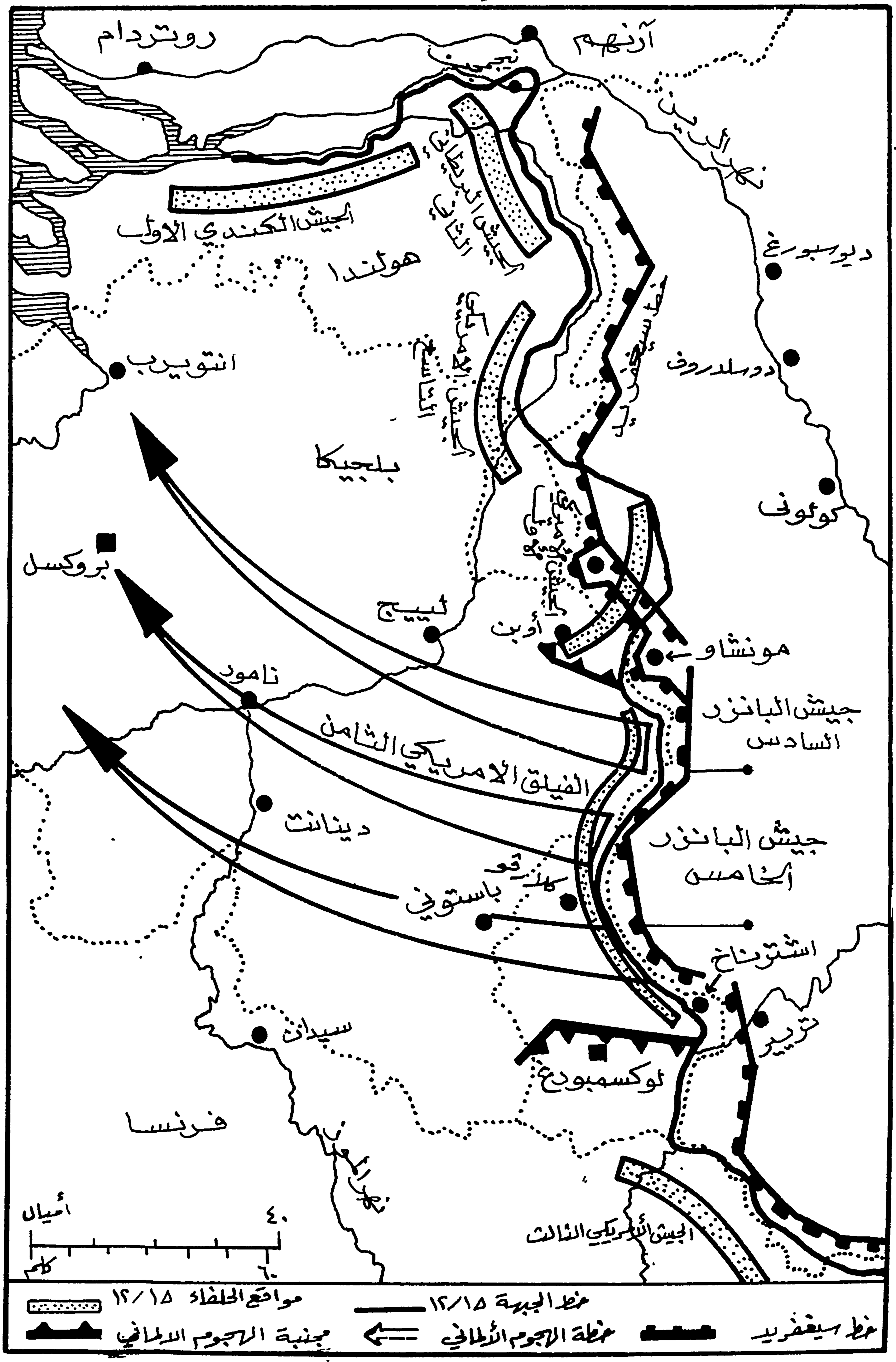
* جيش البانزر الخامس : أربع فرق بانزر وثلاث فرق مشاة .

* الجيش السابع : ست فرق مشاة وفرقة واحدة بانزر .

ولم يستطع يودل تحديد ما هى القوات التي ستخصص للهجوم الساند من منطقة فيلق البانزر (إس . إس) الثاني عشر .

أما احتياطات القيادة العامة فستتألف من ثلاث أو أربع فرق بانزر وثلاث أو أربع فرق مشاة . وعليه كان المجموع الكلي للفرق التى ستُزج فى العملية يتراوح بين ٢٨ و ٣٠ فرقة .

لقد أنيط تنفيذ عملية الاختراق على طول الجبهة كلها بفرق المشاة . وكان الهجوم سيشن بحيث يضمن ، أو بالاحرى يؤكد ، ما توصلت اليه حساباتنا من أن اختراق مواضع العدو سينجز بأقصى سرعة ، حتى يكون بالإمكان اسهام قطعات البانزر بدورها فى وقت مبكر من العملية . وكان على الدروع حينئذ أن تستغل أثر الصدمة الناجمة عن العملية ، وتندفع مسرعة



معركة الآردين الثانية ١٩٤٤

من خلال الثغرات التى فتحها المشاة ؟ وكان عليها أن تتوجه غربا وتتوغل عميقا فى مؤخرة العدو ؟ وكان من المهم جدا ألا يتلكأ أي من جيشي البانزر قبل الوصول الى نهر الموز ، وكان عليهما ايضا أن يتجاوزا القرى الممسوكة بقوة أو المواضع الدفاعية ، وألا ينتابهما القلق اذا ما أصبحت أجنحتهما مكشوفة ؟ ولقد كان هذا هو التكتيك الذي استخدم غالباً بنجاح كبير في الجبهة الشرقية .

أعلن يودل في هذا المؤتمر ان يوم ٢٥ تشرين الثاني سيكون موعدا لشن الهجوم ، وسيكون ضوء القمر آنذاك ملائما ، حيث انه سيكون في أوله ، إذ إن فترة الظلام ستؤمن سترا لتحركات القطعات الى مواضع وثوبها ، وبصورة خاصة ضد رصد العدو الجوي .

عندما انتهى يودل من كلامه ، كنت أول من طلب التعبير عن آرائه من القادة الحاضرين . ثم التفت الى الفيلد ماريشال فون رونشتت وقلت :من الطبيعي انني لا أتمكن من إعطاء أية فكرة نهائية فى المرحلة الحاضرة ، ثم أردفت قائلا أنني سأبذل جهدي بكل تأكيد فى سبيل الوصول الى الموز ، وسأعبره اذا ما وجدت الظروف ملائمة ، إذ انني اعتقدت ان هذا يمكن أن يتحقق اذا ما نفذت القيادة العامة وعودها . ألا أنني لا زلت أتذكر كيف كان امتعاض يودل عندما قلت : انني لا أرى كيف سيكون بالإمكان شن الهجوم بنجاح تام قبل ١٥ كانون الاول . وأجاب يودل ان هتلر لن يوافق على أي تأخير .

وعندما جاء دور الكلام الى الفيلد ماريشال موديل ، أعطانا آراءه بخصوص حل ممكن بديل وهو: بناء على حجم القوات المحتمل توافرها للعملية ، وفي ضوء الظروف والحقائق التي أشرت أنا اليها ، فان تعديلا للخطة المقترحة قد يمنح فرصا أحسن لنجاح أسرع . واقترح موديل انه بمجرد أن يصبح كلا جيشي البانزر عبر خطوط العدو ، فبامكانهما عندئذ الاستدارة نحو الشمال الغربي والخروج الى العراء ، بدلا من الاندفاع غربا نحو نهر الموز ، وعندئذ يكون الجناح الايسر لجيش البانزر الخامس مستقرا على نهر الموز ، بينما يكون الجيش السابع قادراً على اسناد الجناح الجنوبي للعملية . وفى هذه الاثناء ، يجب على الجيش الالماني الخامس عشر أن يهاجم من قطاع سيتارد ، مكونا بذلك الطرف الشمالي للكماشة . ثم يلتقي هذا الطرف مع الطرف الآخر المندفع الى الاعلى من الجنوب ،فى مكان ما قرب تونغرين الكائنة شمال غربي لييج . وستؤدي حركة الكماشة هذه الى تطويق القوات الانكلو ـ امريكية فى قاطع سيتارد ـ مونشو ، وهي قوات قدرها موديل بحوالى ٢٥ ـ ٣٠ فرقة . واذا ما تطور الموقف بصورة ملائمة ، يصبح بالامكان القيام حتى بالهجوم المعد من هيئة اركان قيادة القوات المسلحة على انتويرب .

كان الفرق بين الخطة المقدمة من هيئة أركان قيادة القوات المسلحة وخطة موديل ، هو ان الاولى وضعت نصب عينيها استخدام قوات محدودة لانجاز هدف واسع جدا ، بينما اقترحت خطة موديل استخدام قوات أقوى بكثير لتحقيق هدف أصغر فى بادىء الامر . الا أن الخطة

الاخيرة كانت ستمكننا من الوصول الى الموز ، وان ذلك كان سيمنحنا ، بعد اعادة تجمع سريع ، فرصة لتطهير منطقة آخن ، وهى تشكل هدفا ثانويا ينفذ اليه ضمن منطقة هجومنا . ومن الجدير بالذكر ان سلسلة التفكير هذه تضمنت توزيعاً مختلفاً للقوات وبالتالي تعيين نقطة جديدة للمجهود الاساسي . وكان الوقت المتاح آنئذ يسمح بالتفكير فى تلك الخطة البديلة . لقد كانت نتيجة المؤتمر هي الخطة المقترحة لما يدعى « بالحل الصغير » ، التى أعدت من قبل هيئة اركان القائد العام فى الغرب ، والتي أخذت معالم خطة موديل بالضبط تقريبا . أما فيما يختص بالعدو، فلقد كان انطباعي الاول هو ان جيشي لن يتلقى رد فعل قوي يأتى من شمال الضفة الشرقية لنهر الموز ، وان هذا القول ينطبق نوعا ما على الجيش البانزر (إس . إس) السادس . ولقد اعتقدنا ان العدو لا يمتلك سوى احتياطات عديمة الاهمية موضوعة خلف خطه . وعليه ، كان هنالك أمل في أن نواجه مقاومة ضئيلة إبان تقدمنا الى الموز، بشرط أن ننجح في اختراق دفاعات العدو قبل أن يتسنى له الوقت اللازم لجلب احتياطاته . إلا اننى كنت أعظم قلقًا حول إمكانية هجوم معاكس قوي يقوم به العدو من الجنوب ، إذ أنه قادر هنا على جلب احتياطات من مقاطعة شامبين عن طريق رانس ـ شالو ـ شارليفيل ـ سيدان ـ مونميدي ، كما أنه قادر على نقل جزء من جيش باتون الأمريكي الثالث الذى كان يشغل القاطع الجنوبى للجبهة . واذا ما نجح ، في كلا الحالتين، في التقدم شرقي الموز ، فعلينا أن نتوقع أن تكون قوات معادية كبيرة، او حتى القسم الاعظم من قواته ، مشتركة في العملية في مساء اليوم الثالث لهجومنا ، إذ أن لدى العدو شبكة طرق من الدرجة الاولى ، وسرعة تنقل عالية ، ومقادير كافية من الوقود ، ولذلك فلا بد من توقع ظهور احتياطه على المسرح بسرعة كبيرة .

ترتب على قلقي آنف الذكر انه لا بد للجيش السابع أن يكمل انشاء خط دفاعي بحلول مساء (ي + ٣) [١] ، على أن يمتد ذلك الخط بعيدا الى الغرب قبل وصول تلك الاحتياطات . لقد بدا لي ان الجيش السابع لم يكن من القوة أو قابلية الحركة بما يكفي للقيام بذلك ، اضافة الى أنه كان يفتقر الى الدروع اللازمة .

كان تقديري هذا يتفق تمام الاتفاق مع تقدير الجيش السابع ، ولقد سررت باكتشافي ان موديل يشاركني وجهة نظري كليا ، حيث كان قائد مجموعة الجيوش على مثل ما كنت عليه من القلق ، ولو انه احتفظ بمخاوفه كليا لنفسه . ولم تكن بدعة أن يكرس موديل كل طاقاته للاسراع فى التهيؤ للهجوم وانما كانت هذه هي خصلته . وبالرغم من قيادته لمجموعة جيوش ، فان موديل لم يفقد ابدا بصيرته في رؤ ية المشاكل التكتيكية لاولئك الرجال الذين يجب عليهم أن يقودوا القطعات فعلا ، أو في رؤ ية متطلبات القطعات نفسها . وكان مستعدا في كل الاوقات

---

(١) يشير الحرف (ي) الى يوم الهجوم . و (ي + ٣) تعني ثلاثة أيام بعد بدء الهجوم . (**المترجم**)

للاستماع الى المقترحات بشرط أن يبررها الواقع ، وان تقدم اليه بعد تقرير دقيق . لقد كانت طلباته ثقيلة على قطعاته ، ولو انها ليست بثقل تلك التي يلقيها على كاهله هو بالذات ، ولعل بعض الاعتدال في كلتا الحالتين كان مفيدا في بعض الاوقات . الا أن الذي كان ولا زال غامضا بالنسبة إلي هو : لماذا لم يحاول موديل أن يوفق بين وجهات نظر كلا جيشي الحملة . لقد عبر لي دائما عن مخاوفه فى الفترة التي سبقت الهجوم ، واعتبر ان تحشيد جميع فرق البانزر (اس . اس) فى جيش بانزر (إس . إس) منفرد هو عمل مغلوط ، الا أن هتلر رغب في رؤ ية جيش بانزر إس . إس وهو ينافس جيش بانزر نظامياً. أما موديل فانه اما لم يتمكن أو انه لم يرد أن يجلب هيئة أركان جيش البانزر لتتعاون بشكل وثيق مع هيئة أركاني ، أو لتقبل بوجهة نظرنا في مسائل كالتي تتعلق بأوقات الوثوب ومشاكل عديدة إخرى اعتبرتها هامة وحيوية . لقد أثبتت التجربة خطر تناسق مغلوط كهذا في الماضي ، وستظهر حوادث المستقبل انني كنت على حق .

مؤتمر هتلر فى برلين :

لقد توافرت احدى الفرص للتوفيق بين وجهات نظر كلا جيشي الحملة في مؤتمر ترأسه هتلر فى برلين ، وذلك فى ٢ كانون الاول . واستدعي للحضور الى مستشارية الرايخ كل من موديل ، وسيب ديتريش وأنا ، وهناك وجدنا الجنرال ويستفال الذى كان حينئذ رئيسا لهيئة أركان القائد العام فى الغرب . وكان هتلر قد عبر عن آرائه الى ويستفال فى مناسبة سابقة .

كان موديل ، كما هو دائما ، متهيئا بصورة جيدة . وكان مجهزا بصورة حسنة ايضا بالاسس الواقعية الضرورية لحججه ، من قبل رئيس فرع عملياته الكفوء للغاية . لقد كان يوما عظيما له ، ووجب على كل من الحاضرين فى قاعة المؤتمر الواسعة أن يقر بقدرته عندما قدم ملخصه الرائع ، ولم يقاطعه حتى هتلر الذي كان بادي التأثر ؛ فقد عبر موديل عن وجهة نظره بصراحة وقوة ، ومع ذلك كانت النتائج التى أسفر عنها المؤتمر غير مرضية . ولم يطرأ أي تعديل على الخطة الاصلية ، وبقيت المشاكل الرئيسةبدون حل ، ورفض هتلر تماما مناقشة « الحل الصغير » الذى أشار اليه بـ « الحل النصفي » ، ولم يتخذ أى قرار فيما يتعلق بالهجوم المساند من قبل الجيش الخامس عشر على الجناح الشمالي . كما لم تكن هناك أية اشارة عن تقوية الجيش السابع كما أرتؤي ذلك في الخطة الاصلية .وأخيرا بات من المشكوك فيه أن تصل القطعات والتموينات الموعودة في الوقت اللازم قبل بدء الهجوم . ولم يكن هناك أي سبيل لمعرفة ما اذا كانت الخطوات قد اتخذت لتضليل العدو فى القواطع الاخرى من الجبهة ، واذا كانت تلك الخطوات قد اتخذت فعلا فلم يكن هنالك سبيل لمعرفة مداها . لقد كانت هناك ايضا مسألة المناورات التكتيكية على القواطع المشار اليها بغية تثبيت قوات العدو هناك . اذ تم تجاهل هذه النقطة الهامة تماماً .

لم أدهش عندما احتجزني هتلر ، بعد أن انتهى المؤتمر الذى دام سبع ساعات طوال ، في

محادثة اضافية دامت ساعة ونصف الساعة ، فمن الواضح انه لاحظ أننا (أنا وموديل) لم نكن راضيين بنتائج المناقشة . ونظرا لانفرادي به ، عدا عن حضور مساعده ، فقد كنت قادرا على تقديم بعض المقترحات الصغرى ، الا أن تلك المقترحات لم تؤد الى تغيير كبير ، اذ ان هتلر لم يكن آنذاك قادرا على إدراك انه لم يعد يقود ذلك الجيش الذي قاده فى ١٩٣٩ أو ١٩٤٠ أو في بداية غزو روسيا! . ولا يرجع ذلك إلى ان جنوده اصبحوا يفتقرون الآن إلى العزم والاندفاع ، وانما يرجع إلى نقص الاسلحة والتجهيزات من كل نوع. لقد كان آخر سؤال طرحته امامه هو : ماذا يجب علي أن أخبر قطعاتي عندما تسألني عن الدور الذي سيلعبه الطيران في العملية المقبلة، لاننا في قاطعنا من الجبهة لم نسمع في الايام الاخيرة ولم نر أي طائرة المانية . فرد هتلر : «ان الطيران محتجز عمداً. ولقد أبلغني غورنغ ان لديه ثلاثة آلاف طائرة مقاتلة من أجل العملية . . انك تعرف تقارير غورنغ ، وعليه يمكنك اسقاط ألف طائرة من الحساب، ومع ذلك تبقى ألف طائرة معك ، وألف اخرى مع سيب ديتزيش».

الاستعدادات للهجوم :

لقد ساعد القتال في قاطع آخن على تأمين ساتر ممتاز لاخفاء نوايا قيادتنا العليا ولاخفاء تحشد القطعات للهجوم المرسوم . فقد تجمعت الفرق خلف جبهة آخن ، حتى يفترض العدو أنها ستزج في المعركة الدائرة ، أو أنها ستستخدم في هجوم معاكس ضد اختراق أمريكي نهائي نحو الراين ، ولقد نظمت تحركات قطعاتنا بصورة تعزز اعتقاد العدو الخاطىء .

كان القادة الألمان يعرفون منطقة الآردين بصورة جيدة ، فقد سبق أن تقدمنا عبرها في العام ١٩٤٠، ولم تمض الا بضعة أشهر على تراجعنا عبرها . وفي خلال التقدم والتراجع ، كنا قد عرفنا طرقها الملتوية الضيقة ، والصعوبات ، ولا نقول المخاطر ، التي يمكن أن تسببها هذه الطرق لقوة مهاجمة ، وبالأخص في فصل الشتاء ، وفي الظروف الجوية السيئة التي كانت ضرورة جوهرية للمباشرة بعمليتنا . واحتوت الطرق الرئيسية على العديد من المنعطفات الحادة ، وكانت هذه الطرق مبنية على الغالب في منحدرات شديدة ، مما جعل نقل مدفعية الميدان ووحدات المدفعية المضادة للطائرات وأطواف (عوامات) العبور الثقيلة وعوارض وحمالات الجسور مهمة شاقة وطويلة ، الأمر الذي استوجب فصل المدافع والمقطورات ثم سحبها حول المنعطفات الحادة بواسطة بكرات السحب . وبطبيعة الحال كانت تنقل في كل مرة قطعة واحدة فقط . أما العربات فلا يمكنها أن تجتاز إحداها الأخرى على هذه الطرق ، وفي حالة وقوع هجوم جوي ، فليس هناك مجال للاستتار في الأحراش أو الغابات المحاذية للطرق ، طالما أن جوانب التلال الكائنة فيها تلك الطرق شديدة الانحدار جدا . وفوق كل هذا ، كانت غالبية عرباتنا ، ومن ضمنها جراراتنا القليلة ، في حالة سيئة . وحتى لوسمحت المنطقة بالتنقل ، فان القسم الأعظم من تلك العربات غير قادر على السفر لمسافات بعيدة ، ولذلك كان لا بد لنا من توقع

نسبة عالية من التوقف بسبب الأعطال ، سواء كان ذلك في العربات أم الدبابـات أم المدافع .

لم يعد مستوى التدريب في جميع الفرق عاليا بما يكفي ليثق المرء بقدرتها على أداء دورها عندما تشتبك في القتال ضد عدو متفوق عليها بالعدد والمعدات ، ويقاتل بعد فترة نال فيها راحة طويلة وتغذية جيدة . لقد كان كل واحد من الضباط القادة الأقدمين عارفا بنقاط الضعف هذه في قطعاتنا ، إلا أن الأمر الأهم هو أن الجيش لم يكن قد قام بعمليات هجومية واسعة النـطاق منذ عام ١٩٤٢ . ولأجل تلافي هذا النقص في التجربة الهجومية ، كان من الضروري سحب الفرق من الجبهة لاراحتها وإعطائها تدريبا شاملا في ظروف ملائمة . ولقد احتاط هتلر للأمر ، وتمتعت غالبية فرق الـ(إس . إس) بالراحة والتدريب فعلا ، الا أن هذه الفرق لم تكن تمثل فرق الجيش كلها . أما فرق المشاة التي كان عليها أن تلعب دورا حاسما جدا في العملية ، فلم تنل سوى تدريبها الجزئي في مستودعات تدريب التعويضات ، ولا بد من الاعتراف ، أن ذلك التدريب المنقوص لم يكن كافيا للقيام بالواجب الذي ينتظرها ، واللوم في هذا لا يقع على هيئات أركان الفرق بأية حال من الأحوال .

تعتبر منـظومـة التموين الجيدة مطلبا حيويا لاحراز النصر في أية معركة من معارك الحرب الحديثة التي تمتاز بتأكيدها على الناحية الفنية وعلى التجهيز . وفي خلال هذه المرحلة من الحرب ، كانت المشكلة الاداريـة الرئيسية بالنسبة الى الجانب الألماني هي كيفية نقل مواد التموين ، حيث ان هجوم القاذفات المتصاعد ضد شبكة السكك الألمانية ، كان يعني وجوب تفريغ مواد التموين على مسافة تزداد بعدا باطراد خلف خط الجبهة ، وأصبح الراين عائقاً أكيداً بالنسبة الى الإمداد . ولم يبق مما يمكن استعماله من السكك الحديد في غرب الراين الا بضعة أطوال أتلف العديد منها مرات متكررة ، الى حد توقفت فيه القاطرات أو استوجب تسييرها حول استدارات طويلة . أما الأنفاق العديدة فقد استعملت كنقاط تفريغ ، أو كملاجىء للقطارات في حالة الهجوم الجوي . إلا أن الأنفاق جميعها امتلأت أخيرا بالقاطرات . وبينما كانت أطوال بكاملها من الخطوط الحديد مغلقة بنتيجة العطب الناجم عن القنابل ، كانت أطوال أخرى مسدودة بالقطارات . وفي كلتا الحالتين ، كانت مواد التموين الفورية تنحصر في أماكنها . وكانت ادارة السكك الحديد ، مدفوعة برغبتها في تقديم أقصى خدماتها ، ترسل أكثر ما يمكن ارساله من القطارات باتجاه الغرب عند حلول الظلام أو عندما كانت حالة الجو تبشر بفترة خالية من تدخل العدو الجوي . ونتج عن ذلك كوارث في بعض الأوقات ، وغالبا ما ضلت قطارات بكاملها الطريق وراحت تتخبط ساعات عديدة . وفي هذه الحالات كان مدير الامداد والتموين يرسل ضابطا ليفتش عن القطار الضال ، ليعثر عليه في أغلب الأحيان متوقفاً في هذا النفق أو ذاك . وكان على الضابط المبعوث في هذه الحالة أن ينظم رتلاً من السيارات الشاحنة لنقل الامدادات . ولم تكن هذه المهمة سهلة بطبيعة الحال .

والحقيقة أن مهمة تموين القطعات كانت بالغة الصعوبة . وكانت التأخيرات الطويلة أمرا

اعتياديا ، ولم تصل أكثر مواد التموين حيوية في الوقت المناسب الى القطعات التي كانت بأمس الحاجة اليها . لقد عاشت القطعات منذ بداية الهجوم عيشة الكفاف ، وعندما تحسن الجو في ٢٣ كانون الأول ، واستعادت قوة الحلفاء الجوية نشاطها من جديد ، ازدادت هذه الأحوال سوءا بسبب الهجمات الشديدة على طرق التموين في المنطقة المجاورة مباشرة للجبهة ، حتى استحال أخيرا جلب أي مواد تموينية في ضوء النهار .

لقد تم تنفيذ تدابيرنا الأمنية بشمول استثنائي ، وقُبلت المصاعب الخاصة بالخداع واخفاء الاستعدادات التي كنا نقوم بها لصالح السريّة ، واستخدم كل من الغش والاختفاء على نطاق واسع ، وتمم أحدهما الآخر . وعندما تم سحبنا أخيرا في ٢٥ تشرين الثاني من الجبهة ، وانتقلنا الى إيفل لتهيئة العملية ، استبدلنا تسمية « هيئة أركان الجيش » بتسمية « قيادة بنادق الميدان للاستخدام الخاص » بغية التمويه . لقد تخلى ضباط البانزر عن بـزاتهم المميزة واستبدلوها ببزات رجال المشاة ، واستخدمت القطعات الفحم حتى لا ينكشف وجودها في الغابات بواسطة الدخان المنبعث من مطابخها ومدافئها . أما مدافع الميدان المجرورة بالخيول ، وقطعات المدفعية المضادة للطائرات ومواد التجسير الهندسية ، فقد تم تجميعها خلف خط حاجز يقع على بعد حوالى خمسة أميال من مؤخرة موضعنا الدفاعي الرئيسي ، وعندما حركت أخيرا تحت جنح الظلام ، أخذت المقاتلات الليلية تحلق وتهبط على طول الجبهة ، حتى تطمس بأزيز محركاتها الضوضاء المنبعثة عن التنقل فوق الطرق . وتم تغليف حوافر الخيل بأغطية من الخيش للتحرك على الطرق الأسفلتية . وكلما اضطرت احدى العربات الى ترك الطريق ، كانت تبذل عناية كبيرة لضمان ازالة أي أثر تخلفه العجلات وراءها . ولأجل تضليل العدو ، زحفت عناصر من الفرق التي وصلت توا باتجاه الشمال والشرق في خلال ساعات النهار وفقا لخطة مرسومة .

عندما آن الأوان ، كانت نتيجة تدابيرنا الشاملة للتمويه هي أننا نجحنا في تحقيق المباغتة التامة ، اذ ان العدو لم يكن يتوقع امكانية حدوث هجوم على هذا المستوى ، فضلا عن صعوبة المنطقة التي وقع فيها الهجوم وعدم ملاءمة الفصل . ومن وجهة نظر الأمن ، كان الاهمال الصارخ الوحيد يتمثل في الاستعدادات المختلفة الجارية على الراين ، وفي شرقه أحيانا . وكانت الأكداس التي استلزمتها تلك الاستعدادات يمكن أن تسبب ازعاجا كبيرا . ولقد حذرت هتلر في الوقت المناسب ، وطلبت منه بالحاح شديد أن يصدر أمرا شخصيا بتخصيص آليات كافية من « أرتال سبير » لنقل تلك الأكداس . وقد فطن هتلر الى ما قلته ، الا أن العربات التي كان الطلب عليها أكثر الحاحا في القواطع الأخرى من الجبهة الغربية ، لم تكن تأتي بأعداد كافية . وكانت معنويات القطعات قد عانت الكثير في خلال الاندحارات في الصيف الماضي ، ولكنها تحسنت ثانية في الفترة الأخيرة بنتيجة المعركة الدفاعية الناجحة التي نشبت على طول نهر روير ضد قوات معادية متفوقة . فلقد عرف جنودنا أنهم يقومون بالحراسة التاريخية على الراين ، وكانوا مدركين تمام الادراك أن من واجبهم حماية المؤخرة ، بينما كان اخوة لهم في الشرق

منشغلين بصد الجيش الأحمر ومنعه من غزو ألمانيا . كما أنهم أُعجبوا بمأثرة المدنيين الذين كانوا يشتغلون ساعات طويلة ، بغض النظر عن السن أو الجنس ، تحت وابل من القنابل التي سقطت على المدن الألمانية ، وكانوا لذلك مصممين على عدم التخلي عنهم .

لم يكن في الجيش أية ميول شيوعية ، كما كان الحال في عام ١٩١٨ ، حيث ان قطعاتنا عرفت ماهية « فردوس العمال » بصورة مباشرة . وكان معظم جنودنا آنذاك لا يزالون على ايمانهم بهتلر ، ويعتقدون أنه سيلعب لعبته من جديد ، وذلك اما بأسلحة المعجزة الموعودة والغواصات الجديدة أو بطريقة ما أخرى . وكان واجبهم يحتم عليهم أن يؤمنوا له الوقت اللازم . ولم يكن تحريضهم من قبل الدعاية المعادية للنازية مجدياً ، لأن قبضة الحكم على الأهليين والجيش كانت شديدة الاحكام لدرجة تجعل أي عصيان مشروعا غير عملي . بالاضافة الى أن شعار « الاستسلام غير المشروط » لم يترك أي سبيل مفتوح للقسم الأعظم من الجيش ، سوى متابعة القتال حتى النهاية المريرة .

لقد كان الجيش مقادا من قبل ضباطه بصورة حسنة ، وكانت القطعات واثقة بقادتها . والحقيقة أن المعنويات قبل ابتداء هجوم الآردين كانت عالية بالدرجة الممكن توقعها ، الأمر الذي ساهم في التعويض عن قسط معين من ضعفنا النسبي في الرجال والسلاح . الا أن القادة ، على الأقل ، كانوا يعرفون جيداً أن هذه هي الفرصة الأخيرة . ولقد أدركنا ماذا ستكون العواقب اذا ما فشل الهجوم . وهكذا كانت النتيجة : فبعد اندحارنا أصبحت قواتنا ، منذئذ فصاعدا ، لا تكاد تكفي للدفاع . أما حقيقة كوننا استطعنا آنذاك المضي في القتال فذلك يعزى فقط الى قوة معنوية قطعات الخط الأمامي .

تطورات على جبهة مجموعة الجيوش (ب) :

في خلال الأسبوعين الأخيرين من شهر تشرين الثاني ، تابعت مجموعة جيوش يودل القتال في سلسلة من الاشتباكات العنيفة في المنطقة الكائنة شرقي آخن ، فيما بين ڤدزلن وشتولبرغ ، وكانت الاصابات جسيمة في كلا الطرفين . ونجحت القوات المدرعة الأمريكية في اختراق الجدار الغربي قرب ڤالندورف . وبالرغم من نجاح قطعاتنا في سد هذه الثغرة ، فقد ثبت أن الجدار الغربي ، كما هو وضعه الحالي ، لم يكن ، أو لم يعد ذلك المتراس الدفاعي المنيع الذي أشاد به رجال دعايتنا باستمرار .

كانت نية القيادة الأمريكية واضحة . فلقد رغبت في توسيع الثغرة في الجدار الغربي ، بغية الاستيلاء على السدين العظيمين عبر نهري الرور وإرفت . وكان سبب رغبتها في الاستيلاء على هذين السدين هو أنهما يشكلان سلاحا فعالاً في أيدي الألمان ، لأن قيامهم بفتح بوابات الفيضان يؤدي إلى ارتفاع منسوب المياه في نهر الرور وانتشارها على ضفتيه . وعندئذ يكون من

الصعب جدا على الحلفاء عبور النهر ، وعلى الأخص اذا ما احتل الألمان موضعا دفاعيا قويا على الضفة الشرقية .

ولقد فشلت هذه المحاولة التي أُريد بها توسيع الثغرة في الجدار الغربي ، وارتد المهاجمون بعد أن واجههم الألمان بهجوم معاكس . وأصبح واضحا أن الحلفاء لن يفلحوا سريعا في تحقيق اختراق مباغت لنهر الراين في المنطقة الواقعة بين كولونيا ودوسلدورف . وكانت المسألة الحاسمة بالنسبة الى عمليتنا ، تتمثل في أن منطقة آخن هي نقطة المجهود الأساسي للعدو . فلقد كان العدو مستعدا لخوض معركة ضخمة في تلك المنطقة ، وكان بامكاننا أن نتوقع تجديدا لهجمات الأسابيع القليلة الماضية التي تميزت بعنفها .

وجاء هجوم الحلفاء في ١٦ تشرين الثاني ، واتسع في الأيام القليلة التالية حتى شمل كل قاطع غلينكرشن ـ أشويلر ـ شتولبرغ . وفي ٢٢ منه سقطت أشويلر التي دافعت عنها فرقة قاذفي الرمانات الشعبية الثانية عشر بكل بسالة . ومع هذا فقد بقيت الجبهة على حالها ، ولم ينجح العدو في اختراقها .

لقد أصبح العدو الآن على مقربة من نهر الرور ، وكان هنالك ما يدعو الى الاعتقاد بأنه سيستأنف هجماته الشديدة في الحال تقريبا . وكان من غير المحتمل ألا تشارك مجموعة الجيوش البريطانية ٢١ الموجودة في منحنى نيماغين في المعركة عند وقوع الهجوم .

وهكذا لم تتغير نقطة الجهد الرئيسي المعادي ، وانما أصبح الخطر أكثر دقة من أي وقت مضى ، ولا بد أن يكون الهجوم التالي حاسماً . وعلى كل حال ، فان العدو أيضا كان قد تكبد خسائر جسيمة . وبرزت هذه الحقيقة بظهور فرق جديدة متعاقبة خلف جبهة العدو في قطاع آخن . وكانت هذه الفرق قد تم سحبها من احتياطه المركزي الذي تضاءلت قوته من جراء ذلك . وهذا وضع ملائم لعمليتنا المقبلة . أما الفائدة الثانية التي أصبناها ، فهي أن بضع فرق مشاة (الأمريكية الثانية ، والرابعة ، والثامنة والعشرين) التي عانت وتحطمت في المعركة الأخيرة ، قد نقلت الآن الى قاطع الآردين ، حيث نوشك أن نهاجم ، الأمر الذي زاد من فرص نجاحنا . ولقد فُسر هذا الأمر من قبل هيئة أركان قيادة القوات المسلحة على أنه برهان يدعم فرضيتها في « أن العدو قد استنفد قوته تقريبا ».

لقد كان علينا ، من الناحية الأخرى ، أن ندفع ثمنا كبيرا لقاء هذه التطورات الملائمة . فقد كانت خسائرنا في المعركة الدفاعية جسيمة أيضا ، وكانت قواتنا منهكة جدا . ولما كان العدو ماضيا في الهجوم على نقاط مختلفة على طول الجبهة ، فقد أصبح من الضروري استخدام جزء من الاحتياطات المخصصة لهجومنا المنتظر . كما أنه لم يكن من الممكن تجريد الجبهة بسحب الفرق المخصصة للهجوم وإرسالها إلينا ، لأنها مضطرة الى البقاء في أماكنها منهمكة في القتال . . وهذا هو السبب في عدم تنفيذ الاستراحة والتدريب المدرجين في الخطة لغالبية

التشكيلات التي ستشترك في الهجوم الا بدرجة محدودة . وهناك حالات تعذر فيها سحب الفرق اطلاقا ، وكان عليها أن تنتقل رأساً من الدفاع الى الهجوم . ووضع كل هذا عبئا ثقيلا على كاهل القادة . ولقد أخذت الاستعدادات للهجوم أفضلية على رغبتنا الطبيعية في مساعدة القطعات المتورطة في قتال ضار في الجبهة ، وكان من المستحيل أن ندع القطعات المقاتلة تعرف سبب هذا الاهمال الواضح .

في ١٠ كانون الأول ، استلم جيش البانزر الخامس قاطع الجبهة الذي سيشن منه هجومنا ، والذي كان يشغله الجيش السابع . وكان الجيش السابع قد أنجز الاستعدادات الضرورية للعملية بصورة كاملة ، الأمر الذي ساهم الى حد كبير في النجاح الأولي الذي حققه هجومنا .

خطبة هتلر :

في يومي ١١ و١٢ كانون الأول ، استدعى هتلر جميع الضباط القادة ، ومن ضمنهم قادة الفرق ، الى مقره الذي كان يدعى « عش النسر » قرب زيغنبرغ في هيسي . ولقد حضر نصف الجنرالات في اليوم الأول للاجتماع ، في حين حضر النصف الآخر في اليوم التالي . وكنت من بين الذين حضروا في اليوم الأول مع قادة فيلقي البانزر العاملين تحت أمرتي . ووصلنا الاجتماع لنشاهد كلاًّ من الفيلد ماريشال فون رونشتت والفيلد ماريشال يودل حاضرين أيضا ، وكذلك كان هناك جنرال الـ(إس . إس) سيب ديتريش .

واستُدعي للحضور ، اضافة الى جنرالات الجيش ، عدد من جنرالات الـ(إس . إس)، وقادة فرق البانزر (إس . إس). لم تكن المقاعد في قاعة الاجتماع كافية لكل الحاضرين وتخلى جنرالات الـ(إس . إس) عن مقاعدهم تأدبا ليجلس عليها رفاقهم الأقدمون في الجيش ، وبقوا هم واقفين . وأعطى هذا التصرف إلى بعض جنرالات الجيش انطباعاً بأنه عين خلف مقعد كل جنرال من الجيش ضابط من ضباط الـ(إس . إس)، الا أن هذا الانطباع ما هو الا سوء فهم لما حدث .

لقد كان بين الحاضرين تباين صارخ . ففي أحد جوانب القاعة جلس الجنرالات القادة ، وهم جنود مسؤولون ومحنكون ، وكان العديد منهم قد جعلوا من أسمائهم اعلاما عظيمة فى ميادين المعارك السابقة . منهم جنود تمرسوا فى صنعتهم فخبروها ، وحازوا بذلك على احترام قطعاتهم . وكان يجابههم فى الجانب الآخر قائد القوات المسلحة ، بجسمه المنحني ووجهه الشاحب المنتفخ ، وهو متكور فى كرسيه ويداه ترتجفان وذراعه الايسر عرضة الى انتفاضات عنيفة لا ارادية كان يبذل قصارى جهده من أجل اخفائها . رجل مريض يبدو عليه انه ينوء بعبء مسؤولياته الجسام ، فلقد تردت حالته الصحية بصورة ملحوظة منذ لقائنا الاخير

فى برلين الذى لم تمض عليه سوى تسعة أيام فقط . وعندما تكلم سحب احدى ساقيه حتى أصبحت، وراءه .

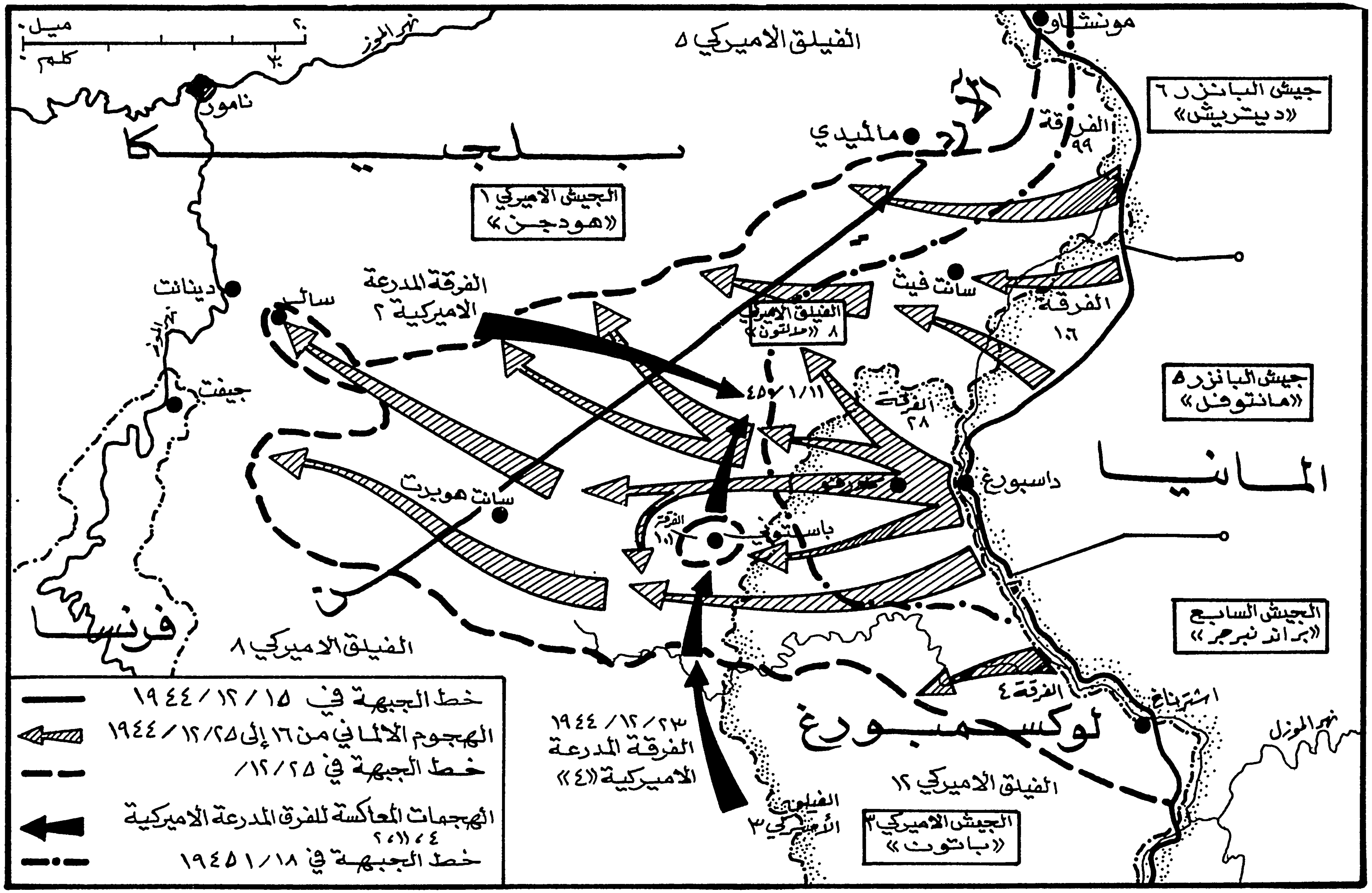
جلس يودل الى جانب هتلر ، وهو الآن رجل كبيرالسن أضناه التعب من جراء العمل المتواصل . وقد اعتاد أن يكون مشدود الهيئة ومتصلبا في سلوكه ، إلا انه لم يعد كذلك ، لان التعب أنهكه عقليا وجسميا . وفى محادثة له فيما بعد مع مجموعة صغيرة من الضباط المجتمعين : كان يودل حساسا وسريع الانفعال . أما كايتل فقد أظهر مزاجه انه لم يكن قد ساهم فى رسم الخطط واعداد الاستعدادات المختلفة بنفس القسط الذى ساهم به يودل .

عندما ابتدأ هتلر كلمته التى استغرقت حوالى الساعة ونصف الساعة ، خرجت كلماته بصوت منخفض يعتوره التردد ، ولم يصبح اسلوبه أكثر وثوقا الا تدريجيا ، مما أدى جزئيا الى إزالة الانطباع الأول الذى كونه مظهره ، على الاقل بالنسبة لأولئك الضّباط الذين لم يكونوا قد شاهدوه فى الاشهر الاخيرة والذين لم يعرفوه جيدا. إلا أن الانطباع العام الذي تركه ، هو ان الرجل الذى كنا نصغي اليه، ماهو الا رجل مريض تحطم منه الجسم وتمزقت الاعصاب .

لم يقل هتلر شيئا جديدا بالنسبة لي ، لأنني كنت قد سمعت كل ما قاله في وقت مضى ، ولم تؤد خطبة القائد الاعلى للقوات المسلحة هذه الا الى خيبة ظن بالنسبة الى معظم الجنرالات الحاضرين ، وأنا من ضمنهم ، لسبب واحد هو انه لم يكن لديه ما يقوله حول المشكلة التى كانت تشغلنا جميعا فى هذه المرحلة من استعداداتنا ـ ألا وهي ، ماهية الخطوات التي كانت تتخذها القيادة العليا للتعويض عن النقص الذى خيم منذ الآن على العملية ، التي لم يبق على ابتدائها سوى بضعة أيام فقط . وخلافا لكل ما توقعناه ، فلم يبذل هتلر فى خطبته ، ولا يودل فى تصريحاته ، أية محاولة لتبديد المخاوف التى أحسست بها فيما يتعلق بالهجوم . وكان هتلر قد ذكر فى احدى المرات ، ان الشرط الاول لشن عملية ناجحة هو « ايجاد تشكيلات جديدة وصالحة للمعركة تماما لاجل القيام بالهجوم » . الا أن ذلك لم يطبق إلا جزئياً ، بالرغم من جميع الجهود التى بذلها القائد العام فى الغرب وطلباته المتكررة لزيادة قوتنا . وبالرغم من أن رونشتت كان قد حقق بعض النجاح فى تلك المحاولات ، الا أنه لم يفلح فى خلق قوة ضاربة من النوع والحجم المطلوبين لنجاح مجهودنا الاساسي . وكنت مطلعا تمام الاطلاع على هذه الأمور ، كنتيجة لمؤتمر برلين في ٢ كانون الاول ، وللزيارتين اللتين جاءنى بهما سبير ، وزير العتاد ، في مقري .

كان جيشا الهجوم الرئيسي قد استلما كل الاسناد الذي يمكن الحصول عليه من ألمانيا المحاصرة ، في الظروف الحاضرة وضمن تحديدات الوقت المفروضة .

في خلال مؤتمر يوم ١١ كانون الاول ، لم أتمالك نفسي من الشعور بان هتلر وهيئة ركنه قد تبنيا صورة عالية جدا عن قوتنا الحربية العامة ، على الرغم من جميع التوضيحات الفورية



معركة الآردين ١٩٤٤

التي قدمها القادة الأقدمون . ولم أستطع في ذلك الوقت أن أحكم فيها اذا كانت قوتنا عالية عموما أم لا ، طالما انني لم أعرف ولم يكن بإمكاني أن أعرف الموقف السياسي ـ العسكري ككل ، في الوقت الذي كانت فيه معلوماتي عن قوة العدو غير متكاملة ايضا .

لقد شعرنا مرة اخرى بحاجتنا الى مستشار يمثل القوات المسلحة الثلاث وذي سلطة كافية لتقديم وجهة نظر القوات المسلحة الى هتلر . . ان المساهمة الايجابية الوحيدة للعملية المقبلة التي استحصلتها من المؤتمر هي تقدير هتلر الخاص للعدو . فمن وجهة نظره ـ وهو الشخص الوحيد المطلع على جميع مصادر الاستخبارات ـ ان الفرص المتاحة لعملية ناجحة تبدو ملائمة . ولقد ناقش هتلر الاهمية الحاسمة للهجوم المقبل على قلوب الضباط المجتمعين ، وكان مطلبه الاساسي هو وجوب استمرار كل تشكيل على التقدم بغض النظر عن كل ما قد يحدث على جناحيه ، وعليه أن يندفع الى الامام بكل سرعة مستطاعة .

ومن ثم عدنا إلى قطعاتنا ، واندفعنا جميعاً الى العمل بكل عزم ، مستعدين للقتال بأحسن ما فى قدرتنا وحتى الموت ، اذا ما اقتضى الامر .

خلاصة الحركات :

تقع معركة الآردين فى عدة صفحات (مراحل) بارزة ، ولاجل فهم تطوراتها بصورة أحسن ، فانه من الافضل تقديم هذه الصفحات (المراحل) قبل الدخول في تفصيلات مختلف الاشتباكات .

الصفحة رقم (١) :

كانت الهجمة الاولى ناجحة بصورة مدهشة . ولم تكن سعة التقـدم الاقليمي ، وبالاخص على الجناح الايمن ، كبيرة على أية حال ، كما كان متوقعا .

الصفحة رقم (٢) :

في اليوم الثالث أو الرابع للعملية أصبح تدخل احتياطات الحلفاء محسوسا ، وبصورة خاصة ضد الجناح الجنوبي لقوتنا الهاجمة . وقد سبب لنا ذلك قلقا .

الصفحة رقم (٣) :

فى ٢٠ كانون الاول حدث تدهور مهم فى الموقف على طول الجناح الجنوبي للجيش السابع . ويؤشر هذا التدهور بداية نقطة التحول فى مجرى العملية.ومع هذا فقد استمر التقدم فى القاطع المركزي لجيش البانزر الخامس حتى غاية ٢٤ كانون الاول . ووصلت طليعة ضعيفة في وقت من الاوقات الى حوالى ثلاثة أميال شرقي دينانت ، وكنتيجة لذلك انتقل مركز ثقل الحركة الى قاطع جيش البانزر الخامس .

لقد مني الهجوم فى قاطع مونشو ـ ماليدى بالفشل ، وانفصمت عرى الاتصال بين القوات المهاجمة ، وأصبح ضغط الحلفاء المعاكس من الشمال الغربي ملموساً بوضوح . ولقد ظل العدو خلال تلك الصفحات الثلاث محتفظاً بتقاطع الطرق في باستوني ، ونظرا لعدم وجود احتياطات ألمانية ، وبسبب الافتقار الى وجهة واضحة ، استوجب أخذ قطعات من القوة الهاجمة لتطويق باستوني الامر الذى أدى الى اضعاف قوة الاندفاع نحو الموز .

الصفحه رقم (٤) :

فى ٢٤ ، ٢٥ كانون الاول انعكست الامور ، وأصبح القائم بالهجوم مهاجماً ، وانتقلت القوات الالمانية الى الدفاع . ومنع هتلر القيام بالهجوم على باسترخت ـ هيرلن من قبل فيلق البانزر (إس . إس) الثاني عشر التابع للجيش الخامس عشر ، والذي كلف بمهمة تخفيف ضغط العدو على الجبهة فى الجنوب . وبناء على أوامر هتلر ، أرسلت القوات الآلية المتيسرة في فيلق البانزر (إس . إس) الثاني عشر على جناح السرعة باتجاه الجنوب وقذفت فى معركة الآردين، حيث أخذت تظهر للعيان هناك العلامات الاولى لحركة تطويق يقوم بها العدو.

لقد استدعت الضرورة الناجمة عن معركة باستوني سحب قوات من جيش البانزر (إس . إس) السادس وارسالها الى المعركة الناشبة هناك .

الصفحة رقم (٥) :

ازداد ضغط العدو باطراد خلال الايام القليلة التى تلت . وأصبح واضحا ان للعدو نقطتان للمجهود الرئيسي ، تنطلق اولاهما من الشمال الغربي وموجهة ضد الجناح الشمالي ، والثانية من الجنوب الغربي وموجهة ضد الجناح الجنوبي . وفى خلال مجرى القتال العنيف ، المصحوب بتدخل متنامي باطراد من جانب قوات الحلفاء الجوية ، اندفعت قوات العدو عبر أجنحة جيوشنا الهاجمة .

الصفحة رقم (٦) :

لقد أصبح الموقف حرجاً ، وأصبحت معركة الآردن الآن من وجهة نظر الالمان معركة دفاعية . وكانت الخسائر في الرجالَ والتجهيزات جسيمة ، كما كانت منظومة التموين ناقصة ، وغدا وقود العربات بصورة حاصة عديم المنال كليا ، وذلك بسبب السيادة الجوية المطلقة للعدو .

لقد تمت نجدة باستوني فى مطلع شهر كانون الثاني ، وفقدت المعركة الآن غايتها ، واقترح الفيلد ماريشال رونشتت اجراء انسحاب سريع للجبهة الى الخط الذي شن منه الهجوم فى البداية ، الا أن هتلر أمر باجراء قتال تراجعي بطيء .

الصفحة رقم (٧) :

أخذت أجنحتنا تدفع الى الداخل باستمرار مطرد وأصبحت الاحاطة تنذر بالخطر .

ابتدأ التعرض السوفييتي الكبير في ١٣ كانون الثاني ١٩٤٥ ، واضطرت القيادة العليا الى نقل قطعات من الجبهة الغربية الى الجبهة الشرقية ، وتضمن ذلك النقل قطعات من التي كانت تقاتل في معركة الاردين . ولقد تم سحب جيش البانزر (إس . إس) السادس بكامله الى مسرح العمليات فى الشرق .

الصفحة رقم (٨) :

وبحلول ٢٥ كانون الثاني، ولاجل ستر انسحاب جيش البانزر (إس. إس) السادس، تم سحب الجبهة بكاملها الى خط أقصر يقع أمام الخط الذى شغلته القوات قبل بدء العملية .

وفى هذا الوقت ابتدأ العدو تقدمه مباشرة باتجاه السدين أنفيي الذكر ـ وكان هذا يعني ان هجوم العدو العام عبر الرور سيبتدأ حالا ـ وفى الوقت ذاته كانت مجموعة الجيوش البريطانية تستعد لشن هجومها العام فى منحنى عطفة الراين الاسفل .

لقد أُضعفت الطاقة الدفاعية للقوات الالمانية فى الغرب بصورة حاسمة ، وتبخرت آخر امكانية استراتيجية للاحتفاظ بجبهة الراين الهامة .

سأرسم في الصفحات التالية صورة عامة لمجرى الحوادث على جبهة جيش البانزر الخامس ، ولقد اتبعت هذا الاسلوب لان مركز ثقل الحركة كان عملياً في منطقة عمل هذا الجيش منذ اليوم الاول لمعركة الآردين ولأن ارتباطاته أثرت على الحركة بمجموعها .

عزل قاطع شني ـ ايفل ومعركة سانت فيث :

كانت ليلة ١٥ / ١٦ كانون الاول ١٩٤٤ ، ليلة مظلمة وشديدة البرودة ، وكان نشاط مدفعية العدو كنشاطها فى الامسيات والليالي الماضيات . أما مشاة العدو فكانت ساكنة . ولذلك افترضنا ان تجمعنا ومسيرة تقربنا قد مرا دون أن يلاحظهما العدو.

لقد حصلنا ، بسبب الاستعدادات المفصلة وتكتيكات الهجوم التي لا هوادة فيها على النتائج التى كنا نأمل في الحصول عليها. فقد حمل المشاة بمجموعات صغيرة ، ونجحوا فى معظم الاماكن باختراق جبهة العدو ، وتم تجاوز العديد من المراكز القوية فى جبهة ايفل ، واستطعنا في ظهر ذلك اليوم اعتبار عمليتنا الاولى هنا على انها نجاح تام . الا أن المشاة كانوا بحاجة الى إسناد أوثق ، ليس من أسلحتهم الثقيلة الخاصة بهم فحسب ، بل من مدافع الميدان القليلة المتوافرة لدينا أيضاً اذ انهم مروا بوقت عصيب فى اختراقهم الموانع الكائنة امام الجدار الغربي ، وذلك بالرغم من جميع استعداداتنا التي كانت على جانب كبير من العناية .

لقد جرى تجاهل قاطع شني ـ إيفل بناء على خطة مرسومة . وكان الهدف من هذه المناورة اخراج العدو من مواضعه هنا ، كما تم ذلك فى حينه .

كان الجناح الايسر للفيلق ٦٦ أكثر بطئاً فى تقدمه الى داخل ايفل ، الامر الذى عرض للخطر خطتنا الهادفة الى اغلاق سريع لمنطقة شني ـ ايفل . وكان ذلك ، على أية حال ، تمهيدا جوهريا للمرحلة الثانية من تقدمنا الذى كان مقررا له أن يتم من خلال شونبرغ ومنها الى سانت فيت ، وهي مركز لشبكة مهمة من الطرق وتتمتع بالنسبة الى هذا القطاع بأهمية تماثل أهمية باستوني بالنسبة الى الجناح الأيسر للجيش .

كانت حوادث اليوم التي وقعت فى منطقة الفيلق الايمن للجيش مخيبة للآمال . فلقد فشل ذلك الفيلق فى مجاراة جدول التوقيتات الذي كنت قد وضعته لتقدمه . وأملت في أن الوقت الذى ضاع بهذه الصورة يمكن تعويضه بمتابعة الهجوم بعد حلول الظلام . ولهذا قضيت ليلة ١٦ / ١٧ ، كانون الاول مع هيئة أركان فرقة قاذفي الرمانات الشعبية الثامنة عشر التي مسكت مفتاح العمليات على هذا الجزء من الجبهة . ونجحت هذه الفرقة ، بفضل طاقة قائدها ، في الاستيلاء على شونبرغ فى صباح يوم ١٧ كانون الاول . وأظهر هذا النجاح كما لو ان في امكان الفيلق أن يعوض الآن عن الوقت المضاع ، إلا أن أحداث اليوم لم تحقق هذا الامل . فبالرغم من التظاهرة الممتازة التى أدتها القطعات وضباطها على اختلاف رتبهم ، فان فيلق المشاة لم يكن قادرا ، بالقوات التي فى حوزته ، على تنفيذ الهجوم بالشدة الضرورية وضمن الوقت المحدد الذى يضمن التعاون مع فيلقي البانزر . كما لم يكن بامكانه الاستيلاء بسرعة على عقدة الطرق الحيوية لسانت فيت التى كانت محورية في موضع العدو الدفاعي ، والتي كان من المهم جدا الاستيلاء عليها لصالح عمليات الجناح الايسر لجيش البانزر (إس . إس) السادس . أما قوات العدو المهددة بالتطويق فى منطقة شني ـ ايفل ، فقد هاجمت باتجاه الغرب وبصورة مستقيمة عبر خط تقدم الجناح الأيسر للفيلق ، مما أوقف تقدم الفيلق وأدى الى فشله فى الاستيلاء على سانت فيت فى ١٧ كانون الاول . أما الفرقة اليمنى من الفيلق ، والتى كانت أكثر الفرق نجاحا ، الآن ، فقد بدأت تعاني من الصعوبات ، ولو ان تلك الصعوبات لا تعود لاي تقصير من ناحيتها هي . وعلى جانبها الأيمن ، كان الجناح الايسر لجيش البانزر (إس . إس) السادس قد حقق تقدما محدودا فقط ، ولذلك كان العدو قادرا على صب نيرانه داخل جناح الفرقة الأيمن المكشوف .

ان هذا التأخير فى قاطع الفيلق ٦٦ ، وفشل جاره الأيمن فى اللحاق به ، قد تكرر فيما تبقى من قاطع جيش البانزر (إس . إس) السادس فى الشمال . وفى اليوم الاول من المعركة تفككت التشكيلات لجيش البانزر (إس . إس) السادس ، وسرعان ما أوقف الجناح الايمن لهذا الجيش بتدخل الجيش الأمريكي التاسع ، الى شماله مباشرة ، ولذلك لم ينجح حتى في الاستيلاء على مونشو ، وكذلك لم يستطع جيش الـ (إس . إس) هذا أن يحقق أية نجاحات في

قاطعه المركزي ، ولم يستول إلا على قطعة صغيرة جدا من الأرض ، تنحصر بين مونشو ونقطة ما جنوب ماليدى . وهذا يعني ان جيش البانزر (إس . إس) لم يسيطر على طرق كافية في قاطع تقدمه من أجل الاندفاع الى الموز . وكانت النتيجة التى سرعان ما أصبحت واضحة هي : أنه تحتم على جيش البانزر (إس . إس) السادس استخدام الطرق الكائنة في قاطع جيش البانزر الخامس ، وكان ذلك يعني ان تختنق طرقنا بالقطعات والعربات ، وأن ينجم عن ذلك تأخير أكثر .

سرعان ما تسمرت خمس فرق من جيش البانزر (إس . إس) السادس فى أماكنها فى قتال شديد متأرجح فى منطقة ايلسنبورن ـ كرنكيلت أما فرقة البانزر (إس . إس) الاولى ، وهي التشكيل المدرع الرئيسي للجيش ، فقد اندفعت الى الامام داخل المنطقة الكائنة غرب وجنوب غرب ماليدي ، حيث أصبحت مهددة بخطر الانعزال .

لم يحدث تقدم فرقة البانزر (إس . إس) الأولى أي تغيير بالنسبة الى العمليات على طول بقية جبهة جيش البانزر (إس . إس) السادس ، كما لم يكن هناك أي تأثير لحركة المظليين المعروفة باسم هوهزفين (التي أمر بها هتلر) على المجرى العام لهجومنا . وعندما كان الهجوم في مرحلة التخطيط ، عارض هتلر استخدام قطعات المظليين ، وهذا في رأيي صحيح جدا . وسبب معارضة هتلر هذه هو أنه لم يؤمن بقدرة سلاح الطيران على تنفيذ العملية بنجاح مضمون ، أضف الى ذلك ، أن الهجوم سيشن اعتماداً على جو رديء ، مما يجعل من العسير جدا استخدام المظليين . ومع ذلك ، فقد تقرر ، بناء على رغبة الفيلد ماريشال يودل ، استخدامهم في غير المكان المطلوب . فلقد رغبت مجموعة الجيوش (ب) في « اسقاطهم » في منطقة كرنكيلت للمساهمة في تحطيم مواضع العدو الدفاعية التي كان من المعتقد أنها قوية جدا هناك . ولكن بدلا من ذلك ، تم اسقاطهم الى الشمال من ماليدي ، وكلفوا بخلق جبهة موجهة نحو الشمال .

أما عملية « غريف » التي أمرت بها القيادة العليا ، والتي تضمنت استخدام قطعات خاصة متنكرة بالملابس الأمريكية ، فقد كان نصيبها من الفشل لا يختلف عن سابقاتها . لقد كان الغرض من عملية« غريف » تسهيل اختراق جبهة العدو وتسهيل التقدم الى الموز ، ومن ثم الاستيلاء على جسورها قبل أن يتسنى للعدو تخريبها . وكان على قطعات عملية « غريف » أن تستولي على هذه الجسور بمفردها إن أمكن . الا أن فشل الخطة كان أمرا محققا طالما ثبتت استحالة تأمين تناسق موقوت ودقيق مع الوحدات التقليدية للجيش ، اذ لم يكن باستطاعتنا اتخاذ الاستعدادات الضرورية طالما أن قادة الجيش أنفسهم لم يكونوا مطلعين على سعة عملية « غريف » ومخططاتها إلا جزئياً . وأنه ليبدو محتملا ، من الطريقة التي عولجت بها العملية ، أن الخطة لم تكن الا من بنات أفكار هتلر ، ولذلك كانت موضع تفاخر شديد من قبله .

لقد عُين سكورزيني ، قائدا لعملية « غريف »، وهو الشخص الذي كان قد اشترك في الحركة المشهورةالتي أدت الى تحريرموسوليني من سجنه فوق جبل غران ساسو، والتي كانت عبارةعن عملية اختطاف جريئة وناجحة . . . لقد أعطي هذا القائد الآن مهمة تكوين وقيادة لواء البانزر المائة والخمسين ، واستلم أوامره وتعليماته بهذا الخصوص من هتلر مباشرة . وصدرت الأوامر الى الجيش لارسال الأسلحة والعربات المستولى عليها الى ذلك اللواء ، الذي كان قيد الإنشاء في المانيا .إلا أن الجنرالات القادة لم يطلعوا على التنظيم التكتيكي للواء .ولذلك عندما وصل الى القائد العام في الغرب طلب لارسال بزات العدو المستولى عليها ، رفض هذا القائد الاستجابة للطلب . وفي الواقع أنه أصر على أن تضمن القيادة العامة عدم تجاوز سعة عمليات اللواء المائة والخمسين المقترحة لطبيعة الانزال الاعتيادية والمسموحة ، فما كان من القيادة العامة الا أن وعدت بذلك بصورة لا لبس فيها.

لم يكن لعملية « غريف » أي تأثير على عمليات الجيش ، وذلك بالنظر الى حقيقة أن العدو قد علم بكل شيء عنها مسبقا ، ولذلك فقد فشلت العملية بكاملها في الحال . ويرجع سبب انكشاف عملية « غريف »، إلى أن ضابطاً من الفيلق ٦٦ وقع في الأسر بينما كان في طريقه بالسيارة من المقر الى الجبهة في ١٦ كانون الأول ، وكان في حوزته بضع نسخ من الأوامر الخاصة بالعملية، لم يستطع اتلافها قبل أن تقع في أيدي العدو . وهكذا أصبح في امكان الأمريكيين اعطاء قطعاتهم تحذيرات مفصلة ، كما علمنا بذلك من منظومة شبكة التنصت . . لقد بولغ كثيرا بأهمية عملية « غريف » منذ الحرب حتى الآن .

دعنا نعود من جديد الى المعركة ، كما كانت عليه آنئذ ، لنجد أن الموقف يمكن تلخيصه كما يلي :

لقد أنيط الدور الحاسم بجيش البانزر (إس . إس) السادس في اليمين من قبل هتلر ، الا أنه لم يتمكن من احراز تقدم سريع نحو الموز ، الأمر الذي سبب لقائده تعاسة انعكست في صمته الذي استمر عدة أيام . وقد افتقرت هيئة أركان ذلك الجيش الى المقدرة المطلوبة لمجاراة الموقف ، وتحتم الآن دفع ثمن الخطأ الذي ارتكبته القيادة العامة عندما شكلت جيش البانزر (إس . إس) السادس وأسندت اليه دوره الحالي . فقد أصبحت الآن كافة طرقه مغلقة . ولم تكن هيئة أركانه أهلا لحل المعضلة . أما الضباط الأعوان في ذلك الجيش ، فلم تكن لديهم الخبرة التكتيكية المطلوبة لضمان استمرارية زخم الهجوم ، فترتب على ذلك تأخيرات مهلكة . أضف الى ذلك أن العدو كان قد أبدى صلابة نادرة ومقاومة عنيدة في منطقة ايلسنبورن ـ كرنكيلت ، ونسي جيش البانزر (إس . إس) السادس مهمته الأولية كليا ، فراح يلقي بقوات قوية ضد الأمريكيين في تلك المنطقة . وتطور من جراء ذلك قتال عنيف بين الطرفين أسفر عن وقوع خسائر جسيمة ، فما كان من هذا الجيش إلا أن أرسل تقويات الى قطعاته المتورطة . كل

هذا لم يكن له ما يبرره ، اذ ان السبيل الصحيح الذي كان من الواجب اتباعه ، بمجرد معرفة صلابة مقاومة العدو ، هو تشكيل طوق دفاعي حول مواضع العدو ، على أن يكون ذلك الطوق من القوة بما يكفي لستر الاندفاع غربا ، ذلك الاندفاع الذي كان من الضروري الاستمرار فيه بأقصى ما يتيسر من القوات .

قضيت من جديد ليلة ١٨/١٧ ، كانون الأول مع فيلق مشاتي الأيمن (كنت خلال النهار في داسبورغ ، وعلى اتصال قريب مع قائدي فيلقي البانزر العائدين لي)، لأن مركز ثقل الحركة بكاملها كان في ذلك الوقت إلى جوار الحدود الكائنة بين جيش البانزر الخامس العائد لي وجيش البانزر (إس . إس) السادس الكائن في يميننا . وكنت آمل أن أستطيع السيطرة شخصيا على الهجوم على سانت فيت من مقر فرقة قاذفي الرمانات الشعبيين الثامنةعشرة. وبينما أنا في طريقي الى ذلك المقر في مساء ١٧ كانون الأول ، التقيت بالفيلد ماريشال يودل ، وكان هذا الأخير يسير مثلي على قدميه ، لأنه بنتيجة الخراب العام الذي شمل الطرق الكائنة شرقي شونبرغ ، أصبح المسير على الأقدام أسرع من ركوب السيارة . وبعد أن تلاقينا قال يودل إنه سيفصل بصورة وقتية لواء حرس الفوهرر من الاحتياط للمشاركة في الهجوم على سانت فيت في اليوم التالي المصادف ١٨ كانون الأول . وكان كلانا محجما عن زج هذا اللواء المدرع مع الفيلق ٦٦، طالما أنه غير معد حالياً لعمليات أخرى في قاطع الفيلق ٦٦، وطالما أن وجود اللواء في مكان آخر من الجبهة ربما يكون حيويا لنجاح الهجوم بكامله . كما كان الاستيلاء على سانت فيت مهما جدا ، ليس بالنسبة لجيشي فحسب ، بل حتى بالنسبة لجيش البانزر (إس . إس) السادس .

لقد وافقت على اشراك هذا اللواء في ا لهجوم على سانت فيت لأنني كنت آمل أن تستطيع قوة لها هذا العلو في المكانة وهذا التجهيز الممتاز ، تقرير النتيجة بسرعة في هذا القاطع من الجبهة ، بشرط أن تتمكن من جلب كل قواتها على جناح السرعة . بيد أن الحركة على الطرق كانت صعبة جدا ، لدرجة لم يستطع معها اللواء الوصول الى الجبهة في ١٨ كانون الأول ، وبالتالي لم أتمكن من دفعه الى القتال الا في يوم ١٩ منه ، وكان تدخله بصورة حاسمة في ٢٠ منه . وفي ليلة ٢٢/٢١ أخلت قوات العدو ، التي قاتلت بشجاعة بالغة ، المدينة تحت ضغط الفيلق ٦٦.

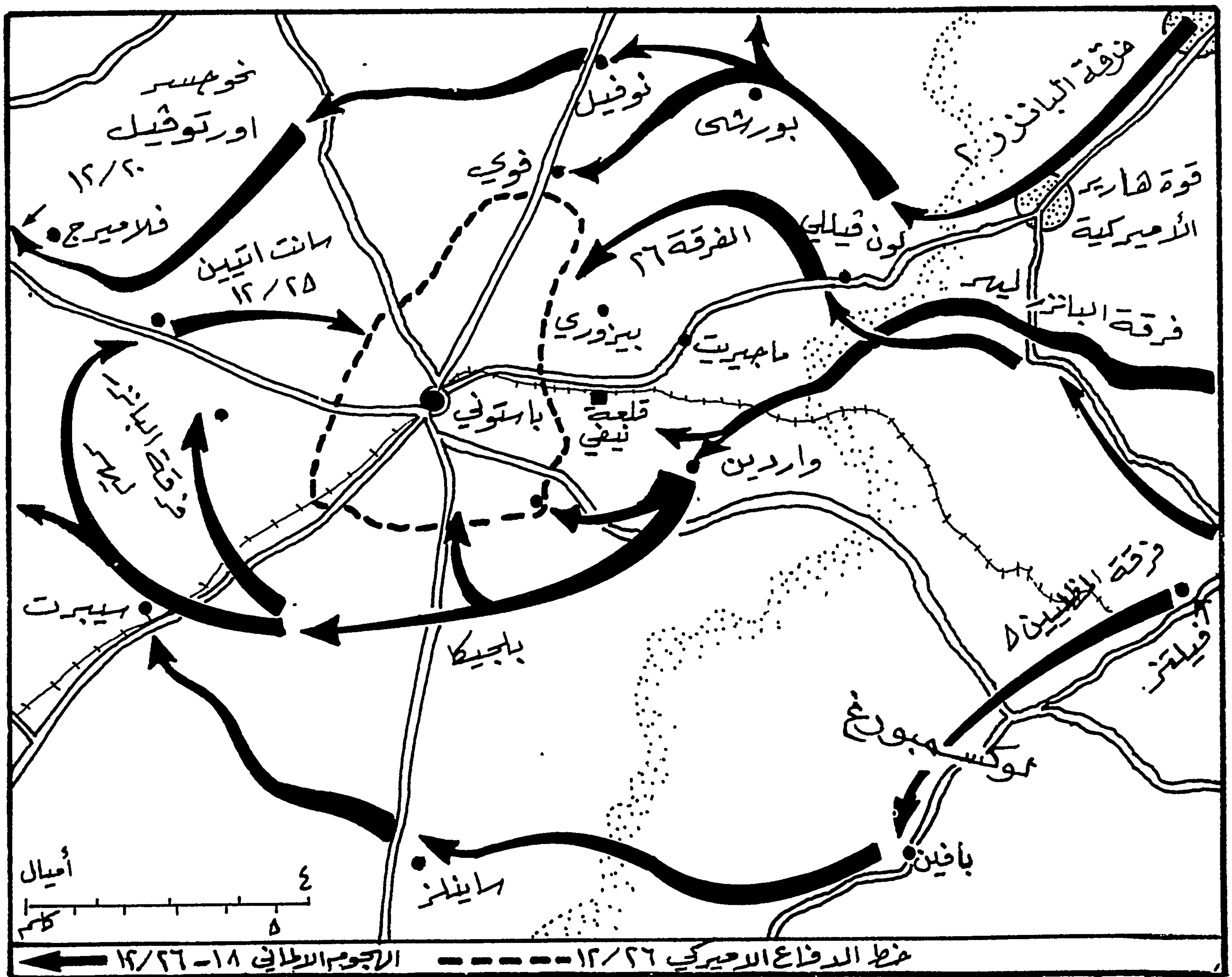
استغل الأمريكيون نجاحهم الدفاعي في سانت فيت وحواليها ، وعرفوا كيف يجعلون المعركة تدور لصالحهم في هذه المنطقة . وتم تثبيت قسط من قطعاتنا يزيد بكثير عما كنا نتوقع . وكان الألمان قد اضطروا ، هنا ، الى اشراك وحدة مدرعة ، كانت قد أعدت للعمليات في مكان آخر ، الا أن الأمر الأكثر أهمية ، هو أن التأخير الناجم عن معركة سانت فيث منح العدو وقتاً كافياً لتقوية مواضعه الدفاعية في قطاع « سالم »، وإغلاق الجناح الشمالي لثغرة اختراقنا . ولم ينجح الألمان بعدئذ أبدا في اختراق الخط الأمريكي الذي تم انشاؤه بهذه الصورة ، على الرغم من المحاولات المتكررة في هذا السبيل .

الاندفاع الى الموز والصفحة الأولى من حصار باستوني :

لقد اخترق فيلقا البانزر العائدان لجيش البانزر الخامس ، وهما الثامن والخمسون الى اليمين والسابع والأربعون الى اليسار ، جبهة العدو ، وأوجدا بذلك الظروف المناسبة للتقدم نحو الغرب . صحيح أن الجناح الأيمن لفيلق البانزر الثامن والخمسين كان قد رد ، بعد نجاحات أولية ، على أعقابه فوق الضفة الشرقية لنهر أور بهجوم معاكس شنه العدو سريعا ، الا أنه تم تعديل هذا الفشل بنجاح غير متوقع حققه الجناح الأيسر للفيلق ذاته ، إذ لم يتمكن هذا الجناح من القيام بعبور نهر أور فسحب ، بل انه استغل نجاحه المباغت بتشكيل رأس جسر في ١٦ كانون الأول ، وكان من المفروض أن يكون لرأس الجسر هذا أهمية عظمى في العمليات القادمة . أما التظاهرة الهجومية لفرقة قاذفي الرمانات الشعبيين الـ ٥٦٠ ، وهي وحدة تتألف من جنود حديثي السن جدا ويخوضون القتال لأول مرة ، فقد ظهر أنها ناجحة ، بالرغم من الظروف السيئة للجو والطرق . الا أن فرقة البانزر الـ ١١٦ التي كانت تتقدم خلف الفرقة ٥٦٠ لم تتمكن من عبور النهر في ليلة ١٦/١٧ . لذلك بذلت عدة محاولات لتعبيرها فوق جسر كان قد تم الاستيلاء عليه من قبل وحدة مجاورة في الجنوب . وقد تم ذلك فعلا ، إلا أن ذلك أدى إلى ايجاد عنق زجاجة سيء في مكان العبور هذا .

لم يصادف جناح جيشي الأيسر (فيلق البانزر السابع والأربعون) الا قليلا من الصعاب في عبور **الآور** واجتياح مواضع الأمريكيين الأمامية . وأمكن المباشرة صباح اليوم الأول في بناء جسر قرب داسبورغ . وفي الساعة ١٦,٠٠ تدفقت الدبابات الأمامية عبر هذا الجسر الاحتياطي ، الا أن تقدمها بعد العبور كان بطيئا ، لأن الطرق الممتدة من داسبورغ الى كليرف كانت مغلقة لعدة أميال بجذوع الاشجار التي وضعها الألمان أنفسهم لستر تراجعهم خلال خريف ١٩٤٤ . ونتج عن ذلك تزاحم وعرقلة في تسيير المرور . وامتد التزاحم الى الجسر نفسه وتجاوزه بحيث شمل المقتربات الواقعة على الضفة الشرقية ، الأمر الذي أدى إلى إبطاء زخم الهجوم في مكان آخر ، بالرغم من رغبة جميع الوحدات في متابعة الاندفاع . كما أن التوقف الهائل للمرور أثر على فرقة البانزر أيضا ، ولم يكن ممكنا الا تعبير عناصر ضعيفة من كتيبتها الاستطلاعية عبر نهر الآور ، بينما لم يتمكن قسمها الأعظم من الوصول الى النهر . لقد اعتبرت توقف هذه الفرق بمثابة خيبة أمل عظمى في ذلك الوقت ، إذ انني كنت أتوقع نتائج كبرى من وراء اشتراكها ، لقد بررت الأيام القادمة مخاوفي تبريرا تاما .

في يوم ١٧ كانون الأول ، استطاعت الفرقة ا لثانية من الفيلق الأيسر الاندفاع غربا على طول الضفة الشمالية لنهر كليرف ، ثم استدارت جنوبا ، وأمنت معبرا لها على النهر بجوار محطة سكة حديد كليرف ، وسرعان ما توقفت مقاومة العدو هنابأكملها. ويبدو أن خطة عمليات الأمريكيين تضمنت انسحابا مدبرا. الى ما وارء نهر كليرف ، حيث ان مقاومة العدو قد توقفت في قطاع فرقة قاذفي الرمانات الشعبيين ٢٦ في نفس الوقت تقريبا . وشق أحد أفواج هذه الفرقة



الاردين، معركة باستوني ١٩٤٤

طريقه الى قرية كليرف في خلال النهار . وفي الساعة ١٧,٠٠ كان ذلك الفوج قد نجح في الاستيلاء على الجسر في حالة سليمة ، وبالرغم من أن القسم الأعظم من الفرقة لم يتمكن من الوصول الى كليرف قبل حلول الظلام ، فان غالبية الفرقة عبرت النهر بعد حلول الظلام ، بدون أن تلقى أية مقاومة ، وأضبحت الفرقة بتماس قريب مع جارتها اليسرى ، وهي فرقة المظليين الخامسة التابعة للجيش السابع .

وهكذا كان كلا فيلقي البانزر على أحسن ما يرام ، وهما في طريقهما لتحقيق الاختراق ، وستكون المرحلة التالية مطاردة العدو ومنعه من انشاء خط دفاعي جديد ، ولذلك كان من المهم جدا ارسال فرق البانزر التي عول عليها كثيرا ، ودفعها الى الأمام بأقصى سرعة .

الى يسارنا مباشرة ، كانت فرقة المظليين الخامسة قد اجتلت معبراً على نهر كليرف . وبهذا تم لها فتح الطريق لانطلاق أبعد نحو الغرب ، عبر فيلتس . وهنا ، وبالقرب من نقطة اتصال الجيشين : السابع والبانزر الخامس ، تبين لنا أننا اكتشفنا نقطة ضعيفة في دفاعات العدو ، الأمر الذي جعلها ذات فائدة كبيرة للجناح الجنوبي من جيش البانزر ا لخامس ، اذ كان ذلك

الجناح يحرز أيضا تقدما جيدا نسبيا . الا أن الجيش السابع لم يتمكن من استغلال هذه الميزة في الحال ، بسبب نقص وحدات الهندسة لديه . ولم يكن بالامكان إنجاز الجسور الاحتياطية، التي تتراوح بين ثلاثة وخمسة قبل تاريخ ١٨ أو حتى ١٩ كانون الأول . لقد كان الجيش السابع مصيبا في اعتقاده بأن هذا التأخير الذي حدث في اللحظة الحاسمة للمباغتة قد فوت عليه فرصته الممتازة في الاختراق ، وبدأت الشكوك تحوم حول قدرة الجيش السابع على تنفيذ مهمته ، التي كانت تتطلب ستر الجناح الأيسر لتقدم جيش البانزر الخامس نحو الغرب .

وبالرغم من النجاحات التي أحرزناها في ١٧ كانون الأول ، فقد ابتدأ الغموض يطغى على إمكانية وصول جيش البانزر الخامس الى أهدافه في الوقت المحدد له ، إذ ان أي أمل في الوصول الى تلك الأهداف لا بد وأن يعتمد على توافر ظروف ملائمة ، وأهمها أن تكون مقاومة الأمريكيين غرب كليرف من الضعف بحيث لا تصطدم جحافلنا الأمامية بأية صعوبات في التغلب عليها . الا أن هذا كان من الصعب توقعه ، لأن القوات المعادية ، بالرغم من ضعفها ، كانت تبدي مقاومة كبيرة ، وكانت المقاومة عنيدة للغاية في بعض الأحيان .

ابتدأت حالة الطرق المزرية ، التي سبقت الاشارة اليها ، بالتأثير جديا على عملياتنا في يوم ١٨ كانون الأول . ففي الساعة ٠٩,٠٠ عبرت فرقة بانزر نهر كليرف ، الا أن الظلام هبط قبل أن تصل منطقة **نايدر ـ فامباخ** . وفي خلال الليلة التالية ، تقدمت تلك الفرقة الى **ماغيريت**، التي أخلاها العدو مع الضيوء الاوا ، ولم تصل الفرقة المذكورة الى باستوني الا في صباح ١٩ كانون الأول . لقد مرت هذه الفرقة في وقت عصيب ، فقد توقفت ثانية بسبب الطرق المزدحمة جدا ، وكانت الصعاب التي جاءت في تقارير الفرقة صحيحة دون شك . ومهما يكن من أمر ، فقد استمر التساؤ ل عما إذا كان من الأصوب ارسال قسم من قوة الفرقة المذكورة باتجاه الجنوب ، حيث يمكن أن يؤدي ذلك الى احراز نجاح هام في هذه المنطقة .

في ١٩ كانون الأول أخذ زخم هجوم فيلق البانزر السابع والأربعين بالتباطؤ من جديد. وباقتراب عصر ذلك اليوم ، تطور قتال عنيف مع جمهرة قتالية تعود الى الفرقة الأمريكية العاشرة. فلقد شوهدت هذه الجمهرة وهي تتحرك باتجاه الغرب مساء اليوم السابق ، ورصدها استطلاعنا في وقت مبكر من يوم ١٩ كانون الأول في منطقة لونغفلي . وفي خلال الصباح هاجمت الجمهرة القتالية الجناح الجنوبي لفرقة البانزر الثانية . وكان من الواضح أن مهمتها تتعلق بتمكين الأمريكيين من اكمال الجبهة الدفاعيّة التي كانوا يبنونها شرقي باستوني ، وذلك بمناوشة قطعاتنا المتقدمة . وكانت نتيجة الاشتباك تدمير الجمهرة القتالية الأمريكية . الا أن هذه العملية التعرضية لم تكن ، من وجهة نظر العدو ، مجرد خسارة بحتة ، اذ انها تسببت في تأخير موعد الهجوم الرئيسي المزمع شنه من قبل فرقة قاذفي الرمانات الشعبيين السادسة والعشرين ، وفرقة بانزر ليهر التابعة لفيلق البانزر السابع **والأربعين** حتى منتصف النهار . وهكذا أفلح العدو في الحصول على بضع ساعات قيمة ، استطاع في خلالها تهيئة مواضع دفاعية شرق وجنوب

باستوني . وكشف استطلاعنا أن الأمر لا يتعلق بقواب ضعيفة مرسلة على جناح السرعة الى الأمام ، كيما تشكل ترسا دفاعيا رقيقا ، بل يتعلق هذه المرة بدفاع منظم تقوم به وحدة قوية منفردة تساندها المدفعية .

لقد أوقف تقدم فرقة قاذفي الرمانات الشعبيين السادسة والعشرين أمام بكسوري التي كانت ممسوكة بقوة . أما فرقة البانزر ليهر فقد استولت على نيفي ونجحت مساء في شق طريقها عنوة الى داخل واردن ،وأفادت تقارير قطعات الاستطلاع أن قوة معادية أكثر قوة كانت في مارفي وحواليها .

كانت المشكلة التي جابهت فيلق البانزر السابع والأربعين في مساء يوم ١٩ تتعلق بالتساؤ ل التالي : هل يلقي بكافة قواته من أجل الاستيلاء على باستوني في الحال ، أم ينيط واجب الاستيلاء النهائي على المدينة (وفقا لما ورد في الخطة الأصلية) بفرقة قاذفي الرمانات الشعبيين السادسة والعشرين ، بينما تتخطى فرقتا البانزر الأخريان باستوني وتمضيان قدماً نحو الغرب ؟ . لقد قرر جيش البانزر الخامس ارسال فرقة البانزر ليهر أيضا ضد باستوني في الحال ، على أن يستبقي قسماً من تلك الفرقة ليكون جاهزا لاستئناف التقدم غربا عبر سايبرت . لقد كانت باستوني ذات أهمية عظمى ، لأن بقاءها بيد العدو لا بد وأن يؤثر على كافة تحركاتنا نحو الغرب ، ويلحق الضرر بمنظومة تموبننا ، وأخيرا لا بد أنها ستشغل قوات ألمانية كبيرة ، لذلك كان من المهم جدا أن نستولي عليها فوراً .

لقد شككنا ، حتى قبل ابتداء المعركة ، في أن يكون ما لدينا من القطعات كافياً لانجاز كلا واجبينا : التقدم وستر جناحنا الجنوبي في آن معاً . كما أن التورط في باستوني سيعني نضوبا أكثر في مصادرنا التي أصبحت غير كافية ، في حين أن وجود باستوني في أيدي الأمريكيين سيبقيها مجال جذب لقوات العدو ، وبهذا ستكون خطرا دائما علينا ، طالما أنه بنجدتهم للمدينة المحاصرة سيجعلون منها نقطة وثوب يهددون منها كافة عملياتنا الهجومية . أما اذا استخدمنا كل قطعات فيلق البانزر السابع والأربعين بغية الاستيلاء على باستوني فان ذلك سيعني أننا قد تخلينا ، مؤقتا ، عن خططنا التعرضية ، لأن ذلك سيضع نهاية لأي تقدم أبعد نحو الغرب . ولذلك قرر جيش البانزر الخامس أن على فرقة البانزر الثانية أن تأخذ نوفيل ، وأن تندفع بعد ذلك غربا دونما تردد . وفي هذه الآونة صدر الأمر الى فيلق البانزر السابع والأربعين لأن يرسل فرقة البانزر ليهر لمهاجمة باستوني ثانية من الشرق في يوم ٢٠ كانون الأول .

واقترح القائد العام في الغرب أن نُرسل القوات التي خصصت في الأصل لتشكل فرع الكماشة الأيمن في « الحل الصغير »، من قطاع غلينكرشن ، لتهاجم باتجاه الجنوب نحو ماسترخت ونحو ا لمنطقة الكائنة شرق تلك المدينة . الا أن هذا الاقتراح أهمل من قبل هتلر ، وليس هذا فحسب ، بل انه أمر أن تنقل فرقتا البانزر التابعتان لفيلق البانزر ٤٧ من منطقة

غلينكرشن الى الآردين ، وهذا ما حدث الآن . وعندما أبلغني قائد فرقة البانزر التاسعة أن فرقته ، التي كانت ستلتحق مع فيلق البانزر السابع والأربعين ، قد أفردت عن البقية على الطريق لمسافة ستين ميلا ، لم يكن يعلم متى أو أين يفترض فيه أن يحصل على الوقود الذي سيمكّنه من اكمال مسيرته التقربية .

في ٢٠ كانون الأول نجحت الفرقة الثانية في الاستيلاء على نوفيل وعلى غوا ووصلت في منتصف الليل الى أورتنفيل ، حيث استولت على جسر سليم عبر أورت ، وتابعت تقدمها غربا ، بعد أن تركت وراءها قوات للحماية . وفي هذه الآونة كانت فرقة البانزر ليهر قد استولت على بكسوري ، إلا أن فرقة قاذفي الرمانات الشعبيين السادسة والعشرين لم تكن قادرة على المضي في تقدمها ، بسبب مقاومة العدو الشديدة وفشل الهجوم الذي شن من نيفي نحو مونت في احراز أي تقدم ، وتم الاستيلاء على واردن . الا أن العدو استمر في ابداء دفاع صلب وشجاع عن مارفي . لقد كان من الواضح أن مقاومة العدو جنوب باستوني لم تكن من القوة كما كانت عليه شرقي المدينة .

تحسن الجو في ٢١ كانون الأول ، وظهرت لأول مرة القاذفات المقاتلة المعادية فوق كلا فيلقي البانزر ، ولو أن ظهورها حتى الآن كان بأعداد محدودة . . لقد أصبحت فرقة البانزر الثانية تعاني الآن من نقص كبير في الوقود ، ولهذا لم يكن بامكانها أن تحرز سوى تقدمات محدودة ، فلقد وسعت رأس جسرها عند الأورت الى تينيفيل ، ونجحت فرقة قاذفي الرمانات الشعبيين السادسة والعشرين في الاستيلاء على سايبرت بعد قتال مرير . أما الهجوم الرئيسي على باستوني من الشمال والشرق فلم يكلل بالنجاح ، ولكن تطويق باستوني تم الآن على أية حال ، باستثناء ثغرة تمتد بين شامبس وسينون شامبس . وأرسل خلال هذا اليوم ضابط من فرقة البانزر ليهر الى داخل باستوني تحت راية وقف اطلاق النار ليطالب المدينة بالاستسلام . ومن الجدير بالذكر أن ذلك قد تم دون موافقتي ، إذ انني اعتبرت ذلك عملا لا قيمة له ،طالما ليس لدينا ما يمكننا القيام به لفرض رغباتنا على العدو في حالة رفضه الاستسلام ، حيث لم تكن مدفعيتنا تمتلك الذخائر الكافية لقصف المدينة بشدة . وعندما التقيت بقائد الفيلق وأخبرني بارسال الضابط كان الأوان قد فات ولم يعد بامكاني الغاء الأمر . وجاء جواب العدو محققا لظنوني ، اذ أنه رفض طلب الاستسلام . ولم تشر تقارير الاستطلاع ، حتى مساء ٢١ كانون الأول ، الى تدفق قوات معادية جديدة من الغرب ضد جبهة فرقتي البانزر الأماميتين .

ابتدأت فعالية القوة الجوية الاميركية بالازدياد في ٢٢ كانون الأول ، ووصلت فرقة البانزر ليهر المتقدمة الى روشفور ، كما وصلت الى سان هيوبرت ، التي تم الاستيلاء عليها في خلال الليلة التالية . وفي ساعات بعد الظهر أطلقت النار على سيارات كانت تتحرك بصورة منفردة على طول طريق ريمي ـ شامبانيا ـ موريت ، وأشعلت فيها النيران بواسطة رمايات مدافع

الدبابات والمدافع المضادة للدبابات التي كانت تطلق نيرانها من الجنوب بالقرب من النقطة التي يقطع فيها الطريق السابق (طريق باستوني ـ فوكس ـ لِس ـ روزيير) ولقد تبين أن قوة معادية صغيرة كانت قد توغلت الى الداخل من الجنوب ، وكانت تطلق نيرانها على تقاطع الطرق من موضع يقع على بضع مئات من الياردات شمال بوتيت روزيير ، إلا أن دبابات فرقة البانزر ليهر اضطرت مجموعة العدو إلى التراجع ، وشهدت بنفسي ذلك الاشتباك ، حيث انني كنت مع القطعات الامامية لتلك الفرقة .

أبلغ جيش البانزر السابع الآن ان فرقة المظليين الخامسة كانت قد هوجمت بتكرار في خلال النهار من قبل قوات الاستطلاع الامريكية القادمة من الجنوب . ولكن تلك الفرقة أفادت انه ليس هنالك ما يدعو إلى القلق ، وان خطها السائر قد دفع الى الامام جنوب طريق شومون ـ ويمويفل . أما قطعاتها المتقدمة فموجودة في لبرامونت وحواليها .

كان الهجوم الذي شنته فرقة قاذفي الرمانات الشعبيين السادسة والعشرون قد حقق تقدماً بطيئاً نحو باستوني ، ونشب في خلال ساعات النهار قتال شديد ، ووجدت بعض عناصر الفرقة نفسها ، لوقت ما ، في موقف حرج . وفي يومي ٢١ و٢٢ كانون الأول ، أسقطت القوة الجوية الامريكية إمدادات الى حامية باستوني ، وتسنّت لنا مشاهدة هذه العملية بكل سهولة ، حيث ان السماء كانت صافية . وفي مساء ٢٢ كانون الأول شنت القوات الامريكية المحاصرة في باستوني سلسلة من الهجمات المعاكسة ، واستطعنا بصعوبة دحر تلك الهجمات ، بعد أن جمعنا كل ما تيسر لنا من احتياطات . وتكبدت فرقة قاذفي الرمانات الشعبيين الباسلة خسائر جسيمة خلال الأيام القليلة الأخيرة ، وبنتيجة ذلك هبطت قوتها القتالية الى مستوى متدنٍ جداً . ولم يكن واضحاً ما إذا كان الغرض من هجمات العدو هذه هو فك الحصار الذي ضربناه حول باستوني . وكان من المحتمل ان حامية باستوني كانت تحاول الاتصال مع قوات العدو الأخرى المتقدمة من الجنوب ، والتي كان ضغطها لا مراء فيه الآن . ولعل المرحلة القادمة ، بعد كسر الطوق المحيط بباستوني ، ستكون هجوماً ضد الجناح العميق لفرق البانزر التابعة الى جيش البانزر الخامس الذي كان وما زال يتحرك نحو الغرب . ولقد كان هذا ، على الاقل ، هو الانطباع الثابت الذي كونته عندما كنت عائداً بالسيارة ، إستناداً إلى نيران العدو النشطة التي كانت تطلق جنوب غرب باستوني . واعتباراً من مساء يوم ٢٢ كانون الأول تغير الموقف في باستوني . فمنذ ذلك الحين ، اضطرت القوات الألمانية التي تحاصر المدينة إلى أخذ موقف الدفاع .

قمة هجومنا :

عندما اخترقت فرقة البانزر الثانية في ٢٢ كانون الأول خط العدو الدفاعي فيما بين مارش ، وروشفور في منطقة هارجيمونت ، واستولت في مساء ذلك اليوم على هسونفيل ،

وجامودين ، تبين لنا ان الظروف ملائمة لتقدم ناجح من قبل تلك الفرقة نحو معابر نهر الموز في دينانت وحواليها ، ومن الواضح ان تقدماً كهذا كان خطراً بالنسبة الى الموقف العام ، حيث ان فرقتي البانزر ٢ و١١٦ اللتين ستشكلان القوة الضاربة ، ستبتعدان عن بقية الجبهة ، في حين كان جيش البانزر الخامس لا يزال متوقفاً . أما الجيش السابع الذي أنيط به واجب ستر جناحنا الجنوبي ، فقد كان الضغط ضده في تزايد مستمر . وكان قد تعرض لهجوم من الجيش الامريكي الثالث ، فاضطر الى تسليم الارص الكائنة في وسط جبهته وعلى جناحها الأيسر . ولقد حصلت ثغرة واسعة بين ميمنة جيش البانزر الخامس وجيش البانزر السادس ، ونتيجة لذلك استوجب سحب جناحنا الايمن ، ولم يعد بإمكاننا التعويل على أية حماية من العمليات الجارية جنوباً أو غرباً من قبل جيشنا السابع . ولقد علمنا ان مزيداً من فرق الجيش الامريكي الثالث كانت تتحرك من الجنوب . وفي هذه اللحظة اعتبر موديل ان الاستيلاء على باستوني هام لدرجة أنه راح يصر على وجوب قيام جيش البانزر الخامس باحتلال المدينة مهما كانت الظروف . ولعل موديل كان مدفوعاً نحو « الحل الصغير » الذي كان ذا خطوة عنده على الدوام . لقد كان هذا الواجب اصعب من أن يضطلع به جيش دون التخلي عن أهدافه الرئيسة. ومما لا شك فيه ان المبادأة وبالتالي السيطرة على مجرى الحركات المقبلة ، كانت قد انتقلت الى العدو . ومن الجدير بالذكر ان الحلفاء لم يقوموا الا بمحاولات طفيفة لاخفاء حقيقة انهم كانوا يسحبون قوات من قطاعات اخرى من الجبهة الغربية .وكان في وسع منظومة التنصت الالمانية متابعة تطور تلك الانسحابات بمنتهى التفصيل .

في خلال ليلة ٢٢/٢٣ كانون الأول ، تابعت كتيبة استطلاع فرقة البانزر الثانية تقدمها ، ووصلت في ظهر اليوم التالي (مع وحدات اخرى من الفرقة) الى كونيكس . وكانت في خلال هذا التقدم قد احتكت مرات عديدة مع تشكيلات معادية جديدة قادمة من الشمال، الأمر الذي استوجب افراز عناصر من الفرقة بصورة مستمرة لتأمين حماية جناحها . وتوخيا لهذا الهدف ، تُركت مجموعات من القطعات الى الوراء في كل من هوغن وسنن ،وبيسوكس ، وهافرسن .

أصبح الموقف في ٢٣ كانون الأول أكثر دقة ، وذلك عندما ابتدأ العدو بشن هجمات معاكسة أكثر قوة ومصحوبة باسناد مدرع ، من منطقة مارش . فلقد حقق العدو سيطرة مؤقتة على طريق باندي ـ هارجيمونت ـ وفي خلال هذا النهار أُرسلت كتيبة الى الأمام لتسند فرقة البانزر الثانية ، الا انها لم تكن قوية بدرجة كافية لاستعادة الموقف . لذلك استوجب ارسالها لتقوية الجناح ، الأمر الذي أدى الى تحسين الاوضاع هناك ، وأمكن دحر هجمات العدو الاخرى القادمة من الجنوب والجنوب الشرقي . وقد وصلت كتيبة الاستطلاع ، في أثناء الصباح ، الى فوا نوتردام ، واخترقت خط العدو الدفاعي في هجوم مباغت ، وغنمنا أكداساً ضخمة من العربات والمعدات الأخرى ، وحققت بقية عناصر الفرقة تقدماً جيداً أيضاً . الا انها سرعان ما علمت بضغط العدو المتزايد من الشمال والشمال الشرقي ، فأوقفت تقدمها .

واستدعى الأمر انشطار الفرقة الى جحفلين يقاتلان ظهراً لظهر ، الجحفل الأول شرقي كونيكس ، والجحفل الثاني في جوار وجنوب ذلك المكان . واضطرت القوات الساترة ورتل تموين الفرقة ، الى تشكيل مواقع دفاعية في مختلف القرى ، حيث قاتلت في سلسلة من الاشتباكات العنيفة ضد قوات العدو المتفوقة . وكانت المفارز الصغيرة آنفة الذكر هي أول من أبيد . أما الجحفلان اللذان كانا يقاتلان في منطقة كونيكس ، فقد تمكنا من الاتصال واتحدا معاً فيما بعد . إلا أن النقص الكبير في الوقود والذخيرة أضعف كفاءتهما الحربية .

لقد كان من المهم جداً ، فيما لو أريد المضي في تقدم جيش البانزر الخامس وجوب نجاح فرقة البانزر ليهر في التحرك نحو الموز في اليوم التالي ، أي في ٢٤ كانون الأول ، وبذلك تتمكن من نجدة فرقة البانزر الثانية . ولعل تحشيد جهود جميع القوات المتوافرة لجيش البانزر الخامس ومجموعة الجيوش (ب) كان سيساعد ، حتى في هذه الساعة المتأخرة ؛ في نجاح هجومنا .

لنعد الآن الى فيلق البانزر الثامن والخمسين ، وهو الفيلق المركزي لجيش البانزر الخامس ، لنرى ان حركاته كانت قد رسمت كما يلي :

فرقة البانزر ١١٦ ، وكانت ستستخدم جنوب نهر الأورت ، وفرقة الحرس الشعبي ٥٦٠ شمال ذلك النهر ، إذ ان جارها الايمن كان لا يزال منهمكاً في القتال على نهر الأور . وكان على فرقة البانزر ١١٦أن تتقدم منهوفالايز الى لاروش ، ومن هناك تتقدم الى أبعد ما في وسعها نحو الغرب . الا أنه ورد في خلال ليلة ٢٠ كانون الأول تقرير يفيد أن جسر أورت الذي يقع على بعد ثلاثة أميال شمال باستوني قد دُمر ، واذا كانت الفرقة ستصلح ذلك الجسر بالاعتماد على منابعها ، فإنه سوف لن يكون صالحاً للعبور قبل مساء ٢١ كانون الأول على أقل تقدير . لذلك أمر جيش البانزر الخامس بايقاف فرقة البانزر ١١٦ ، ونقلها في أثناء الليلة القادمة عبر هوفالايز ومنها إلى سامري ، التي تم الاستيلاء عليها في الساعات الأولى من صباح يوم ٢٠ كانون الأول . . . لقد وصلت الفرقة المذكورة الى دوشامب في المساء نفسه ، واتضح الآن أن العدو كان قد اجتيح في قطاع فيلق البانزر ٥٨ واضطر الى القيام بتراجع سريع ، لذا كان من الضروري ان يتم عبور نهر الاورت بدون أي تأخير ، ثم الاستيلاء على الأراضي الواقعة على ضفة النهر الشمالية ، قبل أن ينجح العدو في انشاء خط دفاعي جديد على طول النهر .

وفي يوم ٢١ كانون الأول ، ازدادت مقاومة العدو ازاء تقدم فرقة البانزر ١١٦ ، وصُدّت هجمات الفرقة الموجهة نحو هوتون ، وسرعان ما وجدت وحدات الفرقة الهاجمة نفسها تحت نيران شديدة من المدفعية ، وكانت تلك النار تطلق من أرض عالية مشرفة شمال نهر سوا Soy . وشيئاً فشيئاً أصبح من غير المحتمل أن تتمكن فرقة البانزر ١١٦ من ارجاع العدو الى جبهته والسيطرة بعد ذلك على مسافة أكبر من الأرض الى الشمال الغربي ، واعتقدت ان العدو يمتلك قوات جديدة تقاتل هنا . إلا أنه لم تكن هناك أية امكانية لتأكيد ذلك الاعتقاد بمعرفة هويات الاسرى .

وكانت أوامرنا تستدعي الاستمرار في التقدم نحو الغرب ، بغض النظر عن الظروف ، وينطبق هذا ايضاً على فيلق البانزر ٥٨ . وبعد كل هذا ، فقد تبين انه ما زال ممكناً ، في حالة استغلالنا لتقدم فرقة البانزر الثانية مسافة أبعد نحو الجنوب ، تنسيق تقدم من قبل فيلق البانزر ٥٨ على طول الضفة الجنوبية لنهر الاورتي . لذلك صدر الأمر الى فرقة البانزر ١١٦ لقطع الاشتباك مع العدو في ٢٢ كانون الأول ، ثم التقدم على طول الضفة الجنوبية في اتجاه شمال غربي عن طريق لاروش . وكان من المؤمل أن تنجح فرقة البانزر ١١٦ في اليوم التالي بالتقدم من خلال لاروش، مارة بمارش ، ثم التقدم لمسافة ما نحو بيلونفيل ، وعلى نجاح هذا الهجوم أو فشله ـ كما اعتقدت آنذاك ـ يجب ان يبنى القرار التالي :

إذا أمكن الوصول الى الموز ، يمكن عندئذ استدارة كلا فيلقي البانزر شمالاً على طول ضفة الموز الشرقية وفقاً لخطة « الحل الصغير » ، وبذلك تتم نجدة الفيلق ٦٦ الكائن على الجناح الايمن لجيش البانزر الخامس ، ومن ثم يتسنى لجيش البانزر (إس . إس) السادس احراز بعض النجاح اخيراً .

في ٢٣ كانون الأول نجح مهندسو فرقة البانزر ١١٦ في اصلاح جسر لاروش ، الذي كان قد أصابه بعض التلف . وفي الوقت نفسه تقريباً ، أبلغت الفرقة عن احتكاكها بفرقة امريكية وصلت حديثاً ، وكانت تلك الفرقة هي فرقة المشاة ٨٤ . أمّا الهجوم الذي أُمر بشنه في ٢٤ كانون الأول في منطقة فاردن فقد رد على أعقابه ، كما حدث الشيء نفسه مع الهجمات التي شُنت من قبل الفرقتين اليمنى لهذا الفيلق في جوار لامورمينل . ونجح العدو في إغلاق جبهة الفيلق ٥٨ بكاملها ، وكذلك لم يكتف العدو بانتصاره الدفاعي هذا ، بل انه ابتدأ فوراً بالتحول الى الهجوم . وبالرغم من هذا فقد كان على فرقة البانزر ١١٦ أن تتابع هجماتها ، لأنه كان من الضروري تقديم بعض العون الى فرقة البانزر ٢ التي كانت بعيدة في الغرب . وأُرسل لواء حرس الفوهرر (الذي كان قد وضع بامرة هذا الفيلق) الى الامام لمساعدة فرقة البانزر ١١٦ ، المنهمكة الآن في قتال مرير في أطراف فاردن ، وذلك بالاستيلاء على الأرض المشرفة قرب هوتون . إلا أن هذا اللواء أُوقف وهو على وشك المباشرة بالهجوم فعلاً ، وأُمر بالاستدارة والتوجه الى باستوني على جناح السرعة .

التحول الى الدفاع : والصفحة الثانية في باستوني :

في ٢٤ كانون الأول نجحت احدى فرق البانزر في التقدم الى نقطة تبعد ثلاثة أميال فقط شرقي دينانت . ولكن اتضح في مساء ذلك اليوم اننا قد توصلنا الى نهاية المد في عمليتنا ، وأدركنا الآن اننا سوف لن نتمكن أبداً من الوصول الى هدفنا ، ويعزى ذلك بالدرجة الأولى الى الموقف السائد على أجنحتنا . ولم يكن التقدم قد توقف على كلا الجناحين بتوقف القطعات هناك بعد وقوعها تحت ضغط متزايد قادم من الشمال الغربي ومن الجنوب والجنوب الغربي فحسب ،

بل ان التبدل الذي طرأ على الاحوال الجوية كان من أكثر العوامل تأثيراً على سير العملية . واعتباراً من ٢٣ و٢٤ كانون الأول أصبحت قوة الحلفاء الجوية تعمل بمنتهى الحرية ، ووجدت طائراتهم اهدافاً دسمة في كافة انحاء منطقة هجومنا . وأصبحت طرقنا وسككنا الحديد الكائنة وراء الجبهة تحت رحمة وابل منهمر من قنابل طائرات العدو ، الأمر الذي أدى الى اختناق منظومة تموينا التي كانت في الاصل غير كافية . وانخفضت قابلية الحركة لقواتنا بسرعة واطزاد ، وجاء الصقيع ، وانخفضت درجة الحرارة ، وكسيت الطرق الجبلية القليلة بطبقة من الجليد ، وأصبح التنقل في ضوء النهار خلف جبهتنا ضرباً من المستحيل .

لقد كانت هذه هي نهاية محاولتنا للوصول الى نهر الموز ، وأصبحت العملية الرئيسية الآن ، فيما يتعلق بجيش البانزر الخامس ، هي معركة باستوني . وكانت هذه المعركة بمثابة الخاتمة لهجومنا الفاشل في الاردين ، وأصبحت بؤرة لقتال طويل مرير . . . لقد تم سحب الفرق الى هذه المعركة واحدة تلو الأخرى ، وكلما وصلت احداها الى منطقة باستوني كانت تزج في أتون المعركة على الفور . ولا يتسع المجال في هذا الفصل من الكتاب لوصف الاشتباكات التي وقعت في باستوني بأي نوع من التفصيل . ولكن لا بد من القول هنا انه بينما كانت بعض عناصر جيش البانزر الخامس لا تزال تحاول التقدم ، أصبحت باستوني بمثابة دوامة تبتلع القوات الالمانية ، ومن ضمنها القوات الهاجمة التي أريد الوصول بها الى الموز. وفي احدى المرات سحبت باستوني تسع فرق المانية ، مع قيادتي فيلقين ، الى داخل المعركة . واستدعت الضرورة كذلك نقل وحدات من جيش البانزر (إس . إس) السادس الى جيش البانزر الخامس . وبذلك أُحبطت جميع النوايا الهجومية للقيادة العامة. وهكذا كان الدفاع عن باستوني ، الذي اتخذ في ظروف يائسة ، ذا أثر حاسم في افساد خططنا الهجومية .

انه لمن الملفت للنظر حقاً إجراء مقارنة بين القوة الالمانية المتجمعة الآن في أطراف باستوني والقوات التي خصصت فيما مضى لجيش البانزر الخامس من أجل اندفاعه الى الموز . اذ ان الجهود الهائلة التي بذلت لصالح باستوني ـ وهي عملية لا يمكنها في الواقع ان تكون على صعيد واحد مع حركة الاندفاع نحو الموز ـ تجاوزت إلى حد بعيد الجهود التي كان جيش البانزر الخامس قادراً على بذلها في اندفاعه نحو الغرب.

لو أننا قمنا بهجوم موحد على باستوني لكانت هناك فرصة للنجاح حتى في ذلك الوقت ، بشرط أن يكون ممكناً جمع كافة التقويات في خلال بضعه ايام ، وارسالها جميعاً لتقوم بالعملية سوية. الا ان الحالة لم تكن كذلك، فقد عوقت الوحدات على الطرق، ولم تصل الا لقمة بعد اخرى، وبمستوى منخفض من القوة. الا ان القيادة العامة أصرت على التمسك بخططها وأمرت ـ بالرغم من التبدل الذي طرأ على الموقف ـ بشن هجمات غير منسقة واحدة تلو الاخرى . ولم تحقق أية هجمة منها نجاحاً ، ولم ترضخ القيادة العامة لقرار مجموعة الجيوش (ب) وجيش

البانزر الخامس الا عندما فشل الهجوم الذي قامت به فرقة البانزر (إس.إس) الاولى على التريبويس ، والذي استهدف اغلاق الطرق ابتداء من جنوب باستوني . أما القرار آنف الذكر فهو : انه لم يعد ثمة ما يمكن تحقيقه في هذا القطاع ، طالما ان القطعات أصبحت بالرغم من عزمها الثابت، على درجة من الضعف في الرجال والسلاح والذخيرة لا تسمح لها بالتصدي لقوات العدو التي تجابهها . بالاضافة الى ان الرياح القارسة والبرد كانت تسبب ايضاً صعوبات جمة لجنودنا، كما أن هناك صعوبات اخرى ناجمة عن المشاكل التي صاحبت مهمة امداد القطعات بمواد التموين .

عندها أبدى القادة الكبار رغبتهم الفورية الداعية الى توقف جميع عملياتنا الهجومية في الحال ، وسحب القطعات من الجيب العميق الذي اوجدناه. ولقد استندت هذه الرغبة على تقديرنا للموقف الذي تمخض عنه يوم ٢٩ كانون الاول . لقد كانت هنالك الآن قوات معادية بمقادير ضخمة الى الشمال والجنوب من الجيب، الامر الذي لم يترك لنا مجالاً للتعويل على ما في حوزتنا من الرجال والمعدات ، لمنع اختراق أجنحتنا باتجاه هوفالايز المهددة من اليمين والجنوب معاً . أضف الى ذلك ان سيادة العدو المطلقة في الجو كانت تعني ان قواتنا لا تستطيع العمل الا في ساعات الغروب أو قبل وأثناء طلوع الفجر، بينما لم يكن بوسعها أجراء المسيرات او أعمال الحفر او نقل مواد التموين . . . الخ الا في الظلام التام . الا انه بالرغم مما أصاب الموقف من ترد على كلا جانبي نهر الأورت وعلى الجناح الايمن للجيش السابع في منطقة فيلتز ، فان القيادة العامة لم ترضخ في ٣ كانون الثاني ١٩٤٥ ، الا على مضض ، وبعد ان شن العدو هجومه.

في ليلة ١٢ و١٣ كانون الثاني، ١٩٤٥ ، بدأ السوفييت هجومهم الكبير انطلاقاً من رأس الجسر في باروتوف ، وسرعان ما شعرنا بوقع ذلك الهجوم على الجبهة الغربية ، وجرى الآن نقل القطعات الى الجبهة الشرقية على جناح السرعة ، وهذا ما كنا نخشاه منذ امد طويل . فقد غادرنا جيش البانزر (إس . إس) السادس بقطعاته العسكرية ، وقائدا فيلقين، واربع فرق بانزر (إس . إس) ، ولواء حرس الفوهرر، ولواء الحرس الشعبي ، وفوق كل هذا غادرتنا مدفعية ذلك الجيش وأرتال تجسيره . وبامكان القارىء ان يتصور جيداً الأثر الكبير الذي تركه هذا الانسحاب الهائل للقطعات والتجهيزات على نقصنا المزمن والمحرج في الوقود . وحق علينا الآن ان ندفع ثمن تأخرنا في التراجع من ذلك الجيب الكبير ، الذي كان عرضة للضياع في آخر الأمر على كل حال.

لم تقدر حالة الانهاك التي حلت بقطعاتنا حق قدرها من قبل المقر العام ، واتضح ان درجة تعب القطعات فاقت حتى ما توقعناه نحن ، ولم تعد لها القدرة البدنية او العقلية لمجاراة جيش صلب العود ، حسن التجهيز والتغذية . ولم تكن التعويضات التي استملت في كانون الثاني كافية نوعاً او كماً . وكانت معظم تلك التقويات تتألف من رجال مسنين أو ذوي لياقة بدنية متدنية ولا يتمتعون بالتدريب الكافي. وفي هذه الآونة ، كانت الصناعة الحربية في المانيا تتمزق

تحت الثقل المتعاظم لغارات القاذفات الحليفة، وفقدنا المنطقة الصناعية في سيليزيا العليا في أواسط كانون الثاني، وابتدأنا نشعر بتأثير ذلك على الإمداد بالاسلحة والذخائر والتجهيزات باختلاف أنواعها. وبهذا فقد جنود الجبهة الغربية ايمانهم في النصر النهائي ، وهم يرقبون عن كثب قوة العدو المتنامية باطراد وهي تتحشد إزائهم . ومع هذا فقد تابعوا تأدية واجبهم . ولعل هذا التفاني حتى النهاية كان أبرز ظاهرة في خلال هذه الاشهر الاخيرة من الحرب.

الخاتمة :

خمسة أسابيع مضت والقطعات تقاتل بشجاعة واصرار يلفتان الانظار، سواء كان ذلك في الهجوم او في الدفاع ، دونما راحة ، ووسط صعاب جمة. فقد كان المقاتلون يؤمنون ان تضحياتهم ستمنح قادتنا السياسيين الوقت اللازم لانهاء الحرب، ودفعهم ذلك الايمان الى بذل جهود تفوق طاقة البشر العاديين .

لقد فشل هجومهم رغم كل تفانيهم ،وبدا ذلك الفشل امراً محتملاً بعد بضعة ايام من ابتدائه ، والسبب في ذلك يعود الى الاهداف التي عُينت . فلقد كان الهدف بعيداً جداً ، بينما كانت القوة الهاجمة غير ملائمة تماماً لبلوغه وهو على ذلك البعد . وكانت قوتنا يعوزها العمق الضروري في الرجال ام في المواد ، لاستثمار الاختراق بمجرد تحقيقه ، والاندفاع في العمق بسرعة وقوة . وفي الوقت نفسه لم تتوافر القطعات الكافية لتأمين جناحي الرتل الهاجم بدون اللجوء الى سحب القوات التي خصصت للاندفاع الى نهر الموز .

وكان الجيش السابع أضعف من أن ينجز مهامه الاولية التي لم تكن مجرد ستر الجناح الجنوبي لجيشي البانزر فحسب ، بل كان عليه ايضاً ارسال قوة هجومية الى داخل لكسمبورغ . وبنتيجة ذلك لم يتمكن من القيام بأي من الواجبين بصورة ناجحة . الا ان تقدماً ناجحاً من قبل الجيش السابع كان أمراً حيوياً لعمليات الجناح الايسر لجيش البانزر الخامس . ولقد نجم عن الافتقار العام للقوة فشل آخر وأعظم ، اذ لم تثبت أية نقطة في المجهود الاساسي بصورة أكيدة. ومما لا شك فيه ان التمسك الاعمى بالهدف الاصلي كان خطأ محضاً ، كما كانت هناك أخطاء بالنسبة الى تنظيم واستخدام قواتنا . ولم تعد القيادة العامة تتصف بالمرونة الضرورية لتكييف العمليات وتنسيقها بحيث تتماشى مع تطورات الموقف ، ذلك لأنها كانت بعيدة عن الاحتكاك بالظروف السائدة على الجبهة، وأظهرت عناداً متزايداً في غير محله باصرارها على أن تنفذ أوامرها حرفياً . ويقع الخطأ الأهم على عاتق هتلر . فعندما تبين ان الفرق التي خصصت مبدئياً لهجوم الأردين عام ١٩٤٤ لن تتوافر جميعها فعلاً، كان عليه أن يستبدل الخطة لتتناسب مع القوات التي في حوزتنا . وعندما أصبح جلياً انه لم تعد هناك أية امكانية لمتابعة الهجوم ، كان عليه أن يأمر سريعاً وفي وقت مبكر بالتحول الى الدفاع ، والانسحاب الى المواضع التي كنا نشغلها في السابق . وأخيراً فانني اعتقد ان اندحارنا يعزى الى ثلاثة عوامل أساسية:

١ ـ كان رد فعل العدو على الهجوم الذي بدأ في ١٦ كانون الاول أسرع من توقعات مقر قيادتنا الاعلى.

٢ ـ كانت تدابير العدو المعاكسة منسقة كجزء من خطة واحدة .

٣ ـ عندما تحسنت الأحوال الجوية ، تمتع العدو بالسيادة الجوية المطلقة التي كانت له في نورماندي .

ويمكنني الآن القول ان الهجوم المعاكس للعدو قد ابتدأ بأسرع مما ينبغي ، وانه لو أخر ذلك الهجوم المعاكس لكانت امامه فرصة لتحطيم كافة قواتنا المهاجمة في الاردين. وبمعنى آخر : إن الانتصار الفعلي للعدو لم يكن الا انتصاراً اعتيادياً»، تم بانسحاب الجيش الالماني المندحر، رغم خسائره الجسيمة ، الى الخط الذي ابتدأ منه تقدمه . وفي هذه الاثناء كان الحلفاء قد اضطروا الى ايقاف هجماتهم على طول الجبهة الغربية كلها . وكان عليهم ان يعيدوا غزو المنطقة التي سبق أن حاربوا في سبيلها من قبل.

لقد أعطيت المانيا فرصة لاستعادة أنفاسها اللاهثة، وتوافر الدعم المعنوي للجبهة الوطنية التي كانت تعاني تحت وابل من قنابل الحلفاء . الا ان الثمن كان من الفداحة بحيث ان الهجوم فشل في الحصول على أية فائدة . وتكبدت الاحتياطات الالمانية الاخيرة خسائر جسيمة جداً ، لدرجة جعلتها غير قادرة على التأثير في موقف الجبهتين الشرقية والغربية.

لقد أحبط التقدم السريع الذي حققه الجيش الاحمر جميع النتائج الممكنة لهجوم الاردين ، وقرّب بذلك نهاية الحرب وجعلها امراً محتماً . ولذلك أصبح الوقت المكتسب في الجبهة الغربية ضرباً من الوهم .

لعل فشل الهجوم قد أثر على معنويات الجنود والمدنيين على حد سواء . وانعكس ذلك التأثير على تصرفاتهم ، وربما ساهم ذلك في الاسراع بانهاء الحرب. وعلى كل حال، وبالرغم من النتيجة ، فانه لا مجال لنكران ان القطعات الالمانية وقادتها على حد سواء قد قدموا كل ما في وسعهم في هذه المحاولة الاخيرة لتقرير مصير المانيا . وقاتلت الفرق الهاجمة بكل روعة، رغم تدني قوتها العددية ونقص معداتها. ومن ينكر هذه الحقيقة، انما ينكر المغزى الحقيقي لانتصار الاميركيين الذين واجهوا تلك القوات.

النهاية

بقلم - ويستفال

بينما كانت القطعات المتعبة لمجموعة الجيوش (ب) في الآردين تدفع قسراً تحت جحيم متواصل من القنابل الامريكية الى مواضعها القديمة في الجدار الغربي ، الذي ابتدأت منه هجومها ، استلم هتلر ، وهو في مقره المتقدم قرب بادنوهايم .(عش النسر) أخباراً جعلته يسرع بالعودة الى برلين . ولم تكن تلك الاخبار الا تقريراً عن هجوم سوفييتي كبير آخر ، كان قد ابتدأ من رأس الجسر الذي كان السوفييت قد استولوا عليه عبر الفستولا في بارونوف . وما احداث الاشهر الثلاثة الاخيرة الا مظهر من مظاهر احتضار المانيا النهائي وانتهاء الحرب.

لقد تسارعت النهاية في وقوعها بسبب ما سبق من اضعاف للجبهة الشرقية لصالح الهجوم في الآردين ، وبسبب الهبوط العام في انتاج الذخيرة الحربية . ولم تكن الاخبار بالنسبة الى الشعب الالماني ، الذي كانت الملايين منه تلوذ بالفرار امام الجيش الاحمر وتهيم على وجوهها على طول الطرق الجليدية لاوربا الوسطى ، الا سلسلة متصلة من الكوارث : لقد احتل السوفييت سيليزيا، وبروسيا الشرقية والغربية، وبوميرانيا، وبراندنبرغ مهد امبراطورية آل هوهنزولرن القديمة . أما حوض الرور فقد تم تطويقه، ودخل البريطانيون الى هامبورغ وكييل، ودخل الامريكيون فرانكفورت ، في مين ، وشتوتغارت ، وميونيخ . وفي تشيكوسلوفاكيا تعرض الالمان لمجزرة رهيبة. وضاعت سكسونيا وتورنغيا ، والتقت طلائع السوفييت مع الامريكيين قرب ماغدبورغ الواقعة على نهر الإلب. واستولى الجيش الاحمر على برلين . وأخيراً استسلمت القوات المسلحة الالمانية الى قادة الاعداء المنتصرين. . .

وفي خلال هذه الاشهر القليلة ، تكبد الشعب الالماني خسائر عظيمة وعانى من أهوال الجوع والفاقة بصورة مروعة جعلته لا يأبه بمصير هتلر الذي تواردت الانباء عن نجاته من قضاته

عبر اللجوء الى الانتحار. فقد كان الناس آنذاك قد جردهم اليأس من أي اهتمام بالاحداث ، ونال منهم التعب ، فاصبحوا لا يرغبون الا في الوصول اخيراً الى النهاية والخلاص . ومع هذا كان على العديد من الالمان ان يقاسوا من محنة اخرى . وهي اكتشافهم المؤلم ان جميع التضحيات الكبرى، وكل التفاني المطبوع بنكران الذات ، كانت عبثاً وبدون جدوى . وان الملايين من الرجال الشجعان قد جازفوا وضحوا بأرواحهم عن طيب خاطر ، في سبيل هدف لم يكتشفوا بطلانه إلا الآن . وانبعث من هذا المصير المحتوم تساؤ ل آخر : لماذا انتهت الحرب بهذه الصورة ؟ هل كان علينا ان نخسر الحرب ، بالرغم من جميع انتصاراتنا العظمى في الايام الأولى ، ورغم اننا كنا لفترة خلت سادة اوروبا كلها تقريباً ؟

اليوم يعرف العقلاء من الالمان الجواب الشافي لتلك الاسئلة . . . فبالنظر للانفعال والكراهية اللذين خلفتهما حكومة هتلر في الخارج، لم يكن بامكان الالمان ان يأملوا بالتمادي في تحدي العالم بقوة السلاح ، لسبب واحد هو ان العالم كبير جداً ، وان الأمل في انتصار الماني ، رغم هذا التباين الهائل في الرجال والمواد الخام والطاقات الصناعية على حد سواء كان امراً يتعذر تحقيقه، منذ اللحظة التي اصبحت فيها حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٠ المحلية نسبياً، صراعا عالمياً أثيرت فيه الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتي ضدنا . لقد كان العديد من الالمان يدركون هذه الحقيقة ، وقد رغب كثير من العسكريين الالمان في شن حرب صغيرة ، صغر الحرب التي أرادها الالمان المدنيون . حتى ان بعضهم تكهن بما ستكون العاقبة . ولم يسهل هذا التكهن عليهم اداء واجبهم ، ومع ذلك ، ولأنهم جنود، لم يكن امامهم من سبيل سوى القيام بواجبهم كاملاً غير منقوص . وبعد بيان كازابلانكا[1] ، الذي أعلن فيه ان الاستسلام غير المشروط من جانب المانيا هو الشيء الوحيد الذي ترضي به حكومات الحلفاء ، لم ير ، حتى اولئك الذين كانوا على اطلاع تام بالموقف الحقيقي ، بديلاً عن الاستمرار في القتال حتى النهاية المرة.
وكان رد الفعل قوياً لدى القليل من الاشخاص ، لدرجة انهم اعتبروا العصيان العلني امراً مسلماً به . ومن الناحية الاخرى ، فقد كان في المانيا نفر قليل متناقض لا يستطيع ان يتعلم كيف يواجه الحقيقة . وكان يحلو لهؤلاء ان يبعثوا من جديد القصة الخرافية لعام ١٩١٨ المسماة « طعنة من الخلف » ،وراحوا يعزون اندحارنا الى الخيانة ولا يزالون ممسكين بهذه الحجة حتى الآن ،ولكن هل يوجد في العالم مكان يخلو من الحمقى الذين لا يستطيعون رؤ ية اكثر الحقائق وضوحاً، والذين لا يتعلمون أي شيء من تجاربهم ؟

يتضح من وجهة النظر هذه، ان« القرارات المهلكة » التي شرحت في هذا الكتاب من قبل رجال يعرفون ماذا يكتبون ، لم تكن مهلكة حقاً ، أي ان تلك القرارات لم تقلب انتصاراً المانيا اكيداً الى اندحار محقق . أما من زاوية موازين القوى فإن نتائج مختلف تلك العمليات كانت

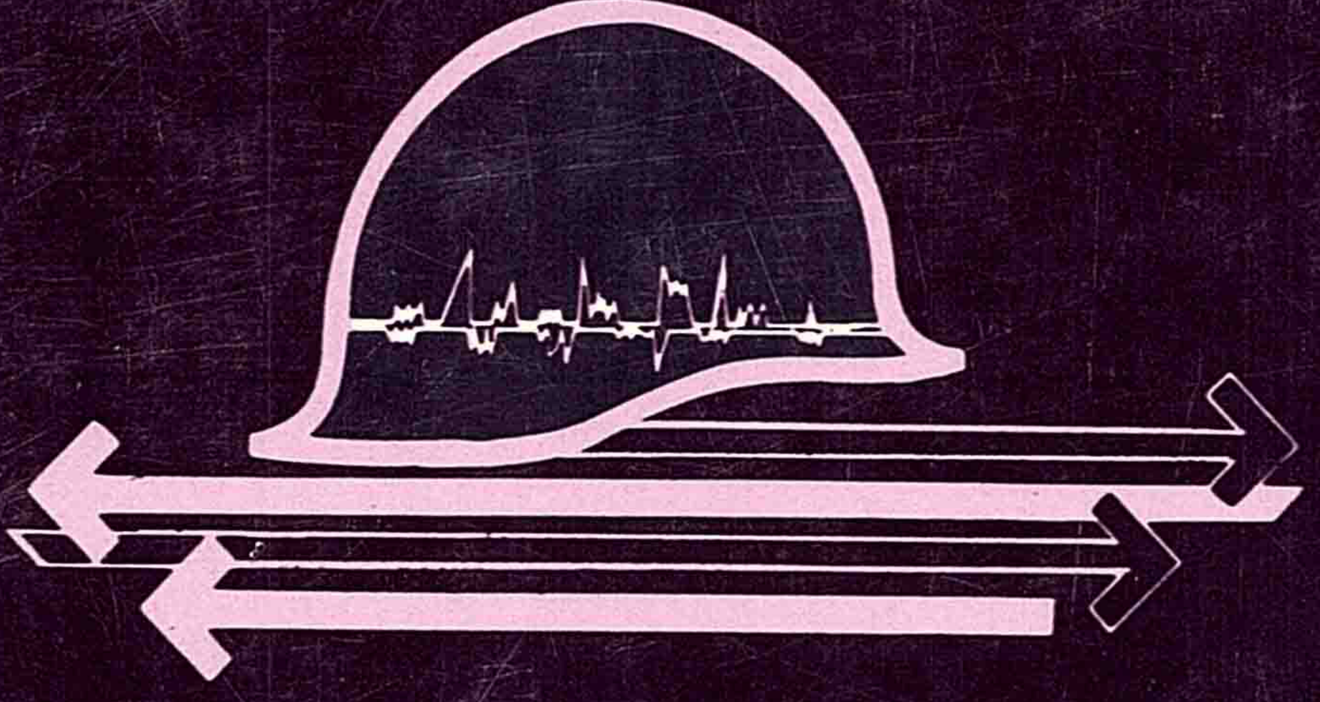
---

(١) الدار البيضاء في المغرب .

محتومة على أي حال . والسبب الأول هو التقدير الخاطىء لقابلياتنا في وقت اتخاذ القرارات . فلم يكن من المحتمل مثلاً ان تضطر بريطانيا العظمى الى الركوع ، حتى لو ربح الطيران الالماني معركة بريطانيا . كما كان من الصعب ان يؤدي سقوط ستالينغراد في أيدينا او انسحاب الجيش السادس بصورة مؤقتة ، الى انهيار سريع للمقاومة السوفييتية . اما الاندحار في العلمين في تشرين الأول والثاني عام ١٩٤٢ فكان امراً محتوماً بسبب النقص في تموين رومل . وأخيراً فإن الحصول على نصر في الآردين ، في اللحظة التي اوشك ان يسدل فيها الستار ، لم يكن ليقدم الى هتلر أي شيء سوى البقاء زمناً اطول بقليل على الأرض . وحتى لو فشل انزال الحلفاء في نورماندي ، وهو أمر قلما امكن تصوره ، نظراً لسيادة العدو الكاملة في البحر والجو ، فمن المستبعد ان يمتنع البريطانيون والاميركيون عن شن غزو آخر بسبب ذلك الفشل .

ان القرار المهلك الاساسي والحقيقي ، هو ذلك الذي استند على فرضية هتلر الخاطئة ، والتي بنيت على أساس ان القوى الغربية ستسمح له بتدمير بولونيا دون أن تتدخل الى جانب حليفتها . وما ان اتخذ القرار الخاص بغزو بولونيا حتى تقرر مصيرنا .

الفهرس



القرارات المهلكة

هذا كتاب ليس كسائر الكتب الحربية التاريخية، لأن المؤلف هنا ليس واحداً أو اثنين من كتّاب التاريخ، بل هم سبعة مؤلفين من رتبة جنرال كانوا كلهم في الخدمة العسكرية العملية الألمانية إبان الحرب العالمية الثانية، حتى قيل في هذا الكتاب إنه ليس هناك كتاب عسكري آخر يضاهيه في محتوياته ومعالجة مواضيعه. إن مضمون هذا الكتاب نقد موثوق للفشل الذي أحاق بأجرأ عمل عدواني عرفه التاريخ.

إن هؤلاء العسكريين السبعة الذي ألفوا كتاب «القرارات المهلكة» وضعوا كل معلوماتهم وخبراتهم في ما كتبوه، وان الشيء القيّم في أي كتاب يعتمد بالدرجة الأولى على ما يبحث عنه المرء، وأن الطبيعة الغريبة للعلاقات البشرية ضمن صرح القيادة النازية، والتي يكشف عنها هذا الكتاب بوضوح لأول مرة، هي أشد وقعاً وأبعد سحراً من التحليل خطوة خطوة لتلك القرارات المهلكة التي أدت إلى القضاء على الهتلرية، حيث النهاية المُرّة كانت أمراً محتوماً لا محيد عنه.

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون. ساقية الجنزير. ت ١/٨٠٧٩٠٠

برقيا موكيالي بيروت. ص. ب. ٥٤٦٠-١١ بيروت

الثمن ٢٤ ل. ل.